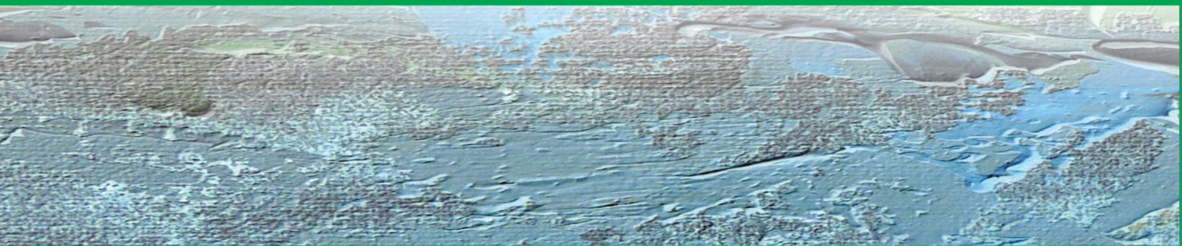
البلاغة والنقد الأدبي

مجلة فصلية علمية مُحكّمة

ملف العدد :

الأدب والدرس اللغوي / اللساني



العدد الثالث

ربيع / صيف

2015

البلاغة والنقد الأدبي
مجلة فصلية علمية محكمة

البلاغة والنقد الأدبي

مجلة فصلية علمية محكمة

طبع هذا العدد بدعم من وزارة الثقافة

البلاغة والنقد الأدبي - مجلة فصلية علمية محكمة

عنوان المراسلة: صندوق البريد رقم 89. البريد المركزي. الرباط المدينة. المغرب.

البريد الإلكتروني: elbalaghawaennaqedeladabi14@gmail.com

أو adnanimohammed@gmail.com

الهاتف: 35 12 65 65 06 أو 44 67 35 37 05

الملف الصحافي: 6/014

رقم الإيداع القانوني: 2014PE0036

ردمد: 2351-8790

الغلاف من تصميم الفنان: محمد السالمي

الطباعة: دار الأمنية - الرباط

التوزيع: سبريس

المحتويات

قواعد النشر في المجلة

تنشر مجلة «البلاغة والنقد الأدبي» الدراسات والمقالات الأصلية والمترجمة من أي لغة أخرى في مجال اختصاصها، المراعية لأدبيات البحث العلمي.

وتيسيرا لعمل هيئة التحرير، والهيئة العلمية للمجلة، ولإعطاء المساهمة حظا أوفر في النشر، يرجى الالتزام بالأدبيات الآتية:

- ترسل المساهمات على البريد الإلكتروني للمجلة elbalaghawaennaqedeladabi14@gmail.com، مكتوبة بالوورد، بحجم 14، وبخط Simplified Arabic في المتن.
- توضع الإحالات في أسفل كل صفحة، مع الاقتصار على اسم المؤلِّف، والمؤلَّف، والصفحة فقط. وتُثبت المصادر والمراجع والدوريات باللغة العربية أو الأجنبية في آخر المساهمة (اسم المؤلِّف، اسم المؤلَّف، دار النشر، سنة النشر، ورقم الطبعة). وإذا كان مقالا من مجلة، يوضَع بين مزدوجتين، ويُذكر العدد أو المجلد والسنة. ويُراعى في إعداد كل ذلك الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.
- يُؤْمَل ألا يتجاوز عدد الكلمات 5000 كلمة.
- يُرفَق النص المترجَم من أي لغة بالنسخة الأصلية له، مع ضرورة التوثيق.
- يُبَلَّغُ أصحاب المساهمات بتسلم مساهماتهم العلمية فور التوصل بها، وتحال على هيئة التحرير، والهيئة العلمية للمجلة للبث فيها على نحو سري. ويُبلغ أصحاب المساهمات المجازة بذلك.
- تَطلب هيئة التحرير، في إطار التعاون العلمي، إجراء التعديلات الضرورية عند الاقتضاء. اختزالا أو توسيعا أو تصويبا.
- لا تعاد المساهمات لأصحابه، سواء تلك المقبولة للنشر أو التي لم تُقبل.

كلمة العدد

تستأنف مجلة «البلاغة والنقد الأدبي» مسيرتها بإخراج العدد الثالث، مستحضرة الوعود التي قطعتها على نفسها أمام قرائها، ومحاولة الالتزام بهذه الوعود قدر المستطاع. ومن تجليات هذا الالتزام أنها حافظت على كل الأبواب التي عرفها القارئ الكريم. لذلك سيجد في باب «دراسات وأبحاث» مجموعة من المساهمات التي سهرت لجنة علمية متخصصة على انتقائها بناء على معايير مضبوطة. وقد شملت مقالات ودرسات وأبحاثا متنوعة كتبها مجموعة من الباحثين المتميزين من المغاربة والعرب؛ منها ما يتصل بالنقد الأدبي والبلاغة وبعض المفاهيم والقضايا المحيطة بها، لاسيما المستجدة منها، ومنها ما يمتد إلى النظر في أعمال سردية حديثة، ومنها ما يجعل من الخطاب القرآني موضوعا للدراسة والبحث...

وكعادة المجلة، أَفْرَدتْ ملفا خاصا تحت عنوان: «الأدب والدرس اللغوي/ اللساني»، ساهم فيه نخبة من المتخصصين في البحث اللغوي/ اللساني، الذين امتدت دراساتهم وأبحاثهم إلى مقاربة إشكالات وقضايا لغوية صِرْف، أو في علاقتها بالأدب؛ منها ما تتبع إرهاصات التفكير اللغوي عند القدماء، ومنها ما أَخلَصَ الحديث للدرس اللساني الحديث وفق مرجعيته المعرفية وخلفيته الفكرية. في حين تناولت بعض الدراسات العلاقة المباشرة بين الأدب واللسانيات باعتبارهما مبحثين معرفييْن متجاورين ومتداخلين باستمرار.

ولأن المناسبة شرط كما يقال، فقد حرَصت هيئة التحرير على أن يكون الحوار منسجما مع ملف العدد. ولذلك خَاطبتْ أحد أعلام الدرس اللغوي المغربي والعربي؛ فاستجاب مشكورا، ليثمر حوارنا معه حديثا علميا عن مسار الدرس اللغوي/ اللساني في الجامعة المغربية (النشأة، والتطور، والأعلام، والمدارس...)، وحديثا عن طبيعة العلاقة بين هذا الدرس والدرس الأدبي بمختلف تجلياته.

وبشرطِ المناسبة أيضا، جاء ركن «قضايا نقدية وبلاغية» مخلصا لملف العدد؛ إذ خصصناه لبحثٍ متميز قارَبَ النفي الضمني والقوة الإنجازية في اللغة العربية مقاربة لسانية وظيفية.

أما ركن الترجمة، فقد ضم ترجمة لأحد مقالات الأكاديمي الروسي المعاصر «سيرج زينكين»، تحدث فيه عن آلية تطور الأنواع الأدبية ضمن جدلية النوع والتاريخ.

إن هيئة التحرير، إذ تبذل كل ما في وُسْعها لتقدم للقارئ الكريم أفضل ما تمتد إليه يدها، لَحريصةٌ على أن تستمر في نهجها، مُكَرِّسةَ مبادئ العلمية في انتقاء مواد مجلتها، نَاظِرةَ بعين الإجلال إلى أعلام البحث العلمي المغربي والعربي، الذين يدعمونها بمساهمات قيمة، وبعين الرضا والأمل إلى باحثين شباب لهم كلّ المستقبل على صفحات المجلة. فللكلّ نُجْزِلُ الشكر، ونرجو قراءة ممتعة ومفيدة.

دراسات وأبحاث

نحوَ نقدٍ نفسيٍّ جديد:
الناقد المعاصر بيير بيار نموذجا

حسن المودن[1]

1 – شهد الربع الأخير من القرن الماضي وسنوات الألفية الجديدة إثراءً جديدًا واستثنائيا للنقد النفسي، وذلك من خلال استكشاف حقولٍ جديدة للدرس والنقد (من أهمّها: التكوين النصّي وما قبل النص، التحليل النصي ولاوعي النص، تطبيق الأدب على التحليل النفسي)، وصدور مؤلفاتٍ نقديةٍ، نظرية وتطبيقية، بأسئلةٍ وإشكالاتٍ تتجاوز تلك التي حكمت مؤلفات النقد النفسي التقليديّ، وبتصورات ومقاربات لا يمكن إلا أن يكون لها تأثير على مستقبل النقد الأدبي بصفة عامة.

ومن أبرز الأسماء في النقد النفسي الجديد، يمكن أن نذكر: جان بيلمان نويل، وأندري غرين، وجان بيم، وبيرنار بانغو، وبول لوران أسون، وفيليب ويلمارت، لكن الأكثرهم انتظارًا اليوم من قبل النقاد والقراء هو بيير بيار Pierre Bayard الذي يكاد يخلق «الحدث «الأدبي والثقافي في كل مرة يَصدر له كتاب.

الناقد الفرنسي بيير بيار، المحلّل النفسي وأستاذ الأدب بجامعة باريس، من مواليد 1954، ألّف العديد من الدراسات النظرية والتطبيقية، فمن (1978)إلى (2014) يكون قد أصدر عشرين كتابا تقريبا؛ واللافت للنظر في مجمل أعماله أنها توظّف السخرية والمفارقة لصالح تحليلٍ أدبيٍّ متجدّدٍ؛ ففي كلّ عملٍ، يأتي المؤلِّف بشيءٍ مثير وغير منتظر، يفاجئ القارئ باكتشافاته ومراجعاته، بتحقيقاته وتعديلاته، بتنقيحاته ومساءلاته للأحكام والمسلمات.

وإذا كان بيير بيار مختصّا بالذات في التحليل النفسي للأدب، فإن هذا هو ما يفسّر لماذا يجمع أسلوبه بين الجدّ واللعب، وكيف يقلب العبارات لا من أجل بناء منهج جديد يدعي الكمال ويطمح إلى الهيمنة، بل من أجل فتح آفاق جديدة للتفكير في الأدب بسخرية لاذعة لا تؤمن كثيرًا بالأسس الصلبة التي يقوم عليها النقد أو النظرية.

وفي إطار هذا الأسلوب الجديد في التحليل والتفكير، تندرج العديد من مؤلفاته التي سنحاول أن نقدم عن بعضها ورقة وجيزة، حتى يأخذ القارئ فكرة عن التحولات التي يعرفها النقد النفسي خاصة والنقد الأدبي عامة، على الأقل في الآداب الفرنسية.

---

1 – أستاذ باحث في الأدب/ المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين/ مراكش.

2 – أصدر بيير بيار سنة (2004) كتابًا تحت عنوان: «هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟»[1]، ويقترح فيه، وبغير قليل من السخرية، نظرية جديدة: تطبيق الأدب على التحليل النفسي. فإذا كان المألوف هو تطبيق التحليل النفسي على الأدب، فإن بيير بيار يدعونا إلى قلب الأدوار، وذلك بأن نجرّب تطبيق الأدب على التحليل النفسي؛ وهناك العديد من الأسباب التي تدعوه إلى مراجعة العلاقة بين الاثنين، ومن أهمها أن النقد الأدبي الذي يطبّق التحليل النفسي على الأدب قد أصابه الإفلاس، ويعود السبب في ذلك إلى أن تطبيق التحليل النفسي على الأدب يؤكد النظرية التي تمّ الانطلاق منها، ولا يضيء العمل الأدبي. وبالعكس، إذا تم الاعتماد على منهج يقلب الأشياء، يكون بإمكان الأدب أن يقول أشياء عديدة للتحليل النفسي.

وفي الاتجاه نفسه، فسّر بيير بيار كيف أن المعرفة الإنسانية حول الجهاز النفسي لم تكن مسارًا بطيئا عرف انطلاقته القوية في القرن التاسع عشر، وخاصة في أواخره مع سيغموند فرويد، كما يعتقد البعض؛ وقد حان الوقت في نظره لإعادة قراءة ما «قبل «التحليل النفسي، وفي هذا الإطار أصدر كتابا مهما سنة 1994 عنوانه: موباسان، بالضبط قبل فرويد[2]، يقرأ فيه المؤلِّف سيغموند فرويد بمساعدة كاتب سابق: موباسان. كما نجده يعمل على فحص بعض المعاصرين لفرويد وهم لافرويديون من مثل بيسواً وبروست، وينتقل إلى كُتّاب ما «بعد «فرويد من مثل أندري بروتون وبول فاليري وسارتر وأجاتا كريستي... إلخ.

واللافت هنا أن الناقد النفسي، بهذا الأسلوب الجديد، يقوم باكتشاف الإمكانات النظرية التي يمكن أن توجد في فعل الكتابة نفسه، ويعلّمنا كيف نعيد بلذّة جديدة اكتشاف هوميروس وسوفوكل وشكسبير وموباسان وهنري جيمس... وغايته من كلّ ذلك أن يوضح أن الأدب، بمنطقه الخاص، لا يكفّ عن الخلق والإبداع، ويقدم «نظريات أخرى «قابلة للاكتشاف، ويمكنها أن تكون أكثر تقدّمًا مما يقدمه التحليل النفسي.

وهو في هذا السياق يسجّل، بسخرية لاذعة، أن التحليل النفسي قد هيمن على أشكال المعرفة التي تهتم بالجهاز النفسي، وقام بابتلاع الأدب بشكلٍ من الأشكال، وجلس على عرش كل المعارف الممكنة حول الجهاز النفسي، مشبّهًا نظامَ تفكيره، كما يمارَس اليوم، بأنظمة المعلوميات، فالتحليل النفسي هو: System Windows الذي من دونه لا يمكن الدخول إلى الجهاز النفسي، والفرويدية قد احتلت، في مقاربة الجهاز النفسي، مكان مايكروسوفت للحواسيب الفردية.

وبالنسبة إلى بيير بيار، إذا أردنا الاستمرار في إنتاج الفكر حول الذات أو حول العلاقات بين الكائنات الإنسانية، فإن سؤالا أساسا يفرض نفسه: كيف الخروج من هذا النظام في التفكير: نظام تفكير التحليل النفسي؟

ويذهب بالسؤال بعيدًا، فيتساءل: كيف الخروج من التحليل النفسي ليس بالرجوع إلى الوراء، بل بالتوجه نحو المستقبل؟ والجواب الذي يقترحه هو : الأدب: بمعنى أنه يقترح تطبيق الأدب، على الأقل في

1 - Pierre Bayard, Peut-on appliquer la littérature à la psychanalyse, éd Minuit, 2004, Paris.

2 - Pierre Bayard, Maupassant, Juste avant Freud, éd Minuit, 1994, Paris.

أعماله الكبرى، في دراسة الجهاز النفسي؛ فالأدب، في نظره، ينتج، بطريقته الخاصة، مفهومات، وإذا عدنا إلى أعمال باسكال وسرفانتس وفلوبير وبروست وفاليري وبروتون وناتالي ساروت وموباسان وبورخيس وزولا وغيرهم سنجد مفهومات أخرى من أجل قراءة الجهاز النفسي.

ويعطي بيار أمثلة مهمّة عن المفهومات التي يمكن استخراجها من الأعمال الأدبية، ويؤكد على أن قوة النماذج الأدبية تعود إلى ضوئها الهارب، واستبدالها المفهومات بالكلمات، وعدم دقتها النظرية، وهي في الواقع لا تحتوي إلا على ممكنات أو مقاطع نظرية تستلزم مشاركة قرّاء قادرين على إبراز هذه العملية الأولية التي تسبق عملية التنظير، والتي انطلاقا منها يفكر الأدب ويدفع الآخرين إلى التفكير. وبمعنى آخر، من أجل أن نجعل من النماذج الأدبية نسقا منافسا للنموذج الفرويدي، لابد من تحويل الكلمات إلى مفهومات، وهو ما يعني استيلاد التحليل النفسي من الأعمال الأدبية نفسها.

3 – من الكتب اللافتة التي أصدرها بيير بيار تلك التي كرّسها للروايات والمحكيات البوليسية، ويتعلق الأمر بثلاثة كتب: من قتل روجير أكرويد؟(1998)، تحقيق في قضية هاملت، أو حوار الصمّ(2002)، قضية كلب آل باسكرفيل(2008)[1]. ونشير بسرعة إلى أهمية هذه الكتب، وذلك بطرح سؤالين يبدوان ضروريين في هذا المقام: لماذا يهتمّ المحلل النفسي بالرواية البوليسية؟ لماذا يخصّ بالتحليل أعمالا أدبية(وخاصة رواية أجاثا كريستي: مقتل روجير أكرويد، ومسرحية شكسبير: هاملت) أسالت الكثير من المداد، ودرسها الكبار من النقّاد؟

يتأمل بيير بيار تاريخ العلاقة بين التحليل النفسي والمحكي البوليسي، لافتًا النظر إلى التأثير الباطني الذي مارسه الثاني على الأول، مشيرًا إلى ثلاثة أعمال أدبية أثّرت كثيرًا في نظرية التحليل النفسي: الملك أوديب، هاملت، الرسالة المسروقة، وهي في نظره أعمال أدبية «بوليسية »، جعلت التحليلَ النفسي يتأسس على أساس فكرتين جوهريتين: الأولى تفيد أن إنتاجَ المعنى يعني أن تفكّ لغزًا، والثانية أنَّ هناك حقيقة موجودة في مكانٍ ما وأن بحثًا أو تحقيقًا ما يمكنه إبرازها. ومن هنا، فوظيفة المحلّل النفسي هي أن يفكّ لغزًا وأن يبحث عن الحقيقة. وبمعنى آخر، لم يعد دور المحلّل هو دراسة العمل الأدبي أو كاتبه، بل إنه لن يكون محللا حقيقيا إلا إذا أدى دور الباحث المحقّق، منافسًا بذلك أكبر المحقّقين في الأدب البوليسي.

وهكذا، ففي هذه الدراسات الثلاث، ينطلق بيير بيار من أسئلة أساس: ماذا لو كانت هناك حقيقة أخرى داخل العمل الأدبي «البوليسي «غير التي اقتنع بها القرّاء والنقاد لزمن قد يصل إلى قرون، كما في حالة هاملت لشكسبير؟ ماذا لو كانت الرواية البوليسية هي الأخرى مسرحًا للأخطاء القضائية والتحقيقات الخاطئة؟ ألم يسبق لفولتير أن قام بهذا النوع من التحقيق معبّرًا عن تحفّظاته من المسؤولية الجنائية للملك أوديب؟ ماذا لو كان المحقّقون في الروايات البوليسية مخطئين في استدلالاتهم ومنطقهم وخلاصاتهم، كما هو الشأن بالنسبة إلى المحقق هرقل بوارو في رواية: مقتل روجير أكرويد، أو كما هو الأمر بالنسبة إلى المحقق شرلوك هولمز في: قضية كلب باسكيرفيل؟

---

1 - Pierre Bayard, Qui a tué Roger Ackroyd?, éd. Minuit, 1998, Paris.
Enquête sur Hamlet, Le dialogue des sourds, éd. Minuit, 2002, Paris.
L'Affaire du chien des Baskerville, éd. Minuit, 2008, Paris.

وهذه الأسئلة هي التي دفعت بيير بيار إلى وضع منطلقاتٍ جديدة للنقد النفسي للرواية البوليسية، من أهمها أن مهمّة المحلّل هي أن يقوم بتحقيق مضادّ، فالمجرمون، في الأدب كما في الحياة، قادرون على الإفلات من تحقيقات المحقّقين، والشخصياتُ الأدبية ليست شخصيات ورقية، بل هي شخصيات حيّة يمكنها أن ترتكب جرائم من دون علم الكاتب المؤلّف، ولكن هناك دائما فرصة لإعادة التحقيقات من جديد، وكشف النقاب عن الحقيقة.

وهكذا، ففي كتابه: تحقيق في قضية هاملت، أو حوار الصّمّ يطرح بيير بيار السؤال من جديد: من قتل والد الأمير هاملت؟ وهل كلوديوس هو القاتل فعلا كما اعتقد القرّاء لقرون؟ ويخلص بيار في كتابه هذا إلى اتهام هاملت نفسه بقتل أبيه، استنادًا إلى حجج ومنطق في التحليل يدفعان فعلا إلى إعادة النظر في القضية. وفي كتابه: قضية كلب آل باسكيرفيل، يفترض بيار أن المحقق شرلوك هولمز قد أخطأ في تحقيقه المشهور باتهام حيوان بئيس وترك القاتل الحقيقي ينفلت من يد العدالة. وإجمالا، فبغير قليل من السخرية، واقتناعًا بأن الكُتّاب لا يعلمون كلّ شيء عن أعمالهم، يلاحظ بيير بيار كيف أن بعض الكُتّاب قد يخطئون بخصوص مرتكبي الجرائم في أعمالهم، وهم بذلك يتركون المجرمين أحرارًا!

ولا تعود أهمية هذه الدراسات إلى كونها تكشف الاسم الحقيقي للقاتل، بل إن قيمتها تتعلق بخاصيتين اثنتين: الأولى أنها دراسات تقترح علينا التفكير من جديد في عمل المؤوِّل أو القارئ وطريقة اشتغاله، والثانية أن بيير بيار نجح في تأسيس نوع جديد من النقد الأدبي «البوليسي»، أو الأصح أنه استطاع أن يؤسس نوعًا أدبيا جديدًا يقوم على ثلاثة عناصر: رواية بوليسية، كتاب حول القراءة، تفكير في التأويل. وهو نوع أدبي يمكن أن نسميه: المحكي البوليسي النظري. ذلك لأن بيير بيار في كل دراسة من هذه الدراسات الثلاث نجده يقدم رواية بوليسية داخل الرواية البوليسية، وقاتلا وراءه قاتل آخر، وتحقيقا وراءه تحقيق آخر. وبهذا العمل، فإن الناقد يتحول إلى كاتب مبدع، مكسرًا الحدود بين النقد والإبداع، بين التخييل والتنظير. وفي كلمة واحدة: مع بيير بيار، لم يعد النّاقد مبدعًا فاشلا..

وهذا المنهج الجديد في النقد «البوليسي»، كان قد بدأه بيير بيار في كتابه الأول من نوعه: من قتل روجير أكرويد؟[1]، وعنوان الكتاب دالّ على أن بيار يعود بالتحقيق إلى نقطة الصفر، فالقاتل الذي عيّنه المحقّق هركيول بوارو في الرواية ليس هو القاتل الحقيقي، ومن هنا لابد من العودة إلى نقطة البداية: من قتل روجير أكرويد؟، أي لابدّ من محقق آخر(هو بيير بيار نفسه) يعيد النظر في ملف روجيه أكرويد، وينطلق بحثًا عن المجرم الذي لم ينله العقاب، كأنما على كلّ قارئ، بعد قراءة رواية بوليسية، أن يمدّ العدالة بكافة المعلومات التي يكون قد حصل عليها، ولم ينتبه إليها المحقق الأول أو كان قد أخفاها لغرض من الأغراض.

ولأن الأمر يتعلق بتحقيق مضاد، فإن كتاب بيير بيار: من قتل روجيه أكرويد؟، يبدو كأنه «رواية

1 - تصدر لي قريبا بالقاهرة ترجمة لهذا الكتاب إلى اللغة العربية تحت عنوان: الرواية البوليسية والتحليل النفسي: مَنْ قتل روجيرر أكرويد؟

بوليسية على رواية بوليسية «، كأنما الناقد يأتي بديلا للكاتب، كأنما الرواية تبدّل مؤلِّفها: كيف ذلك؟ دعونا نستكشف الأمر.

يحيل عنوان الكتاب: من قتل روجير أكرويد؟[1]، الصادر سنة 1998، على الرواية المشهورة للكاتبة الانجليزية أجاثا كريستي[2]: مقتل روجير أكرويد، الصادرة سنة 1926. وفي هذه الرواية تحاول الكاتبة أن تكشف من خلال محقّقها المشهور[3] السيد بوارو حقيقة مقتل روجير أكرويد، لتصل في النهاية، هي ومحقّقها، إلى أن القاتل هو السارد نفسه. وهذه الخلاصة هي التي لم يقتنع بها بيير بيار، داعيا إلى تحقيق مضادّ، وإلى طرح سؤال المنطلق من جديد: من قتل روجير أكرويد؟

وروجير أكرويد، رجل غني، أرمل، أحبّ السيدة فيرارز، وطلبها للزواج؛ لكن يبدو أنه عرف أكثر ممّا ينبغي له: عرف أن المرأة التي أحبّها قد سمّمت زوجها الراحل، وعرف أن شخصا ما يبتزّها، وجاءه الخبر الجديد بأن هذه المرأة قد انتحرت، ولما حمل إليه بريد المساء رسالة تضمّ اسم الرجل الذي كان يبتزّ السيدة المنتحرة، يأتي من يقتله ويتخلّص منه. وبالنسبة إلى السيد بوارو، المحقق في جريمة قتل السيد أكرويد، القاتل هو الدكتور شبارد الذي ليس إلا السارد نفسه.

ولا شكّ في أن هذه النهاية التي انتهى إليها المحقق، وبالتالي الكاتبة، هي التي جعلت من هذه الرواية أشهر الكتب في التاريخ الأدبي، وهي التي تفسّر حضورها في دراسات نقّاد كبار من مثل رولان بارت وامبرطو إيكو؛ ذلك لأن هذه النهاية تكشف أن القاتل هو الدكتور شيبارد الذي لم يكن موضع شكّ من قبل القرّاء، لسببٍ بسيطٍ هو أنه هو نفسه السارد في هذه الرواية.

بهذه النهاية، تكون الكاتبة أجاثا كريستي قد خلقت المفاجأة، وهي عنصر ضروري في هذا النوعِ من الأدب، لكنها بذلك تكون قد انتهكت عنصرًا جوهريا في ميثاق القراءة الضمني الذي يربط بين مؤلِّف الرواية البوليسية وجمهورها، ومن مقتضيات هذا الميثاق أن القاتل لن يكون أبدًا هو السارد. وفي رواية: مقتل روجير أكرويد لم يكن القارئ ليتصور أن السارد، وبينهما ميثاق ثقة، هو القاتل نفسه.

وهكذا اقتنع الكلّ بأن السارد هو القاتل، واسمه هو الدكتور شبارد، الذي قرّر أن ينتحر، بعد أن اتهمه المحقق هركيول بوارو. وبدا للقرّاء والنقّاد على السواء أنه لم يعد هناك من مجال للتفكير في حقيقة القاتل، وأن المجال الوحيد الذي يبقى للدرس والتفكير هو بناء الرواية: كيف يكون القاتل هو السارد نفسه؟

وبعيدًا عن الدراسات التي اقتنعت بالنهاية المقترحة من طرف المحقق هركيول بوارو، وانكبّت على

1 – بخصوص الترجمة العربية لهذه الرواية، نستعين بالترجمة التي أصدرتها دار النشر الأجيال للترجمة والنشر (المترجم).

2 – أجاثا كريستي كاتبة انجليزية، ولدت بجنوب انجلترا عام 1890 وتعتبر من كبار مؤلفي الرواية البوليسية بروايات عديدة تدلّ على ذكاء خارق ومقدرة مذهلة على رواية الألغاز، وتوفيت سنة 1976 بعد أن كتبت سيرتها الذاتية. ومن رواياتها: جريمة قتل في قطار الشرق السريع، موت على النيل، جريمة في العراق، الستارة، الأربعة الكبار، جريمة قتل بالمترو، جريمة في المرآة، ثلاثة عشر لغزا...

3 – ظهر المحقق بوارو في إحدى الروايات الأولى لأجاثا كريستي: جريمة غامضة في ستايلز، وكرّست له الكاتبة أكثر من ثلاثين رواية ليصبح من أشهر رجال التحقيق إلى جانب شرلوك هولمز..

معالجة المشاكل النظرية التي تطرحها خصائص البناء وخصائص السارد في هذه الرواية، هاهو محقّق غير مشكوك في أمره، يدخل إلى خشبة المسرح، إنه بيير بيار الذي لم يقتنع بتلك النهاية، وقرّر لا الاهتمام بالمشاكل النظرية التي تترتب عن رواية تجعل السارد نفسه هو القاتل، بل قرّر أن يطرح السؤال من جديد: من قتل روجير أكرويد؟، وأن يعود بالتحقيق إلى نقطة الصفر، واضعًا النتائج التي توصل إليها المحقق، وبالتالي الكاتبة، موضع شكّ وسؤال، مفترضًا أن عالم الرواية يتجاوز الحدود التي يضعها له مؤلِّفه.

في كتابه: من قتل روجير أكرويد؟ يعيد بيير بيار البحث والتحقيق، غير مقتنع بأن الكاتبةَ تعلم كلَّ شيء، وواضعًا يده على تناقضات المحكي والشخصيات، وكاشفًا ما أصاب المحقق، والقارئ أيضا، من عمىً أمام أمورٍ وقرائنَ واضحة وبديهية، ومتسائلا في النهاية ما إذا لم تكن «أنا» هي «آخر».

وهكذا، وتبعًا للتحقيق الذي أجراه بيير بيار، واستنادًا إلى حجج واضحة في النص، فإن القاتل الحقيقي هو كارولين شبارد، أخت الدكتور شبارد الذي اتهمه المحقق هركيول بوارو. فهي، مقارنة بأخيها، العنصر الأقوى في العائلة، وتلعب دور الأمّ بالنسبة إلى أخيها، ومستعدة للقتل من أجل حمايته، وشخصيتها أقرب إلى شخصية القاتل. وبينها وبين أخيها علاقة حبّ متبادل: هي التي قتلت أكرويد لأنه كان يعرف أن أخاها الدكتور شبارد يبتزّ السيدة فيرارز، وأخوها الطبيب يتهم نفسه، أو يقبل أن يتّهم بالقتل، وينتحر لحماية أخته، القاتل الحقيقي. وبهذا تتحول الحكاية في هذه الرواية من حكاية أموال قذرة إلى حكاية حبّ متبادل بين أخ وأخته. ويمكن بالمعنى النفسي أن نقول إنهما شخصية واحدة، وهي المسؤولة عن موت روجير أكرويد.

وهكذا، فالحقيقة الوحيدة في رواية أجاثا كريستي هي مقتل روجير أكرويد، وتبقى البقية موضع تأويل؛ والتأويل الذي تبنّاه المحقق بوارو ليست خاطئا فحسب، بل هو جريمة قتل، ذلك لأنه التأويل الذي دفع الدكتور شيبارد إلى الانتحار. وفي نظر بيير بيار، ليست هذه هي المرة الأولى التي يقتل فيها هركيول بوارو، ففي رواية الستارة قتل رجلا ببرودة دم بعدَ أن عرف أنه المجرم، لكن الجديد في رواية: مقتل روجير أكرويد هو أن تأويل المحقق بوارو لم يكنً محكماً وصارمًا، كما يدّعي، بل إنه كان نوعًا من الهذيان العنيف الذي أجبر الدكتور شبارد على الانتحار.

لا تعود أهمية كتاب بيير بيار: من قتل روجير أكرويد؟ إلى كونه يكشف الاسم الحقيقي للقاتل في رواية أجاثا كريستي: مقتل روجير أكرويد، بل إنه من خلال ذلك يدعو إلى التفكير من جديد في عمل المؤوِّل أو القارئ وطريقة اشتغاله، لافتًا النظر إلى موضوع نظري هامّ: التأويل باعتباره هذيانًا.

وإجمالا، يبقى بيير بيار هو هذا الناقد الذي يجمع بين التخييل والتنظير بطريقة مدهشة، ويزاوج بين الشك والإصغاء الحكيم للكلمة/ كلمة الآخر، ويدعونا في كل مرة إلى عدم التسليم بسهولة، وعدم الاقتناع بالحقائق التي تقدّم إلينا، وأن نتعلّم البحث عن الحقيقة بأدوات مغايرة، وأن نتخذ من اللعب أوالسخرية أسلوبًا في التحليل والتفكير.

ولا ينبغي لنا أن ننسى أن الفرضية التي انطلق منها بيير بيار في هذا الكتاب لا تستمد قوتها إلا من كونها تقترح، باكتشافها قاتلا آخر، نهاية أخرى للرواية دون أن «تخرج «عن النص، بل إنها تلتزم بالنص

في حرفيته وكليته، كأنما الأمر يتعلق بإعادة كتابة الرواية من ألفها إلى يائها: كأنما العمل النقدي هو رواية بوليسية على رواية بوليسية.

ولأن بيير بيار قد أصدر سنة 2010 كتابا تحت عنوان: وإذا ما بدّلتِ الأعمال الأدبية مؤلِّفيها؟، فإننا نتساءل: إلى أي حدّ يصح أن نقول إن رواية: مقتل روجيه أكرويد لمؤلِّفتها أجاتا كرستي قد أصبح لها مؤلِّف آخر هو: بيير بيار؟

4 – بعد أن أصدر كتابًا سنة 2007 تحت عنوان: كيف نتحدث عن كتب لم نقرأها؟، وكان له دوي كبير في الأوساط النقدية والثقافية والتربوية، وقد سبق أن قدمناه للقارئ[1]، فاجأ قراءه سنة 2012 بكتاب جديد تحت عنوان: كيف نتحدث عن أمكنة لم نزرها من قبل؟[2]، ويبدو من عنوانه أنه لا يخلو من غرابةً: هل يمكن فعلا أن نتحدث عن أمكنة لم يسبق لنا أن كنَّا فيها؟ هل سيقودنا الكتاب إلى الطرائق التي تسمح بالكتابة عن مكان من دون أن ننتقل إليه فعليا؟ وما قيمة الكتابة عن مكانٍ بعيدٍ من دون أن يغادر الكاتبُ مكانّه الأصلي؟

ينطلق الناقد في مقدمة كتابه من أن «لاشيء، في الواقع، يقول بأن السفر هو أفضل وسيلةٍ لاكتشاف مدينة أو بلد لا نعرفه. وبالعكس، فكل المؤشرات تدفعنا وتجربة العديد من الكُتَّاب موجودةً من أجل تعزيز هذا الإحساس إلى التفكير في أن أفضل وسيلة للحديث عن مكانٍ ما هو أن تلازم بيتك.»[3].

وهكذا، فالمسألة لا تتعلق بمعرفة ما توفره المعرفة بأمكنةٍ غريبةٍ، فزيارتها لا يمكن إلا أن تفيد كلَّ صاحب فكر منفتح، بل إن المسألة هي أن نعرف ما إذا كان من الضروري أن تقوم بهذه الزيارة بطريقة مباشرةٍ أو أن الأفضل هو أن نمارسها من خلال أشكالٍ أخرى غير التنقل الفيزيقي إلى المكان عينه.

ومن هنا، فإن هذا الكتاب مكرَّسٌ لنوعٍ من الكتَّاب الذين يسميهم بيير بيار ب: المسافر الذي لا يغادر بَيتَه voyageur casanier، فالأمر يتعلق هنا بكُتَّاب أوتوبيوغرافيين وصفوا بطريقةٍ دقيقةٍ أمكنةً لم يسافروا إليها أبدًا؛ فبفضل قوةِ كتابتهم، نجحوا في أن يجعلوا تلك الأمكنة أكثر حضورًا مماَ قد يقوم به مَن يرى أنْ من الضروري الانتقالَ إلى تلك الأمكنة.

لكنَّ هذا الكتاب لا يهتم بالكُتَّاب فقط، فهو يستحضر كل مَن يمارس الكتابة، بحكم المهنة أو بطريقة عابرة(علماء الأنتروبولوجيا، الصحافيون، الرياضيون)، قادتهم بعض اللحظات من وجودهم إلى وصف أمكنة لم يسبق لهم، لأسبابٍ مختلفة، أن انتقلوا إليها فعليا.

وفوق ذلك كله، فإن طموح هذا الكتاب هو «التفكير في العلاقة التي يقيمها الأدب مع العالم الذي يقوم بوصفه، وخاصة مع الأمكنة التي يستقبلها»[4]: أن يكون هناك كُتَّابٌ يجعلون من أمكنةٍ لا يعرفونها

1 – حسن المودن، كيف نتحدث عن كتب لم نقرأها؟ في القراءة واللاقراءة، مجلة علوم التربية، العدد 48، يوليوز 2011، ص 153 159.

2 - Pierre Bayard: Comment parler des lieux ou l'on n'a pas été, ed. Minuit, 2012

3 – نفسه، ص 14.

4 – نفسه، ص 15.

أمكنةً واقعية، وأن يمنحوها شكلا في الوجود مقبولا، أمرٌ يطرح في الواقع مسألة مهمة تتعلق بمعرفة ما هي طبيعة الفضاء الذي يعالجه الأدب، وكيف يتمكن من أن يجد له مكانًا داخل اللغة[1]. والأكبر من مسألة الفضاء الأدبي، فإن مسألة الحقيقة داخل الأدب هي التي تفرض نفسها هنا من خلال هذه التخييلات الخِطابية. وبطريقةٍ موازية، وإذا كان علم الجغرافيا يقدم حقيقة علمية حول الأمكنة، فإنه توجد صورة أخرى لحقيقة العالَم في كتابات هؤلاء المسافرين الذين لا يغادرون بيوتهم ولا يتنقلون فعليا إلى الأمكنة موضوع وصفهم وسردهم.

ونكتفي هنا بتقديم نماذج من هؤلاء الكُتَّاب الذين تحدثوا عن أمكنة لم يسبق لهم أن زاروها من قبل:

أ – من أشهر الرحلات في التاريخ رحلات ماركو بولو(1274 1324) Marco Polo، هذا الرحالة الذي ارتبط اسمه بالمغامرة واكتشاف الأراضي المجهولة، فصار بذلك رمزًا لهذا الجمع بين المعرفة والشجاعة البدنية. وما كان يشد انتباه جمهوره هو محكياته الموثقة التي تناقلها النساخ منذ قرون، وهي محكياتٌ تقدم معرفة متميزة جدا بالعالم الأسيوي في القرون الوسطى، وخاصة بالإمبراطورية الصينية التي كانت في ذلك العصر مجهولة عند الغرب.

لقد كان ماركو بولو يدعي أنه استقر بالصين مدة طويلة، وكان تكليفه بمهام كبيرة، لكن وثائق الإمبراطورية المحفوظة لا تحمل أيَّ أثر عن كل ذلك، وهناك ثغرات كبيرة في محكيه، إذ نقرأ وصفًا للصين في صفحاتٍ عديدةٍ من دون ولو إشارة واحدة إلى سور الصين العظيم الذي يمتد لآلاف الكليوميترات، والذي لابدَّ أن يكونَ الرحالة قد عبره مرات عديدة. ولأنه كان شديد الانتباه إلى العديد من الطرائف، فإنه لم يجد ما يقوله عن ربط الأقدام عند الصينيات، أو عن حفلات الشاي، أو عن بعض طرقهم الخاصة في الصيد، أو عن خصائصهم اللسانية اللافتة للانتباه...

وهذه الملاحظات وغيرها هي التي قادت بعض المؤلفين من ذوي الفكر اليقظ[2] إلى أن يشككوا في أن يكون ماركو بولو قد زار فعلا بلاد الصين، مسجلا أن كتابه يتقدم كأنه جمعٌ من البطاقات أكثر مما يظهر باعتباره محكيَّ سفرٍ حقيقي.

وانطلاقًا من هذه الشكوك، يتقدم بيير بيار بافتراض أن ماركو بولو لم يغادر أبدًا قسطنطينية، هذه المدينة التي بها كانت عائلته تعمل في التجارة البحرية وفي نقل العديد من المسافرين الذين، بلا شك، كان لهم الفضل في تغذية أحلام يقظة ماركو بولو بواسطة محكياتهم. ولكن ما ينبغي لنا أن نسجله، في نظر بيير بيار، هو أن لماركو بولو خيالا واسعًا، وأن رحلاته تؤكد أن محكي السفر هو أفضل مكانٍ لممارسة التخييل.

ب – وإذا كان هناك من مجال يفرض السفر، فهو الأنتروبولوجيا، إلى حد أننا نجد ليفي ستراوس يبدأ

---

1 – نفسه، ص 16.

2 - Frances Wood, Did Marco Polo go to China ?, Westview Press, 1996.

كتابه المشهور مدارات حزينة Tristes tropiques بجملة مثيرة: «أكره الأسفار والمستكشفين»، قبل أن يشرع في محكي مفصَّلٍ عن أيامه بأمريكا اللاتينية، بطريقةٍ تكشف أن السفرَ حاسمٌ في مهنة الأنتروبولوجي.

وهل كان من الممكن أن نعرف شيئًا ما عن جزر الساموا Iles de Samoa، وعن الحياة الجنسية لسكانها، بل وعن الحياة الجنسية للإنسان بصفة عامة، لولا أعمال مارجريت ميد (1901 1978) Margaret Mead، ولولا أسفارها في الثلاثينيات من القرن الماضي التي خدمت العلم، وساعدت على اكتشاف شعوبٍ أخرى.

والأطروحة المركزية في كتابها، Mœurs et sexualité en Océanie, 1928 et 1935 الذي حقق لها نجاحًا عالميا، هي أن الجنسَ في جزر الساموا أكثرُ حريةً من الجنس عند الغربيين، فشباب الساموا يكثرون من التجارب الجنسية قبل الزواج، ولا تمنعهم عن ذلك أي ممنوعات مستبطنة كما نلاحظ عند شباب أمريكا الشمالية؛ ولهذا، فالمراهقة في جزر الساموا ليست أبدًا مرحلة أزمة أو توتر، بل بالعكس تتميز بكونها تطورًا هادئا نحو مرحلة النضج. والشباب في هذه الجزر يجهل الحب الرومانسي كما يعرفه شباب الغرب، لأن هذا الحب مرتبطٌ بفكرة الزوجة الواحدة والوفاء والغيرة وغيرها من الأفكار والمقولات التي تحكم المجتمع الغربي.

وفي عصر مارجريت ميد، كان لهذه الأطروحة صدًى كبير وطيب في الأوساط العلمية والثقافية، وبدأ السؤال عن الدور الذي تلعبه الثقافة في تحديد السلوكات وتوجيهها، وإلى أيِّ حد يمكن اعتبار مكتسبات المحيط السوسيوثقافي أهمَّ من المكتسبات الفطرية للإنسان...

وكان التحول الجذري، الذي سيعرفه النقاش حول أطروحة مارجريت ميد وكتابها، مع صدور كتاب الأنتروبولوجي ديريك فريمان Derek Freeman الصادر سنة 1984 تحت عنوان:

Margaret Mead and Samoa, The Making and Unmaking of an anthropological myth

ففي هذا الكتاب ذي النبرة السجالية، وضَّح هذا المتخصص في جزر الساموا أننا قضينا الكثير من الوقت في تأويل الوقائع التي وصفتها مارجريت ميد من دون أن نعمل على أن نفحص أولا ما إذا كانت تلك الوقائع موجودة فعلا، فالحريةُ الجنسيةُ عند شباب الساموا التي جعلت العالمَ جميعًا يحلم بها ليست إلا أسطورة لا وجود لها على أرض الواقع.

والحجة الأولى تهم الناحية النظرية، ذلك أن الأطروحة ذات النزعة الثقافية التي تدافع عنها مارجريت ميد في رسالتها الجامعية هي السائدة في عصرها بالولايات المتحدة، بل إن من أكبر المدافعين عنها فرانز بواس المشرف على أطروحتها. وقد تعاملت مع الوقائع بكل الطرق الانتقائية والإسقاطية التي تسمح بالانتصار لأطروحة أستاذها.

والحجة الثانية تعني الناحية العملية، ذلك أن مارجريت ميد لم تقض إلا عشرة أيام في بلدة في الساموا، ثم قررت بعد ذلك، من أجل إقامة مريحة، أن تستقر في الجوار عند عائلة أمريكية. وبهذا، كانت محرومة من الملاحظة المباشرة التي ستسمح لها بفحص فرضياتها، وكان جهلها بلغة الساموا يوسع من المسافة التي تفصلها عن الذوات التي تريد دراستها.

والحجة الثالثة أن مارجريت ميد كانت تستعين، وهي بعيدة عن مجال الملاحظة، بشهادات مجموعةٍ من الشباب الذين يقومون بزيارتها يوميا، وهي شهاداتٌ تنتمي إلى خيالاتهم وأحلامهم أكثر مما تنتمي إلى الواقع.

وإجمالا، فأن تقوم الباحثة بوصف مكانٍ عن بُعد، مع إعطاء الأفضلية لشهادات المخبرين أكثر من ملاحظاتها الشخصية، هو ما قادها إلى أن تؤلِّفَ، دون علمٍ منها، روايةً تخييليةً حقيقية، تبناها القراء والعلماء لأجيالٍ من دون فحصٍ وتدقيق.

ومع ذلك، فهذا التمثل لجزر الساموا قد حقق نجاحًا كبيرًا عبر العالم، لأنه كان يناسب أفقَ انتظارٍ عام: أن تعملَ هذه الأراضي الجديدة المستكشفة على إعادة الحياة إلى هذه المنطقة المستهامة fantasmée التي ذُقنا فيها طعم السعادة ولكن انفصلنا عنها منذ زمن طويل. فقد لا يهمُّ أن يكون هذا التمثلُ صحيحًا أو غيرَ صحيح، وذلك لسبب أساس: إليه يعود الفضل في تذكيرنا بأنه من الصعب النفاذ إلى مكانٍ ما من دون أن نُسقِط عليه، مباشرةً، شبكةً من الاستيهامات الشخصية المشبعة بهذا الحلم الذي يسكنناً: الحياة الجنسية السعيدة.

ج تفرض مهنة الصحافة، هي الأخرى، السفر، وخاصة إلى الخارج؛ وربما لهذا السبب تُعتبَر مهنة خطيرة، وقد لا نستطيع عَدَّ عددِ الصحافيين الذين يضحون، في كل سنة، بحيواتهم من أجل أن ينقلوا إلى قرائهم أخبارًا موثوقة. ومن هنا قد يطرح بعض الصحافيين هذا السؤال: أليس من الأفضل أن يقوم الصحافي بالملاحظة عن بُعْد، فلا يخاطر بحياته، وقد يسمح له ذلك برؤيةٍ شاملةٍ من دون أن يتورط كثيرًا كما يحدث للعديد من الصحافيين الذين ينتقلون إلى المكان عينه؟

نهاية شهر أبريل 2003، وجد جايسون بلير Jayson Blair، الصحافي في جريدة نيويورك تايمز New York Times، نفسه في وضعية صعبة هي التي يحكيها في بداية كتابه الأوتوبيوغرافي: Burning down my Master's House

لقد كان مدعوًا إلى اجتماع نظمه زملاؤه الذين يريدون توضيحات منه بخصوص مقال نشره مؤخرًا في نيويورك تايمز، فهناك أوجه شبه غريبة بينه وبين مقالٍ آخر ظهر قبل أيام بجريدةٍ أخرى (San Antonio Express-News).

وكان مقال بلير حول عائلة جندي في عقده الثالث اختفى بالعراق(Le sergent Edward Anguiano)، وقد ادعى الصحافي أنه قد استجوب هذه العائلة في مدينتها لوس فريسنوسLos Fresnos القريبة من الحدود المكسيكية. ولم يكن هذا المقال لِيَمُرَّ من دون أن يلفت الأنظار، فقد ظهر في الصفحة الأولى من نيويورك تايمز، وهذا أمرٌ لا يمكن إلا أن يكون حلمَ كلِّ صحافي من صحافيي أكبر جريدةٍ في العالم.

وقد وضح لزملائه الظروف التي أنجز فيها المقال، بحيث كان يحتفظ بالعديد من الوثائق والبطاقات في حاسوبه، ومنها فقرات من ذلك المقال الآخر المنشور بجريدة أخرى، ولاشك أن الأمر قد اختلط عليه، فاعتبر تلك الفقرات جزءًا من ملاحظاته الشخصية. وقد اقتنع بعض زملائه بتوضيحاته، فهذه من أخطاء

المهنة المألوفة، لكن جايسون بلير كان بينه وبين نفسه يعرف أن الأمر أكبر من ذلك، فالحقيقة هي أنه لم يغادر أبدًا شقته في بروكلين.

لكن بعض زملائه ما انفك يحاصره على مرِّ الأيام بأسئلة مقلقة ومزعجة، فكانوا يطلبون منه أن يحدد بدقة كل العناصر التي كانت الأصل في الخلط بين المقالين، وكانوا يبحثون عن فاتورات النفقات التي تعود إلى سفره إلى لوس فرينوس، فما كان منه إلا أن قرر الاستقالة من جريدة نيويورك تايمز، والدخول إلى مصحة من أجل الاستشفاء.

لم يكن الأمر يتعلق بالمرة الأولى التي يصف فيها بلير أمكنة في مقالاته من دون أن يكون قد انتقل إليها وزارها، فما يوضحه في مجموع كتابه هو كيف بدأ شيئا فشيئا يُحَوِّل تقنية الملاحظة عن بُعْد إلى عادة، بل إلى فلسفة. ففي الواقع، فإن كتابة مقالاتٍ عن بُعْد لم تفرض نفسها عليه دفعةً واحدة، بل تبعًا لسلسلةٍ من الظروف.

ويمكن أن نستخلص من كتابه الأوتوبيوغرافي ثلاثة توضيحات تفسر هذا السلوك الذي صار عادة مألوفة في حياته الصحافية: أولها حالته النفسية التي تتصف بالهوس الاكتئابي، وهي التي جعلته يَمُرُّ بمحطاتٍ من الاضطراب والإحباط والاكتئاب، ودفعته إلى ضرورة الاستشفاء في مصحة بعد استقالته. والثانيةً هي إدمانه الكحول والمخدرات التي يلجأ إليها العديد من زملائه من أجل مواجهة إكراهات وتوترات مهنة الصحافة. والثالثة أن بلير لم يعد يشعر بالراحة في جريدته التي صارت تفضل بعض المقالات من أجل الرفع من المبيعات، بالرغم من أن تلك المقالات غير ذات عمق.

لكن لابد أن نسجل أن بلير لم يكن في مقالاته يحكي أيَّ شيء، بل كان حريصًا على الدقة، ولو عن بُعْد، وكان حريصًا على الحصول على المعلومات، بواسطة الاتصال هاتفيا بالأشخاص المعنيين، وبواسطة جمع ما أمكن من الوثائق حول الموضوع؛ وقد يحدث أن يضيف بعض التفاصيل عندما تبدو له ضرورية من أجل الرفع من درجة الشعور بواقعية الأشياء. وانشغاله بالتفاصيل كان هو ورطته في العديد من المقالات: في مقال يعود إلى 27 مارس 2003، ستكون مفاجأة أب جنديٍّ آخر، كان قد اختفى هو الآخر بالعراق، كبيرة؛ فالأب جريجوري لانش سيقرأ في نيويورك تايمز أن مدخل بيته مفتوح على المراعي و حقول التبغ، وهذا ما لم يكن يتصوره أبدًا.

إذا تركنا جانبًا أخلاقيات المهنة يقول بيير بيار ، فإن حكاية جايسون بلير تطرح مسألة شبه فلسفية: ما معنى أن تكونَ في مكانٍ ما؟

تأتي تجربة الكتابة هنا من أجل أن تقول ما يعرفه أنصار الأديان جيدًا: الحضور الفيزيقي ليس إلا صيغة من صيغ الحضور، وهو ليس بالضرورة الأكثر عمقًا. وفي حياتنا الشخصية أو العامة، نجد عدة مشاهد تفرض أن نفصل بين الحضور الفيزيقي والحضور النفسي: قد أكون حاضرًا، فيزيقيا، في قاعة للمحاضرات بالجامعة، لكنني، نفسيا، أوجد في مكانٍ آخر، في مسرح آخر ألجأ إليه بإرادتي منفيًا أو مُغَيَّبًا. وفوق ذلك، فالتحليل النفسي يوضح أن الحضور الفيزيقي لا يلعب دورًا كبيرًا في حياتنا النفسية، ذلك لأن هناك عددًا

من الغائبين والأموات الذين يلعبون دورًا كبيرًا في حيواتنا، والأكثر من ذلك أننا نشعر أنهم أكثر حضورًا من الأحياء الحاضرين معنا فيزيقيا.

وبالطبع، فهذه الاعتبارات لا قيمة لها في مهنة الصحافة، لكن يبقى أن قوة الكتابة عند جايسون بلير تطرح من الأسئلة ما لا يمكن تجاهله، فإذا كان هذا الصحافي يخترق القواعد الأولية في مهنة الصحافة، فإنه كان يتصرف في الوقت نفسه باعتباره كاتبًا حقيقيًّا.

إن السؤال عن صحة انتقال الصحافي فعليًّا إلى لوس فرسنوس يحجب سؤالا آخر لا يخلو من أهمية: إلى أيِّ حد كان محكي سفره يسمح لقراء الجريدة بفَهم آلام عائلات الجنود الذين جرى إرسالهم إلى العراق؟ ألا تقتضي الكتابة هنا حضورًا ينبغي له أن يكونَ نفسيا، لا فيزيقيا، بالرغم من أننا قد لا نتصور أحيانًا آلام بعض الناس إلا بزيارتهم؟

ولا بد أن نميز بين حقيقتين: هناك حقيقة صحافية، التي بسببها حوكم جايسون بلير، وهي تبحث عن تلك المطابقة بين اللغة والعالم، وهذا ما يفرض الدقة في الوصف؛ وهناك حقيقة أدبية، وهي تبحث عن شيءٍ آخر، والبلدان المتَخَيَّلة التي تنفذ إليها لا تفرض على واصفيها أن ينتقلوا إليها فعليًّا، فهي لا تفرض أن نَنقلَ الواقع حرفيا، بل أكثر ما تفرضه هو: إنتاج تجربة انفعالية وجدانية، والبحث عن الوسائل التي تسمح بأن يعيش الكاتبُ التجربةَ في دواخله، والعمل وهذا هو الأصعب على اقتسامها مع القارئ.

ه يقدم كتاب بيير بيار نماذجَ وتحليلاتٍ أخرى، ويطرح أسئلة عميقة حول علاقة الكتابة بالفضاء، وما إذا من الضروري أن نسافر فيزيقيا من أجل الكتابة عن مكانٍ بعيد؛ ويدعو في خاتمته إلى نقد يتأمل، بهدوءٍ وعمقٍ، مسألة الحدود بين فضاء الكتابة وفضاء الواقع، ويثير أسئلة أخرى: هناك كُتَّابٌ وقرَّاءٌ يمارسون السفرَ «فعليا «داخل عوالم الكتابة، وقد تكون هناك شخصيات أدبية تشدُّ الرحال إلى عالمنا الواقعي؟ هناك فضاءات متداولة بين مختلف الأعمال الأدبية، وبعض شخصياتها يسافر من هذا الفضاء إلى ذاك من دون احترامٍ للحدود الظاهرة؟... تلك أسئلة قد تكون موضوع كتابٍ جديد..

5 قد نخلص إلى أن الدرس الكبير الذي يمكننا استخلاصه من مشروع الناقد النفسي بيير بيار هو أن يعمل القارئ/ الناقد باستمرار على خلخلة الجمود الفكري وأن تكون له القدرة على التجدد والابتكار في مجال القراءة والنقد الأدبيين، وأن يجمع بين التخييل والتنظير بالطريقة التي تدهش كلَّ مَن يعتقد أن الناقد مبدعٌ فاشل، وأن يزاوج بين الشك والإصغاء الحكيم للكلمة، كلمة الآخر.

المصادر والمراجع

أ- العربية

- حسن المودن، كيف نتحدث عن كتب لم نقرأها؟ في القراءة واللاقراءة، مجلة علوم التربية، العدد 48، يوليوز 2011، ص 153/ 159.

ب- الأجنبية

- Frances Wood, Did Marco Polo go to China ?, Westview Press, 1996
- Pierre Bayard,
  - Comment parler des lieux ou l’on n’a pas été, ed. Minuit, 2012
  - Enquête sur Hamlet, Le dialogue des sourds, éd. Minuit, 2002, Paris
  - L’Affaire du chien des Baskerville, éd. Minuit, 2008, Paris
  - Maupassant, juste avant Freud, éd Minuit,1994,Paris
  - Peut-on appliquer la littérature à la psychanalyse, éd Minuit,2004,Paris
  - Qui a tué Roger Ackroyd?, éd. Minuit, 1998, Paris.




عبد النبي ذاكر
سلسلة شرفات 50
ميطودولوجيا
البحث في اللغات والآداب
والتنوع الإعلامي
منشورات الزمن
لوحة الغلاف من تركيب «الزمن»

مفهوم الأدب من الشكلانية إلى التداولية

سعيد جبار[1]

1 - تأطير

ما الأدب[2] ؟ سؤال طرح قديما وحاضرا، وسيبقى مطروحا مستقبلا، لأنه يرتبط بسلوك فكري إنساني، يتفاعل مع طبيعته الإنسانية، ويتأثر بمدى انسجامه مع محيطه الثقافي والمعرفي. فالأدب يجيب بشكل مباشر حينا، وبأشكال غير مباشرة في أحيان كثيرة عن الحس الوجودي لدى الإنسان. ولهذا فعندما يطرح يبدو بسيطا لأنه يرتبط بالفكر الإنساني وإبداعاته؛ لكن بمجرد التفكير فيه والتماس إجابة شافية كافية يجد المرء نفسه في متاهات متعددة متداخلة يصعب التخلص منها أو إيجاد حلول لها. هكذا إذن يتعامل الإنسان مع الأدب، ينتجه، يقرأه ويستمتع به، لكنه لا يستطيع أن يضع له حدودا صارمة ضابطة.

عندما يطرح السؤال: ما الأدب؟ تتحدد قصدية البحث وموضوع الاشتغال، أي ما الذي يجعل من نص ما نصا أدبيا؟ أو بعبارة أخرى ما القاسم المشترك بين هذه النصوص الممتدة على مدى التاريخ التي أنتجها الإنسان بمختلف أشكالها وأنواعها ونشير إليها بالأدب؟ يبدو أنه من الصعب جدا أن نضع على صعيد واحد مستوي هذه النصوص اللا متناهية التي أنتجها الفكر الإنساني ماضيا وحاضرا، ويستمر في إنتاجها مستقبلا من أجل أن نرسم لها حدودا دقيقة ضابطة تميزها في ما ندعوه أدبا عن غيرها من النصوص التي لا تندرج ضمن الأدب «اللا أدب».

نضع الإشكال في عموميته فنجد أنفسنا نبحر في تاريخ طويل عريض تعددت مضاربه واتجاهاته، وتنوعت مواقفه وآراؤه حول هذا الذي نسميه أدبا. واللفظ في ذاته «أدب» لم يستقر في تاريخه الطويل وفي الثقافات الإنسانية المختلفة على معنى واحد وموحد؛ ففي كل فترة كان اللفظ يمتح من ثقافة عصره، ويتلون بألوان الفكر الذي يهتم به فيعرفه ويحدده[3].

تطورت العلوم الإنسانية في العصر الحديث، وبدأ كل تخصص منها يجعل من النص الأدبي جزءا من اهتماماته، وبتنوع التخصصات والمقاصد تعددت التعريفات الحديثة للأدب، وهو ما دفع ببعض المهتمين به إلى اقتراح علم جديد أطلقوا عليه «علم الأدب»[4]، وحصروا مجال اهتمامه في البحث عما يجعل من الأدب

---

1 – أستاذ السرد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة أبي شعيب الدكالي/ الجديدة

2 – سؤال خصص له جان بول سارتر كتابا بكامله وهو يعالجه معالجة وجودية، ومع ذلك بقي مطروحا.

3 – استعرض طه حسين في مدخ كتابه «في الأدب الجاهلي» التحولات التي عرفها المفهوم في الثقافة العربية قبل الإسلام وبعده

4 – انطلق الشكلانيون من قناعة خاصة مفادها أن النقد الأدبي ليه أن يتجاوز الذاتية ويرقى إلى مستوى العلمية كما هو الشأن في العلوم الإنسانية الأخرى، وتأتي هذه العلمية بتحديد موضوعه ومادته وتصوراته النظرية التي يقارب بها الموضوع.

أدبا، وأطلقوا على هذه الخاصية المميزة له «الأدبية» «la littérarité». وهذا اللفظ وإن كان يحيل من خلال دلالته المعجمية على الأدب، فإنه يبقى واسعا وغير واضح المعالم. فكيف يحدد هذا المفهوم؟ وهل من الممكن أن تتوحد المعايير المحددة له؟ وما التحولات التي يمكن أن تلحقه بالانتقال من حقل معرفي إلى آخر في ظل اختلاف المعايير والتصورات؟

يقول ريفاتير: «ليست لدينا معايير حقيقية لنميز بنية لفظية أدبية عن بنية غير أدبية»[1]. يتبين من خلال هذا القول أن المؤسسة الأدبية هي مؤسسة منفتحة تتفاعل فيها عوامل متعددة يصعب معها وضع معايير خاصة لتمييزها وتعريفها، وبالتالي فالتعريفات التي تعطى للأدب كإنتاج فكري إنساني تختلف من حقل معرفي إلى آخر، والمعايير المتبعة في وضع الحدود تبقى رهينة بالمنظور الذي يشتغل به كل اتجاه ويعمل على تأطير الأدب ضمنه ليجعل منه حقلا من حقول اهتماماته. ويبدو أنه من الصعب جدا تتبع التحولات التي عرفها المفهوم ديكرونيا وسانكرونيا. فالتحولات التاريخية وتطور الفكر الإنساني عبر الزمن تساهم بشكل واضح في تحول المفاهيم، واختلاف العلوم والحقول الفكرية المتزامنة مع بعضها أيضا تستلزم تباين المعايير وتنوعها.

غير أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن الأدبية كخاصية تميز الأدب تواترت مع التحولات التي عرفها الفكر الإنساني الحديث خصوصا في مجال العلوم الإنسانية التي بدأت تتوخى الدقة الاصطلاحية في مفاهيمها على غرار العلوم البحتة. وكانت الدراسات اللسانية في مقدمة هذه العلوم الإنسانية الحديثة. ولهذا فاهتمامنا بمفهوم «الأدبية» وتحولاتها سينحصر في بعض الاتجاهات التي تبدو أنها ساهمت بشكل فعال في تطوير الدرس الأدبي الحديث؛ وجعلنا من التصور الشكلاني المنطلق الأساس للمفهوم والذي سيعقبه تصورات أخرى تسير على منواله أو تتجاوزه لتعريفات أخرى تتأسس على معايير خاصة. فكيف تحدد مفهوم «الأدبية «لدى الشكلانيين؟ وما التحولات التي سيعرفها لاحقا؟

2 - الشكلانية وتأسيس مفهوم الأدبية

يمثل الاتجاه الشكلاني منعطفا متميزا في تطور الدرس الأدبي خلال القرن العشرين؛ فقد ظهرت الحركة في ظل ظروف تحولات سياسية وفكرية خاصة سواء في روسيا أو أوربا بصفة عامة. وعلى الرغم من أن مسار الاتجاه في روسيا اختزل في عقد ونصف من الزمن فقط «1915-1930» إلا أن التراكمات النظرية والنقدية التي خلفها بحلقتيه (موسكو أوبياز) ساهمت بالفعل في وضع أرضية خصبة لظهور اتجاه نقدي جديد سيعرف التطور لاحقا في أوربا وباقي العالم سيعرف بالبنيوية. ويبدو أن الشكلانية قد تفاعلت بصورة أو بأخرى مع المبادئ العامة التي حددتها اللسانيات الجديدة لمسار الدرس اللغوي على يد فيردناند دوسوسير من خلال كتابه «محاضرات في اللسانيات العامة» الصادر سنة 1916؛ ومن خلال مقارنة أولية يظهر هذا التقارب الكبير بين لسانيات سوسير ومبادئ الشكلانية.

انحصر هم الشكلانيين في إخراج الدرس الأدبي من الإسقاطات التاريخية التوثيقية والتأويلات الاجتماعية أو السيكولوجية التي كانت تلحق به في الدراسات الكلاسيكية، وحملوا شعارا مفاده تأسيس

1 - N. Frye: Anatomie de la critique, Paris, Gallimard, 1968, p 13.

علم جديد أطلقوا عليه اسم «علم الأدب»، وموضوع هذا العلم هو «دراسة الخصيصات النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها عن كل مادة أخرى»[1]. وكان رومان جاكوبسون هو من أعطى لهذه الفكرة صبغتها النهائية حين قال: «إن موضوع علم الأدب ليس هو الأدب، وإنما الأدبية، أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا»[2]. فالعلم وضع لنفسه مسارا، وكرس نفسه للبحث عن قواعد وقوانين مميزة تجعله مستقلا بذاته عن كل العلوم الإنسانية الأخرى؛ علم موضوعه الأدب، وما يميز هذا الذي ندعوه أدبا، وهذه الخصائص المميزة له عما سواه هي التي أشاروا إليها ب «الأدبية la littérarité». فكيف تحددت الأدبية في التصور الشكلاني؟ وما التحولات التي عرفتها لاحقا؟

1.2 – الأدبية الشكلانية وامتداداتها

يقتضي تحديد مفهوم «الأدبية» تعرف المكونات التي تميز الإنتاج الأدبي عن غيره من الإنتاجات الأخرى والتي يضعونها في خانة «لا أدب». ولما كان الأدب إنتاجا لغويا ركز الشكلانيون عما يميز لغة الأدب عن لغة الحياة اليومية؛ ويؤكد شيكلوفسكي على وجود فوارق بين اللغة الشعرية ولغة الحياة اليومية من خلال خاصية إدراك بنيتها[3]. وبالطريقة نفسها يقيم ياكوبينسكي تقابلا بين اللغة الشعرية واللغة اليومية مبرزا الفرق بينهما كالآتي: «إن الظواهر اللسانية ينبغي أن تصنف من وجهة نظر الهدف الذي تتوخاه الذات المتكلمة في كل حالة على حدة؛ فإذا كانت الذات تستعمل تلك الظواهر بهدف عملي صرف أي للتوصيل فإن المسألة تكون متعلقة بنظام اللغة اليومية، حيث لا يكون للمكونات اللسانية أية قيمة مستقلة، ولا تكون هذه المكونات سوى أداة توصيل، ولكننا نستطيع أن نتخيل أنظمة لسانية أخرى وهي موجودة بالفعل يتراجع الهدف العملي إلى المرتبة الثانية مع أنه لا يختفي تماما، فتكتسب المكونات اللسانية إذ ذاك قيمة مستقلة»[4].

يبرز هذا القول المكون الأساس الذي يؤسس عليه الشكلانيون مفهوم «الأدبية» وهو «مكون اللغة»، باعتبار أن اللغة في الأدب تكتسب استقلاليتها من خلال تجاوزها الهدف الإخباري الإبلاغي إلى أهداف أخرى ترتبط بوظيفة الأدب. فاللغة الأدبية إذن لا تنحصر مهمتها في الوظيفة التواصلية البسيطة التي تربط المتكلم بالمستمع، بل تكسر نسقية الإخبار من أجل نسقية الإبداع «الأدبية». ومن ثم يتساءل جاكوبسون: «ما الذي يجعل من رسالة لغوية ما عملا أدبيا؟»[5].

تصبح الرسالة اللغوية عملا فنيا من منظور جاكوبسون عندما تتوارى كل الوظائف التي حددها للرسالة اللغوية لتهيمن الوظيفة الشعرية «fonction poétique»، والتي تكسب لغة الشعر استقلاليتها، وتعطي للكلام الشعري قوانينه الخاصة. فكيف تتجلى استقلالية اللغة الشعرية؟ يجيب موكاروفسكي فيقول:

1 – بوريس إخنباوم، نظرية المنهج الشكلي،ص 35.

2 – المرجع نفسه، ص 35.

3 - J. Culler ; la littérarité ; in Théorie Littéraire. Puf Fondamental. 1989. p 34.

4 – نظرية المنهج الشكلي، ص: 36–37.

5 - R. Jakobson Essais de linguistique générale, éd Minuit Paris. 1973. p 211.

«إن استقلالية اللغة الشعرية تقاس بمدى انحرافها عن قواعد اللغة العادية... فاللغة الشعرية تنفلت من قواعد التقعيد لتؤسس نظاما خاصا بها على المستوى الصوتي والتركيبي والدلالي»[1].

تتأسس الأدبية الشكلانية إذن على المكونات اللسانية للرسالة والتي تتحول وظيفتها من الإخبار والتوصيل إلى الوظيفة الشعرية التي تقوم على استقلالية اللغة والانزياح عن الدلالات المعجمية التي تحيل عليها الألفاظ. وقد حدد بريك O. Brik هذه العلاقة التي تربط الأصوات بالصور مستخلصا أنه «مهما تكن الطريقة التي ينظر بها إلى العلاقة بين الصورة والصوت، فإنه لا ينبغي تجاهل أن الأصوات والأسجاع هي ليست مجرد ملحق ترخيمي محض، بل هي نتيجة تصميم وتخطيط شعري مستقل؛ إن الصفة الصوتية للغة الشعرية لا تستهلك في الأنساق الخارجية الهرمونية، ولكنها تمثل نتاجا معقدا لتفاعل القوانين المعقدة لها»[2].

لقد وجد الشكلانيون في الشعر التجلي النصي المحوري الذي يجسد الأدبية كما يتصورونها، معتبرين أن لغة الشعر هي لغة انزياح تتخلص فيها اللغة من الحقول المعجمية الحصرية التي تربط الألفاظ بدلالاتها المباشرة لتنتج دلالات ترتبط بهذه الصور الإيحائية التي ينتجها الخطاب الشعري، وتتداخل فيها المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية على حد سواء؛ ومن ثم يكون الشكل هو هذا الكل الذي تقوم عليه جمالية العمل الأدبي ويتميز بالدينامية والوحدة؛ ويعتبر تينيانوف هذه الوحدة: «ليست كيانا متناسقا مغلقا، ولكنها تكامل دينامیكي يتوفر على سيرورته الخاصة. إن عناصره ليست مرتبطة فيما بينها بعلامة تساوي أو إضافة، بل بعلامة التلازم والتكامل الديناميكية، ولذا يجب الإحساس بشكل العمل الأدبي كشكل ديناميكي»[3].

هذه الخاصية الشكلية التي وجدت متنفسها في الخطاب الشعري كان عليها أن تتسع أكثر لتشمل نصوصا أخرى غير شعرية، وكان عليها أن تجد موقعا لها بنسقيتها هاته في مقاربة النص النثري وإبراز أدبيته الشكلية. وفي هذا الإطار أيضا نصادف دراسات شكلانية متعددة اهتمت بالنصوص السردية الروسية بتجلياتها المختلفة: الخرافة، القصة القصيرة، الرواية وغيرها تضافرت لترسم ملامح أدبية النثر من خلال الخطاب السردي.

لم تخرج الدراسات الخاصة بأدبية النثر عن القاعدة العامة التي رسمها الشكلانيون لمقاربة النص الأدبي، وكانت اللغة بمستوياتها المختلفة: صوتية، صرفية، تركيبية هي الطاغية على المقاربة الشكلانية سواء في المقاربات التنظيرية العامة كما هو الشأن مع فلاديمير بروب في مقاربة الخرافة، حيث اختزل نسقها المورفولوجي في إحدى وثلاثين وظيفة يرى أنها قادرة على استيعاب النص الخرافي العام في الثقافات الإنسانية المختلفة؛ أو في المقاربات النصية المباشرة كما هو الشأن مع إيخنباوم وهو يقرأ نص «المعطف»

1 - موكاروفسكي، اللغة المعيارية واللغة الشعرية، ترجمة ألفت كمال الروبي، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، خريف 1984. ص 42.

2 - نظرية المنهج الشكلي، ص 39.

3 - يوري تينيانوف، مفهوم البناء. نظرية المنهج الشكلي، ص 77.

لغوغول[1]؛ حيث انصب التحليل على التمييز بين المتن الحكائي والمبنى الحكائي باعتبار الأخير هو بؤرة المقاربة الشكلانية لإبراز خصوصيات البناء الفني للنص السردي. ولن تخرج الدراسات النثرية عن المفاهيم العامة التي وظفتها الشكلانية الشعرية، فحضر مفهوم الصوت والجملة والتركيب والتناغم وغيرها، فنصادف مطلع المقال مثلا يقرر:

«يتعلق تركيب القصة القصيرة في الغالب بالدور الذي تقوم به النغمة الشخصية للكاتب في بنيتها. إن هذه النغمة، بعبارة أخرى، يمكن أن تكون مبدأ منظما يخلق بدرجة متفاوتة سردا مباشرا»[2]. وبعدها مباشرة يصرح بأن: «التركيب يغدو مختلفا تماما إذا ما كف المبنى الحكائي.... عن القيام بالدور المنظم»[3]. وفي موقع آخر يقول: إن اختيار الجمل والربط فيما بينها لا يقع حسب مبدأ النظام المنطقي، ولكن حسب مبدإ الخطاب المعبر، حيث يقوم التلفظ والميمية والإيماءات الصائتة بدور خاص»[4].

نخلص إلى القول بأن التصور الشكلاني للأدبية هو تصور لساني خالص، يقوم على مبدأ اللغة في مستوياتها المختلفة، وحسب طبيعة النصوص: شعرية/ نثرية. وقد وجه هذا الاهتمام بلغة الأدب الدراسات الشكلانية نحو دراسة الأنساق والبناءات الشكلية للأعمال الأدبية، واستحدثت خلال العقود الأولى من القرن الماضي خلفية جديدة للدرس الأدبي أسمته «علم الأدب». وأثبت هذا العلم مشروعيته وانتشر انتشارا واسعا في كل الثقافات الإنسانية على فترات متلاحقة وبنسب متفاوتة؛ ووجد حظه الأوفر في الثقافة الفرانكوفونية التي تبنت التصور وطورته في الاتجاه البنيوي الحديث والذي عرف لاحقا بالشعرية «Poétique». وكان الامتداد الشكلاني في المدرسة الفرنسية عبر اتجاهين أساسيين: اتجاه السرديات مع تودوروف وجرار جنيت اللذين بلورا بشكل جلي التصور الشكلاني على مستوى مقاربة الخطاب السردي؛ والاتجاه السيميوطيقي الذي اشتهر بسيميوطيقا السرد مع مدرسة باريس التي تزعمها كريماس.

هيمن التصور الشكلاني على الأدب والأدبية طوال القرن العشرين تقريبا، وشهد تطورا ملحوظا خلال العقدين السابع والثامن منه، وأظهرت أحيانا محدوديتها في مسايرة التطور الذي يعرفه الإبداع الأدبي خصوصا في الرواية والقصة، وإهمالها لعناصر أخرى في الأدب ليست أقل أهمية من اللغة، وفي مقدمتها «التخييل» الذي يعتبر مكونا أدبيا أساسيا باعتباره في نظر بعض الدارسين المكون الأساس الذي يميز ما هو أدبي عما هو غير ذلك.

لقد أثير المشكل من جديد، وربما بدأ التفكير في الانفتاح من جديد على العلوم الإنسانية الأخرى من أجل استيعاب هذا الوضع المتحول للمفهوم «الأدب»، غير أن التداولية وهي الأقرب إلى اللسانيات وتستوعب في تصورها العام مفهوم الشكلانية آثرت في محطات مختلفة أن تطرح مشكل «الأدب» من خلال استحضار مفهوم التخييل ومعالجته من زوايا مختلفة رغبة في تمييز الفعل التخييلي عن الفعل اللا تخييلي ومدى الارتكاز على مكون اللغة كمكون محوري للعبور مما هو لا تخييلي إلى ما هو تخييلي. فكيف إذن

1 – بوريس إخنباوم، كيف صيغ «معطف» غوغول. نظرية المنهج الشكلي، ص 153–174.

2 – نفسه، ص153.

3 – نفسه، ص 153.

4 – نفسه، ص 156.

تعاملت اتجاهات التداولية مع الأدبية من خلال مفهوم التخييل؟ وما التحولات التي سيعرفها المفهوم في ظل هذا التخصص الجديد؟

3 - التداولية: من الأدبية إلى التخييل:

لم يحضر مفهوم «الأدبية» حضورا مباشرا في المقاربات التداولية، غير أنه من الممكن أن نربطه بمفهوم اهتم به التداوليون وهم يعالجون ملفوظ الأدب وهو مفهوم «التخييل». وفي مقاربة هذا المفهوم وعبر التحولات المتلاحقة التي عرفتها التداولية منذ غرايس وإلى حدود التداولية المعرفية مع سبيربر وويلسن تراكمت مجموعة من التصورات المختلفة حول التخييل لكنها تصب في اتجاه واحد تقريبا يتحدد في طريقة تمييز خطاب التخييل عن الخطاب العادي(خطاب الحياة اليومية). ولا نسعى هنا إلى متابعة تفصيلية لما قدمته هذه الاتجاهات المختلفة من تصورات في المجال، بل سنقتصر على تقديم تصور عام للتخييل مركزين على العناصر الأساسية والخصائص القاعدية التي اعتمدتها التداولية لتمييز خطاب التخييل عن الخطاب العادي. ويبدو أن ما قدمته آن روبول في أعمالها المختلفة سواء الفردية منها أو الجماعية يضع الدارس أمام صورة بانورامية للمفهوم من خلال الاتجاهات التداولية المختلفة عبر مقارنتها وإعادة بنائها والتوليف بينها[1].وسنركز هنا على ما قدمته روبول لنعرف التحولات التي عرفها مفهوم الأدب بين الشكلانية والتداولية.

وقبل التفصيل في التصورات التداولية في الموضوع نشير إلى أننا سنعتبر مفهوم «التخييل» بالصورة التي عالجتها التداولية يرتبط بخصائص الخطاب الأدبي، ومن ثم فهو يتقاطع مع مفهوم الأدبية في الأهداف والطموحات التي ترغب في رسم إطار خاص لخطاب الأدب كخطاب إبداعي جمالي يختلف في طبيعته ومكوناته عن خطاب الحياة اليومية. فالقاسم المشترك إذن بينهما هو البحث عن هذه الحدود الفاصلة بين ما هو أدبي وما هو غير ذلك.

يرتكز سورل في هذا التمييز على ما أشار إليه أوستين بالتشويش الذي يحدثه خطاب التخييل على الخطاب العادي[2]، ولمعالجة ذلك ينطلق من تمييز ثلاثي بين: التخييل والأدب، الخطاب الجاد والخطاب غير الجاد، والخطاب الحرفي والخطاب غير الحرفي[3]؛ ويخلص إلى القول إلى أنه ليس كل تخييل أدبا، وليس كل أدب تخييلا، باعتبار أن انتماء العمل للأدب يرتبط بارتسامات القارئ، بينما انتماء العمل إلى التخييل يرتبط بمقصدية المؤلف[4]، في حين أن تمييزه بين الخطاب الجاد والخطاب غير الجاد ارتبط مباشرة بالفرق بين ما هو غير تخييلي وما هو تخييلي؛ وهو التمييز المعروف كلاسيكيا بين الخطاب الحرفي والخطاب غير الحرفي[5]. ولا يقف سورل في مقارنته عند هذا الحد، بل يستحضر تقابلا آخر بين التخييل والكذب وهو يتحدث

1 - اهتمت آن روبول بمفهوم التخييل في إعمالها التي قدمتها مشتركة مع جاك موشلر حول التداولية باتجاهاتها المختلفة منها التداولية اليوم والقاموس الموسوعي للتداولية، وكذا في أعمالها الخاصة حول التداولية وفي مقدمتها: Réalités de la fiction وهو كتاب إلكتروني غير منشور ورقيا، وكتاب rhétorique e stylistique de la fiction (1992).

2 - Réalités de la fiction ; p 52

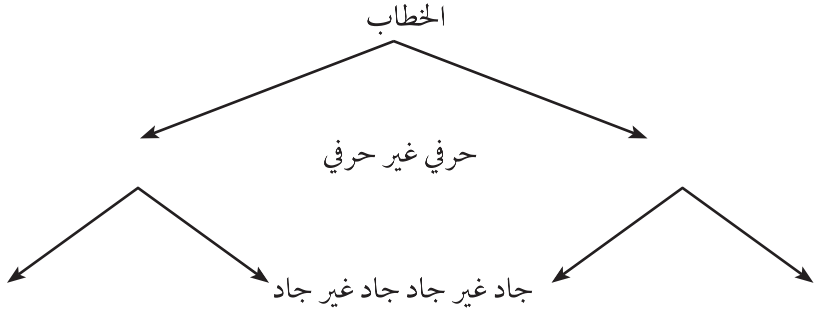
3 - Ibid ; p 52

4 - Ibid ; p 53

5 - Ibid ; p 53

عن العوالم التخييلية المختلقة، ويميز بينهما باعتبار أن المتكلم في خطاب التخييل يختلق feindre دون أن تكون له نية تضليل المخاطب، بينما المتكلم في الكذب له نية تضليل مخاطبه، وفي الخطاب الأول «التخييل» توجد مجموعة من التعاقدات الأفقية بين المتحاورين التي تعلق الاشتغال بالقواعد العمودية التي لا يعلق اشتغالها في الثاني وهو يقصد تضليل مخاطبه[1].

يقدم هذا الطرح صورة عامة لمختلف الملفوظات التواصلية في تقسيم متشعب يسمح بوضع خطاطة نؤطر من خلالها موقع خطاب التخييل بين الخطابات المختلفة، ونقط تقاطعه معها، ويمكن أن نقدم هذه الخطاطة على الشكل التالي:



نحصل من خلال هذه الترسمة على أربعة تجليات خطابية يمكنها أن تمثل التنويعات الخطابية المختلفة التي تتأرجح بين خطاب الإخبار العادي والخطاب التخييلي وما يمتد بينهما، وبالتالي يمكن أن نحدد طبيعة الخطابات المبينة في الترسمة على الشكل التالي:

أ – الحرفي الجاد: وهو الخطاب العادي، خطاب الحياة اليومية ذو الطبيعة الإخبارية، ويرسل من خلاله المتكلم إخبارا يعتقد فيه ويحمل المخاطب على الاعتقاد فيه أيضا.

ب – الحرفي غير الجاد: وهو أيضا خطاب مباشر يرسل إخبارا للمتلقي ليحمله على الاعتقاد فيه، ولكن دون أن يكون المرسل يعتقد في صدقيته. فهو إذن خطاب يقصد من ورائه المتكلم تضليل مخاطبه: خطاب الكذب.

ج – غير الحرفي الجاد: وهو خطاب يشبه في مقاصده وخصوصياته الحرفي الجاد باعتبار أن المتكلم يمرر خطابا يعتقد فيه ويحمل مخاطبه على الاعتقاد فيه، غير أن الفارق هو أنه ليس خطابا مباشرا بل هو خطاب إيحائي، ويمكن أن نشير إليه بخطاب الاستعارة، وسميناه استعارة لأن خطاب الحياة اليومية في ذاته مليء بالاستعارات فأصبحت جزءا من خطابنا نستعملها تلقائيا كالإخبار المباشر.

د – غير الحرفي غير الجاد: وهو خطاب يتميز بلغته الإيحائية لأنه لا يقدم للمخاطب إخبارا مباشرا، وهو غير جاد لأنه أيضا لا يتوفر على مرجعية واقعية، غير أنه يختلف عن خطاب الكذب من جهة المقصدية، فالكذب يقصد إلى تضليل المخاطب، بينما هذا الخطاب لا يقصد تضليل المخاطب بحيث يوجد تعاقد بين

1 - Ibid ; p 55

المتخاطبين بأن هذا الخطاب غير جاد لكنه يتضمن إيحائية معينة لمعرفة خاصة يعتقد فيها المتكلم ويعمل على تمريرها لمخاطبه. هذا هو الذي يدعى: خطاب التخييل.

عندما نطرح هذه التجليات الأربعة في معيار الصدقية الذي تراهن عليه التداولية على المستوى التواصلي في الخطاب الإخباري يتضح أن ثلاثة خطابات من الأربعة يمكنها أن تحقق هذا المبدأ باعتبار التعاقد الذي يربط المتكلم بالمخاطب حول طبيعة الرسالة الموجه إليه، ويمكن أن نبينها في جدول منطق العبارة على الشكل التالي:

ب	ج	ب ← ج
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ص
ك	ك	ص

فالكذب من خلال هذه العلاقات المنطقية تمثل في وضعية واحدة وهي الخاصة بالحالة الثانية حيث يكون الملفوظ حرفيا لكنه غير جاد باعتبار أن العلاقة التواصلية بين المتخاطبين لا تقوم على تعاقد موحد؛ ففي الوقت الذي يتوهم فيه المتلقي بأنه يتلقى رسالة إخبارية مباشرة تخبر بحقيقة، يكون المرسل يقصد تضليل المخاطب بإرسال رسالة تجانب الحقيقة.

وإذا كان الخطاب الأول منطقيا بحكم مباشرته وجديته وهو يمرر حقيقة قائمة فإن الخطابين الأخيرين اللذين ينبنيان على خطاب لا حرفي لا يفقدان صدقيتهما في هذه العلاقة التواصلية، فخطاب الاستعارة هو خطاب تواصلي من درجة ثانية يتوحد فيه تعاقد المرسل والمتلقي ويحتفظ بالخاصية الإخبارية التي ترتبط بالواقع. يبقى فقط الخطاب الرابع التخييلي خطابا مركبا يتقاطع في لا جديته مع الخطاب الكاذب وفي لا حرفيته مع خطاب الاستعارة، ولكنه يكتسب شرعيته التواصلية عبر توافق المرسل والمتلقي في تداوله كخطاب لا يخبر بالواقع المرجعي ولكنه من خلال عوالمه الخاصة اللا واقعية يمرر معرفة حول الواقع.

السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هنا إذن هو: هل هناك حدود فاصلة بين خطاب التخييل، وخطاب الحياة اليومية؟

كان هذا السؤال محوريا في البحث التداولي، وحاولت آن روبول أن تجمع شتاته من تصورات تداولية مختلفة «غرايس، سورل، أوستين، كوين، غودمان، سبربر وويلسون»، لتبني تصورا مركبا يعالج قضية التخييل، محاولة رسم حدود فاصلة بين خطاب التخييل والخطاب العادي. وتعتبر روبول أن المقاربة التداولية للتخييل هي رهينة بالإجابة عن مجموعة من الأسئلة المتعلقة بطبيعة التخييل، وبلغته والكيانات التخييلية التي تتحرك في عوالمه وما تمتلك من لغة وأحاسيس وانفعالات ومدى ارتباطها بمرجعيات واقعية. وعندما نتأمل هذه الأسئلة يمكن أن نقسمها إلى قسمين أساسيين: قسم يتعلق بلغة التخييل

في علاقتها بلغة الحياة اليومية من حيث البنيات الصوتية والتركيبية والدلالية، وقسم يتعلق بالجانب الأنطولوجي للتخييل ومرجعيات كياناته ومدى احتفاظها بواقعيتها في حال كونها كيانات مرجعية.[1]

بطريقة تركيبية خاصة رسمت ملامح التخييل في صورة تعتبرها الأقرب إلى الحقل التداولي. غير أن عناصر هذه الصورة وردت متفرقة بين إنجازاتها المختلفة، بحيث إنها كانت في كل عمل تعيد طرح القضية وتعالجها من جوانب خاصة. ويمكننا تجميع عناصر هذه الصورة من خلال استحضار مقاطع نصية من هنا وهناك. فالتخييل بالنسبة إليها «هو تمثيل يصف كيانات غير موجودة»[2]، وهو «يساهم رغم كذب معظم الأقوال التي تكون خطابه في بناء تمثل للكون أو تجويده»[3]، والأعمال التخييلية ترسل رسالة أو مجموعة من الرسائل تمرر عبر النص ولكنها لا توجد فيه»[4]، والمتكلم في الخطاب التخييلي يدعي الإخبار دون أن يسعى إلى حمل مخاطبه على الاعتقاد بأنه إزاء إخبار خالص»[5]. وهكذا يمكن اعتبار التخييل خطابا منفتحا قابلا لاستيعاب عوالم مختلفة وغير متجانسة، وتظهر قوته في قدرته على منح هذا الكل اللا متجانس انسجاما نوعيا يساعد على مقروئيته وتلقيه. فهو خطاب «يتداخل فيه الصادق والكاذب على مستوى الفضاءات والشخصيات والأزمنة والأحداث، لكنها تتآلف جميعها لتكون عوالم غير صادقة ولكنها تلميحية[6].

فرضت هذه الصورة المركبة للتخييل على روبول مناقشة القضايا الأساسية المشار إليها أعلاه من أجل وضع التخييل في إطاره الطبيعي، وتحديد القوى التي تكسبه مشروعيته التواصلية على مر الأزمنة والأجيال. واعتبرت أهم عائق بالنسبة للتخييل هو المشكل الأنطولوجي. وقد أبرزت في هذا الجانب أن لا جدوى أنطولوجية التخييل تظهر واضحة في التصور السردي الذي وضعه جنيت وهو يتحدث عن ثلاثية: المحكي القصة السرد، إذ يصعب وضع حدود دقيقة نعبر من خلالها من الحدث كقصة إلى الحدث كفعل سردي. وعملت على معالجة هذا الاضطراب التنظيري من خلال بعض المواقف الفلسفية التي تأسست عليها الدراسات التداولية مثل تصورات سورل وغودمان، حيث يميز الأول بين الخطاب التصويري figuratif والخطاب التخييلي fictif فالأول هو خطاب غير حرفي، بينما الثاني هو خطاب غير جاد. ويفترض سورل أن مؤلف التخييل يختلق «il feint» دون أن تكون له قصدية تضليل المستمع أو القارئ. أما غودمان فيميز بين التمثيل والتعبير، فيعتبر الدلالة التمثيلية هي ما يقدمه العمل مباشرة، والدلالة التعبيرية هي ما يوحي به العمل من معرفة[7]. وفي مجال التخييل تكون الدلالة التمثيلية غير ذات جدوى أو غير موجودة مطلقا «Représentation avec dénotation nulle»[8].

---

1 – نجد هذه الأسئلة تتصدر فصول كتابها «Réalités de la fiction»، وكذا الفصل السادس عشر الخاص بالسرد والتخييل في القاموس الموسوعي للتداولية.

2 - A. Reboul ; Réalités de la fiction ; livre électronique. p 13.

3 – آن روبول وجاك موشلر، التداولية اليوم، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني. منشورات المنظمة العربية للترجمة. ص198.

4 - A. Reboul ; Réalités de la fiction ; livre électronique. p 56.

5 – التداولية اليوم. ص ص: 37–38.

6 - A. Reboul ; rhétorique et stylistique de la fiction, presse universitaire de Nancy, 1992. p 31.

7 - Ibid ;p 31

8 - Ibid ; p 37

الجانب الثاني الذي تركز عليه التداولية هو لغة التخييل في علاقتها بلغة الحياة اليومية، من خلال سؤال: هل هناك لغة خاصة بالتخييل؟[1]

يقتضي الجواب عن هذا السؤال في عرف التداوليين وضع مقارنة بين لغة التخييل ولغة الحياة اليومية، لمعرفة مدى استعمالهما اللغة نفسها صوتيا ومورفولوجيا وتركيبيا ودلاليا، أو أن هناك فرقا بينهما، بوجود خصائص مميزة للغة التخييل عن لغة الحياة اليومية.

يبدو أن التداوليين اختاروا طريقا غير طريق الشكلانيين، مؤكدين أن لا فرق في المكونات بين لغة التخييل ولغة الحياة اليومية؛ وبالتالي فالبحث عما يميز خطاب التخييل يجب البحث عنه بعيدا عن اللغة؛ وتعريف التخييل يقوم على خصائص خارجة عن اللغة[2]؛ بحيث إن خطاب التخييل يتميز عن الخطاب العادي في علاقته بالعالم أو بخصائصه التداولية وليس بخصائصه اللسانية[3].

يدفعنا هذا القول إلى استحضار موقف الشكلانيين الذين ربطوا الأدبية باللغة لنقارنها بموقف التداوليين الذين ينفون هذه العلاقة بين الأدبية أو التخييلية واللغة. فقول الشكلانيين السابق (ص3) يضع الإطار النظري العام الذي تحركت فيه الشكلانية وهي تؤكد على أن اللغة هي الفيصل الحاسم بين الأدب ولا أدب. ولكن عندما نتأمل القول في ذاته ونضعه في ميزان التداولية يظهر جليا أن الاتجاهين معا يتحدثان عن المكون نفسه لكن كل اتجاه يؤطر الإشكال في زاوية خاصة ويعتبره التاطير الأمثل. فعندما يقول «إن الظواهر اللسانية ينبغي أن تصنف من حيث وجهة نظر الهدف الذي تتوخاه الذات المتكلمة في كل حالة على حدة»؛ فإن الأمر يبدو جليا أن ما يشير إليه القول ليس البناء اللساني في ذاته الذي اعتبره الشكلانيون مسلمة لتحديد الأدبية، بل يتجاوز ذلك إلى مقاصد المتكلم، وهي كما يعبر عنها التداوليون ترتبط بالملفوظ وسياق التلفظ ولا ترتبط باللغة كبناء مورفولوجي أو تركيبي.

المقصدية التواصلية للملفوظ تتحكم فيها عوامل لسانية وغير لسانية، ولهذا فالأمر لا يتعلق بالعلامة اللغوية كما يدعي الشكلانيون، بل يتعلق باستعمال المتكلم لهذه العلامة في سياق معين؛ وفي هذا السياق يتفاعل ما هو لساني بما هو غير لساني من مدونة ثقافية والمحيط الطبيعي للتواصل والمقصديات التي يبني عليها المتكلم خطابه لتؤسس المعنى الذي يرغب المتكلم في تمريره لمخاطبه.

يواصل ياكوبينسكي كلامه فيؤكد: «ولكننا نستطيع أن نتخيل أنظمة لسانية أخرى وهي موجودة بالفعل يتراجع الهدف العملي إلى المرتبة الثانية مع أنه لا يختفي تماما، فتكتسب المكونات اللسانية إذ ذاك قيمة مستقلة». إنه يتحدث عن أنظمة لسانية، وعندما نقول لسانية لابد أن ترتبط بالمستويات اللسانية المعروفة (الصوتي، الصرفي، التركيب، والدلالي بمفهومه التشفيري)، فهل يمكن أن نجد في هذه المستويات أنظمة لسانية خاصة بالحياة اليومية وأنظمة لسانية خاصة بالأدب والتخييل؟ يبدو أنه من الصعب أن نقر بوجود ضوابط تفصل بين لغة التخييل ولغة الحياة اليومية؛ وحتى على المستوى البلاغي التقليدي، فإن الاستعارة

1 - A. Reboul ; Réalités de la fiction. p 50.

2 - Ibid ; p 52.

3 - Ibid ; p 52.

وهي تتضمن خاصية المشابهة تقتحم لغة الحياة اليومية بقوة وقد أصبحت من قبيل المتداول الذي نتلقاه دون أن نبحث له عن مسوغات لإدراك معناه الاستعاري.

وبناء على ذلك فإن آن روبول وهي تتحدث عن خطاب التخييل في مقابل الخطاب العادي تقول: «لقد كان بالإمكان أن يكون التخييل مشكلا لسانيا لو كان هنالك صيغ مخصوصة تميز هذا الخطاب، أو بعبارة أخرى لو كان هناك لغة خاصة بالتخييل، ووجود هذه اللغة يستلزم إثبات فرضيات متعددة منها:

أ – هناك لغة مخصوصة للتخييل

ب – إلى جانب اللغة التي نستعملها في الخطاب العادي غير التخييلي توجد لغة أخرى لا تستعمل إلا في الخطاب التخييلي بصفة حصرية.

وهذا يستلزم أن نتحقق من إمكانيتين:

- إما أن تكون الكلمات والجمل المستعملة في الخطاب التخييلي مختلفة صوتيا وتركيبيا ودلاليا عن الكلمات والجمل المستعملة في الخطاب العادي.
- أو أن تكون الكلمات والجمل المستعملة في الخطاب التخييلي مطابقة صوتيا وتركيبيا ودلاليا للكلمات والجمل المستعملة في الخطاب العادي غير أن معناها مختلف(أي أن هناك فارقا دلاليا)»[1].

العمل الأدبي إذن عمل تخييلي، وخاصيته التخييلية تتجاوز إطار اللغة التي يبدو من الصعب أن تضع فيها حدودا بين لغة التخييل ولغة الحياة اليومية؛ وقد تكون حيوية الأدب التخييلية نابعة من هذه اللغة التي يتقاسمها مع الواقع اليومي، فهي التي تضفي صفة الشرعية وقابلية الإدراك على هذه الكيانات التخييلية المتضمنة في العمل التخييلي، تتقاطع مع الموجودات الفعلية في الطبيعة والسلوكات والأحاسيس وتتكلم لغتها، وبالتالي تصبح قريبة منها أو جزءا من كيانها. وقد تكون تلك الجمل الافتتاحية الكلاسيكية التي ميزت السرد التقليدي حافزا على مد الجسور بين الواقع والتخييل بقوة دون أن يفقد أي منهما خصائصه الذاتية (زعموا أن؛ قال الراوي؛ يقال بأن.....)، وتسمح بإدماج كيانات حقيقية واقعية «شخصيات فضاءات، وقائع» ضمن العمل التخييلي بصورة تسمح باحتفاظ هذه الكيانات بطبيعتها الواقعية أو تجريدها منها أو من بعضها لتصبح جزءا من عوالم التخييل التي تؤثث العمل الأدبي؛ وفي هذه النقطة بالضبط –إدماج الواقعي في التخييلي– تؤكد التداولية على ضرورة معاملة كل الكيانات المدمجة في العمل الأدبي التخييلي على نفس المستوى[2].

فالخطاب الأدبي كخطاب تخييلي يتخلص من معياري الحقيقة والصدق اللذين يعتبران شرطا أساسيا للتصور التداولي للكفاية التواصلية؛ فالخاصية الأساسية لخطاب الأدب هي بالضبط انسلاخه من السياقية المرتبطة بالواقع[3]. يؤسس عوالمه الخاصة الداخلية والتي لا تحيل إلا عليه، وتضمن له التواصل مع

1 – القاموس الموسوعي للتداولية. ص 460.

2 – المرجع نفسه، ص 471.

3 - Elfie Poulain ; approche pragmatique de la littérature. Ed l'Harmattan ;2006. p 60.

مخاطب/ مخاطبين في علاقة لا تبادلية، حيث تنعدم وحدة الفضاء والزمن بين طرفي الفعل التواصلي؛ ولا يحتاج المؤلف إلى أن يؤكد على صدقية أقواله؛ فلا المؤلف ولا القارئ يعتقد في لحظة من اللحظات أن هذه الشخصية أو تلك توجد فعلا، وأنها قالت كذا أو فعلت كذا في زمن معين وفضاء محدد[1].

لا تتحدد العلاقة بين الواقع والتخييل فقط في البعد المعرفي الذي يمرره الخطاب الأدبي، بل العلاقة بينهما تبقى وطيدة وعلى مستويات مختلفة ومتداخلة. فالتخييل يستلهم عوالمه من الواقع، ويقصد إلى إعادة بنائه في صورة يعتقد المرسل أنها النموذج الذي يجب أن يكون عليه. ومن ثم فإن عوالم التخييل تتداخل فيها الكيانات التخييلية والكيانات الواقعية. وإذا كانت الأولى تكتسب مشروعيتها من خلال ما تحمل من دلالة إيحائية ضمنية حول الواقع، وما تعبر عنه من حقائق، يعتقد المرسل في صدقيتها، ويعمل على إقناع المتلقي بجدواها وفاعليتها، فإن الكيانات الواقعية التي تتسرب إلى عوالم التخييل تكون من جهة داعمة لهذه الدلالة الضمنية التي يقصدها المرسل، وتفقد في غالب الأحيان من أجل القيام بهذه الوظيفة، العديد من ملامحها الواقعية الحقيقية، لتكتسب ملامح جديدة تتلاءم وعوالم التخييل التي تتحرك فيها. ويبقى العالم التخييلي في العمل الأدبي عاما مبنينا بطريقة تماثلية مع العالم الواقعي، فهو محكم بنفس قوانين اللغة العادية ويستخدم نفس الوسائل المعتادة في التمثيل[2]. وبعيدا عن كون هذه الأشياء موجودة أو غير موجودة، فهناك تواصل حول هذه الأشياء والشخصيات والوقائع؛ وعلى الرغم من أن هذا التواصل يتم على مستوى المتخيل كتمثيل لعالم افتراضي فإن هذا العالم افتراضيا ممكن الوجود[3].

عوالم الأدب التخييلية إذن هي محيط معرفي ممتد الأطراف تتحرك فيه الذاكرة الإنسانية لتبدع من خلاله ما تعتقد أنه يلامس الحقيقة من بعض جوانبها، وترى فيه نموذجا لما تطمح إليه وترغب في تحقيقه، فهل يمكن أن يكون تعويضا عن الواقع المحدود الذي يتحرك فيه الإنسان ماديا؟

قد يكون كذلك، خصوصا إذا علمنا أن عوالم التخييل هي الكفيلة بأن تخلق الانسجام بين العناصر المتنافرة، وأن تؤلف في صورة تركيبية عجيبة بين أشياء أو عناصر متباعدة على مستوى الزمان والمكان دون أن يشعر المتلقي بأن هناك شرخا أو تنافرا بين هذه العناصر المتداخلة. إن خاصية الانسجام الجوهري هذه هي التي ضمنت للتخييل الاستمرار عبر عصور متلاحقة دون أن نحس في أية لحظة من اللحظات بأن مكوناته استهلكت ذاتها، وبلغت النفق المسدود. فالتخييل متعدد في صيغة مفرد، متعدد لأنه تضمن ما لانهاية من النصوص التخييلية وفي مجالات متعددة دون أن نشعر بأن الواحد يكرر الآخر وإن كانت النصوص تتعالق ببعضها البعض، والتعالق ميزة الإبداع الإنساني في سيرورته التاريخية، ومفرد لأنها كلها تدخل تحت مسمى واحد ويستوعبها جميعها دون أن نشعر بخلل في التسمية.

4 – تركيب

من دراسة العلامة اللسانية في ذاتها إلى مقاربة استعمال هذه العلامة في سياقات تواصلية خاصة تتحول الرؤية، وتختلف الأدوات والفرضيات، وننتقل من منظور إلى آخر، يصر الأول على أن الأدب هو لغة،

1 - Ibid ; p 60.

2 - Ibid ; p 68.

3 - Ibid ; p 71.

وبالفعل ينتج باللغة، ويعتقد في أن أدبيته لن تخرج عن لغته التي تنزاح في الاستعمال عن لغة الحياة اليومية، ومن ثم ينكب على دراسة لغة الأدب، أو ما اعتقد فيها أنها لغة للأدب فقارب الأشكال والبنيات الشعرية والنثرية معتبرا أن «المعاني مطروحة في الطريق» كما يقول الجاحظ وأن ما يمنحها جماليتها هي هذه البنى اللغوية التي تتأسس بطرق خاصة تمنحها نفسا تصويريا وتعبيريا يحولها عن الوظيفة التواصلية العادية التي تميز خطاب الحياة اليومية إلى وظيفة شعرية تضفي عليها ملامح جديدة لا علاقة لها باللغة العادية.

في المقابل يطرح الاتجاه الثاني العلامة في سياق التواصل والتفاعل بين المرسل والمتلقي، فميز بين الجملة والملفوظ، وجعل ملوظ الأدب أو ما دعاه «تخييلا»، يكتسب خصائصه من خلال سياق التواصل. والأدبية خاصية تخييلية وليست خاصية لغوية، باعتبار أن لغة التخييل في نظرهم لا تختلف عن لغة الحياة العادية في بنياتها الصوتية والتركيبية والمعجمية؛ ويكتسب التخييل شرعيته المعرفية والتواصلية من خلال التوافق القائم بين المتحاورين على الاعتقاد بأن هذه الملفوظات تمرر أخبارا لا صادقة ولكنها ليست كاذبة لأنها لا تقصد تضليل المخاطب؛ إنها خطابات لا حرفية تلتقي مع الاستعارة في بعدها الإيحائي، وتتميز عنها بهذه العوالم الافتراضية التي تختلقها وتشكل منها جسر التواصل مع المتلقي وتمرر عبرها معرفة يعتقد فيها المتكلم ويحمل مخاطبه على الاعتقاد فيها أيضا.

فأدبية التخييل عند التداوليين إذن تكمن في إكساب الشرعية لهذه الكيانات التخييلية عبر منحها طبائع وسلوكات وأفعالا تماثل طبائع الكيانات الواقعية الحقيقية وتجعلهم جميعا يتكلمون اللغة نفسها، وذاك ما يوحد الرؤى والمشاعر والأفكار، فيندمج القارئ في هذه العوالم دون إحساس بالاختلاف أو التنافر والتباعد؛ وبصورة يتعاطف أحيانا مع بعضها وينفر من بعضها الآخر وكأنه يتعامل مع كيانات فعلية واقعية تشاركه مسار حياته اليومية.

بناء على هذه الصورة المتجددة لمفهوم الأدب والأدبية أضحى من الضروري إعادة النظر في الطريقة التي نتعامل بها مع المتون الأدبية، سواء من حيث طبيعتها أو من حيث الأدوات التي نقارب بها هذه المتون. الأدب مؤسسة، وهو مؤسسة فاعلة في الحقل الاجتماعي والثقافي والسياسي، وينتج معرفة خاصة، ليست وظيفتها تصوير الواقع فتقول ما يقع فيه، ولكنها مؤسسة تعيد إنتاج الواقع من خلال هذه العوالم التخييلية التي تطمح إلى تجاوز لا انسجام الواقع الحقيقي المعيش، إلى بناء عالم ترى فيه ما يجب أن يكون عليه الواقع؛ تؤسس لحقيقة جديدة هي غائبة عن الواقع لكنها ممكنة التحقق فيه.

الأدبية إذن ليست أشكالا وإنما جواهر تدعونا للبحث عنها وتمثلها ونحن نقرأ هذه العوالم التخييلية، وتعبر إلفي بولان عن هذا بقولها:

«إذا كنا نحن – القراء المنتمين إلى الحقل العلمي – نستمر في قراءة أكاذيب الشعراء، أي نقرأ القصص التي ليست متحققة في الواقع المعيش، فلأننا نعتقد على أن الأدب يحمل لنا شيئا إضافيا بالنسبة لهذا الواقع. نعتقد أنه ظاهرة ثقافية تنقل القضايا التي تطرح على هذه الثقافة ذاتها»[1].

1 - Approche pragmatique de la littérature ; p 45.

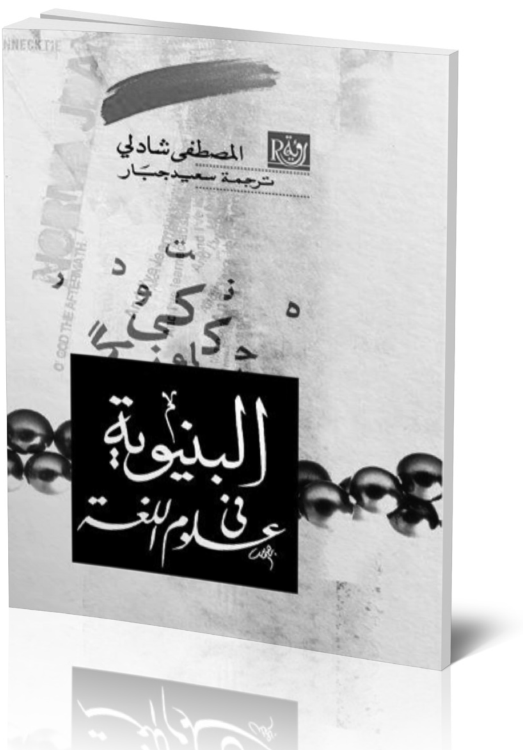
المصادر والمراجع

أ - العربية

- نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين. 1982.
- آن روبول وجاك موشلر:
  - التداولية اليوم،علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني. مراجعة لطيف زيتوني. المنظمة العربية للترجمة.
  - القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الباحثين، بإشراف عزالدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد. منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس. 2010

ب - الأجنبية

- Culler. j ; la littérarité ; in Théorie Littéraire. Puf Fondamental. 1989.
- Frye. N ;Anatomie de la critique ;Paris ; Gallimard.1968.
-Jakobson. R ; Essais de linguistique générale, éd Minuit Paris. 1973.
- Poulain. E ; approche pragmatique de la littérature . Ed l'Harmattan ;2006.
- Reboul. A :
  - Réalités de la fiction ; livre électronique.
  - Rhétorique et stylistique de la fiction, presse universitaire de Nancy, 1992.



سردية الازدواج: قراءة في النص السردي
«حي في العماء» لرشيد يحياوي

عبد الرحمن التمارة[1]

تمهيد

خضعت الرواية لمسار تطوري متميز، فانفتحت على الجديد باستمرار، الذي لا يعدم القديم أو ينفيه، مستفيدة من التّحولاّت التي تمسّ الإنسان في سيرورته الوجودية. لهذا، خاض الروائيون مغامراتهم الإبداعية وفق منطق جمالي وفكري قوامه الإنتاج الخلاَّق، حيث يميل المبدع-الروائي إلى دعم المُنجز الروائي ورَفده بالجديد؛ سواء على مستوى المتخيَّل النَّصي القائم على مرجعية نوعية، أم على مستوى بناء هذه المرجعية النَّصية بآليات فنية وجمالية وخطابية ملائمة.

ساهم الإبداع الروائي الخلاَّق، إذاً، في اكتشاف عوالم مجهولة، فتجلّت الكثير من المنجزات الروائية داعمة مسار التطور الروائي. يكشف الوجه الآخر لهذه الفكرة ثلاثة أمور تبدو متعالقة، أثناء الحديث عن حركية الفعل الروائي، وهي: أولا، كل فعل تطوري في إنتاجية النصوص الروائية لا يعبِّر دائما عن إنتاجات كاشفة انعطافات تطورية نوعية، بل قد يدل على إضافة كمية تفتقد للإضافة الدلالية والجمالية. وثانيا، إن التباين بين النصوص الروائية في مسار التطور راجع للكفاءة الأدبية، حيث يمتلك المبدع-الروائي إمكانات خاصة ونوعية تفصح عن إتقان «الصَّنعة الروائية»، والتحكم في سيرورة تكوُّن النص الروائي وتخلُّقه بما يضمن تميُّزه النوعي. وثالثا، إن نظرية النموّ الدائم، والطفولة الأبدية، للرواية مقترنة بالتّحولاّت المتعدّدة التي يعرفها الواقع البشري، بمداخله المختلفة والمتنوعة، مما يطرح على الرواية مواضيع متعددة تشكِّل مرجعياتها النصية، فتضيء ما لم يَلْقَ اهتمامات في المنجز الروائي.

لازمت الرواية حركية الإنسان في الوجود، فأنتجت جديدها باستمرار، محققة تراكما إنتاجيا نوعيا، ومدعمة عمرا سرمديا لجنس أدبي لا يشيخ. وبهذا، فالروائي يشتغل بمنطق الإضافة النوعية وليس الكمّية، مادام يبني عوالم دلالية يحكمها التخييل، بأفعاله المختلفة، وتؤسسها وسائط فنية وجمالية وخطابية. هكذا، تتمرد الرواية على مبدأ عدم صلاحية بعض الموضوعات لبناء مرجعيتها النصية، وتنتصر لمبدإ «الصناعة الروائية» القائلة بإجادة تشييد النص الروائي مهما كانت طبيعة العوالم التي يقاربها محكيه. من هنا، فما هي العوالم التي يبنيها النص السردي «حي في العماء»[2] للناقد والأديب المغربي رشيد يحياوي؟ وما هي الأبعاد

---

1 – أستاذ باحث بجامعة مولاي إسماعيل/ الكلية المتعددة التخصصات، الرشيدية/ المغرب.

2 – رشيد يحياوي، حي في العماء، سرد، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، سلسلة إبداع 2012.

والدلالات التي تنفتح عليها تلك العوالم المتخيّلة؟ وبأي آليات جمالية وخطابية تَمَّ بناء هذه العوالم المؤسسة لمرجعية النص السردي؟

1 - الازدواج أساس المحكي

تنفتح مرجعية النص السردي «حي في العماء» على عالمين بارزين؛ الأول أساسه الإنسان ممثَّلا نصِّيا في شخصية حَيّ، والثاني قوامه الحيوان مجسَّدا في حيوانات الجزيرة المختلفة. لا ينفصل الكائن البشري النَّصي (حي) عن الحيوانات، بل يتّصل بها في جزيرة خالية من الإنسان؛ فيحاورها ويعايشها ويصارعها ويتأملها.. إلخ. وبذلك، يصير المحكي فانتاستيكيا، فيتخذ صفة العجائبية التي تجد أساسها في «تكلم حيوانات» الجزيرة مع الذات النصية البشرية (حي). لكن ذلك لا يعدم وجود عالم الواقع؛ لأنه «ليست هناك رواية فانتاستيكية تفتقد لجذورها في الواقع، ويكون الواقعي في تمظهراته هو الجانب المستهدف في التبئير الفانتاستيكي»[1]. من هنا، تتجلى المرجعية البانية للنص السردي «حي في العماء» مؤسسة وِفق قانون الازدواج: المحكي الفانتاستيكي (العجائبي أساسا)، والمحكي الواقعي. فما هي المكونات العجائبية والواقعية في المرجعية النصية؟ وما هي الأبعاد الممكن توليدها من أنساقها؟

تقترن مرجعية النص السردي «حي في العماء» بشخصية «حي» الذي يقيم في جزيرة مجهولة وحيدا، عالمه الطبيعة وأصدقاؤه الحيوانات، يراوح في الإقامة بين كهف التأملات، وبيت بدائي يحيِّن زمن الإنسان الأول: «أغلب وقته [حي] يقضيه بين الكهف الموجود على بعد عدة أميال غرب الجزيرة، وبين بيته الذي أقامه من جذوع وألواح الأشجار في طابقين؛ سفلي يضمُّ كثيرا من أغراضه وأدوات يستعملها للصيد والطبخ، وعُلوي يظهر كأنه معلق بين الأغصان»[2]. لا يتعلق الأمر، هنا، بـ «إنسان الله الإنجليزي»، الذي قذفته الأمواج وحيداً إلى جزيرة مجهولة»[3]، كما رسمه «دانييل ديفو» في روايته المعروفة «روبسون كروزو»، وإنما بإنسان مجهول لا تُعرف الأسباب الحقيقية الكامنة وراء وجوده وحيداً بالجزيرة المجهولة بدورها.

تعددت الحكايات وتضاربت في شأن وجود «حي» بالجزيرة، في إشارة رمزية إلى وضع الإنسان ذاته في سياق أسئلة متعددة حينما ينبثق بوصفه مجهولاً في مكان ما. وكأنّ الوجود الإنساني مؤطر بسببٍ دالٍّ على تحققه، لكن الجهل بهذا السبب يوَلّد أسئلة الفضول المعرفي القاضية بإدراك تحقق الإنسان في سيرورة الوجود. وجود «حي» في الجزيرة معلوم ومحقق، وسبب وجوده مجهول: «من تلك الروايات ما يقول إن أمه ظبية..» [4]، و«يقال إن حيّا ربما كان حفيدا لإحدى أشجار تلك الجزيرة»[5]، و«توجد رواية ثالثة تزعم

1 -شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص 49.

2 - رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 13.

3 -فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، ص 20.

4 - رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 120.

5 - نفسه، ص 115.

أنه خلق من حركة المدّ والجزر»[1]، أو «كان أميرا وألقى به التاريخ على سواحل تلك الجزيرة إلى أن تسلّمه زمن مجهول وخرج بين حالات التَّيْهِ ينْقَلبُ مع المياه»[2].

يكشفُ الجهل بالماضي عن انفتاح الحاضر على جهل مضاعف، ويوحي تعدُّد الروايات حول وجود «حي» بالجزيرة بالتميز النوعي لهذه الشخصية من جهة، وباقتران وجوده بعالم عجائبي (حفيد شجرة، وُلِد من حركة البحر) من جهة ثانية. من هنا، يظهر أن مأساة الإنسان تتولّد من عَدَم قدرته على التكيّف مع تحققه الطّارئ، مهما كانت أصول وأسباب ذلك، بينما بَهاءُ الكائن البشري راجعٌ لامتلاكه سلطة التلاؤم مع الفضاءات التي قُذف إليها وصار فيها غريبا ومجهولاً. إنه الخيار الذي نهجه «حي» في الجزيرة الخالية من البشر، والمليئة بالحيوانات، فعقد علاقات، مؤطرة بسلطة العجيب، مع كائنات الجزيرة الحيوانية، منتهكاً سلطة التراتب بين الإنسان والحيوان.

لم تعُد سلطة الإنسان الطارئ على الجزيرة المأهولة بالحيوانات مرهونة للوغوس (العقل)، الذي منحه تقديراً نوعياً بين الكائنات، كما تؤكده الثقافة الميتافيزيقية، بل إن سلطته ارتبطت بقدرته على تدبير الاختلاف (إنسان–حيوان) عَبْر جمالية التقارب المؤطرة بقلب معادلة الترويض. لا يطمح الكائن البشري النَّصي (حي) لترويض حيوانات الجزيرة، بل يرغب في تحقيق التواصل معها، وفهم عوالمها بمختلف امتداداتها، وفي ذلك تحقيق لذاته وتجاوز لوحدته وعزلته وضعفه..: «كان حي من طول مخالطته للحيوانات قد تعرّف على لغة بعضها، ومكنته تلك المخالطة من التعرُّف على عادات الحيوانات وسلوكها في التجمّع والتفرّق، وفي التآلف والتنافر»[3].

تُعمِّق مقولتا «المخالطة» و«التعرّف» بنْية الازدواج؛ حيث المرجعية النصية مؤسَّسة على عاملين مفارقين في الهوية والنوعية، الأول عالم الحيوان وهو الأصل، والثاني عالم الإنسان–حي وهو الفرع. عجائبية المحكي نابعة من ثقل الإنسان وخفة الحيوان، ومن تعلّم الأول من الثاني. هل هو إقرار بثقافة جديدة قوامها الضُّعف الإنساني رغم سلطة العقل؟

قد تكون الإجابة بنَعَم غير كافية. لهذا، أمكن القول إن السؤال ينطوي على الرغبة في الإقرار بأن أهمية العقلانية تكمن في التّطلّع لمزيد من المعارف، ضمن سياق يمكن نعته بجمالية الفضول المعرفي؛ حيث الذات الإنسانية تنزع لتعميق معارفها وتنويع ثقافتها، فتزاوج بين البحث في عوالم الإنسان وعوالم الحيوان. إنها الخلفية المعرفية التي حركت «حي»، فاتخذ المغامرة أداته وخيّاره لاكتشاف الجزيرة بمختلف مكوناتها، بعدما تعرّف على الكثير من عناصرها التكوينية. أراد «حي» اكتشاف «جبل الضباب»، فهاله المنظر المرعب للذئاب المقطوعة الرؤوس. عاد من مغامرته في الجبل الوعر، واتخذ طريق المغامرة من جديد راغباً في الاكتشاف؛ اكتشاف داخل عالم طبيعي محكوم بتنوع مدهش: «البحر أمامه والصحراء وراءه، إلى يساره الجبل وإلى يمينه ذلك المدى المترامي»[4].

1 – نفسه، ص 121.

2 – نفسه، ص 121.

3 – نفسه، ص 14.

4 – نفسه، ص 58.

تَرشحُ الطبيعة بأسرار مختلفة، والإنسان مطالب بكشفها؛ لأن في ذلك كشفا للكثير من حقائق الوجود. ومادامت إرادة الإنسان لا تُحدّ، فقد تبنّى الكائن النّصي «حي»، المُعبِّر في سياقه الرمزي عن ذات إنسانية، خيار المغامرة، محررا نفسه من عالم أدرك الكثير من خصائصه، وناشداً أفقاً معرفياً جديداً. هكذا، «بلغ حي حصن الوصايا بعد رحلة طويلة شاقة دامت يومين من قدم الجبل»[1]. تعبُ الرحلة بدَّدهُ لقاء عاصف مع امرأة «ثملة بالحماسة» و«مشتعلة بالشهوة»، كما أفضت الرحلة إلى اكتشاف أوراق دالة على هوية ملتبسة ومتمفصلة إلى العجيب والعادي؛ أوراق يتحقّق مبدؤها في صفة حبّ المغامرة لدى «حي»: «إن حيا مفتون بالمغامرات حتى لو لم يتضح له الاتجاه الذي يغامر فيه»[2]. ويتجسد منتهاها في وضعية امتداد «حي» في الزمان والمكان، وما يصاحب تلك الوضعية من ازدواج مثير بين عالم بدائي وعالم حديث ومتقدم. إن هذا يثير الغرابة ويوَلِّد الدهشة من سيرورة «حي» في الوجود، وصيرورته القائلة بغرابة التحوّل: «سيظهر حي في الشرق الأوسط ويغادره على بغلة شهباء نحو بلاد المغرب كي يفتح بقية أوربا، لكنه يخضع لاستنطاق طويل يشارك فيه محقق شاب بالغُ الحماسة في التحقيق. بعدها يبيع بغلته في سوق للحمير به استوديو مفتوح، ويتصدق بثمنها على فرقة صوفية تقرع الطبول، ثم يتجه نحو حانة تسمى حانة العجزة يستقبله فيها زبناؤها بالزغاريد وهتافات النصر وقرع الكؤوس وشعارات تُمجِّد الصراع بين الحضارات»[3].

اشتغل هذا المقطع السردي بوصفه استباقا أطّر مسار «حي» في مغامرته لاكتشاف داخل الجزيرة؛ حيث إن «حيًّا» لم يخترق في رحلته الاستكشافية فضاء الجزيرة فقط، بل اخترق الزمن كذلك، مجسِّرا المسافة بين أزمنة ماضية وأخرى حالية ومستقبلية. اكتشف «حي» البحر وعجائبه، وسامر حصانه في أمور شتى، ثم ظهر في بغداد حاملاً «مشروعا سياسياً» قوامه إعادة تجربة القائد السياسي المغربي «طارق بن زياد» بالإضافة والإغناء، عبر فتح أوربا وعدم الاكتفاء بالأندلس. طموحات مشروعة لذات نصية خبرت عالم الإنسان وعوالم الحيوان والنبات سنين عديدة بجزيرة مجهولة، لكنها طموحات اصطدمت بالفهم المقلوب لها من لَدُن جهاز المخابرات، حينما وصل «حي» الحدود الجزائرية-المغربية، لتكن حانة العجزة المقصد والمنتهى بعد إطلاق سراح «حي».

يتعيّن «حي» جزءاً من خرافة حيناً، وذاتاً نصيّة دالة على الحقيقة حينا آخر. سيرة «حي» أسست مرجعية نصية لحكي ما بعد الحداثة؛ حين يقود التّمثل إلى بناء المحكي وِفق منطق الازدواج، لذلك، «يكشف [تخييل] خرافة ما بعد الحداثة، على مستوى من المستويات، عن عَمليّة التمثيل السّردي لما هو واقعي أو وهمي، وعلاقتهما المتبادلة»[4]. لهذا، أمكننا قراءة النسقين الواقعي والعجائبي، داخل النص السردي، في ضوء مقولتين رمزيتين: عبث الانتظار، وامتلاء العجيب.

كل انتظار لا يسفر عن نتائج نوعية يتلُوه إحساس بالخيبة، وكل إحساس بالخيبة يُوَلِّد السخط على العالم، أو ينتج الاستسلام المحبط وإعادة الانتظار القاسي. وبهذا، فمن يغامر ويرحل، متجها نحو هدف

1 - نفسه، ص 65.

2 - نفسه، ص 70.

3 - نفسه، ص 70-71.

4 -ليندا هتشون، سياسة ما بعد الحداثة، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1/ 2009، ص 118.

أو صوب تَيْهه وضياعه، يتمرد على انتظاره. فما الداعي لوسم النسق الواقعي في مرجعية النص السردي بمقولة عبثَ الانتظار؟

يرحل الكائن البشري، كما يجسده حيّ نصّيّاً، باحثا عن معنى لوجوده، فيختار المصاعب والعراقيل، ويواجه الطارئ والمستجد والغريب. نفض «حيّ» عن نفسه الخمول، فتمرّد على سكونه وثباته بلغة، وعلى انتظاره بلغة أخرى. غادر «حيّ» عالما ناشدا الاكتشاف، فتحقق مراده. وبهذا المعنى، فإن الكائن البشري مطالب بالتمرد على قيوده المعنوية، للبحث عن مستقبله بفعله وحركته الدّالة في حاضره. لا معنى للانتظار المصحوب برؤية انهزامية ونزعة بكائية، أملاً في تحول الأوضاع المحيطة بالذات. إن الانتظار سكون، والسكون مؤشر على «موت» تعيشه الذات المنتظِرة، والموت الرمزي يدعم عبثية الانتظار. من هنا، فالامتداد الرمزي لمقولة «عبث الانتظار» يؤكد أهميةَ الحركة والفعل، بالنسبة للكائن البشري، على الثبات والسكون. وبالتالي فالإنسان مطالب بالتمرد على وضعه، بحركة منتجة وولودة، مما يُصيّره كائنا فاعلاً ومنتجاً، ولو تطلب ذلك الانسياق وراء طموحات قديمة من جهة، ومواجهة السَّديم والعماء من جهة ثانية: «حيّ الذي كان طفلا في زمن غابر، اشتدّت عليه حبال المتاهات. تأبّط حنينا ليجابه العدم أو بهو العتمة»[1].

يظهر أن الوجه الآخر لعبثية الانتظار هو بهاء الحركة؛ في المقولة الأولى ينكسر الكائن البشري أمام الإحباط والقلق والضياع..، وفي المقولة الثانية يشمخ الإنسان بمعرفته واكتشافه وتجربته... إلخ. لكن عبث الانتظار قد يدفع الذات الإنسانية، يعبّر عنها نصّيا حيّ، إلى الإقدام على فعلٍ أَخْرَقَ. هكذا، يقترن لدى الكائن البشري الفعل والحركة بالتيه والضياع، فيصير مقذوفا في عالم كابوسي قوامه الإحساس بخواء الوجود. وبالتالي، يتطابق الفعل والانتظار، لأن الأول (الفعل) غدا مفرغا من قيمته، فصار طموح التمرّد على الثاني (الانتظار) مقروناً باليأس من الوجود والكينونة، وليس الأمل. وبهذا، فالفعل البَهي، المقرون سببا بتجاوز الانتظار القاسي، يجب أن يكون خصيباً مثمراً، وليس معمقا أزمة الذات الإنسانية، خاصة أمام كائنات حية موسومة، في التصور الميتافيزيقي، بالدّونية (حيوانات الجزيرة في النص). لهذا، فالفعل الذي يحرر الإنسان من انتظاره العبثي، المقترن بالنسق الواقعي، يصير ترميزاً دالاًّ على إنتاجية محققة؛ أهم عناصرها اكتشاف موقع الذات في العالم، سواء بالإشادة بها والإعلاء من قيمتها، أم بتبخيسها واحتقارها، فصار أكثر عقلانية من الكائن البشري المهزوم بأعطاب شتى.

يتعالق الانتظار العبثي والفعل الحركي في ترابط سببي؛ فقد يفضي الفعل إلى نتيجةٍ مُرضيةٍ تحرر الذات الإنسانية من إحساسها بعبثية الوجود، أو ينتهي إلى وضعية تُعمّق الخيبة وتضاعف الشعور بالعبث. يفضي التأمل في منتهى رحلة «حيّ»، إطلاق سراحه والاتجاه نحو حانة العجزة، إلى تأكيد عجز الذات الإنسانية، أحياناً كثيرة، عن تغيير وضعها بعد الفعل. وبالتالي فكثير من الكائنات البشرية تقدم على فعل، عساها تتحرر من انتظارية قاتلة، لكنه يفضي بها إلى «لا شيء»؛ سوى عالم مليء بكائنات مُنْسَطِلَة ومنشغلة بتيهها وغيابها الروحي، رغم تحققها الوجودي. هل هو إقرار بأن الانتظار العبثي قد يفضي لفعل مفتوح أمام عناصر عابثة بالمسؤولية، مما يجعل الذات ضائعة؟

1 – رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 110.

يفضي التأمل في سيرورة الذات النَّصية «حي» إلى القول إن الجواب بنعم قد لا يشفي الغليل. لهذا، فرمزية الفعل والحركة (الرحلة نحو الجزيرة ومنها)، مهما كانت طبيعيته، تؤكد أن الإنسان كائن طامح لتغيير واقعه. لذلك يتمرد على انتظاره ويغامر علَّه ينتصر، أو تعترض سبيله عراقيل (في النص الجهل والسلطة) فينكسر. لذلك، قد يُتاخم اليأس الفعل الحركي، ورغم ذلك يظل الكائن البشري طامحاً في تحقيق كرامة إنسانية؛ لأن «فعل الانتظار ضرب من اللاشيء أو العدم، تأجيل دائم ومستمر للمعنى»[1]. من هنا، فإن رمزية مقولة عبث الانتظار تعبِّر عن عجز الذات الإنسانية عن اقتحام المجهول وركوب المغامرة من جهة، وتكشف عن التمرد المُفضي لتفعيل آليات المواجهة والردع لمجابهة الصِّعاب والعراقيل، لتحرير الذات من الوقوف على أعتاب الخواء تنتظر ما لا يأتي من جهة ثانية. وهذا يعني أن الفعل الحركي (رحلة بحث حي) قد يؤسس للتغيير في الذات الإنسانية، ويبشِّر بولادة جديدة لها قوامها المتجدد.

يتجاور في النص السردي «حي في العماء» النسق الواقعي والنسق العجائبي، الذي جعلناه، في تأويلنا له، مؤطرا بمقولة رمزية أساسها الامتلاء. فما المقصود بامتلاء العجيب؟

تكشف رحلة «حي» وحركته، داخل جزيرة الحيوانات وخارجها، عن إرادة الكائن البشري، ورغبته في امتلاك معرفة وتجربة جديدة. لكنها رحلة كشفت، بالمقابل عن «واقع» فارغ وملعون، فبدا ثقيلا مُملا. لهذا، تفجّرت الرغبة في المغامرة، بحثا عن خفّة محتملة في عالم كائنات مختلفة عن الكائن البشري في النوع والهوية. المحصّلة أن الذات النصية حققت امتلاءها المتنوع، حيث صار وجودها بعوالم غريبة، وتفاعلها مع مكوناته وكائناته، مدخلاً مهما لاستنتاج مفاده: إن العالم العجيب، بمختلف امتداداته، ممتلئ بدلالات تنقض التمثل الجاهز، مما يساعد في تعميقٍ وعي الذات الإنسانية المنفتحة على هذا العالم (حي في النص). فأين يتجلى امتلاء العجيب نصيا؟

يقول الباحث أحمد زايد، متحدثا عن الأفكار النمطية: «إن الأفكار النمطية تعني المدركات والمعتقدات التي نتمسك بها عن الآخرين (أفرادا أو جماعات)، وتتكون من مجموعة من السمات أو الخصائص التي تميّز جماعات معينة»[2]. يشير هذا الكلام إلى إمكانية جنوح التمثل عن الحقيقة، لكن سلطة النمط تكرس «التمسك» بالمعتقدات رغم خطئها. إن هذه القاعدة تسري على تمثل الكائن البشري للحيوان؛ بوصفه تمثلا تنقيصيا، لا ينقضه سوى الواقع التجريبي عبر المعايشة. لذلك فالتمثل الجاهز يعمق الهوة بين الكائن البشري والحيواني، فيتوجس الإنسان من عالم الحيوان، الأليف والمتوحش، مخافة السقوط في عالمه المحكوم بسلطة الغرائز. لكن في النص السردي، «حي في العماء»، يبدو عالم الحيوان في جزيرة نائية، «راقيا»، لأنه ينتج سلوكا حضاريا. في الجزيرة التي رحل إليها «حي» يجد الحيوان، والحيوان المصاحب له، «يعقلن» غرائزه وأفعاله؛ لا يستغل ولا يخادع، ويتمرد ويثور، ولا يهادن ولا يداهن، ولا يكذب ولا ينافق، ولا يتمركز على نفسه، زاعما أفضلية خاصة بين الكائنات الحية... الخ.

يومئ هذا الوضع إلى الأهمية الوجودية للكائن الحيواني؛ سواء حينما يوغل في غضبه الحيواني، أم

1 – تيري ايغلتون، معنى الحياة، ترجمة: عهد علي ديب، دار الفرقد، سورية، ط1، 2010، ص: 92.

2 – أحمد زايد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات: قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 326، أبريل 2006، ص 78.

حين يمُدّ جسور التواصل مع كائنات حية أخرى. وبالتالي فإن امتلاء العجيب يستمد أساسه الرمزي من جمالية تقدير الذات، دون تحقير لها أو لغيرها، ومن جمالية التوظيف الملائم للقوة والضعف، استجابة لشرطية المقام وحيثيات السياق. من هنا، فإن مقولة امتلاء العجيب تجد أساسها الجمالي نصيا في التأكيد على القصور المعرفي للكائن البشري من جهة، وعلى رفد معرفته بما تصرح به الكائنات الأخرى، أو تلمِّح له من جهة ثانية.

لهذا، فإن غرائبية التّصرف والقول والفعل والسلوك..، التي تميّز الحيوانات المتفاعلة، بشكل مثير وغريب، مع الذات النصية «حي»، تؤكد أن الوضع العجيب مولد لمعرفة تعمق وعي الكائن البشري، وتساهم في امتلائه معرفيا. هكذا يبدو امتلاء العجيب نصيا مؤطرا، في أحد الأوجه، بجمالية المكاشفة؛ حيث تؤسس الكائنات الحيوانية لزمن قوماه الوضوح، صارخة بضرورة فضح سلوك النفاق والتعتيم والمناورة الداعمة انحطاطا قيميا من جهة، وزمن أساسه التضامن والتآلف، لمواجهة كل «عنصر» مفارق، في نوعه وهويته، للجماعة المتآخية من جهة ثانية: «طاف حي بالجزيرة، ثم طاف ببيته. ها هو يدور على نفسه أدواراً كثيرة. بدأ يترنح ويوشك على السقوط. أخير يقع مغمى عليه. تجمعت حيوانات عديدة هذه المرة وكونت حلقة حوله. تآخت في ما بينها؛ الذئاب مع الحملات، والسباع مع الغزلان، والنسور مع الأرانب. شرعت في الدوران حول حي.. دامت على تلك الحال مدة ثم بدأت في ترك المكان والابتعاد عن حي إلى أن بقي ممدا وحده هناك جنب النهر»[1].

يُعمّق تآلف الأعداء عجائبية المشهد، ويدعّم مقولة امتلاء العجيب. لهذا، إذا كان «هيدغر» يرى «أن البشر يتميزون عن غيرهم من الكائنات بالمقدرة على وضع وجودهم الخاص موضوع سؤال بحث»[2]، فإن منطق التميّز قد يَضْعُف، حينما لا يستطيع الإنسان تحويل وجوده إلى سؤال بحث. من هنا، وبناء على معطيات النسق العجائبي في النّص، نستطيع القول إن الكثيرين من الوقائع العجيبة، ذات المصدر الحيواني، تساهم في إثارة الأسئلة المفضية للوعي بالوجود الذاتي والغيري. كما أن الرحلة النَّصية التي قام بها حيٌّ للجزيرة ساهمت في امتلاء معرفي قوي بالذات وبالآخر؛ حيث «تظل الرحلة، في الحالات جميعاً، مجازاً للتحول والصيرورة والانتقال، ودرباً إلى المعرفة والتعلم»[3].

بنى الأديب «رشيد يحياوي»، إذا، النص السردي «حي في العماء» على ازدواج دال؛ الواقعي والعجائبي. فبدا العجائبي واقعيا، وغدا الواقعي عجائبيا. شخصيات العالم الأول ظهرت ضعيفة ومنكسرة ومنهزمة وجاهلة (يمثلها نصيا حيّ)، لكنها امتلأت معرفيا عبر شخصياتِ العالم الثاني، التي تجلّت قوية منتصرة صلبة عالمة (تمثلها نصِّيا حيوانات الجزيرة وكائناتها المختلفة).

2 – بين خِفَّة العماء وثقل الانتظام

ورد في إحدى وصايا الأديب الإيطالي «إيتالو كالفينو» أن: «الأدب كوظيفة وجودية، [هو] البحث

1 – رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 112.

2 – أورده تيري إيغلتون، معنى الحياة، مرجع مذكور، ص 27.

3 – فيصل درّاج، رواية التقدم واغتراب المستقبل: تحولات الرؤية في الرواية العربية، ص 89.

عن الخفّة كردّ فعل على ثقل الحياة»[1]. يكشف هذا القول وضعين متلازمين: الحياة تثقل الإنسان بإكراهاتها، فيتجلى الوجود عالما سديميا. والأدب ينعش روح الكائن البشري، فيتبدد قلقه ويتحول الثقل إلى خفة. إذاً، ثمة ما يبرر تفاعل الخفة والثقل في المرجعية النَّصية للنص السردي «حي في العماء».

انبنت المرجعية النصية للنص السردي «حي في العماء» على مبدأ الازدواج الذي يخلخل التصنيف المانوي (متقدم/ متخلف، عقلاني/ غريزي، سامي/ دوني...)، ويعيد رسمَه كإشكال رمزي يخص الكائن البشري والحيواني في فعله وتفاعله. هكذا، بدت الحياة لدى الذات النصية (حي) رتيبة، ومفرغة من أي معرفة نوعية. لهذا، اندفعت الذات تحارب ثقل عالم هَنْدَسه البشر، وجعلوه خاضعا لنظام يولِّد الجهل والملل، فركبت المغامرة قصد تحقيق رحلة للاكتشاف والمعرفة: «ليس أمام حي سوى حل واحد لمعرفة الحقيقة، أن يهيئ نفسه ويعدّ العدة للرحيل خلف الجبل»[2]. إن الرحلة ترميز للبحث والاكتشاف، والمعرفة ترميز للإدراك والوعي. لذلك، يتحرر الجبل من امتداده الجغرافي وأبعاده الرومانسية، ويصير ترميزاً لفضاء استعادة الخفة المفتقدة في عالم الإنسان.

تتمرد الذات النصية على ثقل عالمها الإنساني المنتظم، وترحل باحثة عن خفة محتملة. وكأن حيا، بذلك، نموذج دال على كل إنسان يستهويه التجدّد، فيثور على العوالم الراشحة بالثقل والرتابة، ثم يرفع شعار التحدي والبحث الكفيل بتوليد الخفة والنشاط من عالم سديمي: «أنا حيّ، إن لم تعرفوني فلن أعرفكما بنفسي، ابحثا عن غيري، اختفيا من أمامي، إني قادر على تقرير مصيري في هذا الهباء الأعمى الذي أسير فيه»[3]. يخطو حيّ بثبات داخل عالم ملؤه العماء، عالم كفيل بتعميق أزمة الذات، لكنه عكس ذلك، يمنحها قوة نوعية تسعفها في مواجهة سديمية هذا العالم. وبهذا المعنى، فانتقال الذات النصية حيّ إلى الجزيرة ساهم في تحررها من ثقل عالمها الإنساني، وصيّرها تشعر بخفة العالم الطبيعي والحيواني الجديد، وإن كانت لا تُلمّ بتفاصيله وعوالمه وكائناته. وكأن الكائن البشري يجد ذاته في عالم يبدو مليئا بمظاهر العماء، ويتجلى مفتوحا على المفارق والمخالف لهذا الكائن؛ سواء في الهوية أم في السلوك أم في الفعل أم في الكينونة.

لا يهمُّ العالم المليء بعماء قاهر، بل ما يهم هو إرادة الفعل القادرة على تحويل هذا العالم وتطويعه، ثم تصييره أداة طيِّعة تساهم في هندسة الخفة بلغة، والتأقلم والاندماج بلغة أخرى: «قال حيّ إنه قادر على تقرير مصيره في ذلك الهباء الأعمى الذي يسير فيه»[4]. لا يؤثر العماء في حركة الذات النصية ولا يشلها، بل يدفعها للتمرد على عطب الانتظام وثقله. إن الذات حيّ جديرة بالمدح، لأنها أفرغت العماء من سلطته، وصيّرته «عماءً منتجاً»، لا يدعم انكسار الذات في عالم الانتظام، بل يقوّيها ويدفعها للتحرر من «شللها» المتنوع والمتعدد الامتدادات.

تكشف خفة العماء عن رمزية التعلم؛ والمقصود بها امتلاك الذات المقتحمة عوالم العماء معارف جديدة،

1 - إيتالو كالفينو، ست وصايا للألفية القادمة، محاضرات في الإبداع، ترجمة وتقديم محمد الأسعد، سلسلة «إبداعات علمية»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 321، ديسمبر 1999، ص 38.

2 - رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 13.

3 - نفسه، ص 63.

4 - نفسه، ص 63.

لأنها صارت محكومة بمبدأ الاكتشاف المعضّد بالمعاينة والتجربة. لذلك، حينما تخوض الذات الإنسانية، مثل الذات النصية حي، تجربة المغامرة في عوالم العماء فإنها تنتقل من الجهل بثقله إلى المعرفة بخفتها، لأن المجهول لديها في عالم الانتظام صار معلوماً في واقع العماء. وبالتالي، فالذات النصية تؤسس لمعرفة نوعية قوامها الارتقاء بالفكر، لأن العماء الذي يساهم في تطوير الذات معرفيا هو عماء خلاّق، مما سيساهم في ارتقائها وإدراكها. هكذا، تغدو الذات قادرة على تحويل كل لحظة عماء إلى خفة نوعية، ويصير العماء عندها مطلوبا ومرغوبا، كونه بوابة للارتقاء المعرفي والتجدد الوجودي: «ظل العماء كل جهاته[حيّ]»[1].

ينتج التأقلم مع العماء إدراكاً نوعيا للوجود والحياة، ويعمق الوعي بهما. لهذا، تُسهم مواكبة السديم في العثور على نوره وخفته، وتجاوز ظلمته وثقله: «رأى [حي] أن الجهات والأعراض والجواهر كلها فانية، فأدرك أن هناك وجوداً آخر في العماء»[2]. إنها رؤية أخرى للعماء؛ رؤية يقول وجهها الأول إن مغامرة الاكتشاف تلغي الأفكار المسبقة، وتثبت معارف جديدة يؤسسها وعي جديد. ويقول وجهها الثاني إن شقاء العيش في النور والخفة يعطي معنى للوجود، ويعزز القوة الكفاحية للذات الباحثة عن نور العماء وخفته. وهذا يستتبعه الشعور بجمالية الحياة وبهائها، حيث «إنّ درايتك بحقيقة أنك تبلي حسنا يمكن أن يعزز إحساسك بالرفاه»[3]. قياسا على هذا الفهم، وارتباطا بعالم النص السردي، فإن إدراك كُنه العماء وعمقه يقوِّي البحث عنه، مما يعني تضاعف الشعور بالتخلي عن النظام، والعمل على الغوص في العماء: «لقد هوى [حيّ] عميقا في العماء»[4].

تعمّق مرجعية النص السردي «حي في العماء» الوعي بإنتاجية العماء؛ حيث الذات النصية تهجر عالمها الإنساني باحثة عن معنىً لوجودها في عالم الطبيعة، بامتداداته الطبيعية (الجبل والبحر والصحراء..)، ومكوناته الحيوانية (الذئب والفرس...). رأى حيّ في عالم السديم ما لم يره في عالم الانتظام، فأرضى رغبته في معرفة وإدراك الغائب والمضمر في عالم العماء. وهذا أتاح لنا القول إن العماء لا يقاس بهويته المفارقة للانتظام، بل بعمقه الدلالي والرمزي، وبالإيحاءات المنبثقة عنه، والمدلولات المتولِّدة منه. وبالتالي، فمرجعية النص السردي تؤسس لرؤية دالة تقول أولا بأن الكائن البشري قد يعيش عنفوانه وبهاءه في حياة ملؤها العماء، فيتجلى كائنا خلاّقا يولِّد حياته من السديم، فيبدو «حيا في العماء». وتقول ثانيا بأن معنى الحياة يتولّد من سلطة التجريب وروح المغامرة؛ لأن ذلك كفيل بجعل الذات الإنسانية، على غرار الذات النصية حي، تنقض التصورات المألوفة، وتبني بدلها «حقائق» جديدة.

رحل «حي» وسافر باحثا عن معنى جديد لحياته، فاكتشف أن العماء يمنح الذات الخفة والنور، بينما الانتظام أرهقها بالثقل والظلمة. تحقق الإشباع المعرفي، وانتشت الذات النصية «حي» برحلتها للجزيرة، لكنها عادت لعالم الإنسان؛ عالم الانتظام المفتوح على المآسي والمعاناة. وبذلك، تكون العلامات البانية لمرجعية النص السردي «حي في العماء» معبِّرة عن «ثقافة الدائرة»؛ حيث الذات الإنسانية تراوح مكانها بين الثقل والخفة، وبين الانتظام والعماء، وبين الجهل والمعرفة. وفي مراوحتها تلك تُحقّق معرفة نوعية

1 – رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 121.

2 – نفسه، ص 122.

3 – تيري إيغلتون، معنى الحياة ، ص 35.

4 – رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 124.

بالكائنات والفضاءات، فيقودها تحررها وحركتها البحثية وسلوكها المغامر إلى اكتشاف جمال الوجود، ومعرفة جوْهر الانتظام وكُنه العماء.

تؤسس مرجعية النص السردي، إذاً، نمطا سرديا قوامه بهاء العماء؛ حيث تتداخل العوالم وتتعدد الموضوعات، لكنها تظل مشدودة لبنية ترميزية وأنساق تخييلية تُعبّر عن الوجود والحقيقة والمعرفة.. الخ. وبهذا، يشتغل العماء نصيا كإستراتيجية رمزية للإطاحة بالتّمثّل النّمطي لعالم الانتظام، أو التنقيصي للحكاية الخرافية. وكأن تسريد الخرافة، بامتداداتها العجائبية والواقعية والرمزية، هو صياغة لعالم رمزي دال على امتلائها بمعارف متنوعة، وعلى قوتها الكامنة في تأسيس هوية مزدوجة قوامها الالتباس الخرافي والوضوح العقلاني؛ بالرغم من التمييز الخاضع لسلطة اللّوغوس الذي يجعل «العقلانية والخرافة نقيضان»[1].

لم تنكشف خفّة العماء في النص السردي لولا سلطة الفعل؛ فالذات النصية اتخذت الرحلة والسفر منطلقا، مما قادها لمواجهة عوالم غريبة غير مألوفة من جهة، وأرشدها للإدراك والمعرفة من جهة ثانية؛ مادام «الإنسان هو المخلوق الوحيد على وجه الأرض الذي يملك القدرة على مقاومة تأثير الخدر الذي تحدثه إحدى البيئات المملّة»[2]. هكذا، ولجَت الذات النصية عوالم المجهول والعجيب وغير المألوف..، فبادرت وتنبأت وعجزت وضعفت..، مما ساعدها على إنتاج فهم لذاتها وللعالم المحيط بها، وإعادة النظر في تمثّلاتها السابقة وأفكارها النمطية أو الثابتة. وبهذا المعنى، فالعماء كفيل بتحرير العقل البشري، ودفعه لفهم العالم عبر ما يسميه كارل بوبر ب«الإبداعية الشعرية»؛ بوصفها إبداعية يتعالق فيها الإبداع ب «تفسير العالم»، لأنه حين «أحس البشر أنهم بين يدي قوى مجهولة، وعن طريق ابتداع الحكايات أو الأساطير حول هذه القوى، يحاولون تفهم العالم وتفسيره، وحياة الإنسان وموته»[3]. وبذلك يتجلى الانفصال عن عالم الانتظام انفتاحا على عالم العماء، باعتباره نموذجا وجوديا رمزيا يسعف الذات في اكتشاف نفسها، ويساعدها في إدراك العالم من حولها.

3 - سلطة العبور تفعيل للمابين

يفضي الانطلاق من القول الآتي: «إذا كان مفهوم المابين يتضمن الأصل من جهة اشتغال بنيته، فإنه من حيث علائقه يستدعي مفهوم الاختلاف، لأنه يؤشر دائما على وجود فضاء جديد، مغاير للفضاءين الأصليين اللذين يتوسطهما»[4]، إلى تبيّن معالم التميّز بين الفضاء الذي انطلق منه «حيّ»، والفضاء (الجزيرة) الذي ولجه. وبذلك، تكون سلطة العبور، وارتياد عالم الجزيرة المجهولة، متحكمة في تفعيل وضعية المابين. فكيف يتجلى المابين في النص السردي «حي في العماء»؟

ساهم العبور في بنية المابين كتمفصل بين عالمين؛ الأول يمثله عالم الواقع باعتباره عالما إنسانيا موسوما بالانتظام، ومشروخا بمشاعر التمايز والأفضلية على مستوى الفعل والهوية. والثاني يشكله عالم الجزيرة

1 - رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 116.

2 - كولن ولسون، فن الرواية، ترجمة محمد درويش، ص 121.

3 - كارل بوبر، أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير مارك نوترنو، ترجمة أ.د يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 292، أبريل/ مايو 2003، ص 67.

4 - محمد بوعزة، هيرمينوطيقا المحكي: النسق والكاوس في الرواية العربية، ص 157-158.

بوصفه عالما فانطاستيكيا غريبا مفتوحا على العماء والفوضى، لكنه عالم متخيل مفتوح على المعرفة النوعية وسلطة الحرية واكتشاف الحقيقة.

يشتغل المابين في النص على إعادة بنية العوالم المتخيّلة، وخلخلة المألوف والمتداول حول «عالم الأصل»، استجابة لسلطة العبور. وبهذا المعنى، «يتبين المابين كعبور للأصل، وانتهاك لحدوده»[1]. لم يعد عالم الإنسان هو الباني للمعرفة والمنتج لها، بل صار عالم الفانطاستيك هو القائم بهذا الفعل. وبذلك، حينما رحل «حي» عن عالمه الإنساني الواقعي، صاحبه الغرور المعرفي وهو يبحث عن جواب لأسئلة إشكالية. لكن عبوره للجزيرة، وتبادله للحوار مع حصانه، وبعض حيوانات الجزيرة، قاده ليطمئن لجهله، وصار ينزع لمزيد من الغوص في العالم العجائبي. وبذلك، يُعدّ العبور نحو عالم مفارق للعالم الإنساني منطلقا لتوليد كائن يخبو تبجحه، الذي تكوّن في عالم الإنسان الواقعي، ويزداد يقينه بضعفه المعرفي، وبحاجته الماسّة لمزيد من المغامرة في عالم الحيوان والفانطاستيك، مع ما يستتبع ذلك من تطلّع كبير للمعرفة: «الإنسان إذن أولى بأن يهاجر متتبعا أسئلة يفكر فيها أو منقبا عن جواب لسؤال لم يهتد لحله»[2].

يمثل السفر والهجر تجاوزاً لحدّ يثقل الذات بشعور الضعف، شعور ملؤه البحث عن قضايا شائكة في محيطه الوجودي، وتحقق كينونته؛ سواء كان الحافز للعبور والتمسرح بين عالمين سؤالا، أم كان جوابا لم تتبدّ معالمه بدقة. وهذا يعني، أنه «بترهين سيناريو انتهاك الحدود في عالم المابين، تحاول الشخصيات التغلب على النقص الذي تعاني منه في عالمها المألوف»[3]. قاد عالم الحيوانات الفانطاستيكي شخصية «حي» كي تداري جهلها به، وتحقق امتلاء معرفيا بهذا العالم.

لم يبق «حي» حبيس تصور تنقيصي مشوّه عن عالم الحيوان، بل أدرك أن عالم واقعه الإنساني مليء بالثغرات، وفي مقدمتها الثغرة المعرفية، مما يُنصِّب الكائن البشري على عرش الجهل العميق بأمور كائنات أخرى. إنها نظرة تترجم أهمية المابين في «تعويض» النقص الحاصل في تركيبة الذات النصية، وجعلها ذاتا ممتلكة لأفق معرفي جديد بالحياة. تقتنع شخصية «حي» بأن الاختلاط بالحيوانات أهم مدخل لمعرفتها جيدا، فيصير الاقتراب منها فعلا داعما للإدراك، مهما أوغلت أفعال هذه الحيوانات في الغرابة. هكذا، يُدرك «حي» أن الحيوانات قد تنقُض قوانين العالم الإنساني الواقعية، وتبرهن على وجودها بمنطق فكري، يدعم عجائبية الفعل الحيواني، مما يحقق امتلاء الذات الإنسانية معرفيا. يقول «كلب حراسة» يتحاور مع «حي»: «إننا لا نحرسها [الأبقار] شفقة عليها، لكن إثباتا لوجودنا وحفاظا على تركة أجدادنا. هل رأيت؟ إنك تعلم بعض الأشياء غير أن جلها يغيب عنك»[4].

يفصح التعبير «الكلبي» عن استعارة الجهل الأبدي الذي يرافق الإنسان، وعن صيرورة الذات الباحثة عن معنى لوجودها عبر المابين. لذلك، يتجلى العبور ترميزاً للتحرر المعرفي للذات الإنسانية وهي تنتقل من عالمها إلى عالم مفارق له. وبالتالي فهو عبور يجعل «حيّا» يتمفصل، بهويته الإنسانية، بين حالتين:

1 – نفسه، ص 157.

2 – رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 13.

3 – محمد بوعزة، هيرمينوطيقا المحكي، ص 160.

4 – رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 19.

حالة المعرفة، وحالة الجهل. يغادر «حي» عالمه الإنساني نحو عالم الحيوانات، بالجزيرة العجيبة، فيتحول من كينونة إلى أخرى. لم يعد منتهكا بجهل متعدد المستويات، بل صار ممتلئا بمعرفة عميقة بأحوال الإنسان والحيوان على السواء.

تحرر «حي» من موته الرمزي، وصار «حيّا» بالقوة والفعل؛ لأن اقترابه من الحيوانات، وتفاعله وتحاوره معها، أكسبه معرفة ممتدة مكنته من وعي حالته وحالة الأشياء المحيطة به. يتوغل «حي» في عالم الخرافة التي شيّدتها حيوانات الجزيرة، وبذلك يتوغل في حقائق كانت مجهولة لديه. لهذا، فثقافة التمييز والفصل بين الخرافة والحقيقة مليئة بالتهافت، لأن التمييز يلغي التجانس والتقارب، ويثبت التقاطبات التفضيلية بينهما. وعلى هذا الأساس، فإن وضعية المابين، القائمة على الازدواج بين حالة الجهل وحالة المعرفة، تُسعف في إدراك ما يختزنه عالم الخرافة من «حقائق» قد تكون أعمق مما يحتويه عالم الحقيقة: «الخرافة والحقيقة أمران مختلفان. أن تكون خرافة لا ينفي كونك حقيقة، وكونك حقيقة لا ينفي كونك خرافة»[1].

يؤكد هذا القول تفاعل التقاطبات (الخرافة والحقيقة)، ويُبشّر بأن العبور مدخل لإدراك الوجود؛ سواء كانت امتداداته حقيقية، أم خرافية. وبهذا، فإن المابين بَنَى هوية جديدة للذات النصية؛ هوية أساسها التحرر من الجهل، وقوامها بناء الذات على أساس المعرفة المتولّدة من تجاوز الحدود وانتهاكها، وتفعيل سلطة الاكتشاف منطلقا لذلك.

4 - جماليات تسريد الازدواج

ساهم التطور الذي مسَّ بناء مرجعيات النصوص الروائية في تبيُّن معالم صيرورة نوعية لهذا الجنس الأدبي، فبدا مساره موسوما بتحوّل واضح ترجَمَتْه مقولة «الجِدّة النوعية»، التي تبدو متضمنة في مصطلح «رواية ما بعد الحداثة». من هنا، تتجلى جمالية الجِدّة في النص السردي «حي في العماء» لرشيد يحياوي، بدْءاً في التحديد الأجناسي، حيث تمرّد الكاتب على العنوان الأجناسي المتداول «رواية»، مثبتا ميثاقا جديدا أساسه «سرد». إن هذه الهوية الأجناسية للنص تُعيد رسم طبيعة العلاقة بين النص القارئ، لأن «التسمية النوعية، حين تكون حاضرة، تقدم لنا انطباعا مسبقا عن خصائص المؤلَّف، وتُملي، بقدر كبير، مراسيم القراءة التي ينبغي إتباعها. وحين تكون غائية، يصبح القارئ في حيرة، حتى تُكشف له سمة من السمات عن النوع الذي ينتسب إليه المؤلف»[2].

تتبدّى سمات النوع الذي ينتمي إليه هذا النص السردي، حينما يميل السرد إلى مساءلة تشكّله عبر خطاب انعكاسي؛ مما يجعل السرد انتهاكا لصفاء التخييل، لأنه يصير سردا، على غرار روايات ما بعد القص، «يطرح تعليقات على بنائها الذاتي [الرواية]، أو على عمليات كتابتها»[3]. لهذا، نتأمل ما يأتي: «فاجأ حيّ الحصان: إن رشيد يحياوي أصابته الخرافة.. وأخذ في التخريف. لقد رأيته يخبط خبط عشواء في بلاد السرد. وبدل أن يحبك حكاية تشوّق الناس لقصتي ويأخذون منها العبرة لمعاشهم ومعادهم، ها إني أراه

---

1 - نفسه، ص 82.

2 - عبد الفتاح كيليطو، المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ص 128.

3 - هيي ساوما، «ما وراء القص: تقانة واقعية الوعي الذاتي»، ضمن: جماليات ما وراء القص: دراسات في رواية ما بعد الحداثة، مؤلَّف جماعي، ترجمة: أماني أبو رحمة، ص 16.

يواصل خبط اللغة ذات اليمين وذات الشمال متذرعا بطلاقة الحكي. ألا إنه طلاق مع ما ينفع الناس وزواج بالهباء الفكري في عماء السرد ذاته (...) إني لا أتفق معه في جل ما دوّنه من سيرتي»[1]. ويتابع «حي» السرد قائلا: «أفكر كيف نخرج جميعا من الخرافة (...) عندها انتبهت لذاتي وأدركت أن المعرفة لا يمكن أن تحبط العالم.. وجدت أن التأويل ملغز والسيرة تفيض، وظهرت لي بياضات لم أجد مسلكا لملئها، وأنا غير مسؤول عن وجودها في حكايتي أصلا»[2].

تعلن الموازيات النصية، المتضمنة في هذين المقطعين السرديين، عن إشارات دالة على الطبيعة الأجناسية للنص السردي «حي في العماء». وهذا يدفع للقول إن الهوية الأجناسية لهذا النص هي: «السيرة الغيرية»؛ أي سيرة تلتقط «القصة» الحياتية لشخصية «حي»، بطريقة تخلخل خطية السرد، وتستند على «طلاقة الحكي». وهي «سيرة خرافية»، لأنها تتصل بشخصية ملتبسة في هويتها الوجودية؛ حيث تجمع بين كينونة فلسفية (حي بن يقظان)، ووجود ورقي (طرزان)، وامتداد إنساني وجودي (كائن حيّ). لكن هذه السيرة الخرافية تنضح بدلالات شتى؛ أي ممتلئة معرفيا في أبعادها، ومفتوحة على مرجعيات ثقافية في رمزيتها. وهذا يجعلها «سيرة» تستدعي التأويل لملء بياضاتها وفجواتها، لاجتراح عدة دلالات لا تفصح عنها الحكاية، بل يولِّدها القارئ ويقترحها في سياق القراءة والتأويل. وبالتالي، فالنص سرد لسيرة خرافية الذات النصية «حي»، تحيل على الامتلاء الرمزي والحيوان. لهذا، فهذا النص السردي انتهاك لسلطة الجنس الأدبي الأحادية، عبر ازدواج أجناسي من جهة، وتأسيس لشكل سردي يقوم على الترميز موضوع المعرفة، عبر مزج بين الخرافي والحقيقي من جهة ثانية.

لا تقف جماليات تسريد الازدواج عند المستوى الأجناسي، بل تتجاوزه صوب عالم النص التخييلي، ضمن سياق فني يمكن نعته ب «جمالية المعرفة». تتجاوز المعرفة هنا طابعها اليقيني، فتصير معرفة يُنسِّبها التخييل السردي، ويُعيد إنتاجها بما يوافق خصائصه التقنية واللغوية والخطابية، وإيحاءاته وترميزاته الدالة. وبهذا، تقترن المعرفة في النص السردي بالتمثيل، باعتباره «الكيفية التي تقوم بها النصوص في إعادة إنتاج المرجعيات على وفق أنساق متصلة بشروط النوع الأدبي، ومقتضيات الخصائص النصية، وليس امتثالا لحقيقة المرجع»[3]. لذلك، تمتد المعرفة النصية لمرجعيات متنوعة، جاعلة المتخيّل النصي مفتوحا على عوالم دلالية متعددة؛ مما يجعلها معرفة تناقض «الحقيقة»، أو تعيد النظر فيها. وبهذا، تكون جمالية المعرفة نصيا مدخلا لبلورة نسق مغاير للمتداول، لأنها تنتهك المألوف وتخترق المتداول، وتجسّر الهوّة بين الإنسان والحيوان.

يستلزم التحقق من تجليات «جمالية المعرفة» في النص السردي «حي في العماء» الوقوف عند نماذج نصية تمثل هذه الجمالية، وتأويلها بما يناسب سياقها النصي. هكذا يمكننا التمثيل بما يأتي:

---

1 – رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 104. والتّشديد من عندِنا.

2 – نفسه.

3 – د. عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2003، ص 51.

- «نظرية الفيض اللغوي، تقول بنشوء علاقة حلول بين الكائن المتكلم وبين كلامه يترتب عليها وجوده في أماكن بعيدة أو قريبة تبعا لتلك العلاقة ولموضوعها»[1].

- «أنت تفترض أن اسمي حي بن يقظان، لكنك لا تملك دليلاً على افتراضك، وحتى ولو افترضنا أني أحمل نفس الاسم، فإن الاسم على كل حال لا يفيد أنه المسمَّى»[2].

- «.. وهذا المنفلت هو موضوع التخييل.

-معك حق يا صاح، معك حق. توجد مساحات فارغة أو ثقوب في ما تدركه بالعين، بل حتى في ما ندركه بالعقل والتخييل. مهما أدركنا لا ندرك الكل في ما ندركه. وتلك المسافات الفارغة أو الثقوب قد لا تتبيّن لنا إلا حين نقلب النظر أو العقل أو التخييل في كل جهات ما ندركه. حينها تنجلي المسافات الفارغة أو الثقوب. وربما ينجلي بعضها دون بعض، وربما ينجلي لي ما لا ينجلي لك. لكنها قائمة في ما ندركه كقيام النظر والعقل والتخييل فينا»[3].

- «.. من يدخل في الكلام ويبقى فيه يشبه من يدبّ على الأرض ولا يغادرها. أما من يدخل في الكلام ويخرج منه، فيشبه من يدبّ على الأرض أولا، ثم يطير ثانيا»[4].

تشير هذه المقاطع السردية إلى عوالم دالة، حيث يمكن أن نشتق عناصرها من طابعها الترميزي، ومن موقعها في سيرورة السرد. هكذا، تومئ تلك المقاطع، أولا، إلى سلطة الكلام المتولِّدة من فلسفة الاندماج (الحلول)، القاضية بخلق شعور قوي بملامسة موضوع التلفظ، ونسج علاقة اتصال قوية به. وثانيا، إلى انفصال المدلول عن داله، لأن ثقافة السائد قد تجعل الأول غير مطابق للثاني، لأن سياق التداول قد ينتج مدلولا جديدا للدال، فتصير العلاقة بينهما منتهكة بقانون السياق وسلطته. وثالثا، إلى نقصان فعل الإدراك، وتباينه من ذات إنسانية إلى أخرى، واختلافه حسب زاوية النظر والرؤية الخاصة، وجوهريته في الذات الإنسانية. ورابعاً، إلى أهمية «الاقتصاد» في الكلام، ودعمه بروح التأمل المفضية للتأمل فيه، لأن ذلك كفيل بالانتقال من التّيه إلى الحركة الخلاّقة المولِّدة للتحرر الرحب.

سبقت الإشارة إلى خفة العماء في عالم النص السردي، «حي في العماء»، وهي خِفة نابعة من عبور «حي» نحو عالم الحيوانات العجائبي، مما أسس لانهيار الهوية الإنسانية المؤطرة بسلطة العقل، وقوانين المنطق ومبادئه. وهذا، يدفعنا للقول إن «جمالية التفاعل الغريب» إحدى الجماليات المؤسسة للازدواج داخل النص، باعتبارها جمالية راصدة لتفاعل شخصيات متباينة في الهوية والنوعية، حينما يتجاوز «حي» عالمه نحو عالم الجزيرة الغريبة. يقف «حي» متأملا أو مصاحبا أو محاورا أو متعجبا.. من شخصيات حيوانية بالجزيرة، التي تتجلى «غير آهلة بالبشر. حي هو الآدمي الوحيد على ترابها»[5]، فيبدو ذاتا نصية

1 - رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 33.

2 - نفسه، ص 40.

3 - نفسه، ص 42.

4 - نفسه، ص 102.

5 - نفسه، ص 114.

مؤطرة بمقولة رمزية قوامها التآلف الغريب. إنها مقولة رمزية تنتهك هوية الإنسان، وتجعلها دالة على شخصية اتجهت صوب كينونة جديدة تعيد النظر في قيمتها الرمزية. وبذلك فهي مقولة أسست لتجاوز منطق القوة الإنسانية إلى الضعف، حيث تآلف الاضمحلال والمحو، أمام قوة الكائنات الحيوانية، مع التحقق والقوة، بعد معاشرة الحيوانات. وهذا يعني، أن مقولة «التآلف الغريب» تكشف الثراء المعرفي للعوالم غير الإنسانية، وتدفع الذات لمعرفة موقعه في سلم تراتب الكائنات الحية، من خلال الفعل الحيواني الراشح بالدلالة و«الحكمة» التي يسوغها موقع الكائن الحيواني (الحصان، الكلب، القرد..) في السياق النصي، القريب من عالم الخرافة؛ لأن «الخرافة «تحاكي» القيمة الرمزية التي يجسدها كل حيوان ضمن مجموع الحيوانات»[1].

يدفع متخيل الخرافة النصية، إذا، إلى التفكير في الذات بناء على منظومة العلاقات، التي تشيدها مع غيرها المفارق، ومع فضاءات العبور العجيبة. وبذلك، يصير الازدواج مدخلاً لبناء معرفة بالإنسان وبالعالم من حوله، تشير في زمنيتها الراهنة إلى أهمية المعرفة، المتولّدة من أسئلة دالة، في السيرورة الوجودية للكائن البشري. هنا، تنبثق جمالية أخرى، يمكن تسميتها بجمالية «سلطة السؤال»[2]؛ باعتبارها جمالية تفتح مرجعية النص السردي على عدد كبير من الأسئلة التي يولّدها سياق التخييل، فيتجلى السؤال داعما لترميز موضوع المعرفة في نص «حي في العماء». ليس السؤال مجرد أسلوب إنشائي بسيط الدلالة، بل مقدمة أساسية لامتلاك المعرفة، وفعل حافز لتحققها، ومؤشر دال على نقص يعتري الذات، فتشرع في البحث عمّا ينقلها من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة: «ثم إن المسألة [المغامرة والرحيل] لا تتعلق بالشجاعة. تساءل حي أيضا أو أضاف: إنها متعلقة بالمعرفة، بل بالأسئلة قبل المعرفة. فالسابقون قد يكونون رحلوا بحثا عن أسئلة أو بحثا عن أجوبة لأسئلتهم. وإلا أي مبرر للبقاء في مكان واحد إذا لم يكن البقاء لعلتين؛ لسؤال، أو لجواب عن سؤال. حتى الحيوانات التي لا أسئلة لها ولا أجوبة لا تكاد تستقر في المكان الواحد»[3].

لا وجود لمعرفة دون سؤال، ولا وجود لسؤال لا يقود لمعرفة. لكل كائن حي أسئلته، يحاول الإجابة عنها، وحين يعجز يرحل مقتفيا آثارها في عوالم أخرى، عوالمه أو عوالم غيره، مسكونا بروح المغامرة، ومأخوذا بهاجس السؤال، مثل «حي» في النص.

لم يبق النص السردي «حي في العماء» سجين لغة السرد الخالصة، بل تجاوزه صوب لغة سردية شاعرية. وبهذا، يتقوى الازدواج في مرجعية النص عبر جمالية «الترميز الشاعري»؛ حيث تتجلى الكثير من المقاطع السردية خطابا شاعريا مؤطرا بإيحاءات ورموز شتى، وداعما سلطة الاقتصاد الدلالي، لأنه «حينما يقترب الروائي من الشعرية، فإنه يتجرد من إحدى مميزات السرد الأساسية وهي الإطناب»[4]. وللتمثيل لهذا الاقتراب من اللغة الشعرية في سياق السرد، نقدم المقاطع السردية الآتية:

- «..يقرأ بطريقة شاعرية:

---

1 - عبد الفتاح كيليطو، المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ص 133.

2 - تتضمن جميع الفصول المشكلة للنص الروائي السردي «حي في العماء» عددا كبيرا من الأسئلة، مما يجعلها صفة بارزة في النص ككل..

3 - رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 13.

4 - Nathalie Piégay-Gros, Le Roman, éd. Flammarion, Paris, 2005, p 37.

حيّ ينظر في ذاته كي يدركها فتلتئم حوله عواصف الهباء.
حوله الفراغ ولا ينسى عظام العاصفة وما حل بظبية خائفة قبالة القمر.
لا ينسى النهار ولا يزيغ عن المدار لصفصافة تهرم في القيظ وتتكفن بحريقها.
فإن كانت له أرض
فإنه يعبرُ عنيداً إلى قميص الريح
أو في أساطير تكسرت
بين أصابعه»[1].

- «يتعلق بالسراب الطافح لكي يجالس الموتى. يتعلق إذن بأطراف النار فتلوح له أخلاط من أقداح خمر وقمصان نسوية ترى بداخلها أيائل وظبية. تستيقظ شهوته ويصبح جاهلاً ببوح الموتى»[2].

- «خاط لِبَاسه من الأرواح ونظر حوله ليقف على منبع الحكمة وعين الحق. سرّح خواطره في الجزيرة وأغراسها وأدغالها وبديع ثمارها. كل ما رآه انكفأ ناقصاً محزوماً لا يسدّ ثقوبه سوى فتات من انشطار العمى الكلّي السائد في أركان العالم الأول.

في يوم غابر أراد أن يتعلق بفرع شجرة الكون ليجني من ثمارها. لكن الشجرة حولته ثمرة ودفعته يتدحرج في الهاوية الكونية. فهل كان في حاجة فعلا لأحلام تعلقت بها أعمار العطشى؟»[3].

يتجلى الترميز الشاعري في هذه المقاطع من خلال اقتراب السرد من تعبير قوامه الترميز الدال؛ حيث يتجاوز السرد طابعه البسيط، ليصير تعبيراً ترميزيا لموضوعات شتى. هكذا، تكشف المقاطع السابقة، المقترنة جميعها بشخصية «حي»، عن لغة تدمر المدلولات المألوفة، وتبني أنساق دالة. وهذا يجعلها تعابير نصية تومئ إلى عدة قضايا:

أولها، سلطة الفراغ تدفع الذات للبحث عن امتلائها الدال، محولة الهباء إلى بهاء، ومصيِّرة ضباعها وتلاشيها إلى وجود وانتشاء، وعابرة إلى مقامات تحقق كينونتها ووجدها الدال.

وثانيا، سلطة الاندماج تجعل الإنسان يسمو على مقاربة التفاضل، فيكسِّر المسافات بين الكائنات، ويجسر المسافة بين وضعيات الوجود المختلفة.

وثالثا، سلطة المعرفة تحيِّن زمن الجهل الأولي للكائن البشري، حيث العماء كان سائدا، منذ السقوط الأول للإنسان في «الهاوية الكونية»، بعدما تحوّل إلى ثمرة مقذوفة في سديم الوجود.

إن هذه الإشارة التناصية المحيِّنة زمن آدم، وهذا الخطاب الشاعري، وباقي التنويعات الجمالية لنسق الازدواج في النص السردي، تؤكد الرمزية العميقة للحكي الخرافي، بوصفه حكيا رمزيا يُرمِّم هوية شرخها

1 - رشيد يحياوي، حي في العماء، ص 23.
2 - نفسه، ص 28.
3 - نفسه، ص 110.

الواقع. وكأن الرمزية الخرافية في نص «حي في العماء» هي واقع تحقق الوعي به؛ حيث «لا يوجد واقع بل وعي، والوعي يمكن تخيله كصانع لا يملّ التراكيب الشعرية، كمخترع لخيالية لا متناهية»[1].

تركيب

ينبني النص السردي «حي في العماء»، للأديب والناقد المغربي رشيد يحياوي، على مرجعية خرافية عجائبية تعيد النظر في الذات وفهمها لوجودها وكينونتها. هكذا، تقف الذات النصية، بامتداداتها الرمزية المتنوعة، أمام الآخر المخالف لها في الهوية (حيوانات الجزيرة)، طارحة سؤال الاكتمال والأفضلية على مشرحة النقض. وبذلك، خلخلت مرجعية النص قانون التميز، ثم شيّدت عالما أساسه الازدواج؛ الذي لا يعبِّر عن انتصار أو انكسار، بل يدل على تبصّر وضعية الذات المتموقعة في فضاء المابين. من هنا، فالنص السردي «حي في العماء» شيَّده خطاب رمزي ولغوي وتقني جعله راشحا بدلالات شتى، ويحاور نصوصا وخطابات قديمة، وينظر إلى الإنسان في زمنيته الراهنة، وراهنيته في خرافته التي تدخله عالم السديم، لكنه عالم يبدو خفيفا مقارنة مع ثقل عالم الانتظام الإنساني.

المصادر والمراجع

أ – العربية والمترجمة

– إبراهيم، عبد الله، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1/ 2003.

– أحمد زايد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات: قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع326، أبريل 2006.

– إيتالو كالفينو، ست وصايا للألفية القادمة، محاضرات في الإبداع، ترجمة وتقديم: محمد الأسعد، سلسلة «إبداعات علمية»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 321، ديسمبر 1999.

– ايغلتون، تيري، معنى الحياة، ترجمة عهد علي ديب، دار الفرقد، سورية، ط1/ 2010.

– بوعزة، محمد، هيرمينوطيقا المحكي: النسق والكاوس في الرواية العربية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1/ 2007.

– – بوبر، كارل، أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير: مارك نوترنو، ترجمة: أ.د يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 292، أبريل/ مايو 2003.

– حليفي، شعيب، شعرية الرواية الفانتاستيكية، الدار العربية للعلوم، ناشرون (بيروت)، دار الأمان (الرباط)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1/ 2009.

– درّاج، فيصل، رواية التقدم واغتراب المستقبل: تحولات الرؤية في الرواية العربية، دار الآداب، بيروت، ط1/ 2010.

1 – بارت لويس، «إدراك الفضاء النصي: ما وراء القص الكنائي عند خوان كارلوس أونيتي»، ضمن جماليات ما وراء القص، ص 143.

- دراج، فيصل، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 1/ 2004.
- كيليطو، عبد الفتاح، المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
- مؤلَّف جماعي، جماليات ما وراء القص: دراسات في رواية ما بعد الحداثة، ترجمة أماني أبو رحمة، دار نينوى، دمشق 2010.
- هتشون، ليندا، سياسة ما بعد الحداثة، ترجمة د. حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1/ 2009.
- ولسون، كولن، فن الرواية، ترجمة: محمد درويش، دار المأمون، دار الحرية، بغداد 1986.
- يحياوي، رشيد، حي في العماء، سرد، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، سلسلة إبداع 2012.

ب- الأجنبية

- Nathalie Piégay-Gros, Le Roman, éd. Flammarion, Paris, 2005.



نحو نظرية نقدية ثقافية عربية :
سؤال الهوية والمفاهيم والأبعاد

عابد لزرق[1]

أ – مِهاد

أولى النقّاد والدارسون اهتماما بالغا بالخطاب ودراسته، ولم يقتصر اهتمامهم على شكل معين دون غيره، وإنما تناولوا عدّة أنواع منه، غير أن الخطاب الأدبي نال نصيبا وافرا من ذلك الاهتمام؛ فظهرت مناهج نقدية واتّجاهات كثيرة سعت إلى تدارك ما غفلت عنه سابقاتها، وراح كل منها يقدم أدوات قرائية وخطوات إجرائية لمقاربته؛ ممّا عمّق من دراساته الأدبية، وتمّ تمجيد الجماليات في مقابل مسائل أخرى مسكوت عنها؛ فالخطاب الأدبي لا يفصح عن كل ما فيه، وتبقى هناك أمور مضمرة تمّ تجاهلها؛ أوّلا لاهتمام الناس بالبلاغي/ الجمالي زمنا طويلا، وثانيا لقدرة هذه المضمرات على الكمون والاختفاء مستعملة أقنعة عديدة، أهمها وأخطرها قناع الجمال الذي يغطّيه، فيجعله في منأى عن النقد؛ حيث برزت اتّجاهات نقدية أخرى طالبت بتخليص النقد من قيد الأدبية، فكان من جملة ما ظهر النقد الثقافي Critique Culturelle بوصفه حقلا معرفيا ونشاطا بحثيا يعدّ من أواخر الاتّجاهات النقدية في العالم الغربي والعربي معا.

ب – النقد الثقافي (سؤال المرجعية)

تعدّدت المرجعيات والأسس التي ساهمت في إفراز النقد الثقافي، والتي تمثّل ذاكرة اصطلاحية ومنهجية له، وهي منجزات نقدية ظهرت في الثقافة الغربية حديثا، وواكبت تطورات العصر، وعنيت بما وراء الأدبية، وبما لم يعن به النقد الأدبي من أبعاد وأنظمة ثقافية ينطوي عليها الخطاب؛ كالأنساق الثقافية والمضمرات الإيديولوجية وغير ذلك[2]، وهي تعدّ نتاجا لما يعرف بتحولات حقبة «الما بعديات»؛ أي ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار، حيث الدراسات الثقافية والتاريخانية الجديدة وما بعد الكولونيالية والنقد النسوي...إلخ، هذا التحول شهدته فترة واسعة من القرن العشرين حين تراجعت المناهج الشكلية، وازداد الاهتمام بالخطاب، مقارنة بالمفهوم التقليدي للنص[3]. ومن أهم هذه المرجعيات أذكر:

---

1 – أستاذ باحث في التداوليات وتحليل الخطاب/ جامعة سيدي بلعباس/ الجزائر.

2 – جميل عبد المجيد. نحو تحليل أدبي ثقافي– تجربة نقدية في قصيدة النثر وخطاب الأغنية. ص7.

3 – عبد الله إبراهيم. المطابقة والاختلاف– بحث في نقد المركزيات الثقافية. ص536.

1 - الدراسات الثقافية (Etudes Culturelles)

ازدهرت في التسعينيات من القرن العشرين، بيد أنها بدأت بداية رسمية مع تأسّس «مركز بيرمنجهام للدراسات الثقافيّة المعاصرة» بإنجلترا سنة 1964م، والذي كان له الفضل في توجيه الاهتمام إلى ثقافة الجماهير وتفاعلها مع وسائل ترويجها وطرائق استهلاكها[1]، والبحث في السلبيات والإيجابيات المترتبة عن فعل التفاعل الذي يتم بأساليب متفاوتة، وهذا التأثير والتأثر هو حقل للاشتغال؛ فقد اهتمت الدراسات الثقافية بكل وسائل الاتصال الحديثة، وبكل حامل ثقافة؛ فتناولت «وسائل الإعلام Media، والثقافة الشعبية– Popular Culture، والثقافات الفرعية – Sub Cultures، والمسائل الإيديولوجية والأدب، وعلم العلامات Semiotics، والجنوسة Gender، والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية...»[2]. كما حاولت الارتقاء بأخلاقيات المجتمع الحديث، والالتزام بإعادة هيكلة البناء الاجتماعي، إذ هي إلى فهم ونقد أشكال الهيمنة بالشكل الذي يجعل الجماهير مكبّلة أمام القوى المسيطرة، وخاصة في المجتمعات الصناعية الرأسمالية[3].

ويأتي اهتمام الدراسات الثقافية بالنص باعتباره وسيلة لا غاية، ولا يُتناول قصد معرفة السياق الذي أُنْتِج فيه، تاريخية أم اجتماعية؛ فالنص ليس سوى «(..) مادة خام يستخدم لاستكشاف أنماط معينة؛ من مثل الأنظمة السردية، والإشكاليات الإيديولوجية، وأنساق التمثيل»[4]. كما أنه أداة تعين على معرفة ما يتحقّق فيه من أنظمة ثقافيّة؛ وبذلك أضحت ثقافة الجماهير موضوعا للطرح والتحليل، وغدت الدراسات الثقافية مشروعا تكتسب الدراسات الأدبية ضمنه وعيا جديدا، بل يكاد يبتلعها ويدمر الأدب؛ كما يرى جوناثان كولر[5].

وفي مقابل ذلك، ظلّت سهام من النقد توجّه لهذا المشروع؛ بسبب فقره النظري، وسطحية دراساته، وتركيز ممارسيه على العوامل الاقتصادية والمادية، وتحديدا الاتجاه المسمّى بالمادية الثقافية، ومفهوم رأس المال الثقافي الذي طرحه عالم الاجتماع الفرنسي «بيار بورديو»؛ حيث يؤوّل كل فعل حسب شروط إنتاجه واستهلاكه. كما يؤاخذ على الدراسات الثقافية تمجيدها لخطاب المعارضة والمهمّش على حساب الرسمي والراقي، وتوجهها نحو الجماهير على حساب المتخصّصين كما في النقد والنظرية. وفي ظل هذه الانتقادات والاعتراضات تولّدت اتجاهات أخر حاولت تجاوز هذه المآخذ، والانفتاح على آفاق نظرية ومنهجية أدقّ وأعمق[6].

1 – عبد الرحمن السّماعيل. الغذّامي الناقد. ص 90-91.

2 – عز الدين المناصرة. النقد الثقافي المقارن. ص 232.

3 – زيودين ساردار وبو

4 – عبد الله الغذّامي، النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية العربية –، ص 17.

5 – جوناثان كولر. مدخل إلى النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة مصطفى بيومي. ص 66.

6 – الغذّامي. النقد الثقافي. ص 20.

2 – نقد ثقافة الإعلام (Critique de la culture des Médias)

يعرف هذا الاتجاه في الحقل الثقافي بمصطلحات أخر، منها (نقد ثقافة الميديا) أو (نقد ثقافة الوسائل)؛ أي وسائل الإعلام والاتصال، ويختزل في مصطلح (ثقافة الميديا)، كما سمّاه عبد الله الغذّامي (نقد الثقافة) في معرض حديثه عن ذاكرة النقد الثقافي، ويعدّ «دوغلاس كِلْنر»؛ أستاذ الفلسفة ورئيس قسم العلوم الاجتماعية بجامعة «كولومبيا» الأمريكية، رائدا في هذا المجال، من خلال كتابه «ثقافة الميديا» (1995م)؛ حيث يرى أننا نعيش مرحلة «الما بين»، ويعترض على الذين يقولون بمرحلة «الما بعد»، أي ما بعد الحداثة؛ لأنّنا – في نظره – بحاجة إلى مقولات الحداثة ومقولات ما بعدها[1]؛ من هذا المنطلق، تأتي نظريته الخاصة مستمدة مصادرها من طروحات مدرسة بيرمنجهام ومدرسة فرانكفورت عن الدراسات الثقافية ومن نظريات ما بعد الحداثة والتعددية الثقافية والنقد النسوي؛ حيث يوظّف هذه المقولات وينتقدها، في نفس الوقت، ليطرح مفهومه حول نقد ثقافة الميديا؛ فيبني نظرته على ما طرحه رواد مدرسة فرانكفورت، وعلى رأسهم عالم الاجتماع الألماني «تيودور أدورنو»، حول إشكالية التفاعل الذي يحدث بين المتلقّين ووسائل الاتصال.

ومع هذا، لم يتوان كلنر عن توجيه نقده إلى مدرستي فرانكفورت وبيرمنجهام؛ بسبب غلوهما في تبني فكرة الرفض الجماهيري والاحتفاء بها، دونما تمييز بين حالاتها، على أساس أن اتجاه «نقد ثقافة الإعلام» يعتمد على أخذ النص مرتبطا، في تفاعلاته، مع ردود أفعال المجتمع، ومتقاطعا مع أنظمة الإنتاج والتلقي؛ بغية الكشف عن التعقيدات الحادثة بين النصوص والجماهير[2]. وبما أن للدراسات الثقافية دورا في توجيه الاهتمام لما هو جماهيري وإمتاعي، فإنّ كلنر يشير إلى أنّ الحس النقدي الحقيقي يستوجب الوقوف عند الأنماط الثقافية، وعدم تثبيتها لمجرد أنها جماهيرية وإمتاعية؛ وذلك لما للإمتاع من دور في دفع الجمهور إلى الرضاء بأنساق الهيمنة كما في السينما الأمريكية أو الهوليودية؛ حين يجري تمرير صناعة العنف من خلال أفلام الأكشن Action الممتعة. وليست المتعة فعلا غريزيا أو محايدا، بل هي فعل مكتسب مزيج من عناصر المعرفة التي نتعلمها، ومن عناصر السلطة التي تتحكم أنساقها في إمتاعنا[3].

وخلاصة نظرية كلنر تكمن في طرح تصور يقوم على التعويل على الثقافة، وعلى عدم التفريق بين النصوص؛ حيث تتخذ النصوص الراقية، كما النصوص الهابطة أو الشعبية، مادة للدراسة تجنبا لأية إيديولوجيا يتضمنها مصطلحًا (جماهيري) أو (شعبي)؛ كما حصل مع الدراسات الثقافية. ويرى كلنر أن مصطلح «ثقافة الميديا» يكسر الفواصل التقليدية بين الثقافة وعناصر الاتصال؛ حيث ينظر إلى الثقافة بوصفها إنتاجا، كما ينظر في وسائل توزيعها وطرائق استهلاكها؛ لأنّها مكوّن ذو طبيعة اتصالية[4].

3 – التاريخانيّة الجديدة (Néo-Historicisme)

تعد التاريخانية الجديدة أو الجماليات الثقافية أو التحليل الثقافي أحد أبرز الإفرازات النظرية للمرحلة

1. نفسه. ص 21.

2 – نفسه. ص 22.

3 – نفسه. ص 23–24.

4 – نفسه. ص 25–26.

النقدية ما بعد البنيوية، تبلورت معالمها في الفترة الممتدة بين السبعينيات والتسعينيات، وبخاصة في أمريكا، على يد عدد من الدارسين، منهم «لويس مونتروس» و«ريتشارد هيلغرسن»؛ أستاذا النقد والدراسات الأدبية بجامعة سانتا باربارا - كاليفورنيا، و«ستيفن غرينبلات» الأستاذ بجامعة بيركلي- كاليفورنيا[1]، الذي يعود إليه الفضل في إطلاق مصطلح (شعرية أو بويطيقا الثقافة) في نقده لخطاب عصر النهضة الأوروبي، خاصة الإنجليزي منه، وتحديدا الدراما الشكسبيرية، مطورا بذلك مصطلحا أسبق منه إلى الظهور هو التاريخانية الجديدة، غير أن مصطلح (التحليل الثقافي) فرض نفسه كتسمية إجرائية ملائمة لهذا الاتجاه[2].

تسعى الجماليات الثقافية إلى فهم النصوص، وقراءة الأعمال الإبداعية ضمن إطارها التاريخي والثقافي قراءة تستجلي القيم الثقافية التي امتصها النص؛ إذ الإيديولوجيا وصراع القوى الاجتماعية والسياقات التاريخية والثقافية متغيّرات تؤثر في تشكيل النصوص[3]، والتاريخانية الجديدة «تولي اهتماما متميزا لمفهوم النسق الثقافي؛ وذلك لأهمية هذا المفهوم في مشروعها الذي يتحدد، بحسب لويس مونتروس، في إعادة تشكيل Refigure المجال السوسيو ثقافي من خلال الأعمال القانونية والأدبية والدرامية، وهذا يقتضي أن ينظر إلى هذه الأعمال في علاقتها، لا مع الأجناس وصيغ الخطاب الأخرى فحسب، بل مع المؤسسات الاجتماعية والممارسات غير الخطابية (...) المعاصرة لها»[4]، والمؤلّف لا محالة معرّض لهذه المؤثرات في عصره.

والنص الأدبي، عكس غيره من النصوص، قادر على إضمار سياقاته المنتجة له تحت غطاء الجمالية؛ لذلك يقول غرينبلات محدّدا معالم هذا الاتجاه: «في النهاية لا بد للتحليل الثقافي الكامل أن يذهب إلى ما هو أبعد من النص ليحدد الروابط بين النص والقيم من جهة، والمؤسسات والممارسات الأخرى في الثقافة من جهة أخرى»[5]؛ إذ يقوم التحليل الثقافي على جملة اعتبارات، منها أنّ التاريخ ليس نسقا يمكن الإشارة إليه على أنه مفسر للأدب أو كقوة مهيمنة عليه كما هو الحال في النقد الماركسي، بل إن النص الأدبي جزء من سياق تاريخي يتفاعل مع مكونات الثقافة الأخرى؛ من مؤسسات وعادات ومعتقدات وغير ذلك، وأنّ القارئ -مثله مثل المؤلف- يكون عرضة للمؤثرات الإيديولوجية في عصره، فإن توافق القارئ والمؤلف في الإيديولوجيا يحتفي بخصائص نصه الموضوعية والفنية، وإن اختلفا يقوم بإسقاط فرضياته على النص؛ الشيء الذي قد يعطل التفسير الموضوعي للنص الأدبي[6].

وتسعى التاريخانية الجديدة بناء خطاب مزدوج بين النص والتاريخ؛ حيث تجدر الإشارة إلى أن النقاد التاريخانيين اهتموا بفحص العلاقة بين الكتابة والمجتمع، وهو ما ينعت ب «أرخنة النصوص»، بإخضاعها للظروف التاريخية المحيطة بإنتاجها، وتنصيص/ نصنصة التاريخ؛ فقد أخذ التاريخانيون من الوعي النقدي

1 - يوسف عليمات. جماليات التحليل الثقافي- الشعر الجاهلي نموذجا. ص 28.

2 - ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. ص 80.

3 - نفسه. ص 80-81.

4 - ينظر New Historicism, A Comment, p 293. نقلا عن نادر كاظم تمثيلات الآخر. ص 99.

5 - ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. ص 80.

6 - نفسه. ص 81.

النصوصي التفكيكي مبدأ «لا شيء خارج النص»، ومن الأديب والفيلسوف الألماني «جوته» (Goethe) قوله بأن التاريخ البشري يحتاج إلى من يعيد كتابته من وقت لآخر؛ مما يجعله نصّا قابلا للتجدّد، وماضيا يستخدم في الحاضر[1].

4 – ما بعد الكولونياليّة (Post-Colonialisme)

تصنّف حركة ما بعد الكولونيالية ضمن إطار زماني تحيل إليه اتجاهات تستخدم مصطلح ما بعد/ Post للدلالة على حقبة الما بعديات، كما تعرف هذه الحركة بتسميات أخرى (ما بعد الاستعمارية، ونظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي أو الاستعماري)؛ حيث يتّضح وجود خطاب للمدّ الاستعماري وآخر لما بعده، وهذان المصطلحان -الخطاب الاستعماري وما بعد الاستعمار- يكمّل بعضهما بعضا، ويشيران معاً إلى حقل من التحليل غير جديد، لكن أسسه النظرية والمنهجية تبلورت مؤخّرا في الغرب، بعد انتشار الدراسات حوله، وازدياد الاهتمام به؛ إذ يشير المصطلح الأول إلى تحليل ما حملته الثقافة الغربية، في مختلف المجالات، إلى غيرها من الثقافات الدولية كنتاج لتوجهات استعمارية، أما الثاني فيشير إلى نوع آخر من التحليل يبني معالمه على فرضية انتهاء عصر الاستعمار، وظهور عصر الإمبريالية (Impérialisme) كنموذج لهيمنة جديدة، وممارسة للسلطة على البلدان عن طريق طرق استعمارية غير تقليدية، منها السياسة والثقافة والاقتصاد[2].

تتناول حركة ما بعد الكولونيالية ردود الأفعال تُجاهَ الكولونيالية وفترة الاستعمار؛ فهي تعمل من جهة على تبيين تلك الحالات المنضوية تحت نصوص معينة؛ من مثل الروايات والأشعار والمسرحيات والأفلام ما بعد الكولونيالية، وتعمل من جهة أخرى على فضح الممارسات والبنيات الموروثة عن الكولونيالية عبر خطابات مواربة. ويعرّفها «آلان لوسون» بأنها «حركة تاريخية- تحليلية ذات باعث سياسي تشتبك مع آثار الكولونيالَية، وتقاومها وتسعى إلى إبطالها؛ وذلك في الدوائر المادية والتاريخية، والثقافية- السياسية، والتعليمية، والاستطرادية، والنصية»[3]. فالواضحُ أن للكولونيالية طابعا سياسيا إيديولوجيا؛ إذ تسعى إلى خلخلة الثقافة الإمبريالية، وكسر حاجز مركزية الذات لدى الغرب لتفكيك حدود الهيمنة، وإزالة الفوارق المبنية على أسس جغرافية سياسية؛ كتقابلات «العالم الأول والعالم الثالث» أو «دول الشمال ودول الجنوب»، أو على أسس بشرية عرقية؛ كتسمية «أبيض وأسود» أو «أوروبي وإفريقي». وبذلك، يعدّ تحليل أدب ما بعد الكولونيالية شكلا من أشكال النقد الثقافي والتحليل النقدي الثقافي، هدفه تحرير المجتمعات من قيود الهيمنة المقترنة بمحاولة هيكلة الآخر ثقافيا؛ وذلك بالاشتباك جدليا مع عملية إنتاج المعنى الثقافي التي تحدث في إطار هذه الهيمنة[4].

وقد كانت لبعض القادمين من دول العالم الثالث مساهمة كبيرة في دراسة الخطاب الاستعماري، وصياغة نظرية ما بعد الكولونيالية؛ بدافع الذوْد عن ثقافاتهم، والحد من مجالات الهيمنة الغربية عليها، وجلّهم

1 – يوسف عليمات. جماليات التحليل الثقافي. ص29. والغذّامي. النقد الثقافي. ص 45 وما بعدها.

2 – ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. ص 158.

3 – هيلين جيلبرت وجوان تومكينز. الدراما ما بعد الكولونيالية- النظرية والممارسة. ص 3.

4 – نفسه. ص 4-5.

أكاديميون ونقاد عاشوا ودرّسوا بالجامعات الأمريكية؛ مثل الهنديين «هومي بابا» و«غياتري سبيفاك»، و«إدوارد سعيد»، دون إغفال جهود المارتينيكي «فرانز فانون» في مجابهة الاستعمار الفرنسي ضد الجزائر. غير أنه يأتي في طليعة هؤلاء إدوارد سعيد؛ إذ يعده الكثيرون رائدا في هذا المجال، من خلال عدة أعمال، أبرزها (الاستشراق 1978) و(الثقافة والإمبريالية 1993)، والتي أخرجته إلى الملإ من مجرد باحث أكاديمي إلى ناقد ومفكر من الدرجة الأولى، يدافع عن قضايا وطنه الأصل، وينتقد الاستعمار وكافة وسائله[1].

ولقد أفاد إدوارد سعيد إفادة كبيرة من منجز الفيلسوف الفرنسي «ميشال فوكو»، ونظرياته حول الخطاب وعناصره المعرفية التي طرحها في كتب عدة، أهمها (حفريات المعرفة 1969)، ومحاضرته (نظام الخطاب 1971)؛ أي أسّس فوكو لدراسات مغايرة تقوم على بلورة مفهوم جديد له مرتبط بعناصر السلطة وحقول المعرفة وما تمارسه من هيمنة عليه؛ فهو شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية المتحكمة في إنتاجه، ومن ينتج خطابا إنما ينتقي ما تريده المؤسسة الثقافية وما ترتضيه[2]. كما أفاد إدوارد سعيد من مفهوم الهيمنة لدى أنطونيو غرامشي، ومن التاريخانية والتحليل النفسي ونظريات ما بعد الحداثة؛ لينطلق في نقد خطاب الاستشراق الذي طالما غذّى وبرّر «نزعات الاختزال والتنميط العدائي- التحقيري لحظة التعامل مع الآخر، الذي تمثل في الشرق العربي- الإسلامي أولا، ثم امتدّ -مع الحقبة الكولونيالية- ليشمل بقية العالم»[3] غير المتقدّم؛ وبذلك كانت دراسة سعيد للاستشراق دراسة لخطاب كولونيالي معرفي وثقافي، ومشروعا قائما على اكتناه المعرفة والسلطة والهيمنة التي يمارسها حول الشرق؛ كما يحرّر «كمال أبو ديب» في مقدمة ترجمته لكتاب «الاستشراق»[4].

أمّا كتاب (الثقافة والإمبريالية) فيعد تكملة للكتاب الأول عن الاستشراق، غير أن تجربة سعيد عن الإمبريالية كانت تجربة فريدة؛ لأنه اهتمّ بدراسة وسائلها المعرفية وآثارها الخطيرة على الثقافة من داخل حقل الثقافة نفسِه، بدلا من حقل الاقتصاد؛ كما فعلت أغلب الدراسات السابقة التي عالجت مواضيعها. فإذا كانت الثقافةَ مصدرا للهوية، فهي أيضا مصدر للصدام مع الآخر في سبيل تثبيت هذه الهوية. وإذا كان الاستعمار التقليدي قد زال، فإن له أساليب شتى يحاول من خلالها ممارسة أفعاله السلطوية قصد التأثير (في) ما سواه من الشعوب المستعمرة، واحتقار إنسانيتها بصورة دونية. ولتعزيز طرحه، اتّخذ سعيد نماذج لروائيين غربيّين ذوي أفكار إنسانية تقدّمية، لكنّهم منحازون إلى الاستعمار، ومؤيّدون للتوسع الإمبريالي على أنه حامل لرسالة حضارية تمدّنية[5].

مما سبق ذكره يتّضح دور حركة ما بعد الكولونيالية في حقل الدراسات الثقافية وأهميتها في البحث عن مخلّفات الدول الاستعمارية على الشعوب المستعمرة وخطورتها، خاصة في المجال الثقافي بوصفه ركيزة أساسية من ركائز الهوية في أي مجتمع.

1 -. ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. ص158. وعبد الرحمن السمّاعيل. الغذّامي الناقد. ص 509 وما بعدها.

2 – ميشال فوكو. نظام الخطاب. ص 60 وما بعدها.

3 – عبد الرحمن السمّاعيل. الغذّامي الناقد. ص 465-466.

4 – إدوارد سعيد. الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء. ص 3.

5 – عبد الرحمن السمّاعيل. الغذّامي الناقد. ص 509-510.

5 – النقد النسوي (Critique féministe)

بدأ النقد النسوي بداية رسمية كخطاب منظّم في الستينيّات من القرن الماضي، بعدما انتشرت في الغرب أصوات تطالب بتحرير المرأة من قهر المجتمع، وتخليصها من التبعية الذكورية، والحصول على كافة حقوقها المسلوبة منها؛ من مساواة اجتماعية واقتصادية وحريات فردية وثقافية، للوصول إلى مجتمع يوتوبي لا نقائص فيه لأي كان. فالنسوية أو الأنثوية أو الفيمِنيزم -كما تعرف أيضا- عبارة عن نظريات اجتماعية وحركات سياسية وفلسفات أخلاقية تحركها دوافع متعلقة بقضايا المرأة، ومن أبرز روادها الروائية الإنجليزية «فرجينيا وولف» التي اشتهرت بروايات تتبع «تيار الوعي»، وتتميز بإيقاظ الضمير الإنساني[1]، والكاتبة الوجودية «سيمون دي بوفوار» التي تزعّمت هذا التيار بفرنسا؛ حيث اتهمتا المجتمع الغربي بأنه مجتمع أبيسي، يكبت المرأة، ويجعلها تابعة للنموذج/ الرجل؛ فيمنع عنها حقوقها في ممارسة الفن والأدب والثقافة، كما يسلبها حقوقها المادية والاقتصادية[2].

يرى رامان سِلدن في معرض حديثه عن النقد النسوي، في كتابه «النظرية الأدبية المعاصرة» أن المرأة ظلت هامشية في النظام الاجتماعي عبر التاريخ، وما فتئت تسبح ضد التيار؛ حيث أشار إلى تأكيد «أرسطو» على الفوارق البيولوجية التي تميز المرأة في كونها تفتقر إلى بعض الخصائص العامة، وإلى نظرية القديس «توماس الأكويني» التي ترى أن الشكل مذكّر والمادة مؤنثة، وأن المرأة ينظر إليها على أنها رجل غير كامل. وفي الأورستيا (ثلاثية أسخيلوس المسرحية) انحازت الربّة «أثينا» للحجّة الذكورية التي قدمها «أبولو»، والقائلة إن الأم ليست سببا لوجود طفلها[3]. فهذه المفاهيم مفاهيم أساسية منتشرة في كثير من الثقافات العالمية؛ حيث ينظر إلى المرأة كهامش، أما الرجل فأصل متكامل، وهو ما ذهبت إليه دي بوفوار في كتابها (الجنس الآخر) حين مسحت، عبر نظرة تاريخية، حالة اللاتوازن في النظام الاجتماعي القائمة بين الرجل والمرأة، والموجودة منذ القدم بالشكل الذي يهيئ المرأة للرضاء بهذا الوضع المتدني الذي ألصق بها عبر تاريخ طويل يمتد إلى العهد البدائي[4].

ويتحرك النقد النسوي بصفة عامة ضمن محورين اثنين، هما: دراسة صورة المرأة في الأدب الذي يكتبه الرجال، ودراسة أدب المرأة نفسه ونصوصها؛ حيث يلتقي المحوران في نقطتي انطلاق ووصول، هي هوية المرأة وذاتها[5]. وقد اصطبغ في بداياته بصبغة ذات بعد سياسي أكثر منه استيطيقي جمالي؛ إذ كان هدفه إيقاظ ضمائر النساء لمجابهة قوانين المجتمع وانحيازاته. لكن بعد أن نالت المرأة الكثير من الحقوق، ونافست الرجال في ميادينهم، واستتب الأمر على ذلك، تفتحت آفاق عديدة أمام هذا الاتجاه؛ فأصبح منهجا للتحليل الثقافي، ينظر في خطابات المرأة وإبداعاتها الأدبية والفنية وقضاياها والنصوص المؤلفة حولها وما إلى ذلك؛ هذه الخصائص جعلته يلتقي مع النقد الثقافي في كون كل منهما يهتم بالنصوص المهمّشة،

1 – بيار بورديو. الهيمنة الذكورية. ترجمة سلمان قعفراني. ص 107–108.

2 – ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. ص 329–330.

3 – رامان سلدن. النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة جابر عصفور. ص 193.

4 –. سيمون دي بوفوار. الجنس الآخر. ترجمة لجنة من أساتذة الجامعة. ص 33 وما بعدها.

5 – عبد العزيز حمّودة، الخروج من التيه– دراسة في سلطة النص. ص 296.

ويحتفي بها. وإن كان النقد النسوي يقع ضمن حدود إطاره العام، إلا أنه أصبح بعد ذلك جزءا من النقد الثقافي، وإشكالا من الإشكاليات التي يعالجها، ويهتم بها، ويحاول -من خلال نصوص المرأة التي يراها غير بريئة- الكشف عن إضماراتها والأنساق الثقافية المخبوءة بين ثناياها.

ج - نشأة النقد الثقافي في الغرب

استفاد النقد الثقافي في نشأته لدى الغرب من الاتجاهات المذكورة آنفا، ومن مفاهيم وتصورات عدة نظريات ومناهج تصنّف في إطار ما يعرف بما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. كما أنه ولد قبل تسميته من خلال أعمال وكتابات عدة فاعلين في حقول تصب كلها في مجرى نقد الثقافة ودراساتها؛ أمثال تيودور أدورنو، وأنطونيو غرامشي، وميشال فوكو، وفرانز فانون، وجوليان بيندا، ورولان بارت وغيرهم... إلخ، قبل ظهور مصطلحات (النقد الثقافي، الدراسات الثقافية، الكولونيالية، وما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي...)، ثم جاءت دراسات مثّلها تيري إيجلتون، وأنتوني إيستهوب، ورايموند وليامز، وجاك دريدا، وجوليا كريستيفا، وآخرون، ارتقت بسؤال النقد والنظرية إلى آفاق أوسع، مستفيدة من الفلسفة والتاريخ ونظرية الأدب، إضافة إلى دراسات الاستعمار وما بعده؛ ليتشكل حقل النقد الثقافي تدريجيا في منتصف الستينيّات كتيار منافس للنقد الأدبي، ومتّهما إياه بالنسقية والانغلاق في الشكلانية والجماليات[1].

إذاً، تعد الثقافة الغربية مرجعا أساسا ومؤثّرا قويا في التعريف بهذا النشاط البحثي، وبمراحل تطوره؛ حيث دعا أحد الباحثين المعاصرين، وهو الأمريكي «فنسنت ليتش» Vincent Leitch، إلى (نقد ثقافي ما بعد بنيوي)، مهمّته القيام بدور مفقود في ميادين ومناهج البحث المعاصر، وهو الغوص في عمق النص والكشف عن قيمه الثقافية؛؛ للخروج من نفق الشكلانية الذي أسّسه النقد الأدبي. ويصنّف ليتش ضمن طليعة من أطلقوا مصطلح «النقد الثقافي»، ومن ساهموا في إبراز هويته؛ إذ ألف فيه كتابا، سنة 1992م، بعنوان (النقد الثقافي: النظرية الأدبية ما بعد البنيوية)، حوى آراءه النظرية والمنهجية، التي تعد رافدا من أهم الروافد التي اتّكأ عليها النقّاد الثقافيون بعده.

وإضافة إلى ليتش، ساهم باحثون غربيّون آخرون في صوغ النقد الثقافي؛ حيث يذكر النقّاد إشارة مبكرة تعود إلى سنة 1949م؛ تاريخ نشْر تيودور أدورنو مقالة بعنوان (النقد الثقافي والمجتمع)، هاجم فيها الثقافة الأوروبية البورجوازية السلطوية السائدة في نهايات القرن التاسع عشر، داعيا النقاد الثقافيين إلى نقد الحضارة الغربية القائمة على تلك المسلّمات الثقافية، التي تتآمر ضد الأقليات وذوي الثقافات المختلفة. وهناك أيضا دراسة أخرى للمؤرخ الأمريكي «هيدن وايت»، عنوانها (بلاغيات الخطاب: مقالات في النقد الثقافي)، صدرت عامَ 1978م، يشير فيها إلى نوع من التداخلات الخطابية تقوم على بلاغيات موجودة في العلوم الإنسانية لا تختلف كثيرا عمّا هي عليه في الأدب[2].

وتجدر الإشارة إلى المساهمة المهمّة التي طرحها «أرثر أيزابرجر»، في كتابه (النقد الثقافي)، سنة 1995م،

1 - عز الدين المناصرة. النقد الثقافي المقارن. ص 231.

2 - ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. ص 306-307.

للتعريف بمبادئ النقد الثقافي وبمفاهيمه الجديدة، وهذا ما يتضح من خلال العنوان الفرعي للكتاب (تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية)؛ فهذا النقد نشاط جديد يحتاج إلى تمهيد للتعريف به، وبمفاهيمه الأساسية؛ الأمر الذي دفع أيزا برجر إلى طرح رؤيته للنقد الثقافي وما يطّبقه من مفاهيم ونظريات، إضافة إلى إيراده قائمة شاملة لأشهر النقّاد الثقافيين.

وبذلك يكون أرثر إيزابرجر وفنسنت ليتش أبرز الفاعلين الغربيّين في النقد الثقافي، وتحديدا ليتش الذي أثّر في التوجّهات النظرية والمنهجية للنقاد الثقافيين العرب في هذا الحقل الوافد على الثقافة العربية.

د – النقد الثقافي لدى العرب (من نقد النصوص إلى نقد الأنساق)

النقد الثقافي، بمعناه العام، نقد يحيل إلى الكثير ممّا قدّمه النقّاد والمفكّرون العرب في مجال دراسة الثقافة العربية وتقويمها، يصدق ذلك على مشاريع عديدة؛ مثل أعمال مالك بن نبي، ومحمّد عابد الجابري، ومحمّد أركون، وطه عبد الرحمن، وعلي حرب... ومراجعاتهم حول الفكر العربي، وعلى نقد أدونيس في «الثابت والمتحوّل»، وكثير من ذلك ممّا يصعب إحصاؤه، لكنّ النقاد الثقافيين اليوم يعدّون هذه الإسهامات من قبيل (نقد الثقافة)، لا النقد الثقافي بالمعنى ما بعد البنيوي الذي دعا إليه ليتش، ويدعون إلى تمييزه عن غيره كمصطلح دالّ على حقل معرفي، وطرح منهجي قائم على أدوات إجرائية خاصة به[1]؛ فقد ظهرت دعوات طالبت بتخليص النقد من أدواته التقليدية التي كرّستها المناهج الشكلانية بما لم يتح معها الكشف عن سياق النص الثقافي ومخزونه الفكري المنطوي عليه، والاتّجاه إلى استحداث أداة إجرائية تتوافق وهذه الدعوات؛ فكان النقد الثقافي مشروعا جديدا في الخطاب النقدي العربي المعاصر، همُّه الحفر والنبش عن مضمرات الخطاب التي ساهمت الثقافة في غرسها؛ بالتوجّه من نقد النصوص إلى نقد الأنساق، «وقراءة النص الأدبي لا بوصفه حدثا أدبيا فحسب، وإنما بوصفه حدثا ثقافيا كذلك»[2]؛ أي الغوص في غياهب النصوص، والبحث عن دلالاتها المضمرة، التي تتشكّل –تدريجيا وبخفاء– حتّى تصبح نسقا ثقافيا يرضخ له الخطاب، ويسيّر أفكار أصحابه على نمط واحد جرّاء انتمائهم لبيئة ثقافية وفكرية مشتركة.

ولقد ساهم عدّة فاعلين في إرساء قواعده، أبرزهم «عبد الله الغذّامي»؛ صاحب المحاولة الجادّة التي انبنت عليها معظم الطروحات العربية بعده الساعية إلى الكشف عن مشكلات الثقافة العربية النسقية عبر آليات النقد الثقافي[3]؛ حيث يدعو الغذّامي إلى إحلاله مكان النقد الأدبي لقدرته على الكشف عن حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل مختلفة، أهمها قناع الجمال الذي تتّخذه الأنساق ستارا تتخفّى وراءه، فاعلة أفعالها التحكّمية في الذائقة العامّة لمستهلكي الخطاب[4]. كما يدعو إلى البحث في علاقة النص بالمؤثّرات الإيديولوجية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية...، معتمدا النسق الثقافي طرحا مركزيا في دراساته، مع اعتماده على الدراسات الأدبية في تحليله النقدي. ومن هذا المنطلق،

1 – عبد الله الغذّامي وعبد النبي اصطيف. نقد ثقافي أم نقد أدبي. ص 37–38.

2 – عبد الله الغذّامي. تأنيث القصيدة والقارئ المختلف. ص 7.

3 – ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي. ص 309.

4 – الغذّامي. النقد الثقافي. ص8.

حاول إعطاء تعريف جامع له بقوله: «النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية، مَعْنِيٌّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء، من حيث دور كل منهما في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. وهو لذا مَعْنِيٌّ بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة (البلاغي/ الجمالي)»[1]. فالنقد الثقافي، وإن كان يتوسّل عمله بالاستفادة ممّا تقدّمه العلوم الإنسانية والفلسفة والتاريخ والاجتماع، إلا أنه يبقى فرعا من فروع النقد النصوصي، وحقلا من حقول الألسنية، يعتمد مناهجهما، وخاصة النقد الأدبي، في بحثه عن الجماليات؛ لأنها -كما سبق- غطاء لتمرير الأنساق، غير أنّ همّه الدائم هو تجلية العيوب النسقية المخبوءة تحتها والعمى الثقافي.

ويختلف النقد الثقافي عن النقد الأدبي في اهتمام الأول بالأنساق المضمرة، أمّا الثاني فيهتمّ بأدبية النصوص. كما يتقاطع واتّجاهات ما بعد الحداثة مع عصر البنيوية في كون ما يعتبره النقاد عودة إلى السياق الذي أقصته المناهج النسقية، وتبّنت بدله مبدأ المحايثة والنسق. فالنقد الثقافي يهتم بالظروف الخارجية المحيطة بإنشاء العمل؛ أي بما يدعوه عزّ الدين المناصرة (محيط الإنتاج) في قوله: «الظروف التي صنعت النص التي أثرت في النص الثقافي نفسه، حيث لا نقصد بذلك أي إسقاط خارجي على النص ليس له علاقة بالنص ومحيط الإنتاج، بل العكس: النص أولا وأخيرا»[2]. فالانطلاقة تكون من النص، والعودة تكون إليه؛ كما هو متجلّ في مقولة «جاك دريدا» Jacques Derrida التفكيكية: «لا شيء خارج النص»، والتي عدّها فنسنت ليتش بروتوكولا للنقد الثقافي وأساسا له، بيد أن السياق هنا ليس مرتبطا بالنص فقط، بل بالقارئ والناقد وعملية استهلاك المنتج ثقافيا كذلك. فدراسة النص الأدبي، من منظور النقد الثقافي، تعني وضع ذلك النص داخل سياقه الذي أنتج فيه من ناحية، وداخل سياق القارئ من ناحية أخرى؛ لأنّه يركّز على الاستهلاك الثقافي الجمعي، وعلى الاستقبال الجماهيري لمعرفة فعل الأنساق؛ الشيء الذي يجعله نوعا من نقد التلقي أو نقد استجابة القارئ للمنتج الثقافي والأثر الذي يتركه لديه[3].

هـ - المصطلح النقدي الثقافي

يتطلّب تحويل الأداة النقدية من نقد النصوص إلى نقد الأنساق آليات إجرائية خاصّة للتأويل، تجعل من النقد الثقافي منهجا قائما بذاته، فقد جرت فيه نقلة اصطلاحية جاءت لتشكّل منطلقا نظريا ومنهجيا له في الآن نفسه؛ بحيث انبنت هذه النقلة على تقابل بين النقد الثقافي وبين ما قدّمته الدراسات الأدبية من خلال توظيف الأداة النقدية/ الجمالية لتكون أداة للتأويل الثقافي. ويتأكّد هذا من خلال العناصر السبعة التي تشملها وهي: (النسق الثقافي، الوظيفة النسقية، الدلالة النسقية، الجملة الثقافية، المجاز الكلّي، التورية الثقافية، المؤلّف المزدوج)، غير أن ما يلاحظ هنا أنّ هذه العناصر جاءت عبر اجتهاد فردي؛ فالنقد الأدبي والدراسات الأدبية عبارة عن منظومة حلقية تراكمية من المصطلحات والمفاهيم ذات التاريخ الطويل

1 - نفسه. ص 83-84.

2 - عز الدين المناصرة. النقد الثقافي المقارن. ص 318.

3 - الغذّامي. النقد الثقافي. ص78 وما بعدها.

والمتنوع، أمّا أن تأتي النقلة من لدن مجتهد واحد فالأمر مدعاة لغياب السلاسة في القبول بين الناس، وهذا باعتراف الغذّامي نفسه[1].

يقوم النظام التواصلي بين البشر على ستّة عناصر نقلها «رومان ياكبسون» Roman Jakobson من عالم الإعلام والاتصال إلى عالم الأدب، هذه العناصر هي: (المرسل، المرسل إليه، الرسالة، السياق، الشفرة، قناة الاتصال)[2]. وانطلاقا من أن «كافّة أنماط الاتّصال البشري تضمر دلالات نسقية، تؤثّر على كل مستويات الاستقبال الإنساني»[3]، يقترح الغذّامي إجراء تعديل بسيط بإضافة عنصر سابع إلى هذه العناصر؛ كي تصبح الرسالة مهيأة للتفسير النسقي الثقافي، هذا العنصر الموجود حسبه هو (العنصر النسقي)؛ أي النسق الثقافي (Système Culturel). وبما أنّ هذا العنصر محور مركزي في هذا المشروع، وتبعا لذلك، فهو يكتسب سمات اصطلاحية وقيما دلالية خاصّة؛ حيث يتحدّد النسق عبر وظيفته لا عبر وجوده المجرّد، والوظيفة النسقية هذه لا تحدث إلاّ بشروط ومواصفات أساسها وجود نسقين يحدثان في آن واحد، وفي نص واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد؛ حيث يكون المضمر منهما ناقضا ومضادّا للعلني، فإن لم يكن هناك نسق مضمر من تحت العلني فحينئذ لا يعدّ النصّ من مجال النقد الثقافي. كما يشترط في النص موضوع الفحص أن يكون جماليا في العرف الثقافي؛ لأنّ الجمالية أخطر حيل الثقافة لتمرير أنساقها وإدامتها. ولا بد مِنْ أن يكون النص أيضا جماهيريا ذا مقروئية واسعة، وغير نخبوي؛ كي يُرى ما للأنساق من تأثير عام في الأفراد[4]، وبالتالي ستصبح خطاطة نموذج الاتّصال بعد إضافة العنصر

السياق

المرسل — الرسالة — المرسل إليه

قناة الاتصال

الشفرة

(العنصر النسقي)

وإذا كان لكل عنصر من عناصر الرسالة السابقة وظيفة لغوية تقابله، فإنّ النسق الثقافي تقابله (وظيفة نسقية)، متولّدة عنه، توفّر ما لا تستطيع الوظائف الأخرى توفيره؛ لأنّها تركّز على الأبعاد النسقية للخطاب، فينظر إلى النص الأدبي بوصفه حادثة ثقافية لا أدبية. كما تتولّد عن النسق دلالة غير معهودة، هي (الدلالة النسقية) ذات الوظيفة النسقية، وهي دلالة مضمرة تأتي كمقابل للازدواج الدلالي المعهود بين الدلالة الصريحة – التي ترتبط بالشرط النحوي التوصيلي، والتي يندر الاختلاف حولها بين المتكلّمين؛ لأنها لا تتطلب معرفة عميقة باللغة – وبين الدلالة الضمنية المرتبطة بالشرط الجمالي، والتي تحتاج إلى معرفة ذوقية أدبية لإدراكها. والدلالة النسقية بحاجة إلى نوع آخر من الجمل غير الجملتين النحوية والأدبية اللتين تتولّد

1 – نفسه. ص 62–63.

2 – رومان ياكبسون. قضايا الشعرية. محمد الولي ومبارك حنون. ص 27.

3 – الغذّامي. النقد الثقافي. ص 65.

4 – نفسه. ص 77–78.

عنهما الدلالتان الصريحة والضمنية، هذه الجملة هي (الجملة الثقافية) ذات التعبير النسقي المكثّف، التي تحمل الدلالة النسقية، وتجعل النسق مضمرا.

وفي الجملة الثقافية تنشأ تورية أخرى غير التورية البلاغية القائمة على ازدواج بين بعدين دلاليين «قريب وبعيد»، والتي تظهر على مستوى الوعي اللغوي في إنشاء الخطاب، هي (تورية ثقافية) قائمة على بعدين نسقيين؛ أحدهما ظاهر معلن مدرك، والآخر مخفي مضمر لاشعوري يتلبّس بالخطاب كاملا، ومثلها (المجاز الكلّي) ذو الطابع النسقي الذي لا يعتمد على ثنائية الحقيقة والمجاز التقليدية في الدرس البلاغي، ولا يقف عند حدود الألفاظ والجمل؛ حيث استعاض النقد الثقافي عن هذا الازدواج الجزئي بازدواج كلّي يمسّ بعدين ينطوي عليهما الخطاب: الأول حاضر في ظاهره متجلّ عبر جماليته، أمّا الثاني فيمسّ «المضمر الدلالي» الذي يتحكّم في العلاقة بين منتج الخطاب وأفعاله التعبيرية، كما يمسّ الخطاب كاملا ولا يمسّ كلمة مفردة أو تركيبا بسيطا.

أمّا الفاعل الأساسي قي المفاهيم الستّة السابقة فهو (المؤلّف المزدوج)، المتشكّل من مؤلّف معهود مهما تعدّدت أصنافه؛ كالمؤلف الفعلي والضمني والنموذجي، ومن مؤلف آخر مضمر ذي كيان مجازي، لكنّه فاعل حقيقي في الخطاب؛ (...) إنّه الثقافة بكل أشكالها، وفي هيمنتها على المؤلّف المعلن والقارئ معا. فالخطاب الذي تتوفّر فيه هذه الشروط، أو هذه العناصر الستّة، خطاب نسقيّ متميّز عن باقي الخطابات، وهو حقل اشتغال النقد الثقافي؛ ينظر إليه من خلال أنساقه المضمرة ذات الوظائف الثقافية التي تنتج دلالات نسقيّة لا صريحة ولا ضمنية، وعبر جمله الثقافية كمقابل للجمل النحوية والأدبية، ضمن تورية ثقافية شاملة ومجاز كلّي[1].

و - القراءة الثقافية (نحو منهج عام لتحليل الخطاب)

أضحت كلمة «قراءة» Lecture من أكثر المصطلحات المتداولة بين جموع الدارسين في الفكر النقدي المعاصر؛ حيث وظّفتها المناهج المعاصرة، كما وظّفت مصطلح «مقاربة» Approche بديلا عن مصطلحات أخرى؛ لأنّها تفتح مجالا أرحب للاجتهاد، حيث تأتي هنا مقترنة بالثقافة للدلالة على تلك القراءة التي تستثمر آليات منهج بعينه هو النقد الثقافي، كما تسمّى أيضا بـ«القراءة الأنساقية»؛ لأنها قراءة تستجلي الأنساق الثقافية في النصوص والخطابات والممارسات. والقراءة الثقافية تعد من أحْدَث القراءات في المناهج المعاصرة، حداثتها من حداثة النقد الثقافي نفسه الذي وفد على الساحة النقدية مؤخرا، وهي تحاول «قراءة منظور النص من كل جوانبه، وقراءة العلاقات بين البنيات نفسها في إطار عالم مفتوح، أي قراءة الواحد المتعدد»[2]؛ حيث قامت على أثر المناهج النسقية محاولة تجاوزها بالانفتاح على العالم الثقافي المحيط بالنص، والذي ساهم في نشأته وغرس أنساقه فيه، وبالتالي دحض ما يزعمه أصحاب النص المغلق من الشكلانيين والبنيويين بأنّ مناهجهم تؤدي إلى الحقيقة النصية الكاملة، وهذا مجرد زعم لأنهم يحذفون مسائل هامّة مثل السياق وإشعاعات النص وعلاماته المعرفية التي تنطلق من داخله وتتجّه إلى الخارج ثم تعود إليه انطلاقا من مقولة «لا شيء خارج النص».

---

1 - الغذّامي. النقد الثقافي ص 65 وما بعدها.

2 - أحسن مزدور. النقد الثقافي المقارن. ص 16.

لقد أصبح النقد الثقافي اليوم منهجا مهمّا من مناهج تحليل الخطاب، وأضحى المجال رحبا أمام القراءة الثقافية للاشتغال بوصفها من أحدث القراءات، خصوصا مع تزايد وتيرة التأليف والدراسات الأكاديمية في حقل النقد الثقافي تنظيرا وتطبيقا؛ حيث يرى النقّاد الثقافيون أن المجال أمامه يتّسع يوما بعد يوم ليصبح منهجا عامّا لتحليل الخطاب على اختلاف أنماطه، عكس النقد الأدبي الذي تقتصر دراسته على الأدب فحسب؛ فكشف المضمر في الخطاب، ورفع الغطاء عن الأنساق، همّ النقد الثقافي في أي خطاب؛ سواء كان خطابا أدبيا أو فكريا أو سياسيا أو تاريخيا أو بصريا... إلخ، غير أنّ اهتمامه البارز بالخطاب الأدبي يتّضح من خلال اشتغال ممارسيه به، أكثر من غيره؛ لأسباب عدّة، منها كون الأدب أخطر الخطابات الحاملة لشروط الوظيفة النسقية؛ فقد استنفدت مناهج النقد الأدبي من النص الأدبي معظم سياقاته الخارجية وطاقاته الأسلوبية والدلالية دراسة وتمحيصا، لكن النقد الثقافي يتعامل معه على أنه علامة ثقافية ذات دلالة نسقية موارِبة تقرأ داخل سياق ثقافي أنتجه، حيث يتستّر بلباس برّاني جمالي من أجل تمرير حيله وأنساقه.

وتحاول القراءة الثقافية الانفراد بتجربة تأويلية للخطاب الأدبي – شعرا ونثرا – لم تسبقها إليها القراءات السابقة المنضوية تحت غطاء النقد الأدبي؛ فهي تسعى إلى مساءلة البنى النصية بوصفها حوادث ثقافية مرتبطة بسياقات ثقافية وظروف تاريخية أنتجت في كنفها[1]، حيث أخذ الخطاب السردي مثلا نصيبا وافرا من الدراسة مع مناهج النقد الأدبي، بدءا بالدراسة البسيطة لبعض فنيّات القصّ (شخصيات، أحداث، عقدة، زمان، مكان...)، إلى التحليل البنيوي، ثم مع السيميائيات السردية أين تبلورت مشاريع دراسية مهمة، لكنّ هذه الدراسات أغفلت ما يطمح إليه النقّاد الثقافيون من قراءة لهذا الخطاب في سياق المضمر الذي ساهمت الثقافة في تشكّله، ومثله الخطاب الشعري الذي يعدّ مكونا أساسيا من المكونات الثقافية والسلوكية التي طبعت الشخصية العربية، والذي اكتسب منزلة محصّنة ومكانة خاصّة منذ القدم؛ بحجة أنه ديوان العرب وحامل أخبارهم، و كان للبيت منه مفعول عجيب على القيم والأخلاق والمجتمع؛ الشيء الذي أدى إلى وصفه بأنه حامل خطير للنسق، يتستر بلباس الجماليات الشعرية ليؤثّر في ذهنية القوم حين تَشَعْرَنَتِ الذات العربية بِتَشَعْرُنِ القيم.

من هذا المنطلق، يحاول الغذّامي تبرير وجود شخصية شعرية نسقية.. شخصية متجذّرة في ثقافتنا العربية، مهما تعالت صيحات التحديث أو دعوات التجديد؛ حيث يذهب إلى أن نماذج شعراء مثل «أبي الطيب المتنبي» و«أبي تمّام» مِنْ أصحاب الأنا المتعالية، التي تكرّرت حديثا مع «أدونيس» ذي الشخصية المتفرّدة، و«نزار قبّاني» الذي حصر قضايا المرأة في ركن ضيق عزّز به منظور الشاعر العربي تجاه المرأة المتغزَّل بها، ما هي إلا نسخ وإعادات للشخصية الفحولية العربية التي تتكرّر عبر الأزمنة والعصور؛ بفعل غفلة الناس عن البحث في الأنساق المتخفية من وراء الشعر، واهتمامهم ببليغ القول وجميله. فما يعدّ جماليا وحداثيا في الدرس النقدي الأدبي ما هو إلا رجعي ونسقي في مقياس النقد الثقافي، وبالتالي تصبح الحداثة العربية حداثة رجعية لا جديد فيها إلاّ عيوب نسقية تكرّرت فأفرزت نماذجها جيلا بعد جيل[2].

1 – يوسف عليمات. النسق الثقافي– قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم. ص 165.

2 – الغذّامي. النقد الثقافي. ص 7–8.

ولا ينحصر عمل النقد الثقافي، في بحثه عن الأنساق المستترة في الخطابات، في الأدب فقط؛ فهو وإن كان يعتبره المخزن الخطير لهذه الأنساق المتوسلة بجمالياته، إلا أنه يتعدّاه إلى باقي الخطابات الأخرى المصنّفة ضمن حوامل النسق، ومن هذه الخطابات الخطاب الفكري الذي يعد بنى فكرية كامنة في وسائل التعبير اللغوي سواء كانت كتبا أو أبحاثا أو مقالات أو حوارات... إلخ، يظهر على مستوى فردي (مفكر أو فيلسوف) أو على مستوى جماعي لفئات معينة في المجتمع (الجماعات الدينية أو الأحزاب السياسية مثلا)، وهو مكون أساسي من مكونات الثقافة التي لا يمكنه أن ينعزل عنها ولا عن تأثيراتها؛ حيث تتسرّب أنساقها إليه، كما تتسرّب إلى باقي الخطابات، فهو أيضا مثل الخطاب البلاغي الأدبي لم ينج من النسقية؛ وبالتالي يصبح الكشف عنه همّ القراءة الثقافية أيضا[1].

ومن أمثلة الأنساق الثقافية المخبوءة في الخطابات الفكرية أنساق الفكر الغربي، ومنها النسق الكنسي الثيولوجي الذي هيمن على العقل الأوربي، إبّان العصور الوسطى، و ظل يفعل فعله، ويمارس تأثيراته على ذهنية الإنسان الأوربي، رغم انتشار مظاهر الحداثة التي عمّت التراب الأوربي وصُدّرت إلى خارجه. يقول مالك بن نبي: «فقد تشكّل الفكر الأوربي المعاصر في جو العقلانية (Rationalisme) الفرنسية، والجمالية (Esthétisme) الإيطالية. ومع ذلك، ففي كل مرة كانت تنتاب فيها استثارة أو تحدّ وافد من الخارج، كان يرجع من جديد إلى أصله المسيحي»[2]. إذاً، فالنسق الكنسي المنغلق هو الإطار العام الذي دار فيه ذلك الفكر، رغم المبادرات الكثيرة التي حاولت تجاوز هذا المبدإ ضمن ميادين شتى؛ كالفلسفة والأدب والفن.

وكذلك نجد الخطاب الإعلامي قد أخذ حيزا كبيرا من الاهتمام مع الدراسات الثقافية، ومع طرح دوغلاس كِلْنر حول نقد ثقافة الميديا.. هذا الاهتمام لم يكن ببعيد عن النقد الثقافي؛ إذ يرى النقّاد الثقافيون أنه من أخطر الخطابات الحاملة للنسق، فوسائل الإعلام والاتصال تمتع وتؤثر في الجماهير، ومع المتعة يجري تمرير أنساق الهيمنة والإمبريالية والأكشن وصناعة العنف، سواء في التلفزيون أو في السينما أو في الإشهار، وهم يرون أن هذا الخطاب لم يأخذ حقّه من البحث مع الدراسات الثقافية السابقة[3].

فالخطاب الإعلامي، وخصوصا الإشهار، يعمد إلى استثارة عواطف المتلقّين وانفعالاتهم تجاه الخبر والصورة المرئية، ولا يعتمد اعتمادا كليا على الإقناع الفكري؛ فهو يحاول إغراء المستهلك بوصف مزايا السلع، وجودة إنتاجها، وقلّة أسعارها، لدفعه إلى قبول المادة المعروضة، وبذلك يكتسي طابع الجماهيرية؛ لأن رسائله ممتدة إلى الجماهير، لا إلى صفوة المجتمع وطبقته المثقفة، وهنا تكمن خطورته؛ الأمر الذي دعا النقّاد الثقافيين إلى محاولة التصدي له، وكشف عيوبه النسقية؛ لأنّه كرّس ثقافة الاستهلاك، التي زاحمت كل مؤسسات المجتمع، ومنها المؤسسة الدينية والمؤسسة التربوية اللتان تراجع أداؤهما أمام تأثيراته[4]؛ وبالتالي أضحى الإعلام ظاهرة جماهيرية ثقافية تتفاعل فيها الأنساق الثقافية وأنساق الهيمنة والقهر والقوة، ممّا يجعله مادة خاما للنقد الثقافي. وبالقراءة الثقافية الفاحصة يتحقق الكشف عن مثل

1 – الغذّامي. النقد الثقافي. ص 9.

2 – مالك بن نبي القضايا الكبرى. ص 61.

3 – الغذّامي. النقد الثقافي. ص 20–21.

4 – معروف محمد. النص والنقد الثقافي. ص 165.

هذه الأنساق المضمرة في الخطاب الإعلامي وفي الخطاب الأدبي والخطاب الفكري، وفي مختلف النصوص والخطابات والممارسات.

ز – ختام

بعد ما سبق من قول تتّضح لنا أهمية النقد الثقافي، وجرأة طروحاته وما يفتحه من موضوعات، كمنهج قادر على الولوج إلى عمق الخطاب الأدبي وغيره من الخطابات، والغوص إلى بواطنها بدلاً من النظرة السطحية؛ قصد الكشف عن أنساقها المضمرة التي تتشكّل بفعل سياقات ثقافية أنتجتها، ساهم فعل الاستهلاك في تثبيتها؛ لغفلة الناس عنها، ولتصويبهم النظر نحو زوايا أخرى منها، ومن ثمّ يتمّ فحص قيمها الحقيقية والزائفة؛ ممّا يتيح لنا الكشف عن جماليات أخرى لم يُلتفَت إليها من قبلُ.

لكن رغم هذا أجدني مُلحّا على أن أقول إن النقد الثقافي، رغم أهميته في المساعدة على إضاءة تلك الجوانب الخفية من الأعمال الإبداعية، إلا أن الطريق أمامه يبقى طويلا؛ كي يزاحم النقد الأدبي فيما وصل إليه، ويزيحه من طريقه؛ لذلك أدعو –ختاما– إلى توظيف هذا المنهج كأداة للقراءة والتأويل، إلى جانب النقد الأدبي دون إلغائه؛ لأنّ الدعوة إلى إلغائه دعوة متسرّعة تعني إلغاء منهج تغلغل في ذهنية القوم، وله مزايا شتى خدمت النص الأدبي وما زالت.

المصادر والمراجع

أ – العربية

– جميل عبد المجيد. نحو تحليل أدبي ثقافي، تجربة نقدية في قصيدة النثر وخطاب الأغنية. دار غريب. القاهرة. ط 1/ 2009م.
– عبد الحق بلعابد. عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص. منشورات الاختلاف. الجزائر. ط 1/ 2008م.
– عبد العزيز حمودة. الخروج من التيه– دراسة في سلطة النص. سلسلة «عالم المعرفة». العدد 298. الكويت. نوفمبر 2003م.
– عبد الله إبراهيم. المطابقة والاختلاف. بحث في نقد المركزيات الثقافية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط 1/ 2004م.
– عبد الله الغذّامي وعبد النبي اصطيف. نقد ثقافي أم نقد أدبي؟. دار الفكر. دمشق. ط 1/ 2004م.
– عبد الله الغذّامي
- تأنيث القصيدة والقارئ المختلف. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. بيروت. ط 2/ 2005م.
- عبد الله الغذّامي. المرأة واللغة. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء – بيروت. ط 1/ 1996م.
- عبد الله الغذّامي. النقد الثقافي– قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء– بيروت. ط 2/ 2001م.

– عز الدين المناصرة. النقد الثقافي المقارن– منظور جدلي تفكيكي. دار مجدلاوي. عَمّان. الأردن. ط 1/ 2005م.
– مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت – دار الفكر، دمشق، ط 1/ 1991م.

– ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل الناقد الأدبي– إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء – بيروت. ط 3/ 2002م.
– يوسف عليمات. النسق الثقافي، قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم. عالم الكتب الحديث. إربد. الأردن. ط 1/ 2009م.

ب – المترجمة

– إدوارد سعيد. الاستشراق– المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. ط 5/ 2001م.
– بيار بورديو. الهيمنة الذكورية. ترجمة سلمان قعفراني. المنظمة العربية للترجمة. بيروت. ط 1/ 2009م.
– جوناثان كولر. مدخل إلى النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة مصطفى بيومي. المشروع القومي للترجمة. القاهرة. د ط 2003م.
– رامان سلدن. النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. دط 1998م
– رومان ياكبسون. قضايا الشعرية. ترجمة محمد الولي ومبارك حنون. دار توبقال. الدار البيضاء. ط 1/ 1988م.
– سيمون دي بوفوار. الجنس الآخر. ترجمة لجنة من أساتذة الجامعة. دار أسامة للنشر والتوزيع. د ط 2006م.
– زيودين ساردار وبورين فان لون. الدراسات الثقافية. ترجمة وفاء عبد القادر. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. د ط 2003م.
– هيلين جيلبرت وجوان تومكينز. الدراما ما بعد الكولونيالية– النظرية والممارسة. ترجمة سامح فكري. وزارة الثقافة. مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريب. القاهرة، دت.

ت– دوريات

– عبد الرحمن بن إسماعيل السمّاعيل (محررا). الغذّامي الناقد– قراءات في مشروع الغذّامي النقدي. كتاب الرياض. مؤسسة اليمامة الصحفية. الرياض. العدد 97/ 98، 2001م – 2002م.
– أحسن مزدور. النقد الثقافي المقارن. التبيين. الجاحظية. الجزائر.، العدد 26، 2006م.

ث– رسائل جامعية

– محمد معروف. النص والنقد الثقافي. رسالة ماجستير. قسم اللغة العربية وآدابها. جامعة سيدي بلعباس 2009/ 2010م.
– محمد حمودي. تجربة القراءة النقدية عند عبد الله الغذامي. أطروحة دكتوراه. قسم اللغة العربية وآدابها. جامعة مستغانم 2007/ 2008م.

صورة المرأة والرجل في أقصوصة ستيفان تسفايغ: «أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة»[1]

محمد الباح[2]

كُتِبتْ أقاصيص شتيفان تسفايغ في «أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين. وقد أثارت هذه الأقاصيص إعجابا كبيرا في نفوس القراء والأدباء والنقاد.... ويكفي إيراد الكلمتين الذائعتين للأديب الروسي مكسيم غوركي، والكاتب الأمريكي الشهير إرنست هيمنجواي، إذ قال الأول إنه لا يتذكر أنه قد قرأ أشد عمقاً من هذه الأقاصيص. وقال الثاني عن الكاتب إنه معجزة سردية وتحليلية تجبرك على متابعتها. ومن تجليات شهرة تسفايغ أن أقاصيصه وُجدتْ في كل المكتبات العمومية والخاصة، بالدول الناطقة بالألمانية (ألمانيا، النمسا، سويسرا وليشتنشتاين)، وفي جميع القارات، إلا أنها -في المقابل- أُهْمِلَتْ إهمالا كبيرا من قِبَل الباحثين والأدباء الجرمانيين. هذا الإهمال يمكن إرجاعه إلى تاريخ الرايخ الألماني الثالث. وهنا تجدر الإشارة إلى أن كتبه مُنِعَتْ من القراءة في تلك الفترة، فما بالك بالقيام ببحوث علمية حولها.

والأكثر من ذلك، أن مؤلفاته أُحرقت من قِبل النازيين الألمان بسبب أصله اليهودي، فأُفْرِغتْ المكتبات من مؤلفات إلا من بعض النسخ التي تم الإحتفاظ بها قصد التحقير بالكاتب وبمؤلفاته. وإن كان عدد لا يستهان به من الباحثين الجدد يشك في النظرية التي تعزو إهمال الباحثين لمؤلفات تسفايغ إلى نسبه اليهودي، إذ هناك عدد كبير من الأدباء الجرمانيين الذين ينحدرون من أصل يهودي لم يطلهم هذا الإهمال، بل نالوا نصيبا من الاهتمام حتى خلال الفترة النازية مثل كافكا. وهو ما يفتح الباب أمام سبب آخر متصل بالقيمة الأدبية لمؤلفات الرجل حتى وهي تكتسح المكتبات.

الباحثون القلائل الذين اهتموا بمؤلفات تسفايغ يشكون من قلة عدد الأبحاث العلمية حول هذا الكاتب ومؤلفاته عموما. وهذا ما يؤكده مراد العلمي في أطروحته (أسلوب السير الذاتية الأدبية عند تسفايغ) التي أنجزها سنة 1989.

أما في ما يتعلق بصورة المرأة في أقاصيص االرجل، فلم تتم الإشارة إليها إلا في بعض الأطاريح والمقالات المتناثرة هنا وهناك، على الرغم من أهمية الموضوع وهيمنته. وهي إشارات مبتسرة جدا وردت في تضاعيف مواضيع أخرى، بمعنى آخر أنه ليست هناك أبحاث تتفرد بدراسة موضوع المرأة في مؤلفات هذا الكاتب، إذا ما استثنينا أطروحتين وبعض المقالات.

---

1 - روايات الهلال، العدد 729، القاهرة 1431 هجرية.

2 - أستاذ الأدب الألماني. كلية الآداب/ جامعة محمد الخامس/ الرباط.

الإهتمام بصورة المرأة في الأدب الجرماني عرف في أواخر القرن الماضي ازدهارا لا يستهان به، إلا أن شتيفان تسفايغ ظل بعيدا عن اهتمام الباحثين في هذا الميدان رغم أنه يعتبر من أهم كتاب مطلع القرن العشرين الذين اهتموا بدور المرأة في المجتمع ومشاكلها، مع العلم أن جل أبطال أقاصيص تسفايغ نساء. وموضوع المرأة محوري في أغلب القصص.

إن أقاصيص الرجل - خلافا لمؤلفاته الروائية والدرامية التي يتناول فيها أحداثا عن السيرة الذاتية لبعض الأشخاص- تنتمي إلى عالم الخيال والإبداع، ولمواضيعها أشخاصها وأحداثها مستقاة من واقعه الذي عايشه أو حُكِيَ له من قِبَلِ أشخاص آخرين، وبذلك فالصورة «المقدمة للمرأة في الرواية، لا تعبر إلا عن زاوية خاصة نظر منها المؤَلف، بحيث تبدو القضية وكأنها قضية المؤلف (الفرد) أكثر من كونهما قضية مجتمع»[1].

وخلافا لتقنيات السيرة الذاتية، فالأقصوصة لا تسرد أحداثا حقيقية، بل تتناول مواضيع بذاتها يسعى الكاتب من ورائها الى تبليغ رسالة معينة. وهذا ما يفرض تراجع كل ما هو حقيقي أمام كل ما هو ابداعي وخيالي. فالمكان والزمان واللغة ينصهرون في بوثقة واحدة لتقديم صورة واضحة عن الموضوع الذي يتناوله، لا سيما إذا كان يرتبط بالإنسان وقضاياه بشكل مباشر. لأن الأدب في نهاية المطاف «كيان جديد مستقل عن موضوعه، وهذا الكيان الجديد هو رؤية الأديب الخاصة للموضوع الذي يعالجه، ولا يتم تشكيل هذا الكيان الجديد إلا بوسائل فنية معينة تأتي اللغة على رأسها».[2]

إن الإنسان ومعاناته مع القدر هو الموضوع الرئيس الذي يتناوله تسفايغ في أقاصيصه. خلافا لبوكاتشيو مؤسس الأقصوصة الذي تلعب الجماعة (مجموعة من الأشخاص) دورا أساسيا في أقاصيصه. أما تسفايغ فانه يركز في أقاصيصه على الفرد ومعاناته. وهي تتميز بقلة الأشخاص ونادرا ما يرتبط قدر البطل بقدر الشخصيات الأخرى.

إخلاصا لجوهر الأقصوصة الجرمانية، فإن الكاتب لا يسرد حياة البطل بأكملها، بل يروي فقط اللحظة المأساوية المهمة من حياته (ماض، حاضر، مستقبل)، بشكل يوضح الموضوع الذي يتناوله الكاتب. ومن خصوصيات قصص الرجل أيضا أنه لا يذكر أسماء أبطاله بأكملها، بل يستعمل ألقابا أو حروفا أو مِهَنا أو بلدانا أو وضعا اجتماعيا له علاقة بالبطل. في هذه الحالة لا تمثل هذه الشخصيات نفسها، بل تمثل مجموعة من الشخوص أو فئة من المجتمع بأكمله. فالبارون مثلا يمثل المجتمع الأرستقراطي، والكاتب يمثل النخبة المثقفة، وليبوريلا تمثل خادمات البيوت، والعاهرة تمثل الفئة المهمشة من المجتمع. ورغم الاختلافات الظاهرية لأبطال تسفايغ، فهي تُخفي تشابهات باطنية متعددة. فالسيدة هانريات والسيدة «س» مختلفتان تماما من حيث السن والوضعية الاجتماعية... ، لكنهما ستمران من تجربة متشابهة جدا. إن التركيبة الفنية للأقصوصة، وكل مكوناتها مرتبطة ببعضها البعض لتعبر عن وجهة نظر الكاتب في النهاية، سواء تعلق الأمر بالمكان أو الشخصيات التي ترتبط بالراوي/ الكاتب، كارتباطه بجريان الزمن[3].

1 - سيد حامد نساج، بانوراما الرواية العربية الحديثة، ص 128.

2 - حسن البنداري، فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ، ص 254.

3 - رولن بورنوف، عالم الرواية، ترجمة نهار التكرلي، ص 125.

تتكون الأقصوصة «أربعة وعشرون ساعة من حياة امرأة» من جزأين: القصة الإطار، والقصة الداخلية، تتمحوران حول الدور الاساسي لهانريات من جهة والسيدة «س» من جهة أخرى. المرأتان معا ستحاولان التصدي للقيود الاجتماعية المفروضة عليهما.

يسرد الراوي في القصة الإطار نقاشا جدليا للبورجوازية الجرمانية حول مائدة في إحدى الإقامات الترفيهية، نتج بخصوص التصرف غير اللائق للسيدة هانريات التي تقضي عطلة صحبة زوجها وطفلتيها بإقامة مجاورة. هانريات تعرفت على شخص فرنسي وقررت في اليوم التالي دون سابق إنذار الفرار معه متخلية عن زوجها وابنتيها. السيدة «س» في القصة الداخلية امرأة أرملة توفي زوجها منذ زمن طويل، ولكي تخفف عن نفسها أعباء الوحدة، وحتى لا تُحْرِجَ أبناءها الذين لم يعودوا في حاجة إلى مهامها كأم، قررت القيام برحلات ترفيهية، تعرفت من خلالها على شاب بولندي ووقعت في حبه. ودون أن تفكر في ردة فعل ابنائها وأقاربها، قررت الفرار معه هي الأخرى. لكن هذا الشاب، وبعد مدة قصيرة جدا، سيخيب آمالها ويطيح بأحلامها، مما سيجبرها على العودة إلى حياتها التقليدية نادمة ومتحسرة على سوء ما أقدمت عليه. لتكرس حياتها في ما بعد لمحاولة نسيان هذه التجربة الأليمة.

ومن أوجه التشابه بين السيدتين أيضا، أن الوضعية الإجتماعية لكليهما متقاربة. فهانريات امرأة متزوجة ولها طفلتان، تعيش في رخاء إلى جانب زوجها الغني. حتى اللحظة التى كانت تقضي فيها عطلتها مع عائلتها كانت مستسلمة كل الاستسلام للدور التقليدي الذي تلعبه أغلب النساء (زوجة مطيعة، ربة بيت، وأم). وقد انحصر كل وجودها في خدمة البيت والعائلة. وقد كانت دلالة وجودها –في تصورها– تقتصر على لعب هذه الأدوار. ولكونها لم تكن تتوفر على أي عمل خارج البيت، فقد كانت مثلها مثل جل النساء في عصرها آنذاك، غير مستقلة ماديا عن زوجها. وهو الوضع نفسه للسيدة «س» التي استسلمت إلى نمط الحياة التقليدية المعترف بها آنذاك. فوجودها كامرأة كان يقتصر على دورها كأم، ومربية، وربة بيت، وزوجة. وتبعا لتقاليد الطبقة البورجوازية تزوجت في سنها الثامن عشر من رجل غني يعمل في الجيش. حيث كانت تعيش عيشة النبلاء الخالية من المشاكل والهموم.

ونتيجة لهذا المسار، فإن السيدتين معا تعانيان من فراغ كبير في حياتهما الشخصية، حيث الملل القاتل، مع اختلاف أسبابه. فالسيدة هانريات التي تعيش حياة زوجية تقليدية وسطحية، لا ابتكار فيها. بينما السيدة «س» تعيش الوحدة التامة بعد ترملها في سن مبكرة.

إن فقدانها لأدوارها كزوجة، ثم كأم، وربة بيت، أفقدها كل معاني الحياة، حيث أصبحت تشعر وكأنها غير قادرة على إعطاء حياتها معنى جديد. إن الأمومة «هي وحدها التي تشعر المرأة بأنها إنسان، هي وحدها التي تلقي على منكبيها ثوب الكرامة الذي طالما ضَنَّ به عليها مجتمعنا الاضطهادي»[1].

وهذا ما يفسر أن رحلات السيدة «س» عبر أوروبا لم تكن رحلات استكشافية أو ترفيهية، بقدر ما

1 – نفسه، ص 95.

كانت هروبا من واقعها الجديد. فهي نفسها تعترف بأن رحلاتها كانت نتيجة الملل والفراغ الداخلي اللذيْن كانت تعاني منهما.

وهكذا، فحتى في اللحظات التي كانت تقرر فيها السفر ينتابها الخوف من كل ما هو جديد. فبدلا من أن تستمتع برحلاتها وتكتشف أشياء جديدة، كانت تلجأ إلى الأماكن التي زارتها رفقة زوجها المتوفي، وكأنها تستعيد الماضي بكل تفاصيله. وهذا ما دفعها إلى زيارة الكازينو/ الملهى، حيت تعرفت على الشاب البولندي.

أما سر إحساس السيدة هانريات بالفراغ فيكمن في الزواج. إننا لا نعرف الكثير عن زواجها، وإن أظهرت بعض المقتطفات من الأقصوصة معاناتها مع زوجها الذي لا يعيرها أي اهتمام حتى خلال رحلتهما الترفيهية، لكونه يفضل قضاء معظم وقته مع بعض شركائه في العمل عوض الاستمتاع بذلك الوقت معها. وقد كانت تعتبر سلوكه إهانة واحتقارا لشخصها. ولم يكن وجود الطفلتين في حياتها ليعوض إهمال الزوج، فالأمومة في حياة الأنثى ليست تتويجا للأنوثة، وإنما مهربا منها، «وهي الملجأ الطبيعي للمرأة عندما تنسد في وجهها كل الملاجئ الأخرى، ولا شك في أن الأمومة هي مصدر تعويض لها، ولكن الإنسان المستلب هو وحده الذي بحاجة إلى تعويض، وبهذا المعنى تكون الأمومة توكيدا للمستلب لا تحررا منه»[1]. ويبدو هذا القول معبرا عن حالة السيدة هانريات التي كانت تحتاج وجود الزوج بجانبها لتتحرر من أعباء الأمومة وتعيش لحظات الأنوثة. بل إن الزوج هنا صار عبئا ثقيلا على الزوجة، ليغدو وراء «عذاب كل أنثى يقف ذكر أو مجموعة من الذكور، أو المجتمع الذكوري كله»[2].

ومن تجليات هذا الإهمال، إيراد الكاتب، في الأقصوصة، خبر الفرنسي الذي يرافقها في نزهاتها المسائية على الشاطئ، خلال ممارسة زوجها لعبة الدومينو مع زملائه. وفي فقرة أخرى يحكي الراوي/ الكاتب بنوع من السخرية عن سلوك الزوج، وذلك عندما يخبرنا بأن السيدة هانريات لم تعد من نزهتها المسائية على الشاطئ في الوقت الذي ظل فيه زوجها يمارس لعبة الدومينو مع شركائه. قال: «وكان والد الفتاتين قد انهمك في لعب الدومينو مع صاحبه كعادتهما كل ليلة... بينما لم تكن والدتهما قد عادت من نزهتها التي كانت تواظب على القيام بها كل مساء على شاطئ البحر. وقد توجس الجميع من أن يكون قد أصابها شر، فاندفع زوجها المكتنز في رزانة وخفة، وراح يذرع الشاطئ عدوا كحيوان مطارد مذعور، وبدا صوته رهيبا وهو يصيح ويناديها في انفعال«هنريات»»[3].

أما أوجه الاختلاف بين السيدتين، فيكمن في كون السيدة «س» كانت تعيش حياة زوجية سعيدة، وهو ماجعلها وفية للواجب الذي يفرضه عليها المجتمع. حيث ربت أطفالها حتى كبروا واستقلوا. في حين كانت السيدة هانريات تعيش زواجا مملا ومحبطا. وهذا ما جعل أنانيتها كامرأة تتغلب على أمومتها، وتدفعها إلى اتخاذ قرار تعسفي في حق بنتيها كالتخلي عنهما دون التفكير في مصيرهما.

1 - جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، ص 98.

2 - فيصل دراج، دلالة العلقة الروائية، ص 240.

3 - الأقصوصة. ص 9.

إن الحياة الزوجية التي كانت تعيشها هانريات، والتي لم تستطع أن تحقق فيها ذاتها وأنوثتها، أرغمتها على التخلي عن دورها كزوجة. لقد قررت استبدال أدوارها المعيارية التقليدية بحريتها، وتصرخ أنا «لست الأم ولست الأرض ولست الرمز، أنا إنسانة. آكل وأشرب وأحلمُ. أخطئ وأتعذب وأناجي الريح، أنا لست الرمز، أنا المرأة»[1].

وهو ما استنكره المحيطون بها، دون الاهتمام بالحيثيات التي فرضت عليها هذا الاستبدال. إلا أنها لم تُعِر المجتمع وأفكاره وقيوده أي انتباه، لأنها ربحت بهذا التصرف شيئا ثمينا ألا وهو إستعادة الثقة بنفسها، وتَحقيق ذاتها كامرأة مستقلة، وليس كدمية تتحكم فيها معايير اجتماعية تقليدية، تهدر وجودها وأنوثتها.

ارتباطا بهذا التمرد، يورد الكاتب حديثا عن الخيانة الزوجية التي اقترفتها هانريات، وهو ليس حَدَثا عاديا أو حديثا عابرا، بل إنه توضيح لموقف المجتمع من هذه الظاهرة. وقد أورد ستيفان تسفايغ ثلاثة أقسام للمجتمع: الأول يتكون من الزوجين الألمانيين والايطاليين والرجل الدانمركي، وقد كانوا ينعتون تصرفات هانريات بالحماقة والتهور، ويشبهانها برواية خيالية دون المستوى. ويبدو أن هذا الموقف يمثل المجتمع المحافظ والمتشدد. فجل النساء والرجال المنتسبين إلى هذه الطبقية يدافعون بشراسة عن قصر وجود المرأة على الأدوار السالفة الذكر: زوجة، ربة بيت، وأم... دون مراعاة أنوثتها. فقد فوجئ هذا الفريق بسلوك السيدة، وتساءل أنه «من العسير أن يقبل العقل أن حديثا لساعة أو بضع ساعة.... وحديثا آخر أثناء تناول القهوة في الحديقة يكفيان لاستمالة امرأة تناهز الثلاثين من العمر، تعتبر ذات مركز مرموق في عرف المجتمع، وإغرائها على أن تستهين بالمُثُل العليا، فتهرب من زوجها بهذه الطريقة المزرية... وتضحي بابنتيها، فتندفع في نزوة الشباب وتضع مستقبَلها بين يدي شاب غريب»[2].

أما القسم الثاني فيمثله الراوي الذي يرى أن زوجيْ الصنف الأول يسعيان من وراء حكمهما التعسفي إلى التأكيد على أن زوجتيْهما لن تقدما على هذا التصرف اللامسؤول. وهذا ما يؤكد رأي الزوجة الألمانية، عندما ادعت أن هناك نوعين من النساء: نساء شريفات، وأخريات عاهرات، ومن ضمنهن هانريات، كما قال الراوي على لسان الزوجة الألمانية: «هناك نساء فضْليات ونساء فاجرات... وأن هنريات لا بد أن تكون من النوع الثاني»[3].

لكن ماذا تقصد السيدة الألمانية بالنساء الشريفات؟

الواضح أنها تقصد شخصها، فهي تنوب عن النساء اللواتي يسهرن على تحقيق وتثبيت الصورة التي يفرضها عليهن المجتمع التقليدي. هذه السيدة لن تتجرأ على فراق زوجها مهما كانت الظروف. بل أكثر من ذلك، فهي لن تخيب آماله، وستسعى إلى تحقيق كل متطلباته، وتثبيت الصورة المرسومة لها. وهذه نقطة الاختلاف بين هذه السيدة الألمانية وهانريات التي تبنت دور الألمانية لمدة طويلة حتى فرارها من قفص

1 – سحر خليفة، باب الساحة، ص 176.

2 – الأقصوصة، ص 12.

3 – نفسه، ص 13-14.

الزواج الذي أصاب الزوج بخيبة صادمة فيما يخص تصوره لدور الزوجة الذي كان يقتصر فقط على تربية الأطفال والاعتناء به وبالبيت. لهذا أصيب بالانهيار بعد فرار زوجته مع الفرنسي.

سبق أن قلنا إن الراوي، ومن خلفه ستيفان تسفايغ، يمثل القسم الثاني الذي يضم شخصيات واقعية تشبه إلى حد كبير أبطال وبطلات أقاصيص الكاتب. فموقف السيدة هانريات لا يختلف كثيرا عن موقف فريدريك شريكة حياة تسفايغ، فهي كانت متزوجة ولها طفلان كذلك، عندما قررت الارتباط به. لقاؤها الثاني به كان كافيا لدفعها إلى اتخاذ هذا القرار الذي غير مسار حياتها بأكمله. وبذلك نفهم سر دفاع الراوي عن سلوك السيدة هانريات في حديثه عن الأقسام الأخرى. فهو يعترف بأنه بفضل مهنة «الدفاع» (محاماة) تمكن من ذلك (الدفاع عن هانريات) ويسعده جدا فهم الناس، عوض أن يحكم عليهم. في نهاية الرواية يتضح أن السيدة «س» تشاطر الراوي رؤيته. فهو يدافع عن سلوك هانريات، لأنها تصرفت بطريقة غريزية، دون مراعاة أو خضوع للقيود الاجتماعية التقليدية المفروضة على المرأة. هذا ما جعله ينتقد موقف القسم الأول، ويُقَيِّمُهُ بأنه خوف من الغريزة الشخصية. كما يصف هذا الموقف بالقناع الذي يساعد على التكيف مع المجتمع التقليدي المحافظ. فالراوي يستنكر موقف هذا المجتمع ويفضل أن تتبع المرأة غريزتها بحماس وحرية، عوض – كما يحصل في أغلب الأحيان– أن تخون زوجها عندما تكون في أحضانه وتقفل عينيها كي لا تراه وتتصور فارس أحلامها.

يعتبر موقف الراوي/ الكاتب تسفايغ هذا جريئا، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أغلبية المجتمع النمساوي كانت ضد أي خروج للمرأة عن أدوارها التقليدية المحافظة. هذا الموقف الاجتماعي هو الذي يبرر شفقة الراوي على هانريات وخوفه عليها. إن الراوي متأكد بأنها ستعيش غير سعيدة لأن المجتمع لن يرحمها إطلاقا. فهو يعتقد أنها قد تكون غبية لكونها تصرفت بشكل متسرع، لكنه يُنْكِرُ احتقار أي شخص لها. قال: «أما أنا فقد رأيت غير ذلك... وأبديت رأيي في شجاعة وحزم (...) قلت: كثيرا ما تقع المرأة في حياتها ضحية لعوامل مبهمة أقوى من إرادتها وخصالها، فلا يمكن الحكم على هذه المرأة بالفجور... ثم أوضحت أن اللجوء إلى الأساليب الملتوية، وطمس الحقائق، إنما نغرر به أنفسنا حتى لا نستشعر بشجاعة غرائزنا (...) وأنا أرى أن تسير المرأة في حياتها على سجيتها وتخضع لغريزتها. فإن ذلك أحرى بها من أن تعيش في الظلام فتخون زوجها وهي في عصمته، فتحيا حياة مزدوجة شأن الكثيرات من النساء»[1].

إن الراوي يشجب موقف الفريق الأول، ويعتبر الحديث عن تصرف هانريات ما هو إلا نقاش مبدئي لآراء معادية ومضادة فيما يخص الحياة الزوجية. إنه يريد التأكيد على أن المجتمع برمته ليس له رؤية واحدة فيما يخص التعاطي مع الخيانة الزوجية، نظرا لحساسية الموضوع. ومع ذلك، فتعليل موقف الراوي يبدو ضعيفا لأنه ينفي جرأة وقدرة هانريات في اتخاذها لقرارها، ويوحي بأنها اتخذته دون إرادتها الشخصية، ودون معرفة سابقة، بل كانت ضحية قوى غامضة خارجة عن إرادتها. كما أنه يسلط الضوء على أصحاب الموقف المعادي لتصرف هانريات، حيث يقول إن هناك أشخاصا يجدون متعة في استغلال هذا الطرف، ليظهروا أقوياء ومتخلقين،وأبرياء، أكثر من النساء اللواتي يسهل التغرير بهن.

1 – نفسه، ص 12–13.

فالطابع العاطفي الذي يحرك تصرفات النساء قد يدفع إلى تصرفات لا يجب أن نحملهن مسؤوليتها. لذلك يطالب الراوي/ الكاتب المجتمع إلى محاولة فهم النساء وعدم إدانتهن.

وعلى الرغم من هذا التعاطف الواضح من الكاتب، فإن نظرته إلى المرأة لا تزال تقليدية. فعندما يجعل العاطفة وحدها هي السبب الرئيسي في الخيانة الزوجية، فهو ينفي قدرة المرأة على اتخاذ قرار رزين وبوعي كامل. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ستيفان تسفايغ لم يُظْهر ولو في أقصوصة واحدة إمكانية تطور علاقة غرامية خارج مؤسسة الزواج، إلى علاقة عاطفية قوية أو ارتباط طويل. هذا الاستنتاج/ الخلاصة يدفعنا إلى احتمال أن هناك صراعا قائما بين الراوي والكاتب. ففي الوقت الذي يتبنى الراوي موقفا مؤهلا ومتفتحا. يتبنى الكاتب موقفا مضادا ورافضا لأي تمرد على مؤسسة الزواج.

الفريق الثالث تمثله السيدة «س» التي عاينت فرار هانريات مع عشيقها. إنها تختلف تماما مع الفريقين السابقي الذكر. فهي لا تميل إلى الفريق الذي يدين هانريات (الفريق الأول المكون من الزوجين الألماني والإيطالي)، كما لا تساند المدافعين عن هانريات (الراوي/ الكاتب). في حديثها مع الراوي، الذي يكاد يكون استنطاقا بوليسيا، يظهر ضمنيا أنها تشاطره رأيه. فهي تطرح أسئلة متعددة عليه، وتجبره على تعليل موقفه. فبعد أن عرض الراوي موقفه واعترف بأن هانريات بريئة، ردت عليه بأن كل حكم أخلاقي سيكون عبثا.

ولكي تختبر جدية موقف الراوي تحاول السيدة «س» الإدلاء بحجج مضافة، فيما يبدي الراوي تعاطفا مع السيدة هانريات، تحاول توجيه عطفه نحو زوج هانريات وبناتها، وكأنها تخطط لتهييئ صورة سيئة عنها. إنها تحاول إحراج الراوي حين تسأله: ألا يجد بأنه من الحقارة والخيبة أن تتخلى امرأة عن زوجها وبناتها وتهيم برجل لا يمكن أن تعرف إذا كان جديرا بحبها أم لا؟

فمحاولة السيدة «س» معرفة جدية موقف الراوي تعززت بسؤالين: السؤال الأول تعززه بكلمات اجتماعية رنانة، وذلك عندما تسأله: إذا كان لا يرى أي فرق بين المرأة الشريفة التي كان يجالسها قبل الأمس والمرأة التي فرت مع رجل غريب؟ السؤال الثاني كان شخصيا من أجل إحراج الراوي، قالت:

- وإذا فرضنا أنك التقيت بمدام هانريات، وكانت بين أحضان عشيقها..فهل تحبها مثلما كنت تحبها من قبل؟
- طبعا...
- وتتحدث إليها؟
- بلا شك..
- وإذا كانت لك زوجة.. هل تسمح لها بمعرفة هذه السيدة وكأنها امرأة شريفة فاضلة؟
- أسمح بذلك بلا شك.. (...)
- هل تعي ما تقول؟.. أتفعل ذلك حقا؟
- أفعله دون تردد[1].

1 - الأقصوصة. ص 17.

إن أجوبة الراوي/ الكاتب أظهرت للسيدة «س» أن زحزحة الراوي عن موقفه مستحيل، مما جعلها تتأكد أنه لن يعدل عن موقفه مهما حصل. هذه القناعة التامة دفعتها إلى الكشف عن سرها الذي يختفي وراء كل هذه الأسئلة. إنها تريد الحديث مع الراوي عن حالة مَثيلة عاشتها هي نفسها. غير أنها عجزت عن ذلك، ففضلت أن تكتبها له، قالت: ليس باستطاعتي التعبير عما أود الإفصاح به إليك.. لذلك أرى من الأفضل أن أبعثه إليك كتابة»[1].

هنا يطرح السؤال: لماذا لم تستطع السيدة «س» سرد قصتها للراوي مباشرة؟، قضية هانريات لا تعنيها مباشرة، لكنها حركت في داخلها حادثا قديما (مكبوتا) يصعب عليها الحديث عنه. إن تربيتها ومحيطها يلعبان هنا دورا مهما. فهي لم تتعلم قط الحديث مع الغرباء عن تجاربها الشخصية كيفما كانت.

إن ما يستفاد من نقاش السيدة «س»، هو أنها تمثل الفريق الذي لا يدين هانريات، لكنها لا تتجرأ على الدفاع عنها علانية، فالإنسانة التي عاشت تجربة مماثلة لا تقوى على الجهر بذلك، مخافة أن تُحْتَقَرَ من قبل الفريق المحافظ، أو تُنْعَتَ هي الأخرى بالزانية أو العاهرة. لقد كانت معذبة كالنساء «تتمنى أن تقوم بما يقمن به، تفتح فمها ولا تغلقه على الإطلاق، تفضفض وتصيح وتتنفس، وتلعن زوجها، وتلعن حظها»[2].

موضوع الخيانة الزوجية الذي يتناوله تسفايغ في هذه الأقصوصة، كان ولا يزال موضوع الساعة. علمنا التاريخ أن كل امرأة تجرأت على الخيانة الزوجية إلا وتُدانُ لوحدها من قِبَل المجتمع، رغم أن بعض المجتمعات الغربية تحاول أن تتعاطى مع موضوع الخيانة بنوع من التسامح، فإنها تظل حالة نادرة وقليلة جدا.

هذا على عكس المجتمعات الشرقية/ الإسلامية، إذ نجد في بعض الدول كإيران وأفغانستان المرأة الممارسة للخيانة الزوجية مدانة ومحكومة بالإعدام رشقا بالحجارة.

وإذا كانت صورة المرأة وما أثارته من نقاش على النحو الذي ذكرناه، فإن صور الرجال التي رسمها ستيفان تسفايغ في هذه الأقصوصة مختلفة ومتعددة. فزوج هانريات يمثل الرجل الكلاسيكي البرجوازي. إنه رجل غني وُصِف بالقبيح من قِبل الراوي. فهو لا يهتم إلا بعمله وأصدقائه، حيث لا يكلف نفسه تخصيص جزء بسيط من وقته للتنزه مع زوجته. فهو يظن أن بغناه ومستوى عيشه ووجود ابنتيه كافٍ لجعل هانريات سعيدة. إلا أن رحيلها مع رجل غريب سيشعره بخطئه الفادح.

كما أن وجود صورة الرجل الفرنسي الميسورة جدا والأنيق أيضا، صورة لجميع الرجال الذين يبالغون في التأنق عند ماري لوويز فالتر. إنه يعاني كذلك من الفراغ والملل، ويبحث عن تحفيز ولقاءات مثيرة للاهتمام والمغامرات، لأن هذا النوع من الأشخاص لا يمكن أن يعيش لوحده فهو في حاجة ماسة إلى أناس آخرين يمكنه التأثير فيهم أو عليهم.

الفرنسي في قصة هانريات والبولندي في قصة السيدة «س» يتمتعان بجمال طفولي. الاثنان مدمنان:

1 - نفسه. ص 21.

2 - سحر خليفة، باب الساحة، ص 26.

الأول مدمن على الرغبة الجنسية، والثاني يعاني من الإدمان على لعب القمار. وللهروب من حالة الملل التي يعاني منها الشاب البولندي يستسلم لإغراء وسحر لعبة الروليت. إدمانه على اللعب يظهر جليا، ويتحكم في كل وجوده، ولا يهمه الربح أو الخسارة، بقدرما يهمه تلبية غريزة الإدمان على اللعب. وهو ما جعله يتورط اللعب في ديون عجز عن تسديدها. فالرغبة في اللعب كتسلية، ما فتئت تتحول إلى إكراه، مما سيدفع البولندي إلى عدم الوعي بمحيطه. والسيدة «س» التي تحاول إنقاذه ومساعدته تعمل كعاهرة، وذلك عندما طالبها بأن لا تبذل أي مجهود، لأنه لا يمكن الحصول على شيء منه. لقد لجأت إلى الشخص الخطإ، ليس عنده نقود. إن محاولتها استعمال الدين كورقة لتحريره من هوس اللعب باءت بالفشل، ولما حاولت تذكيره بالقسم على أن لا يعود للعب مرة أخرى مهما كانت الظروف، أنكره ونبهها إلى أنه لا يوجد تحت وصايتها.

إن التوقف عند سرد قصة هانريات، يعني أن الراوي/ الكاتب يضع تصميما لصورة الأم التي تجبر على الاختيار بين أمومتها وأنوثتها. فهي من جهة لم تعد تتقاسم حياتها مع زوج لا تحبه، رغم أنه يحترمها، غير أنه لا يعيرها الاهتمام الذي تستحقه كامرأة. والأحاسيس التي اكتشفتها حتمت عليها اتخاذ قرار سريع بين الأمومة والأنوثة. الخيار هنا ليس بين رجلين، ولكن بين نوعين من الوجود: الوجود كأم، أو كأنثى، وهو ما رجحته في الأخير، لتتجرد من قرارات القمع التي مارستها لسنوات على أحاسيسها الجنسية والأنثوية.

إن وصف تسفايغ قرار هانريات بأنه غريزي وعاطفي وليس نتاج وعي كامل، ومحاولة إظهاره أن الغرام يدفع بعض الناس إلى اتخاذ قرارات لا يجب أن نلومهم عليها، هو تقليل من قدرة المرأة على اتخاذ قرار واع وعقلي. وهو ما يؤكد الصورة التقليدية للمرأة التي تغلب فيها المشاعر على العقل. باسم الراوي يدافع تسفايغ عن هانريات لكنه يحذرها إذا لم نقل يُرْعِبُها دائما بالعواقب التي تنتظرها في حالة التصرف بهذا الشكل.

المصادر والمراجع

- البنداري، حسن، فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 2/ 1988.
- بورنوف، رولن، عالم الرواية، ترجمة نهار التكرلي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط 1/ 1991.
- تسفايغ، ستيفان، أربعة وعشرون ساعة من حياة امرأة، روايات الهلال. العدد 729. القاهرة/ 1431 هـ.
- خليفة، سحر، باب الساحة، دار الأداب، بيروت/ 1990.
- دراج، فيصل، دلالة العلاقة الروائية، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق/ 1992.
- سيد حامد نساج، بانوراما الرواية العربية الحديثة، مكتبة غريب، القاهرة ط 1/ 1985.
- طرابيشي، جورج، الأدب من الداخل، دار الطليعة، بيروت. ط 1/ 1981.


السميائيات التأويلية
امتلاك الموضوع الثقافي
د. عبد الله بريمي

القرآن: من بناء النص إلى بناء العالم

منذر عياشي[1]

فاتحة القول

يمتنع القرآن بلفظه ونموذج بنائه عن غيره، فإذا افترضنا أن رجلاً قد أخذ كل مفردات القرآن وألفاظه، لم يُنقص منها حرفاً، فإنه لا يستطيع أن يؤلف بها للقرآن مثيلاً. وكذلك إذا افترضنا أن هذا الرجل قد وعى أنه لا يمكن بناء النص بالألفاظ فقط، وأنه محتاج، في إنفاذ ذلك إلى معونة أخرى، هي عمدة بناء كل نص، بل هي عمدة قيام كل بناء، فتأمل في القرآن فعرف حاجته هذه، فاستنبطها منه، وصار إلى امتلاك النموذج أو نماذج البناء (أو ماسمته العبقرية العربية «النظم» ، وما نسميه اليوم البنية) في القرآن، وجرب، بألفاظ القرآن وقد جمعها ونماذج البناء وقد استنبطها، أن يبني بها كلاماً، فإنه لا يستطيع، لا بما جمع ولا بما استنبط، أن يجعل كلامه الذي يؤلفه، مستعيناً بكل هذا، للقرآن مثيلاً.

من هذه التجربة النظرية التي افترضنا وجودها الآن، والتي قام بها بعض العرب فما قدروا، فساؤوا سمعة وما استطاعوا أن يبنوا نصاً موازياً للقرآن باستخدام ألفاظه ونماذجه، نستنتج:

1 – أن القرآن نص محاكاته أمر محال. فالقضية ليست فقط في الألفاظ والنماذج، ولكنها في الصوت الذي يتكلم فيه. وهذا الصوت هو صوت الله، وليس صوت الإنسان. ولما كان الكلام على مثال مرسله يقوم لا على مثال متلقيه، فقد امتنع القرآن عن المحاكاة لأنه على مثال الله يقوم.

2 – ونستنتج أيضاً، أن القرآن نص مفارق، وأن لغته لغة مباينة. وهو، بالمفهوم التداولي، يمثل اللغة كما هي مستعملة عند مستعملها. وبما أن مستعملها ليس كمثله شيء، فإن لغته على مثاله ليس كمثلها شيء.

1 – القرآن: لغته هي ذاته

تقتضي المعرفة أن نعلم أن القرآن، إذا كان نصاً لغوياً، فهو نص تقوله لغته وتبدعه على نحو ما تريد لا على نحو ما نريد. وهذا يعني أنه يمثل لغة المُبلِّغ لا لغة المُبَلَّغ، كما يمكن أن نقف بهذا الخصوص على بعض النصوص كالحديث القدسي، وكالتوراة والإنجيل. ولقد يجعل هذا الأمر من لغته لغة الحقيقة الأولى، ولغة الوجود المركب، ولغة الفاعلية الفاعلة.

وكذلك، فإن المعرفة تقتضي أن نعلم أن اللغة على مثال متكلمها تكون. فإذا كان هكذا، فإن اللغة التي

---

1 – أستاذ باحث في الأدب واللسانيات والترجمة/ جامعة البحرين/ البحرين.

يتكلمها الناس هي على مثالهم خلقاً تكون. ولقد تدفعنا هذه المسلمة كي نقول: إنه لا يجوز أن يقاس القرآن لغة بخلق الناس لغة. كما لا يجوز أن تكون لغتهم خلقاً قياساً للغته مثالاً. ولقد فعل المعتزلة هذا فأخطأوا، لأنهم أنزلوا القرآن، في مثاله، منزلة لغة الناس في خلقها. فصار القرآن، في منظورهم ومن حيث هو لغة، مخلوقاً كما هي لغة الناس مخلوقة. وبذلك استوى عندهم، في الخلق لغة، القرآن وغير القرآن.

وإننا لنرى أن الناتج المعرفي لهذه القضية يفيدنا في:

1 - العلم بأن قياس القرآن، من حيث هو لغة، على غيره، وقياس غيره عليه باطل لا يصح في العلم اللساني، وعلم دراسات تحليل الخطاب، وعلم الدرس الأسلوبي. والسبب لأن مثل هذا القياس مضيِّع لمبدإ خصائص التكوين اللساني للكلام، ومعطل لهوية الخطاب ونوعه وجنسه، بالإضافة إلى كونه أعمى عن المميز الأسلوبي وحقائق التركيب فيه.

2 - وهو يفيدنا أيضاً بأن نعلم أن اللغة، في إنجازها لنفسها كلاماً، تفكك المركزيات الجمعية والقهرية، كما تفكك مركزيات الطابقة والمماثلة. فهي إذا كانت تشكل، في نحوها وألفاظها، عنصراً جامعاً لمجموعة المستعملين لها، إلا أنها، في إنجازهم لها كلاماً، مميز فردي حادٌّ لكل فرد من الأفراد المتكلمين بها. وهي بهذا تشبه البصمة، بل هي بصمة لغوية يتميز بها كل فرد متكلم بلغة ما من كل فرد متكلم باللغة نفسها. ألا وإنه ليكفي أن نعلم، بهذا الخصوص، أن سوسير قد أقام تصوراً فرق فيه بين اللغة بوصفها مكوناً اجتماعياً، والكلام بوصفه مكوناً فردياً. بل إنه فعل أكثر من ذلك، فقد بدد المركزية اللسانية تماماً حين حدد ميداناً خاصاً «للغة La langue» وسماه «لسانيات اللغة Linguistique de la langue»، وآخر «للكلام La parole»، سماه «لسانيات الكلام Lingustique de la parole»[1].

وإذا كنا قد صنفنا لغة القرآن بأنها لغة الحقيقة الأولى، فيمكننا الآن أن نصنف لغة الناس بأنها لغة الحقيقة الثانية ، وذلك تمييزاً للقرآن منها. وما كان هذا إلا لأن لغة الناس هي لغة البدائل، ولغة التداول اليومي، والمباشر. ولقد نعلم أن هذه اللغة ذات طابع نفعي لأنها لا تُستخدم لذاتها، وهويةً لذاتها، وتكون ذاتها هي عين ذاتها اللسانية بلاغاً وبياناً، ولكن لأنها تُستخدم أداة لغير ذاتها ولا تحمل هوية ذاتها ولا تكون ذاتها اللسانية بلاغاً وبياناً. وبقول آخر، فإنها أداة محايدة وتُستخدم فقط للتواصل ونقل الأفكار. وبهذا المعنى، فإنها ليست لغة الفاعلية، ولكنها لغة المفعولية المنفعلة.

وجدير بالذكر، أن الأمر في اللغة لايقف بنا معها عند هذه المرتبة أو ما وضعناه في خانة اللغة التداولية والنفعية. مما يعني أن المعرفة تقتضي أيضاً، وهذا من البدهيات اللسانية، أن نعرف أن للإنسان لغة إنسانية أخرى، غير لغة التداول، يؤكد بها فرديته وفرادته، ويستعملها لأداء غير الغرض المخصوص بالتواصل. وهذه اللغة هي لغة الأدب، حيث المجاز والصورة والتشبيه والاستعارة والتمثيل. ولقد يمكن تصنيف هذه اللغة بأنها لغة الحقيقة المصنَّعة.

ولعلنا نستطيع، والحال كذلك، أن نقول في وصفها: إنها لا تستعمل لنقل الأفكار ، كما في اللغة

1 - F. De Saussure: Cours de linguistique générale, éd. Payot, Paris 1978, p 36–39

التداولية، ولكنها تستعمل لذاتها. وهي، بالتالي، جزء من الأفكار التي تصوغها. فإذا قرأتها قرأت فكرتها، وإذا قرأت فكرتها قرأت لغتها، وكأنها بمنزلة الشيء الذي يدور على نفسه. ولقد يعني هذا التزامن أن اللغة هنا، ومن منظور الوجود وسؤاله، شكل في صوغها، وشكل في فكراتها، وشكل في الدلالات التي تحملها. وإننا لنجد أن غريماس قد ذهب مؤيداً هذا المنحى في كتابه: «الدلالة البنيوية Emantique structurale»[1]. ولذا نرى أن اللغة في الأدب إذا كانت شكلاً، فإنها تعمل في هذا الشكل لصالحها الخاص فقط تجلياً وظهوراً، وحضوراً ووجوداً.

وإذا أدركنا هذه الفروق، فيجب، من منطق العلم الدارس للغات، من حيث التكوين، أن لا نساوي، كما قلنا، بين لغةِ القرآن وما تمثله فرادة حقيقتها، ولغةِ الإنسان وما تمثله في مستوييها: التداولي والأدبي.

وإزاء هذا الأمر، يستوجب النظر المنهجي أن نقدم ترتيباً يتسق مع الحقائق اللغوية الثلاث:

- حقيقة اللغة القرآنية. وهي تمثل لغة الحقيقة الأولى.
- حقيقة اللغة التداولية. وهي تمثل لغة الحقيقة الثانية.
- حقيقة اللغة الأدبية. وهي تمثل لغة الحقيقة المصنَّعة (أو إذا شئنا، فيمكن أن نسميها لغة الحقيقة المخلَّقة، أولغة الحقيقة الإبداعية).

بعد هذا، إذا ارتقى الإدراك لدينا إلى مرتبة الصواب، وحل بدهية في ساحة البدهيات اللسانية والسيميائية، فيجب أن لا نحمل لغة القرآن إلى موقع لغة كائننا، ولا أن نحمل لغة كائننا إلى موقع لغة القرآن. وبقول أدق، يجب أن نحافظ على التباين بينهما. فلا نؤنسن لغة القرآن، لأن هذا محال أن يكون، ولا نجعل، في المقابل، لغة الإنسان كلغة القرآن مقاماً، فنقلب الأدوار، ونخلط المواقع، ونكسر حدود المقامات الخطابية، وذلك كما فعل النحاة في تحليل التركيب الجملي للقرآن نحواً ودلالة (وتابعهم في ذلك البلاغيون في شروحهم والمفسرون في تفسيرهم)، فرصفوا الشواهد وجعلوها صعيداً واحداً: قرآناً، وشعراً، ونثراً، أو قرآناً، وأدباً، ولغةً تواصلية، من غير أن يقيموا بينها التباين التداولي أولاً، والتفاصل النوعي خطاباً، ثانياً. فشوشوا وألبسوا، وكسروا حدود المقامات الخطابية والكلامية، وجعلوا هذا كذاك، وذاك ككل شيء، وعبثوا وما أبانوا. وكانت النتيجة أن تخبطوا منهجاً في النظر اللساني الدارس للخطاب، مما أدى إلى ضياع إلى خصائص كلِ لغة من لغات: القرآن، والشعر، والنثر، كما اختلط عندهم المُستَعْمَلُ تداولاً في الخطاب اليومي النفعي بالمُستَعْمَلِ أدباً، وبالمُستَعْمَل قرآناً.

وخلاصة لهذه النقطة نقول: إذا كان الله قد أقام لنفسه في كتابه حدوداً وطالب أن لا يُعتدى عليها («وتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ». البقرة / 29)، فقد أقام لخطابه في كتابه حدوداً وطالب أن لا يُعتدى عليها. وهذا هو معنى حضهم، سبحانه وتعالى، أن يأتوا بسورة من مثله («وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ». البقرة/ 23).

فإذا وقفنا عند حدود خطاب الله في القرآن من غير عدوان على لغته، فستبقى هذه اللغة تقول ما تقول،

1 - A.J. Greimas: Sémantique Structurale, éd, Larousse. Paris. 1966.

وسنبقى نحن، من خلالها نقول ما تريد أن تقول. وإن حدث خلاف هذا، ونقلنا لغة القرآن إلى موقع لغة كائنن ، فإنها ستقول من خلال لغة كائننا ما نريد لها أن تقول. وحينئذ، سينفلت مارد التأويل من قمقمه، وسنرى مجازاً كثيراً، وتأويلاً كثيراً، واعتداء على القرآن كثيراً، وقد كان.

2- القرآن: من الوجود إلى البناء

القرآن لغةٌ، ولكن لغته هي لغة الأصيل لا لغة البديل. ولذا كانت في تمثيلها له هي لغة الوجود والبناء. وأما عالم الأشياء، فلغته لغة البديل لا لغة الأصيل. ولذا كانت في تمثيلها له هي لغة الصورة، والعلامة، والأثر. وكذلك، فإن لغة القرآن هي لغة الوجود المركَّب، ولغة النسق. وأما لغة عالم الأشياء، فهي لغة الوجود المفكَّك، وبالتالي ليس لها نسق يجمعها في كل واحد متماسك ومتآلف ومنسجم. فلا عجب، إذن، أن يمثل القرآن، وهو نص لغوي، عالم الحقيقة الأولى، وعالم الوجود المركَّب، وعالم النسق، والعالم الفعَّال الفاعل، وأن يمثل عالم الأشياء، وهو جمع من العلامات (جمع سيميائي)، عالم الحقيقة الثانية، والعالم المنفعل المفعول. وهكذا يقف بنا هذا النظر على أربعة أمور:

- **الأمر الأول**، ونرى فيه أن القرآن، بوصفه نصاً لغوياً، مقدم في الوجود والحقيقة، على عالم الأشياء في الوجود والحقيقة. ولقد يعني هذا ما يلي:

- أن عالم القرآن هو عالم يمثل الموجود هنا، والآن، والدائم في آنيته. أما عالم الأشياء، فهو عالم يمثل الوجود المرجأ، والمؤجل، والآجل، والمابعد، والصفر في آنيته.
- إن القرآن شكل لغوي. وهوشكل قائم بنموذجه. ونموذجه جزء من تعينه.

- **الأمر الثاني**، ونرى فيه أن النص إذا لم يسبق نموذجُه شكلَ وجوده وحضوره المرئي، كما في لغة التواصل وصناعة الأشياء، فإنه لن يحمل القيمة الفيزيائية لزمن التعاقب. وهو إذا لم يحمل هذه القيمة، فلن يُعدَّ حدثاً بين الأحداث. والسبب لأن الأحداث لكي تكون أحداثاً، يجب أن تصير، وصيرورتها تجعلها ذات طبيعة تعاقبية. وهي لن تكون كذلك إلا بأسبقية نماذجها في الوجود على شكل وجودها وتحققه. والسؤال الذي يطرح بهذا الخصوص هو: لماذا لم يتخذ القرآن هذه القيمة التعاقبية بين أسبقية نموذجه وشكل وجوده وتحققه؟ وهل ثمة شيء فيه يجعله غير لغة الأشياء وأيضاً غير لغة الإنسان؟

وللإجابة نقول:

- القرآن نص مفارق في وجوده، على صعيد الحدث، لكل أنواع النصوص الأخرى. وما كان قاطعَ رحم وصلة معها، إلا لأنه يقوم في وجوده على غير ما يقوم به عالم الأشياء، وغير ما يقوم به عالم النصوص. وتكمن سمة هذه المفارقة في كونه نصاً لغوياً لا تتطلب قراءته استحضاراً مسبقاً لنموذج المعمار ، كما في عالم الأشياء، ولا استحضاراً مسبقاً لنموذج لساني لبنية الجمل، كما في عالم النصوص واللغات. وأما لم كان ذلك، فلأنه سيميائي الوجود وعلاماتي الحضور. ولذا، فهو متعالق نموذجا وتحققاً لغوياً في آنية لا تسمح بأي تفكيك. ولقد نرى أن هذا التعالق قد بلغ درجة من التلازم لا يمكن أن نرى معها أن نموذجه سابق في وجوده على وجود تحققه، كما تقدم اللغات نفسها في تحققها. وهذا يعني أن القرآن، من حيث هو نص لغوي، موجود معاً: نموذجاً وتحققاً بآن واحد. وأنه بكليته الوجودية هذه، يشكل لغة نص مفارق للغة البشر، وأنه يشكل بهذه المفارقة نسقاً يتماسك

فيه النموذج والتحقق حدَّ الاندغام، بحيث إذا انفصلا، على نحو ما هو معهود في نصوص اللغات جميعاً، فسدت هذه الكلية الوجودية. ومن هنا، فإن القرآن، بهذه الخصوصية، مفارق ولا يدخل ضمن مصفوفة الأنساق الأخرى للغة النصوص.

- وإذا كان القرآن يخرج عن كونه حدثاً لمفارقته في الوجود، على نحو مارأينا، عالم الأحداث في الأشياء وفي اللغات، فإنه يقف خارجاً عن مألوفنا. وهو يكون كذلك، لأنه يكون ولا يكون معه زمن، أو يكون ويكون زمنه «اللا زمن». وهذا يدل على أن Achronique :

1 – وجوده سابق في كليته النسقية، وبوصفه نصاً مكتوباً، على زمن التلفظ به. فقد كان ولم يكن معه زمان. وهذا هو معنى وجوده باللوح المحفوظ.

2 – كما يدل أيضاً، أنه بسبب لا زمنيته، لا يوصف بالمحدث، كما لا يوصف بالمخلوق، لأن ما يحدث إنما يحدث في الزمان ويتخلق به.

3 – وهويدل أخيراً، وبسبب لا زمنيته وتعاليه، بأنه يستطيع أن يكون في كل زمان وكأنه تنزيل فيه من غير أن يكون جزءاً منه. وهذا ما يجعله يدور مع الزمان حيث يدور.

– **الأمر الثالث،** ونرى فيه أن عالم الأشياء محتاج، لكي يكون، إلى نموذج به يكون. ومثله كذلك عالم اللغات. وإلا يكن ذلك، فإن العالم بكل مافيه من أشياء ولغات، سيبقى مادة خاماً، أو بالنسبة إلى الوجود، في حكم معدوم. وإنه سيبقى كذلك إلى أن يُقيَّضَ له نموذج به يصير. فإذا قُيِّضَ له ذلك، وصار من بعد خلق خلقاً آخر، فحينئذ يصبح عالماً بمعنى الوجود والبناء، وليس عالماً بمعنى الوجود فقط.

هنا، ثمة سؤالان يُطرحان، وهما: هل يستوي عالم الأشياء واللغات، بوصفهما عالمين قائمين بنموذجهما، مع القرآن بوصفه عالماً قائماً بنموذجه؟ وإذا كانا لا يستويان، ففي أي شيء يختلفان؟

وإجابة على هذين السؤالين، سنقف على نقطتين:

- إذا نظرنا إلى عالم الأشياء متأملين، وإلى عالم اللغات ملاحظين ومدققين، فسنجد أن عالم الأشياء، ومثله عالم اللغات، متعدد المراتب. فبعض الأشياء وبعض اللغات، ما هو موجود بنموذج رباني، وبعضها الآخر ما هو موجود بنموذج إنساني. ألا وإن كل موجود على مثال موجده يكون. فمثال الموجود بنموذج رباني، نراه في قوله تعالى: («والسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ المِيزانَ» الرحمن/ 7). ويقاس على هذا الموجود ما شابهه في الوجود، بما في ذلك وجود الإنسان نفسه. ولما كان القرآن داخلاً في هذه الرتبة، فقد حض الله الناسَ أن يأتوا بمثله عشر سور أو سورة. وأما ماهو موجود بنموذج إنساني، فنراه في عالم الوضع والصنائع، حيث الأشياء واللغات تقوم بنماذج صنعها لها الإنسان ووضعها. ولهذا لا نجد لغة في عالم اللغات تخرج عن وضع الإنسان لها، ولا نجد شيئاً في عمارة الأرض يخرج عن صنع الإنسان له. وهكذا، فإن كل ما هو لغة وعمارة إنما يقوم بنموذج يصنعه له الإنسان ويضعه.
- إن المقارنة بين ماهو نموذج رباني وما هونموذج إنساني، تجعلنا نرى الاختلاف بيناً في الدرجة والنوع، كما تجعلنا نقرُّ ، من غير جدل ولا مماحكة، أن نماذج الخلق الرباني في رتبتها هي غير نماذج الخلق الإنساني في رتبتها. فالأولى في غير قدرة الإنسان محاكاتها، أو مجاراتها، أو مماثلتها. ولما كان حال الإنسان معها كذلك، فإنه يستحيل عليه وإن عرف النماذج واستنبطها أن يأتي بتعيناتها

وتحققاتها. وأما الثانية، فهي غير ممتنعة على الإنسان، كل الإنسان، محاكاتها، أو مجاراتها، أو مماثلتها. وإنه ليستطيع بنماذجها أن يعيدها ما يشاء خلقاً مراراً وتكراراً.

- الأمر الرابع، ويتعلق بإشكالية الوجود. فالمتلقي للقرآن يرى أن عالم القرآن لا يستوي مع عالم الأشياء واللغات وجوداً. ولعله يرى أيضاً أن الأسباب الداعمة لما يرى هي:
- إن القرآن في وجوده، ينتمي إلى عالم المصادر. وعالم المصادر عالم تام لا ينقص ولا يزيد، وهو أيضاً عالمٌ ثابت لايتحول ولا يتغير.
- وفي مقابل القرآن، فإن الأشياء في وجودها، تنتمي إلى عالم الأحداث. وعالم الأحداث عالم ناقص لا يتم. وهو كلما زاد نقص، يحكمه في ذلك قانون التدافع. ولما كان الأمر فيه كذلك، فهو يمثّل عالم التحول والتغير، أي عالم الصيرورة التي لا تعرف ثباتاً ولا تماماً ولا انتهاء.
- أما سؤال الوجود الأكبر الذي يطرح بهذا الخصوص، فهو: إذا كان القرآن ينتمي إلى عالم المصادر وهو ثابت، وإذا كانت الأشياء تنتمي إلى عالم الأحداث وهو متغير ، فكيف يقابل الثابت المتغير؟ وبقول مماثل: إذا كان عالم القرآن عالم تام ومتناهٍ في تمامه، وإذا كان عالم الأشياء عالم ناقص غير متناه في مصائره وتحولاته، فكيف يقابل المتناهي غير المتناهي في مصائره وتحولاته؟
- يقول أبو الوليد محمد بن رشد: «الوقائع بين أشخاص الأناسي غير متناهية، والنصوص، والافعال، والإقرارات متناهية، ومحال أن يقابل مالا يتناهي بما يتناها»[1].

إن ابن رشد يطرح القضية إذن. فالقرآن، بوصفه نصاً، هو متناه، وأفعال الرسول وإقراراته متناهية، ومحال، كما هو الأمر بلفظ ابن رشد، أن يقابل المتناهي ما لا يتناهاً. وإذا كان هذا هكذا فما الحل لإيجاد هذه المقابلة؟

في الواقع، إن الأمر يحتاج هاهنا إلى فضل تأمل:

أولاً - إن المقابلة بين الوقائع (جملة الأحداث بين البشر، و بين الأشياء في العموم) والنصوص (نص القرآن والقوانين التي يضمنها) مقابلة لا تجانس فيها، وبالتالي فهي من حيث ظاهرها وجوهرها غير متكافئة، ولا متعادلة، ولا تحقق شرط التناسب والمساواة بين الأطراف. فكل طرف من أطراف الأطروحة: (النصوص - الوقائع) ينتمي إلى ميدان. فكيف يمكن جمعها معاً في إطار منظور واحد؟

ثانياً - لقد رأينا أن الأشياء لكي تكون، أي لكي تنتقل من الوجود فقط إلى عالم الوجود والبناء، محتاجة إلى نموذج به تكون. ولما كان الأمر هكذا، فواجب أن نعلم أيضاً:

- أن الوقائع بنماذجها (أي بقوانين تكوينها) تكون. وأنه لا مجال لحدوث واقعة من غير نموذج (قانون تكويني) به تكون، ومثلها في ذلك عالم الأشياء.
- وأن النموذج لا ينحصر بواقعة واحدة ينتجها وتكون مقابلة له. فالنموذج ينتج ما لا نهاية له من

1 - أبو الوليد محمد بن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد. تحقيق الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 2004 ط 2، ص11.

الوقائع. وإذا أدركنا هذا، علمنا أن النصوص (بنماذجها وقوانينها) لا تقابل الوقائع في عددها، ولكنها بعددها المحدود تولد الوقائع التي تنتجها، تلك الوقائع غير المحدودة عدداً أو غير المتناهية عدداً.

ألا وإن ابن رشد، رحمه الله، كان مدركاً لهذا الأمر. ولقد أكد أن «طريق الوقوف عليه هو القياس». ورأى في البرهان على ذلك «أن دليل العقل يشهد بثبوته»[1].

ثالثاً – أما كيف تقابل القوانينُ (النص) بعددها المحدود والوقائعَ بعددها غير المحدود فذلك يكون لأن القوانين (النص) تملك طاقة خلاقة بها تكون قادرة على التوليد، وعلى التفريع، وعلى القياس إلى ما لا نهاية. ألا وإنه لولا هذه القوانين (النص، النماذج، الأفعال، الإقرارات) لما قام مجتمع (بالمعنيين الوجودي والبنائي)، ولما انتقلت الأشياء من الحالة الخام (الوجود فقط) إلى حالة البناء.

ومن هنا نفهم لماذا كان القرآن، وهو نص لغوي، يملك القدرة على تغيير العالم، ونقله من حالة الوجود إلى حالة البناء والكينونة.

3 – من بناء النص إلى بناء العالم

تشكل الآية (90) من سورة النحل عماد ما نحن بصدده. إنها تقول: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون».

فإذا وقفنا عليها متأملين، فسنجد أنها، من حيث هي نص لغوي، تقوم على تقابل بنيتين: الأولى، يأمر الله فيها. والثانية، ينهى الله فيها. وإذا كنا سابقاً قد درسنا النسق اللغوي لهذه الآية[2] ، فإنه يبقى لنا أن نقول: إن هذه الآية تشكل نصاً لاكتمالها بنية. وإن هذا النص، بما استخدم من ألفاظ متقابلة ومتنابذة، قد رسم صورة لعالمين يقومان على النقيض من بعضهما. وإذا دققنا النظر استخلاصاً لموجبات هذا التقابل، فسيتبين لنا أن النص في تأسيسه للفهم ينطلق من البنى الاجتماعية، أو لنقل إن القرآن، في عملية التغيير، ينطلق من بنية النص إلى بنية العالم. ويمكن أن نتبين هذا بالنظر إلى ثلاثة أمور:

- لا يقوم معمار الفهم في الأذهان (والفهم دلالة تقوم معماراً في الأذهان) إلا بتوسط لغة ذات بنية تواصلية. وقد أقام القرآن معمار الفهم في الأذهان بهذه الواسطة.

وأما ما نعنيه بتوسط لغة ذات بنية تواصلية، هو أن تكون هذه اللغة لغة متعدية،أي أن تكون لغة لا تكتفي بقول نفسها مبنى ومعنى، وإنما تتعدى نفسها إلى متلقيها. ومن هنا يمكن القول إنه لو لم تكن لغة الآية لغة متعدية (لأنها ذات بنية تواصلية) لما قامت الدلالة فهماً في الأذهان. ولكن، مع ذلك وضمن هذا الإطار، ثمة ما يجب إدراكه وإقراره، وهو أن للمتلقي دوراً هاماً يتجلى في ثلاثة أمور:

- في كونه مستقبلاً للغة الخطاب. وأنه لولا استقباله له لظلت الدلالة وجوداً معلقاً في الهواء، ولما تأسست فهماً في الأذهان. ومن هنا نفهم لماذا كان القرآن بلاغاً.
- والأمر الآخر، وهو أن المتلقي، بوصفه وجوداً في مكان، فإنه يكتسب من المكان قيمة مكانية. ولما

1 – المرجع السابق والصفحة نفسها.

2 – انظر دراستنا: «الآية في الحكاية – خطاب على خطاب».

كان كذلك، فهو في استقباله للغة الخطاب يعطيها قيمة مكانية تنتقل بها من وجود قائم في الأذهان إلى وجود قائم في الأعيان، أي إلى وجود متحقق في المكان.

- وأخيراً، فإنه لما كان المتلقي متغيراً في الزمان، فإنه يكتسب من الزمان المتغير قيمة زمانية متغيرة. ولما كان كذلك، فإنه في استقباله للغة الخطاب، يعطيه قيمة زمانية (خارج لغوية) تنتقل بها من وجود قائم في الأذهان إلى وجود قائم في الزمان، أي إلى وجود متحين في الزمان وله آنية.

وهكذا نرى أن معمار الفهم إذا كان محتاجاً إلى توسط اللغة لكي يقوم في الأذهان، فإن المتلقي باسقباله للغة الخطاب قد أحدث هذه النقلة. وليس هذا فقط، فقد أنزل اللغة مكاناً وزماناً تتحقق فيهما وتتحين وتأخذ حيزها وآنيتها. وبقول آخر ، فإن هذا يعني أن المتلقي هو وسيط القرآن في الانتقال من بنية النص إلى بنية العالم. ألا وإن ما يدل على حضور هذا المتلقي، بالإضافة إلى أمر الله ونهيه (وهذا لا يكون إلا في مجتمع بين الناس)، إنما يتجلى في كون المتلقي هو مقصود الخطاب في خاتمة الآية، حيث يقول الله تعالى: «لعلكم تذكرون».

2 – لقد أراد القرآن أن يؤسس، بواسطة لغة الآية، متصوراً يستند إلى نوع من القول يقوم التقابل فيه على التنابذ والتنافي. ولما كان ذلك، فقد أخرج القول القرآنيُّ ، بالمقصور الذي اشتمل عليه ، المتلقي من أحادية الرؤية وانسجامها دلالةً إلى رؤيتين تتناقضان وتتضادان دلالة. بهذا، فقد بنى الفهم عند المتلقي على قاعدة التعدد وثنائية التضاد بين المفاهيم.

وإزاء هذا الامر، يمكننا أن نقول: يعد هذا الفعل القرآني بالغ الأهمية. وما كان هكذا، إلا لأن العالم ينكشف للإنسان باللغة. وما ذلك منها بمستغرب. فنحن لا نرى العالم بأعيننا، ولكننا نراه بعين اللغة التي تتوسط بيننا وبينه. ولقد نستطيع أن نقول: إذا كان العالم موجوداً، فإن اللغة تعيد صوغه وصنعه وإبداعه. ومن هنا، فيبدو لنا، عبر لغة هذه الآية، بل عبر لغة السور جميعاً، أن القرآن قد عمل على كشف العالم لمتلقيه. وليس هذا فحسب، بل عمل أيضاً على إعادة صوغه وصنعه وإبداعه. فالعالم، كما هو، يقوم على قواعد ثلاث: الفحشاء، والمنكر، والبغي. وأما العالم الذي تعيد لغة القرآن صوغه وصنعه وإبداعه، فيقوم على قواعد ثلاث أخرى: هي العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى.

ولقد نرى أنه ما كان للقرآن أن يعيد صوغ العالم وصنعه على النحو الذي قام به، لو لم يثور اللغة، فيخرجها من مألوف ما تقول بالتراكيب والأشكال المستقرة إلى تراكيب وأشكال من النظم لم تكن مألوفة ولا معروفة، ومنها بناء النص الذي بين أيدينا، بل بناء النص القرآني كله، والذي غير قواعد النظم في اللغة فجعل العالم الاجتماعي من خلالها يتنافر بنية ويتضاد قيمة. ولعل بيان الكيفية التي عمل بها القرآن، سيوضح هذا الأمر تحديداً على نحو أكثر جلاء.

3– لقد عمل القرآن، إذن، بوساطة اللغة على تغيير المفاهيم ودلالتها القائمة في الأذهان، لكي يغير مفاعيل هذه المفاهيم القائمة في الأعيان. أما كيف تجلى ذلك عملياً، فقد كانت سبيله إجراء تعديل جذري في «الباراديغم Le paradigme «اللغوي، أو ما نسميه «محور الاستبدال» اللغوي.

نعود الآن إلى الآية، وننظر فيها: لقد كانت المفاهيم القائمة في محور الاستبدال الأول تتمثل في دلالات الألفاظ الآتية:

محور الاستبدال

أ–الفحشاء
ب–المنكر
ج–البغي

محور
التركيب الاجتماعي

وللملاحظة نقول: إن كل المفاهيم التي تظهر في محور الاستبدال، لها انعكاس في محور التركيب الاجتماعي، أي في العالم والواقع. فانعكاس الفحشاء هو الشنيع من الأقوال والأفعال، وانعكاس المنكر هو كل ما يرفضه العقل ويقبحه، وانعكاس البغي هو الاعتداء وتجاوز الحد، والتسلط والظلم، والسعي بالفساد.

ويمكن جمع المحورين ليظهرا كما في الترسيمة الآتية:

محور الاستبدال

أ–الفحشاء
ب–المنكر
ج–البغي

محور
التركيب الاجتماعي

أ– الشنيع من الأقوال والأفعال
ب– ما يرفضه العقل ويقبحه
ج– الاعتداء وتجاوز الحد، والتسلط والظلم، والسعي بالفساد

ولقد نرى عند التأمل في محور التركيب، أن كل مفهوم من هذه المفاهيم، يتضمن شيئاً من المفهومين الآخرين ويستوجبه، على الرغم من انفراده بدلالته الخاصة ومفعوله الخاص. وكأن هذه المفاهيم حين النظر في عملها ومنتجها، تشكل سياقاً لبنية اجتماعية واحدة.

وأما المحور الثاني، وهو المحور البديل، فترتيبه في الآية يأتي في الموقع الأول. ولكن لأنه البديل، فقد جعلناه ثانياً في الترتيب ليقع موقع البديل. وكما فعلنا مع الأول، سنضع له ترسيمة تظهر مفاصله:

محور الاستبدال

أ–الفحشاء
ب–المنكر
ج–البغي

محور
التركيب الاجتماعي

ولقد اخترنا، لكي نظهر انعكاسات هذا المحور على محور التركيب الاجتماعي، مقاطع مما يقوله سيد قطب – رحمه الله– في تفسيره «ظلال القرآن»:

يبتدأ سيد قطب كلامه حول هذه الآية قائلاً: «لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعاً، ثم لينشئ عالماً ويقيم نظاماً. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبلية أو أمة أو جنس، إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية»[1].

وبعد ذلك يأتي إلى المفردات الحاملة لهذه المفاهيم وانعكاستها الاجتماعية، كل مفردة على حدة:

أ- «العدل». جاء بالعدل الذي يكفل لكل فرد ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع»[2].

ب- «وإلى جوار العدل.. الإحسان.. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، وشفاء لغل الصدور. ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحاً أي يكسب فضلاً». «والإحسان أوسع مد لولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة لكها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً»[3].

ج- «ومن الإحسان «إيتاء ذي القربى»، إنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه، وتوكيداً عليه. وما يبني هذا على عصبية الأسرة، إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذي يندرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام، وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل»[4].

وكما رأينا مع المحور السابق، فإننا نرى مع هذه المحور أيضاً: إن كل مفهوم من المفاهيم التي جاءت في محور الاستبدال، يتضمن شيئاً من المفهومين الآخرين ويستوجبه. ولكن هذا لا ينفي انفراده بدلالته الخاصة ومفعوله الخاص. وهكذا نرى أن هذه المفاهيم عملاً وإنتاجاً تشكل سياقاً لبنية اجتماعية واحدة، متآلفة ومتجانسة.

ولقد نقول في خاتمة هذا التطواف ما يلي:

يمكن للشيء أن يوجد، ولكن وجوده لا يعني أنه كائن. إذ ما من شيء لكي يكون إلا وهو محتاج إلى نموذج به يكون. ولقد كان القرآن نموذجاً انتقل به الإنسان والعالم من الوجود إلى الكينونة. ألا وإن القرآن هو النص الوحيد الذي، لكي يغير بنية العالم ويثورها، غَيَّرَ بنية اللغة وثَوَّرَها، وإنه النص الوحيد الذي يجعل العالم جديداً كلما تقادم العهد به، وإنه النص الوحيد الذي يفتح، بوساطة لغته، أبواب المستحيل: علماً ومعرفة، وتقدماً، ومدنية، وحضارة.

1 – سيد قطب: في ظلال القرآن. دار الشروق. ط 24، 1995، القاهرة، ج 4، ص 219.

2 – نفسه.

3 – نفسه.

4 – نفسه.

المصادر والمراجع

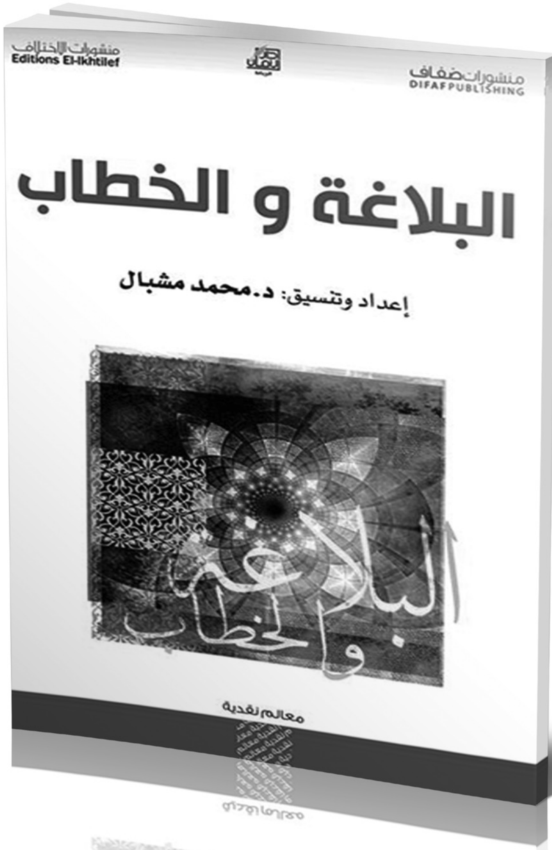
أ- العربية

- أبو الوليد محمد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد. تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد، عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2/ 2004.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 24/ 1995.

ب- الأجنبية

- A. J. Greimas: Sémantique Structurale; éd, Larousse. Paris. 1966.
- F. De Saussure: cours de Linguistique generale, éd. Payot. Paris 1978.




منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
البلاغة و الخطاب
إعداد وتنسيق: د.محمد مشبال
معالم نقدية

البَلاغة واللاَّبَلاغَة: من الوظيفة الحِجاجية إلى الوظيفية الانْفعالية

مولاي حفيظ العلوي[1]

«كلنا بلاغيون» ميشيل ماير

يسعى هذا المقال إلى التمييز بين الخطاب البلاغي، كما جسدته كتابات الفلاسفة والمنظرين البلاغيين، ونقاد الأدب، وبين الخطاب غير البلاغي؛ أي كل ما يعتبره هؤلاء وأولئك غير مندرج ضمن جنس البلاغة.

لقد التبس مفهوم البلاغة بمفاهيم متعددة من قبيل «البيان» و«المعاني» و«البديع» و«الفصاحة»، وكل مفهوم من هذه المفاهيم يفرض إجرائيته على ناقد أدبي أو منِّظر للبلاغة، وقد يسطر أحد المفاهيم في فترة زمنية ما، ويعتلي عرش «عاصمة البلاغة»[2]، وقد يترك المجال لآخر يحيا ويضبط التعامل في الحياة اليومية والعملية، وفي بناء النظريات والمناهج والنماذج في الحياة العلمية»[3]. إضافة إلى ذلك، فهذا المفهوم يتقاسم المجال مع حقول معرفية وعلوم عدة، من نحو وتفسير وعلم الإعجاز والمنطق وعلم الكلام[4]. ويمكن التأكيد ها هنا أن تعدد تصورات البلاغيين ونقاد الأدب ساهم بدوره بطريقة أو بأخرى في التباس المفهوم وعدم تحديده التحديد الإجرائي الدقيق.

إن مقصديتنا ونحن نتغيا التمييز داخل الخطاب التقعيدي للكلام العربي أن ننظر إليه من حيث قدرةُ كل منتج للكلام على «إبداع»، و«توليد» معان جديدة لتحقيق كفايات الإقناع والتأثير بواسطة الحجج اللغوية (التوكيد والنفي والاستفهام والنداء والتعجب والتمني...)، وغير اللغوية (التعريف والشرح والتفسير، المقارنة والاستنتاج...) والصور البيانية؛ وذاك ما يمكن تسميته بلاغة، وما عداه فيندرج في باب النقيض: اللابلاغة. ومعنى كلامنا هذا أن الفصاحة والبديع، والبيان آليات، وأدوات تحقق إنجاز قول بليغ بواسطته يتم الإفهام والتفاهم والتواصل والتفاعل. فالبلاغة إذن، «منهج يمس خاصية ملازمة

---

1 – أستاذ باحث. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط

2 – محمد العمري. البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. ص 6.

3 – محمد مفتاح. المفاهيم معالم. نحو تأويل واقعي. ص5.

4 – عبد الفتاح كيليطو. الأدب والغرابة، دراسة بنيوية في الأدب العربي. ص55-56.

للإنسان هي الكلام»[1]، وهي الأداة الأكثر إنسانية في تواصل الأفراد داخل المجتمع وتواصل الشعوب داخل العالم الذي يحتويهم[2].

إن البلاغة العربية تحولت بعد جيل الرواد الأوائل: الجاحظ، وعبد الله بن المعتز، وأبي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني... إلى مجرد تلخيصات، وتعميات، وتعميمات، وهوامش.... فهل يمكن القول: إن البلاغة العربية «وقَّعت -بدورها -على شهادة موتها بعد هؤلاء؟»[3]. وكيف سيستفيد منظرو العرب في اللسانيات والسيميائيات والتداوليات والشعريات من اجتهادات السَّابقين وإخفاقاتِ اللاحقينَ؟

إن التنظير للبلاغة العربية خضع لثلاثة مرتكزات أساسية؛ أحدها نظري ممثل في كتابات أرسطو، خاصة مؤلفَيْه «فن الشعر» و«الخطابة»[4]؛ ذلك أنه اعتبر أول من أسَّس بلاغة شاملة للنص الأدبي في منحييه الشعري والخطابي[5]. وثانيها أمَدَّ البلاغيين وغير البلاغيين بأمثلة ونماذج أغنت البلاغة العربية، نقصد هنا أساسا القرآن الكريم في معانيه ولغته الإعجازية، وثالثها الشعر العربي الذي اعتبر شاهدا على مدى فصاحة وبيان الشاعر العربي.

لم تتأسس علوم البلاغة العربية (علم البيان، علم المعاني، وعلم البديع) خارج دائرة المتعارف عليه من الأمثلة التي أضحت سلَّماً يرتقيه كل مشتغل بالنقد الأدبي، وبالبلاغةِ، وكل متعلم لهما. وقد كان القرآن الكريم المعجز ببيانه وفصاحته وبلاغته وبديعه أول كتاب يُفجِّر العلاقة بين الشفهي والمدوَّن، المقدَّس والمدنس، البَليغ واللابليغ، الفصيح وغير الفصيح. فقد «ظل منهج البلاغة العربية يسير في محفل شواهدَ القرآن، وظلت مقاييس البلاغة تستنبط من بلاغة القرآن، وظلت شواهد القرآن يُستضاء بها في تحديد جمالية التعبير في الثقافة العربية»[6].

إن ترجمات أعمال أرسطو إلى اللغة العربية فتحت أعين العرب على الأدب، والمنطق اليونانيين، وأساليب الاستدلال والحجاج، والبرهنة، والاستنباط، والاعتراض، والمناظرة، وخصائص القياس؛ ذلك أن الذين اشتغلوا بالبلاغة من الإغريق كانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من الفلسفة، في حين أن العرب، أو طائفة منهم على الأقل،كانوا يعتبرونها ضربا من الفصاحة[7]. يضاف إلى هذا أن تنظيرات أرسطو للبلاغة كانت معقدة، وبعيدة كل البعد عن ذائقة العربي سواء أكان ناقدا أو مُنظِّرا لعلوم البلاغة مما حدا بهم إلى الانكباب على قراءة ودراسة ومدارسة النص القرآني في جانبه الإعجازي[8].

1 – هنريش بليث. البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص. ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري. ص 16.

2 – فيليب بروطون. الحجاج في التواصل. ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي. ص 10.

3 – رولان بارت. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. ترجمة عمر أوكان. ص 10.

4 – هناك مجموعة آراء متباينة حول تأثيرات أرسطو في البلاغة والنقد العربيين، ينظر بهذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر: محمد العمري. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وعباس ارحيلة. مسألة التأثير الأرسطي لدى مؤرخي النقد والبلاغة العربيين.

5 – محمد مشبال. البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب. ص 36.

6 – عباس ارحيلة. تجربة رائدة في البلاغة العربية، قراءة في كتاب البديع لابن المعتز. ص 13.

7 – عبد الملك مرتاض. مقدمة في نظرية البلاغة, متابعة لمفهوم البلاغة ووظيفتها. مجلة جذور.ع 28/ 2009. ص 219.

8 – نفسه. ص 224.

إن البلاغة كما نظَّر لها أرسطو طاليس تقوم على الوضوح في الألفاظ والعبارات، وتوظيف المجازات والابتعاد عن المبتذل، واليومي؛ و قد رأى أنه «يجب أن تكون اللغة مزيجا من الألفاظ، فتجنب الابتذال والسقوط يكون باستعمال الكلمات الغريبة والمجازات والمحسنات»[1]، وعنده أن مقياس جودة العبارة وتناسقها الدلالي الاعتدال في استعمال الألفاظ غير المألوفة ومن بينها الاستعارة[2]؛ ذلك أن البراعة في المجازات هي «آية المواهب الطبيعية، لأن الإجادة في المجازات معناه الإجادة في إدراك الأشباه «[3]؛ ولأن كل تعبير بليغ ينشأ كما يقول عن «التغيير/ المجاز، وعن نوع من التمويه يدركه السامع فيما بعد، ويزداد إدراكا كلما ازداد علما، وكلما كان الموضوع مغايرا لما كان يتوقعه»[4].

إن تعريف أرسطو للبلاغة تم من خلال اعتماد العلاقة الرابطة بين المتلقي والمرسل؛ ذلك أن هذا الأخير يرسل رسالة لغوية عمادها الإقناع والتأثير[5]، قال موضحا: «الكلام المقنع إنما يكون عند الفحص»[6]، أي حينما يصبح مِلكا للآخرين يتداولونه، ويتواصلون بواسطته، ويتفاعلون فيما بينهم، ف «الآثار المرتبطة باللغة يجب أن يهيئها المتكلم وأن تنمو وتبسط وفقا للهجته، وإلا فما عسى أن يكون عمل الشخص المتكلم إذا كان فكره ظاهرا ولم ينتج عن لغة»[7]. وبهذا الفهم العميق للعلاقة الرابطة بين من يقول ومن يتلقى القول صار أرسطو أستاذا لمن بحث بعده في موضوع الخطابة – البلاغة جزء لا يتجزأ من الخطابة– من القدماء , واكتسبت نظريته في التأثير، حسب الاحتمال وما يقبله الجمهور أو يرفضه، أهمية كبيرة عند المحدثين[8]. إن جوهر البلاغة عنده يتأسس على ما يقوم به فعل التأثير من «لذة»، وإثارة جمالية لخلق تواصل فاعل وفعَّال، بواسطة وسائل متنوعة «تكفل بلوغ الإقناع بما تنطوي عليه من وظائف الإفادة والإمتاع»[9].

لقد صاغ أرسطو إطارا نظريا وتطبيقيا محكم البناء في محاولة لضبط القول الإنساني من خلال التقعيد لعلم البلاغة الذي لا ينفصل عنده عن البيان والفصاحة. فجمال الأسلوب يقرنه بتحقيق الغرابة واللذة، يقول: «ينبغي أن نهب اللغة مظهرا غريبا؛ فإن العجيبات إنما تكن من البعيدات، وما يحدث العجب يحدث اللذة»[10]، ويستتبع ذلك حسن ملكتي الكتابة والقراءة؛ وب «الجملة أنه ينبغي أن يكون الكلام المكتوب مما يسهل قراءته، ويكون المقروء مما يسهل النطق به وكلاهما واحد»[11].

---

1 – أرسطو طاليس. فن الشعر. ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمان بدوي. ص 62.

2 – عبد الباسط الكراري. دينامية الخيال مفاهيم وآليات الاشتغال. ص 347.

3 – أرسطو طاليس. فن الشعر. ص 62.

4 – أرسطو طاليس. الخطابة. حققه وعلق عليه عبد الرحمان بدوي. ص 220.

5 – آ.أ. ريتشاردز. فلسفة البلاغة. ترجمة سعيد الغانمي و ناصر حلاوي. ص 5.

6 – الخطابة. ص132.

7 – فن الشعر. ص54.

8 – محمد العمري. في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا. ص 16.

9 – محمد مشبال. البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب. ص 10.

10 – الخطابة. ص 186.

11 – نفسه. ص 199.

في غياب أثري الإقناع والتأثير , وخُلُو الكلام من عنصريْ الغرابة واللذة نوجد أمام اللابلاغة التي تطال عند أرسطو ما سماه بـ «الأساليب البارِدة» المثلة في:

الألفاظ ألسن واللغات الموضوعات المجاز الصور أو المقارنة

لا تتسم الألفاظ عند أرسطو بصفة الجمال/ البلاغة ما لم تكن «مخيلة خلقية موجهة نحو الأمور الموضوعة، وكانت معتدلة، والاعتدال هو ألا يرتفع إلى قول العظام بالتكذيب»[1]. فالبلاغة لا تتحقق للكلمة ما لم تتوفر فيها جملة خصائص، حددها أرسطو في:

أ- التعبير عن شيء/ مفهوم ما ، وهو ما يقصد به بكلمة مخيلة،
ب- البعد عن قول الكذب،
ت- بلوغ هدف معين،
ث- إيضاح شيء، وإلا عدت اللفظة حقيرة دنيئة[2].

أما على مستوى الألسن واللغات، فلم يغيِّب أرسطو في تنظيره للبلاغة المتلقي لها، بل إنها لا تقوم إلا به، وبما تحدثه في نفسه وإدراكاته وتخيلاته من تأثير، فلا بد في كل كلام من «توافر شروط منها: النظر في من يتوجه إليه الكلام، ومراعاة حسن الانطباق إذا شاء المرء أن يبدو كلامه صادقا دون أن يكون مبتذلا»[3]. فالبلاغة بهذا التصور الأرسطي تمتلك دلالة مزدوجة: «فهي أداة مُحاجَجَة، وسيلة تفكير، تقنية للإقناع، إضافة إلى كونها فن القول، جودة الحديث»[4].

ولا يكون الكلام متميزا جميلا[5] إذا خلا من المجاز[6] الذي يتأسس على «نوع من التمويه يدركه السامع فيما بعد، ويزداد إدراكا كلما ازداد علما،وكلما كان الموضوع مغايرا لما كان يتوقعه»[7]، وكلما ابتعد المتكلم عن المبتذل واليومي، ارتقى بكلامه إلى مستوى الغرابة المؤسسة على المجازات والمحسنات البديعية[8]. وبذلك يتأتى له نقل صورة العالم المحيط به بالكلمات وتجسيده بشتى المقارنات بين المحسوسات والمجردات إلى إن تُنحَت في مخيلة متلقي خطابه صورةُ ما يرغب في تبليغه. وبالجملة كلما أتعبنا أنفسنا بحثا عن القول الجميل المقترن بالمجاز والصور والمقارنات تحققت اللذة والغرابة[9]، فشتان بين قولنا وردية الأصابع وحمر

1 - نفسه. ص 202.
2 - نفسه.ص 186.
3 - نفسه. ص 222.
4 - رولان بارت. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. ص 10.
5 - يقابل الكلام الجميل عند أرسطو الكلام القبيح. الخطابة. ص 186.
6 - يعرف أرسطو المجاز بالقول : «المجاز نقل اسم يدل على شيء إلى شيء آخر: والنقل يتم إما من جنس إلى نوع، أو من نوع إلى جنس، أو من نوع إلى نوع أو بحسب التمثيل». فن الشعر. ص58.
7 - الخطابة.ص 220.
8 - فن الشعر. ص 62.
9 - الخطابة. ص 186.

الأصابع، وأقبح من ذلك لو قلنا قرمزية الأصابع[1]. «وأما الصور فكما قلنا من قبل إنها تغييرات (مجازات) مرموقة جدا، وتتألف دائما من حدين مثل الاستعارة التمثيلية»[2]. فالإجادة والبراعة في المجاز والتصوير بصفة عامة آية الإبداع، وإدراك النظائر، و«الصور تجمَّل إذا تضمنت تغييرا»[3] في رؤية الإنسان لذاته والعالم المحيط به. ومعنى هذا أن الصور المبدعة من قِبَلِ المتكلم أو المدركة من قِبَلِ المتلقي لها ارتباط كبير بالجانب السيكولوجي لكل واحد منهما، لأنها «ترتبط بعملية داخلية خاصة بتكوين الصور، عملية تشبه عملية الكتابة. والصورة المرسومة من خلال تلك العملية موجودة في الداخل، داخل النفس وليس في الخارج، موجودة كأداة من أدوات الذاكرة التي لا يمكن الاستغناء عنها»[4]، تحدثها عملية التخييل وما يترتب عنها من انفعالات ومدركات مرتبطة بمدى استجابة المتلقي لفعل التخيل الممارس عليه من قِبَلِ مرسل الخطاب[5].

وقد ربط الجاحظ (ت255ه) في كتابه «البيان والتبيين» بين مفهومين اثنين لتحقيق بلاغة القول هما: مفهوم الإفهام ومفهوم الفهم؛ يرتبط الأول منهما بمقدرة المرسل على التواصل والتأثير وتبليغ ما في صدره من المعاني على أحسن وجه بعيدا عن بلاغة التضليل والتعتيم[6]. ويتعلق ثانيهما بقدرات المتلقي على معرفة، وبلوغ مرامي ومقاصد رسالة المرسل، وحل شفراتها اللغوية وغير اللغوية. ودلالة الرسالة تتحدد بالقدرة على وضوح المعاني وتقريبها إلى الذهن. يقول الجاحظ: على «قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة (...) يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالةُ أوضحَ وأفصحَ، وكانت الإشارةُ أَبْيَنَ (...) كان أَنْفَعَ وأَنْجَعَ»[7]. ولهذا اعتبر الجاحظ البيان أسَّ البلاغة وعليه نجاح كل تواصل إنساني[8] ومن لم تتوفر في كلامه جملة شروط لا يمكنه تحقيق بلاغة «الإمتاع والمؤانسة»، يقول الجاحظ معرفا البيان: «البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة الصوت، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن...»[9]. وقد عقد الجاحظ مقارنة طريفة بين جودة البيان ورداءته بالقول: «البيانُ بَصرٌ والعِيُّ عمًى، كما أنَّ العلمَ بصرٌ والجهلَ عمى، والبيان من نتاج العلم، والجهل من نتاج الجهل»[10]. ولا يرتقي الإنسان في نظر الجاحظ إلى مرتبة «المبين» ما لم يجهد نفسه تعلما، ومكابدة عناء التكلف، ومصاحبة

1 – نفسه. ص 190– 191.

2 – نفسه. ص 223.

3 – نفسه. ص 223.

4 – شاكر عبد الحميد. مجلة عالم المعرفة.ع 360/ 2009. ص 139.

5 – يميز جابر عصفور بشكل دقيق بين التخيل والتخييل. ينظر بهذا الصدد مؤلفه «الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي». الفصل الأول.

6 – ينظر مقال العياشي أدراوي «التخاطب السيئ وصلته ببلاغة التضليل: نحو تقويم أخلاقي للخطاب». مجلة البلاغة وتحليل الخطاب.ع.2 / 2013. ص 41 وما بعدها.

7 – نفسه. ص68.

8 – اعتبر الجاحظ البيان قريب الترادف مع البلاغة. عبد الملك مرتاض. نفسه. ص 227.

9 – البيان والتبيين. ج 1/ 30.

10 – نفسه. ص 69.

العلماء ومدارسة كتبهم باستمرار[1]. إن أبا عمرو الجاحظ وهو ينظِّرُ عبر مسار كتابه «البيان والتبيين» لمفهوم البيان إنما يُقعِّدُ في ذات الوقت للبلاغة بوصفها خطابا قوليا، وهذا يدفعنا إلى القول: إنه «تدرج من كلمة بيان إلى كلمة بلاغة، ومن كلمة بلاغة إلى كلمة خطابة، ينتقل من الواحدة إلى الأخرى وكأنما يتحدث عن الشيء نفسه»[2].

يمكن أن نمثل لثالوث العملية التواصلية كما حدده الجاحظ بـ:

	الوظيفة	الهدف
المرسل	إنجاز خطاب لغوي، أو غير لغوي/ الفهم والإفهام	الكشف عن المعاني وتوضيحها
المرسل إليه	تلقي الرسالة	تأويل المعاني، وبلوغ مقصدية المرسل
الرسالة	سلامتها من كل «عِيٍّ»، وحَصر	إحكام صنعة الكلام، وذلك بسلامة النطق، وطلاقة اللسان، وعدم تنافر الكلمات، والبعد عن التكلف

إن مفهومي «البيان» و«التبيين» عند الجاحظ لا يخرجان عن كونهما وسيلتين تواصليتين يبينان من جهة شخصية «المتكلم المثالي» الذي لا يشوبُ كلامَه عيبٌ من العيوب التي حددها الجاحظ في: اللَّجْلَجَةِ والتَّمْتَمَة والفَأْفَأَة والحكلة والعجلة[3] والحبسة[4]، واللَّثْغة[5] والتَّأْتَأة والبعد عن التشديق والتقعير والتقعيب والتكلفَ المعيب[6]، إذ «كلما كان اللسانُ أَبْيَنَ كان أحمَدَ»[7]. ومن جهة ثانية فـ«المرسل إليه المثالي «هو القادر على تحويل الأصوات -الصوت/ آلة اللفظ[8]- إلى مُدْرَكات ومفاهيم ودلالات. وبالتالي فمدار اللائمة ومستقر المذمة كما يرى الجاحظ يتمثلان في:

بلاغة يخالطها التكلف — بيان يمازجه التزيد

ومن هنا يمكن القول إن البلاغة/ البيان عند الجاحظ ينظر إليه/ ها من «زاوية وظيفته العملية

1 - نفسه. ص73- 74.
2 - محمد العمري. البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. ص39.
3 - البيان والتبيين. ج.1/ 29.
4 - نفسه. ص30.
5 - نفسه. ص31.
6 - نفسه. ص29.
7 - نفسه. ص 28.
8 - نفسه. ص70.

والإنجازية؛أي القدرة على التأثير في السامع لتعديل موقفه أو سلوكه من خلال المزاوجة في الخطاب بين الصنعة اللفظية والحجة المنطقية»[1]. نستفيد من ذلك أن المتكلم ليس واحدا، بل متعددا بتعدد العيوب المشار إليها آنفا، والسلامة منها؛ ومن ثمة فالجاحظ يصنف الكلام الإنساني إلى طبقات بحسب مقدار الناس وطبقاتهم[2]، وسلامتهم من كل عيب، وما يشغل باله في بداية ونهاية المطاف هو قدرة المتكلم على التأثير بتوظيف آليات لغوية وأخرى حجاجية لإنتاج المعرفة وخلق تواصل حقيقي. فالبلاغة –بهذا المفهوم الجاحظي– تبتدئ من اللغة– الإقناع والتأثير، وتنتهي عند حدود الانفعال والتأويل. فهل كان الجاحظ يؤسس، دون أن يعي ذلك، لبلاغة الهرمينوطيقا ؟

لقد حصر الجاحظ أصناف الدلالة «بوصفها أدوات للمعرفة والتبليغ»[3] في خمسة أنواع، هي:

1 – اللفظ: ربط الجاحظ بين اللفظ والبيان، ومعنى اللفظ عنده هو كل الكلام الصادر عن صاحبه المبين عن شخصيته[4].

2 – الإشارة: تكون بـ«اليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف... وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان» [5].

3 – الخط: قارن الجاحظ بين الكتابة/ الخط والكلام ورأى أن «الكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره»[6].

4 – العَقد: «وهو الحساب والخط... وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد، فساد جل النعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما، ومصلحة ونظاما»[7].

5 – النِّصْبَة: هي «الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق وجامد ونام...»[8].

يعلق محمد العمري على هذه الأنواع من الدلالات على المعاني بالقول: إن الجاحظ «قد اتجه في البداية إلى وضع نظرية لمعرفة الكون والإنسان، وتداول هذه المعرفة بالأدلة المختلفة. إنها نظرية الرمزية الكونية: عقد الرموز وفكِّها بالتواضع والاعتبار (التأمل)»[9]. والجاحظ وإن ربط في تنظيره لماهية البيان بين أدوات

1 – مصطفى الغرافي. عن البلاغة: دراسة في تحولات المفهوم. مجلة عالم الفكر. ع.2. مجلد.42/ 2013. ص 191.

2 – عبد الملك مرتاض. ص 223.

3 – جميل عبد المجيد. البلاغة والاتصال. ص 143.

4 – البيان والتبيين. ج 1/ 69.

5 – نفسه.ج 1/ 69–70.

6 – نفسه. ص 71.

7 – البيان والتبيين. ج 1/ 71.

8 – نفسه. ص 71.

9 – البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها. ص 191.

المعرفة الإنسانية ووسائل تبليغها فإنه قصد بذلك «حصر البيان في دائرة الفصاحة والبلاغة، مع ربطها بفكرة المقام؛ لداعية من مهمته في الدفاع عن العرب وبلاغتهم ضد الشعوبية، ولداعية أخرى من مذهبه في الاعتزال، واعتماده البيان الخطابي آنذاك في الإقناع والجدل والحجاج»[1]. وبهذا المعنى فإن الرؤية البيانية عنده رؤية لغوية تهتم بالبيان باللفظ بيانا متفاوتا أي بلاغيا. أما ذكر الأصناف الأخرى فكان عملية إخلاء لتحديد الموضوع الذي هو الدلالة باللفظ أي العبارة[2].

إن هَمَّ الجاحظ كما يرى محمد العمري يتمثل في «محاولة إرساء مجتمع عقلاني تربط بين أفراده علاقات الإقناع بالمنطق أو الاستمالة بشتى صور الدلالة والتعبير الاجتماعي اعتمادا على رصيد منتخب من مأثور الأقوال الخطابية والشعرية التي تسمو إلى مستوى الحكمة والمثل، وكل ما يتصل بذلك من الأخبار والحكايات الكاشفة عن الطبيعة البشرية جادة وساخرة وهازلة»[3]. ولأن الجاحظ سعى جاهدا إلى الكشف عن «بلاغته» من خلال التنظير لبلاغة مجتمعه، فقد اعتبرت القواعد التي أثبتها وقعَّد لها قواعد أيضا لبناء حياة الناس وسلوكاتهم في المجتمع[4].

إن ما يهمنا هنا من كتابات الجاحظ هو الكشف عن حدود الكلام البليغ من غيره. يقول الجاحظ: «فحروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة مُلْسا، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مُختلفة متباينة، ومُتنافرة مُستكرهة، تشقُّ على اللسان وتكدُّه. والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبةً متواتية. سَلسَةَ النظام،خفيفةً على اللسان. حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأنَّ الكلمةَ بأسرها حرفٌ واحدٌ»[5]. ويقارنَ بين الشعرِ الجيد والشعر الرديء بالقول: «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأَجزاء، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أُفرغَ إفراغاً، وسُبِكَ سبْكاً واحدا. فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهَانُ»[6]. ويقولَ أيضا: «ومن ألفاظ العرب ألفاظٌ تتنافرُ، وإن كانتْ مجموعةً في بيتِ شعر لم يستطع المُنشِدُ إنشادها إلا ببعض الاسْتكراه»[7].

إن البلاغة كما نستشفها من الأمثلة السابقة هي الابتعاد عن المبتذل من القول والمتكلف منه، والإعراب عمَّا في النفس بكل وضوح بعيدا عن التصنُّع، واللابلاغة هي كل الكلام غير الفصيح والسوقي، يقول الجاحظ في هذا الصدد: «فالقصد من ذلك أن تتجنب السوقي والوحشي ولا تجعل همَّك تهذيب الألفاظ وشُغلك في التخلص إلى غرائب المعاني. وفي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانبة للوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسبَ نفسه»[8]. إنَ بحث الجاحظ انصب على الكشف عن حقيقة البلاغة التي وجدها كامنة

1 - أحمد سعد محمد. نظرية البلاغة العربية دراسة في الأصول المعرفية. ص 72.

2 - محمد العمري. الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر. ص 73.

3 - البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها. ص 210.

4 - محمد مشبال. البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ. ص 65.

5 - البيان والتبيين. ج 1/ 67.

6 - نفسه. ج 1/ 67.

7 - نفسه. ج 1/ 65.

8 - نفسه. ص 138.

أساسا في كل خطاب أدبي وغير أدبي، بعيدا عن كل مزايدات سياسية فجَّة أو غير سياسية. «لقد حاول الجاحظ في إطار فلسفة وسطية، التنبيه إلى تشعب الحقيقة وإمكانية النظر من زوايا مختلفة ردا على اتجاهات كانت متصادمة يدَّعي كل طرف منها احتكار الحقيقة. كانت هذه المسألة سياسية في أساسها ثم أخذت أبعادا فكرية، ومارسها الجاحظ كرياضة فكرية وفنية هادفة من خلال مُصادمة القيم والأفكار في صور عدة[1]، غايته الأساس جعل اللسان العربي المبين أسمى الألسن وأنبلها وأقدرها على بلوغ «الكونية». وهكذا سيؤثر الجاحظ في كل الذين أتوا بعده، لأنه مثل خير تمثيل بلاغة الإقناع/ الحجاج التي عرفت امتداداتها في قراءة الفلاسفة لخطابة أرسطو[2]، و«ظلت كتاباته وملاحظاته في البيان والبلاغة مَعينا لا ينفد لمدِّ الأجيال التالية بكثير من قواعدهما، كلٌّ يستمد منها حسب قدرته ومهارته الذهنية»[3].

لقد اعتبر عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) – سليل المدرسة البصرية والمذهب الأشعري – أن سحر البلاغة يكمن في نَظْم الكَلِم؛ والنظم كما يعرفه هو أن نضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، والعمل على قوانينه وأصوله[4]؛ هذا النظم أساسه المعاني التي في الصدور، وليس كما يعتقد البعض الألفاظ، يقول في ذلك: إن «الألفاظ خدمُ المعاني والمصرَّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، والمستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين»[5]. ومعنى كلامه أن العناية «المفرطة» باللفظ تؤدي إلى الخداع والتزويق والنقيصة[6] والحشو[7] ونفور المتلقي من الاستجابة والتواصل الإيجابي الذي يُستهدَفُ منه تحقيقَ حسن الإفادة[8] المرجوة من الكلام. «إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق»[9]. يفيدنا هذا في أن مواقع الألفاظ في الكلام تبع لمواقع المعاني في الفكر، بل هي خدمٌ لها ولاحقةٌ بها[10].

حدد الجرجاني شروطا لتحقق مزية الفصاحة في نظم الكلام منها:

- التأمل في القول،
- المواظبة على تدبره،

1 – محمد العمري. البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. ص 137–138.

2 – عبد الرحيم وهابي. البناء الحجاجي في رسائل الجاحظ: رسالة «مناقب الترك» نموذجا. مجلة البلاغة وتحليل الخطاب. ع1/ 2012. ص 110.

3 – شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ. ص 57.

4 – دلائل الإعجاز في علم المعاني. تصحيح وتعليق السيد الإمام محمد رشيد رضا. ص 117.

5 – أسرار البلاغة. تحقيق محمد الفاضلي. ص 11.

6 – نفسه. ص 11.

7 – نفسه. ص 19.

8 – نفسه. ص 17.

9 – دلائل الإعجاز. ص 95.

10 – نفسه. ص 96.

- عدم الاقتناع بتمامه وكماله[1].
- والغاية القصوى من وراء ذلك كله معرفة حجة الله التي تبلغنا «قاصية التبيين/ الإفهام»[2].

فالبلاغة -أولا وأخيرا عنده- هي النظم ولا شيء سواه، وسواء أكان النظم حافلا بالمجازات أم عاريا منها، فإن ذلك لا يكون سببا في حسن الكلام أو قبحه، وإنما مرد الحسن أو القبح إلى تركيب الكلام وائتلاف بعضه مع بعض»[3]. ولتحقيق بلاغة الإمتاع والإفهام انصب اهتمام المتقدمين، كما يرى عبد القاهر الجرجاني،على ثلاثة عناصر أساسية: التجنيس، والسجع والاستعارة باعتبارها -العناصر- تشكل نواة الكلام «الجميل»، وما عداها يباعد بين البيان الحقيقي، وقصد التأويل المحل، وغير المحلي. فأما فضيلة التجنيس فتكمن في «أنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع مَعْنَيْهما من العقل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا»[4]. ويرد عبد القاهر بلاغة التجنيس إلى «قوة» المعنى، وتحقق الفائدة،أما تكرار، هكذا، حروف وألفاظ لا فائدة مرجوة منها فيَعتبرُ ذلك مجردَ خديعة منكرة، وعيبا مستهجنا[5]، ثم «إنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكوَن المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا»[6]، ثم إن الاستكثار منهما يعتبر حشوا لا فائدة ولا طائلة ترجى منه[7]. والمعوَّل عليه في جميع الحالات هو أن المعنى أساس كل تجنيس أو سجع والعكس ليس بصحيح[8].

أما مزية الاستعارة، عند عبد القاهر الجرجاني، فتكمن في أنها قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان[9]. هذا يؤدي بنا إلى القول إن المعاني الاستعارية تدرك بالقلب أولا ثم بالعقل ثانيا، ولا تجد طريقها إلى الفهم عن طريق ما يمكن أن يحدثه الجرس الموسيقي كما هو الحال عليه في السجع والجناس.

إن بلاغة الكلمة لا تتحدد إلا بموقعها في سياق الكلام، فهي لا تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة المعنى إلا بارتباطها بمعنى التي تليها»[10]. وقد شبه الجرجاني الكلمة بالجوهرة النفيسة التي وإن ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها، واكتسبت رونقا بمضامة أترابها لم تعدم الفضيلة في ذاتها[11]. ومعنى هذا أن من خصائص تحقق فصاحة الكلمة اتصافَها بصفة الطبع التي تبعدها عن الهوس المفرط بالسجع؛ والطبع من

1 - نفسه. ص 82.

2 - نفسه. ص 83.

3 - عبد القادر حسين. عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم. مجلةالفكر العربي.ع 46/ 1987. ص 145-146.

4 - أسرار البلاغة. ص 10.

5 - نفسه. ص 11.

6 - نفسه. ص 12.

7 - نفسه.ص 11-19.

8 - نفسه. ص 15.

9 - نفسه.ص 20.

10 - دلائل الإعجاز. ص 90.

11 - أسرار البلاغة. ص 22.

مزاياه أنه : أمكن في العقول، وأبعد من القلق , وأوضح للمراد , وأفضل عند ذوي التحصيل، وأسلم من التفاوت، وأكشف عن الأغراض، وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل، وأبعد من التعمد الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق[1].

لا تتحقق بلاغة الكلام , في نظر الجرجاني، إلا إذا كان صادرا عن الانفعالات والعواطف الإنسانية، وأبان فيه صاحبه عما في نفسه، ذلك أن وصول المعنى إلى القلب رهين بوصول اللفظة إلى السمع واستقراره –المعنى– في الفهم[2]. وبالتالي فالكلام له علاقة وطيدة بالجانب النفسي[3] لكل من المرسل والمتلقي على حد سواء.

لقد نظَّر عبد القاهر الجرجاني للبلاغة من خلال استحضار مفهوم المحاكاة الأرسطية باعتبارها عصب كل عمل تخييلي، وغير تخييلي»، ميز بين الكلام على حقيقته، والكلام وقد سُبك في قالب فني، على اعتبار أن الأفضلية للأول على الثاني بدليل أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده جاء على وجه الحقيقة، وأن التخييل «يقوم على مقدمات كاذبة توهم المتلقي بمعان خادعة تضلله»[4]، وتلك صفات «لا تلائم القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[5].

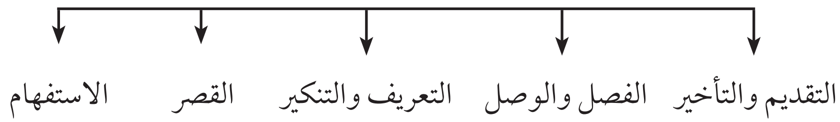
تقوم «نظرية «عبد القاهر الجرجاني البلاغية على أساسين مكينين:

أولهما: إنكار فصاحة الألفاظ ،
ثانيهما: جودة الكلم مرتبطة أشد الارتباط بخصائص النظم.

فبلاغة اللفظ المفرد تتحدد في:



أما بلاغة النظم فتتحدد في نظره في:



اللابلاغة صفة لكل صوت لغوي ثقيل ومكلف على اللسان[6]، ولكل لفظة ثقيلة في موضع[7] حوشية

1 – نفسه. ص 11.
2 – نفسه. ص 21.
3 – البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. ص 17.
4 – جابر أحمد عصفور. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي. ص 82.
5 – محمد العمري. البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها. ص 17.
6 – دلائل الإعجاز. ص 98.
7 – نفسه. ص 90.

في آخر[1]، وضيعة مستكرهة[2]، منفردة[3] غير مجاورة لأخواتها، قلقةٌ ونابيةٌ[4]، متعسف في تلاؤم حروفها[5]. وأما اللابلاغة في نظم الكلام فترجع إلى الاقتصار على ضم الكلام بعضه إلى بعض كيف جاء واتفق، دون مراعاة ترتيب المعاني في النفس[6]. البلاغة ليست صناعة لفظية كما يمكن أن يتوهم البعض، بل هي صناعة يستعان عليها بالنظم الذي أساسه الفكرة/ المعنى[7]، ومعرفة دقيقة بقوانين النحو والبيان العربيين، و القدرة على التأثير في المتلقي حتى يزداد ثقة بالحجة واستبانة للدليل[8].

نستنتج أن النظم عند عبد القاهر الجرجاني هو جوهر البلاغة وأساسها، وأُسُّ «أدبية» وجمالية النص الأدبي وغير الأدبي, بواسطته ترتب المعاني وتتضام بحسب ترتيبها في النفوس، وهو أيضا دليل مادي لمعرفة سر الإعجاز القرآني وفصاحته. اللفظة مجرد وعاء للمعنى، أما التجنيس , والسجع، والاستعارة، والتمثيل، والتخييل فهي أوعية المعاني، ولا مزية لها في ذاتها إلا بقدر دلالاتها على المعاني التي في النفوس.

خاتمة

نخلص من خلال ما سبق إلى أن التفكير البلاغي العربي ليس واحدا، بل متعددا بتعدد الرواد ورؤيتهم لجمالية القول، ومدى تأثيره في المتلقي؛ ذلك أن كل منظر للبلاغة انطلق من مجهودات أسلافه أو المعاصرين له، وأضاف إضافات نوعية حددت بدقة مسار البلاغة العربية وتطورها وشروط إنتاجها، مع اقتصاره، فقط، على وصف النصوص وتقويمها دون بلوغ مرتبة تحليلها وتأويلها.

المصادر والمراجع

أ - العربية

- أحمد سعد محمد. نظرية البلاغة العربية دراسة في الأصول المعرفية. مكتبة الآداب.القاهرة. ط 2009.
- أرسطو طاليس
  - فن الشعر. ترجمه عبد الرحمان بدوي. دار الثقافة. بيروت. لبنان. ط 1973.
  - الخطابة. حققه وعلق عليه عبد الرحمان بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت. ودار القلم. بيروت. ط 1976.
- الجاحظ. البيان والتبيين.ج. تحقيق حسن السندوبي. ط 926.

---

1 - نفسه. ص 90.

2 - نفسه.ص 91.

3 - نفسه. ص 92.

4 - نفسه. ص 88.

5 - نفسه. ص 100.

6 - نفسه، ص 93.

7 - نفسه، ص 94.

8 - نفسه، ص 80.

- عبد القاهر الجرجاني
  - أسرار البلاغة. تحقيق محمد الفاضلي. المكتبة العصرية. بيروت. لبنان 2009.
  - دلائل الإعجاز في علم الكلام. تصحيح وتعليق السيد الإمام محمد رشيد رضا. مكتبة القاهرة. ط1/ 1969.
- جابر أحمد عصفور. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي. دار المعارف. ط 1973.
- جميل عبد المجيد. البلاغة والاتصال. دار غريب. القاهرة. ط2/ 2007.
- عباس ارحيلة
  - مسألة التأثير الأرسطي لدى مؤرخي النقد والبلاغة العربيين. المطبعة والوراقة. ط1/ 1999.
  - تجربة رائدة في البلاغة العربية: قراءة في كتاب البديع لابن المعتز 296ه. المطبعة والوراقة الوطنية. ط1/ 2009 – عبد الباسط الكراري. دينامية الخيال مفاهيم وآليات الاشتغال. منشورات اتحاد كتاب المغرب. ط1/ 2004.
- عبد الفتاح كيليطو. الأدب والغرابة , دراسة بنيوية في الأدب العربي. دار توبقال. ط3/ 2006.

شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ. دار المعارف. مصر.ط7/ 1997م.

- محمد العمري
  - البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. أفريقيا الشرق.الدار البيضاء. ط2/ 2005.
  - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. أفريقيا الشرق. المغرب. ط2/ 2010.
  - في بلاغة الخطاب الإقناعي , مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجا. منشورات دار الثقافة. الدار البيضاء. ط1/ 1986.
  - الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية , نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر. إفريقيا الشرق. ط 2001.
- محمد مشبال
  - البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب. دار العين. ط 2010.
  - البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة عبد المالك السعدي. تطوان. ط 2010.
- محمد مفتاح. المفاهيم معالم , نحو تأويل واقعي. منشورات المركز الثقافي العربي. ط2/ 2010.

ب– المترجمة

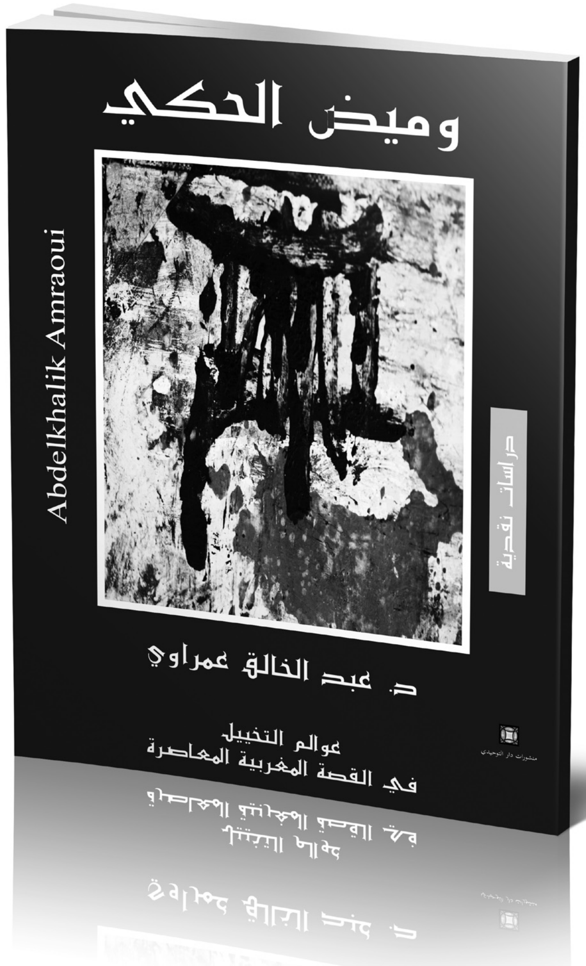
- آ.أ. ريتشاردز. فلسفة البلاغة. ترجمة سعيد الغانمي و ناصر حلاوي. دار أفريقيا الشرق. ط 2002.
- فيليب بروطون. الحجاج في التواصل. ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي. منشورات المركز القومي للترجمة. القاهرة.ط1 / 2013.
- رولان بارت. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. ترجمة عمر أوكان. منشورات رؤية. ط 2011.
- هنريش بليث. البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص. ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري. منشورات دراسات سال. الدار البيضاء. ط1/ 1989.

ج - المجلات

- البلاغة وتحليل الخطاب. ع. س 2012.
- البلاغة وتحليل الخطاب. ع 2. س 2013.
- جذور التراث.ع. س 2009.
- عالم الفكر.ع 2. م 42. س 2013.
- عالم المعرفة. ع 360.س 2009.
- الفكر العربي.ع 46. س 1987.

ملف العدد:

الأدب والدرس اللغوي/اللساني


وميض الحكي
Abdelkhalik Amraoui
دراسات نقدية
د. عبد الخالق عمراوي
عوالم التخييل
في القصة المغربية المعاصرة
منشورات دار التوحيدي

إرهاصات التفكير اللغوي الحديث في نظرية «النظم» عند الجرجاني

صبيحة جمعة[1]
وسعاد اليوسفي[2]

تتناول هذه الورقة بعض الرؤى والمفاهيم وثيقة الصلة بالتفكير اللغوي، وقد تم التركيز فيها على نظرية عبد القاهر الجرجاني في مجال اللغة، كما تم رصد خلاصة ما طُرح من مفاهيم تدور حول هذا الموضوع، وما تبينه من نظريات تطوّر البحث اللغوي لدى العرب.

كما تستعرضه النظريات اللغوية الحديثة في علاقتها بتصور القدامى. فكثير من النتائج التي أثبتها النقاد، خاصة الجرجاني تكاد تتطابق مع عدد من مقولات النظريات الشعرية الحديثة التي عرفناها مع رومان ياكوبسون ورولان بارت وجان كوهين وغيرهم. وهذا ما سنحاول الإشارة إليه.

لقد فرض التحوّل الحضاري والتطوّر المعرفي الذي شهدته الدّول والشعوب تغييرات كبيرة في مجال اللّغة سواء على مستوى المعجم أو النظريات والرّؤى. لا سيّما أنّ اللّغة تمثّل إفرازا من إفرازات المجتمع، فما يطرأ على المجتمع من تحوّلات يمكن أن ينعكس عليها أيضا.

ولتوطين هذه الرؤى والمفاهيم، ولمزيدٍ من الإفادة والاستفادة، رأينا البحث في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني الذي يلتقي في أعماله –رغم أنه من المنظرين القدامى – مع بعض النظريات الخاصة المتعلقة بسمات الفكر اللّغوي الحديث.

إن الخوف من الإجحاف يحملنا على أن ندحض الاتهامات الخاطئة التي تحكم بالسّبق على المفكرين العرب القدامى لمجرّد أن نظرياتهم في التفكير اللغوي مشابهة أو موافقة لما ورد في تنظير المحدثين، خصوصا إذا كانوا من غير العرب.

إن الانزلاق سهل، بل إنّه يستهوينا أحيانا لما أصبحنا نعانيه من مشاعر النّقص، وقد يكون تقبّل هذا المعنى مقبولا إذا ما تعلّق الأمر بصنوف من التّنظير في الإنسانيات والفلسفة، لكن لا نرى ذلك فيما يتصل بالتفكير اللّغوي بحكم طبيعة اللّغة، فهي تربط بين الناس مكانا، وبين الأجيال زمانا، ودورها

---

1 – أستاذة باحثة بالمعهد العالي للغات/ جامعة قرطاج/ تونس.
2 – أستاذة الأدب القديم/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة محمد الخامس/ الرباط.

يتجلى في التواصل قبل كلّ شيء، وإزاحة الحدود وتقليص الموانع، ذاك ما ييسّر في تقديرنا امتداد التفكير اللغوي والتنظير اللسانيّ من شعب إلى شعب، ومن جيل إلى جيل، ويتجلّى ذلك في نقاط التّقاطع وظهور الإرهاصات.

ويتمثل عملنا في النظر إلى بعض ما اعتبرناه إرهاصات في تفكير لغوي قديم، وفي جعلنا من بعض ما في التفكير البلاغيّ والنّحوي لدى عبد القاهر الجرجاني نموذجا لذلك، مقلبين فيه النّظر، ومركّزين على ما اصطُلح عليه بـ «نظرية النّظم» في مدوّنة الجرجاني، هذه النظرية التي تعبّر عن تطوّر البحث اللغوي لدى العرب والنّظر في خصائص اللّسان بما توصّلت إليه من اِكتشافات هامّة في دراسة اللّغة التي وجدنا لها صدى في اللسانيات الحديثة. لذا حاولنا أن نحدّد بعض نقاط التقاطع بين ما ورد في مدوّنة الجرجاني، وبين ما نستضيء به اليوم في بحوثنا من النّظريات اللغويّة الحديثة.

إنه لَمِنَ الإجحاف اعتبار إبداعات المحدثين تكرارا أو نقلا عن القدامى، ولكن عندما يكون الأمر متعلّقا باللّغة، فإنّه يكون ممكنا، لأنّ اللّغة تتجاوز المكان بما تحقّقه من فعل التواصل بين المجموعات البشريّة المختلفة، وتتجاوز الزّمان بما تحقّقه من تفاعل بين الأجيال.

ونرى أن عبد القاهر الجرجاني من المفكّرين القدامى الذين تراءت لنا في أعمالهم بعض سمات الفكر اللّغوي الحديث، أو بعض نقاط التلاقي مع المحدثين، ممّا يعلن عن تواصل التفكير اللّغوي عبر الأجيال وعبر الشعوب، أي عن تواصل البحث في اللّغة باعتبارها نظاما لسانيّا شديد الالتصاق بمستعمليه، فباللغة يتم التعبير عن أفكار الناس، وعن مشاعرهم، وعن حياتهم، وعن نشاطهم، ولكن لئن كانت كلّ لغة تعبّر عن خصوصيّات شعبها، فإن النّظام اللّغوي بوجه عام يحوي نقاط تلاقٍ، غالبا ما تمثّل جذعا مشتركا بين اللغات رغم اختلاف الشّعوب والأجيال، وهو ما أثبته بحثنا هذا، لأنّ ما توصّل إليه الجرجاني من نتائج في البحث في خصائص اللّغة، وجدنا صداه بعد قرون عديدة في البحوث اللّغويّة الحديثة، إذ تفطّنا ونحن نستقرئ نظريّة النّظم المشهورة والمنسوبة إلى هذا المفكّر النحويّ - البلاغيّ، أمورا هامّة، منها أنّ الجرجاني قد سبق إلى التنبّه إلى العديد من المسائل البلاغيّة التي وجدنا البلاغيين المحدثين اليوم قد تفطّنوا إليها. وفي هذا الصدد يقول محمّد نايل أحد النقاد المحدثين: «إنّ عبد القاهر أبان السرّ في وضع مفردات اللّغة، وأنّها رموز للمعاني التي وضعت لها، وبذلك سبق النقد الغربي الحديث بقرون عديدة في النظريّة الرّمزيّة في اللغة، كما سبقها في نظريّة العلاقات والنّظم»[1]، فكفّى فيها ووفى بفضل ما أنجزه دارسو اللّغة العربيّة، خاصة بعض المدارس، كالمدرسة التداولية الحديثة، والمدرسة العرفانيّة على اختلاف اتجاهاتها، والمدرسة الأسلوبية وغيرها.

وسنحاول أن نذكر بعض المسائل المشتركة بين عبد القاهر والباحثين المحدثين: لسانيين وفلاسفة ونقّادا، قصد الكشف عن تطوّر البحوث المنظّرة للّغة في تطوّرها وتحولها، بتغيّر الأحوال الطارئة على المجتمعات.

1 - محمد نايل، نظريّة العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث، ص 97.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه البحوث تكشف عن مساهمتها الفعّالة في تنمية اللّغة، لما وضعته من جهاز تنظيري معمّق وفعّال في النهضة بها وتحسين أدائها. ويعنينا من كلّ ذلك ما يتعلّق باللغة العربية استعمالا واستفادة وتنمية وصيانة. فالعلاقة بين الوجه الإجرائي للغة باعتبارها وسيلة تواصل نفعي ومادّة إبداع فني، وبين كونها موضوع تنظير علمي وبحث نظري، نراها علاقة جدلية. فعلى قدر استجابة اللغة لمتطلبات الحياة، تنشط حركة التفكير والتنظير فيها، وعلى قدر نشاط المفكرين والمنظرين في اللغة، تنفتح مجالات تطويرها وتحسين أدائها لتستجيب أكثر فأكثر لحاجات مستعمليها. فاللغة باعتبارها قدرة إجرائية، تحقق النّفع المادّي والفكري عبر تحقيق التواصل بين الناس، وتنشط حركة التفكير والتنظير وتغذيها وتضخمها عبر مختلف المسالك النظرية في علوم اللسان، سواء كانت معجميّة أو نحويّة أو صوتيّة أو بلاغيّة أو غيرها. فاللغة العربية مثلا، باعتبارها إجراء تواصليا ومادّة فنية جماليّة، موجودة بقوة في الشعر الجاهلي باعتباره إجراء لغويا، أي «عملا في اللغة». لكن هذا العمل هيأ للتنظير الذي تجلّى في نشأة الحركة اللغوية التي ظهرت إثر نزول القرآن، ونشطت في القرن الثاني الهجري وما بعده، وتجلت في النشاط المعجمي والنحوي والبلاغي والنقدي وغيره. وهذا التنظير بمختلف صنوفه أسهم في تحسين أداة اللغة وتهيئتها لتكون أكثر قدرة على الاستجابة لحاجات الناس، سواء للتواصل العادي أو لتحقيق الإنشاءات الماديّة أو الفكريّة أو الفنيّة التي تجلّت في ظهور المدونات الفلسفيّة والعلميّة وصنوف النصوص الأدبيّة النثريّة والشعريّة التي هيأت لنشأتها مختلف ألوان التنظير في اللغة ومتعلقاتها. فاللغة حاصل فعلي عليه يترتب التنظير الذي يرجع بدوره على اللغة فَيَنَمِّيها ويُقويها ويُهيئها لتكون أكثر استجابة لمتطلبات الناطق بها، فيحصل التجاوز، ويتحقّق التجدّد والتطوّر بالتوازي مع تجدّد الحياة وتطورها.

وفي نطاق هذا التصوّر للعلاقة بين اللغة كإجراء، واللغة كتنظير، يتنزّل بحثنا هذا الذي رأينا أن نتناول فيه بعض نقاط التقاطع بين القديم والحديث عبر نماذج من أفكار عبد القاهر الجرجاني ومن آراء لغويين محدثين.

I – مسألة المعنى ومعنى المعنى بين الفكر البلاغي للجرجاني والمقاربة التداولية الحديثة

تعتبر ثنائيّة «المعنى» و«معنى المعنى» من أهمّ ما اِكتشفه عبد القاهر في مجال اللّغة وهو يؤسّس لنظريّة النّظم، وحَدُّ المعنى بالمفهوم الأوّل هو الظاهر من الكلام، إذ يقول: «تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللّفظ والذي تصل إليه بغير واسطة»[1].

أمّا «معنى المعنى»، فهو المفهوم الثاني من الكلام الذي يتوصّل إليه المتقبّل بالتعقّل بعد أن ينزّل الكلام ضمن كلّ الظّروف المحيطة به من زمان القول ومكانه، ومن حالة المتكلّم النفسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة وغير ذلك ممّا يحفّ بالكلام. وهذا المستوى من المعنى يعرّفه عبد القاهر بقوله: «هو أن تعْقل من اللفظ معنى ثمَّ يُفْضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك»[2]. هذا المستوى من المعنى نستدلّ عليه بواسطة العقل الذي به نتبيّن المعنى الحقيقي الأوّل من المعنى المجازي الثاني[3].

1 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 202–221.

2 – أسرار البلاغة 1/ 102.

3 – شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، صص 37–78.

وقد عبّر الباحث خالد ميلاد عن هذين البعدين من الكلام ب «المعاني الأُولَ» بالنّسبة للبعد الأوّل أي «المعنى»، أمّا البعد الثاني، فقد وسمه بـ«المعاني الثّواني»[1]. فالأوّل مجاله الألفاظ، والثاني مجاله العقل.

وهذه النظرية (نظريّة «المعنى» و«معنى المعنى») هي التي بفضلها فتح عبد القاهر إمكانات تعدّد المعاني وتجاوز فكرة المعنى الواحد الأحد الذي سيطر على الثقافة العربيّة الإسلاميّة[2]، فأكسب الجرجاني اللّغة بعدا جديدا جعلها قابلة للنموّ والتكاثر لا على مستوى الألفاظ فحسب، والذي يتحقّق بالاشتقاق والتوليد اللغوي والاقتراض[3]، وإنّما كذلك على مستوى المعاني فجعل المعنى الواحد قادرا على أن ينتج معان عديدة لا سيّما عبر المجاز.

فالمعنى الأوّل هو معنى النحو المجرّد اللفظي المقالي، أمّا المعنى الثاني، فهو المعنى الذي ينزّل فيه المعنى الأوّل النحوي ضمن سياق ومقام مخصوص، لذلك فهذا المستوى من المعنى هو معنى نحوي سياقي مقاميّ بلاغيّ[4]، وهو المعنى الذي تبرز فيه مزيّة كلام عن آخر، وذلك بحسن استخدام المعاني النحويّة الأولى حسب الأغراض والمقاصد والمقامات المناسبة، ومن هذا البعد تتنزّل قيمة النّحو ومكانته في إنشاء الكلام وتمييز كلام عن آخر.

لذلك رأى عبد القاهر أنّه من الضروري على كلّ فرد أن يعرف النحو ووجوهه وفروقه، وأن ينظر في خواصّ تراكيب الكلام التي هي معاني النّحو، أي ذلك الجهاز النظري الذي يشمل مختلف الطّرق لاستعمالات اللّغة، والذي يمكن أن نطوّره باستعمالنا الفردي للّغة المشتركة، ولذلك كان النّحو المجال الذي يحتكم إليه الأدباء والبلاغيون والمفسرون «لتخليص معنى من معنى»[5]. وبدخول النحو إلى التفكير البلاغي تأسّس علم المعاني الذي بفضله زادت اللغة العربيّة نموّا واتّساعا، يعرّفه السكاكي بأنّه «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة»[6]، وهو العلم الذي نشأ في أحضانه «معنى المعنى» الذي نصل إليه – حسب عبارة الجرجاني – بربط معاني الألفاظ بعضها ببعض. «فالألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللّغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضمّ بعضها إلى بعض فيعرف بينها فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدّليل على ذلك أنّا إن زعمنا أنّ الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنّما وُضِعَتْ ليعرف بها معانيها في أنفسها، لأدّى ذلك إلى ما لا يشكّ عاقل في اِستحالته»[7]. وهذا الرّبط بين معاني الألفاظ يكون بتوخّي النّحو ومعانيه فيما بينها، فضلا عن معانيها المعجميّة باعتبارها تمثّل مستوى من مستويات المعاني النحوية، إضافة إلى معانيها الاشتقاقية والصّرفيّة والدّلالية وغير ذلك من المعاني التي تشملها المعاني النحويّة.

1 – خالد ميلاد، الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدّلالة، صص 386-389.

2 – انظر كتاب مواقف البلاغيين والنقّاد العرب من الاستعارة لتوفيق حمدي، فصل هاجس المعنى.

3 – انظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تعرّض في هذا الكتاب إلى العديد من المسائل اللّسانيّة.

4 – خالد ميلاد، ص 389.

5 – نفسه، ص 386.

6 – مفتاح العلوم، ص 70.

7 – دلائل الإعجاز، ص 415.

إنّ «المعنى» إذن عند عبد القاهر هو المعنى الأوّل في هيئته النحويّة المجرّدة المتكوّنة من دلالة إعرابيّة وصرفية ومعجميّة... فقولك: قد خرج زيد

المعنى الأوّل الإعرابيّ: الإثبات (+ فعل + فاعل)
المعنى الأوّل المعجمي: إثبات خروج زيد

أمّا معنى معنى فهو تلك الدّلالة النحويّة المقاميّة المخصوصة، وهي – في هذا المثال– توكيد إثبات فعل الخروج لزيد، وهذه الدّلالة الثانية –على حدّ عبارة المحدثين– دلالة تداولية. فكيف عبّر المحدثون عن هذه الدّلالة؟

إن أوّل ما يلفت اِنتباهنا ونحن نستقرئ أهمّ المصادر البلاغيّة العربيّة التي حاولت مواصلة مشروع عبد القاهر البلاغيّ هو هذه المصادر التي خلت من مصطلح «معنى المعنى» الذي تفطّن إليه الجرجاني، والذي بفضله تأسّس ما يسمّى «بعلم المعاني»، وذلك بفضل دخول النّحو إلى التفكير البلاغيّ إنشاءً وتحليلا، ضمن نظريّة النّظم، هذه النظريّة التي اِهتمّ فيها عبد القاهر بالكلام بيانا وبديعا ومعانٍ في تعلّق كلّ هذه المستويات ببعضها البعض داخل النّظام دون الفصل بينها، وهذا المستوى من المعنى، أي «معنى المعنى» نستدلّ عليه بالعقل من خلال دلالة الألفاظ على المعاني إذ «لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللّغة ، ولكنّ يشار بمعانيها إلى معان أخر»[1].

هذه المعاني القصديّة التي لا يمكن التوصّل إليها إلاّ من خلال تنزيلها في المقام والموضع الذي جاءت فيه. وهذه الفكرة وجدنا لها صدى في المقاربة اللسانية الحديثة التي أعطت السياق المقامي أهميته في تأويل نصّ الكلام، مثلما بيّن ذلك هايمس Hymes 1964 في كتابه Discourse Analysis[2]. فقد بيّن هايمس أنّ الكلام خطاب مرتبط كثيرا بالسياق الذي حدث فيه لا ينفصل عنه، واضعا لهذا السياق مقومّاته التي تتمثّل في:

- المرسل: منشئ للكلام
- المتلقّي: المستمع
- الحضور: وهم مستمعون آخرون، دورهم تخصيص الحدث الكلامي
- الموضوع: مدار الحدث الكلامي
- المقام: زمان الحدث ومكانه
- القناة: طريقة وقوع التواصل بين المتخاطبين: مشافهة – كتابة...
- النّظام: اللغة المستعملة
- شكل الرّسالة: محادثة – أو جدال...
- المفتاح: وفيه التقويم (جيّد – مثير...)
- الغرض: القصد من التخاطب

1 – دلائل الإعجاز ، ص 265.

2 – عن خطّابي، لسانيات النصّ، ص 37.

وهذه الأمور المذكورة، قد أشار إليها عبد القاهر في الدّلائل منذ قرون عديدة مثلما بيّنا ذلك. وبها أثرى البحث اللّغوي العربيّ القديم.

ونضيف إلى فكر هايمس نظريّة الأعمال اللغويّة لسورل. ففي هذه المسألة بيّن سورل أنّ الكلام قصديّ إذ ما يصدره المتكلّم من كلام فهو يعني به شيئا معيّنا، ولكنّ هذا السلوك القصديّ يسيّره نظام من القواعد[1] (Les actes des languages)، يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- قاعدة المحتوى القضوي: وتقوم على تحديد علاقة القول بالخارج
ب- القاعدتان التمهيديتان: وتبرزان بعض ضمنيّات إنجاز عمل ما ومقتضياته، كالعلاقة بين المتخاطبين ومكانتهما ونفسيتهما...
ت- قاعدة الصّدق: وترتبط بالحالة الذّهنيّة والنفسيّة عند إنجاز العمل اللّغويّ...
ث- القاعدة الأساسيّة، وتصاغ كالتالي: فعل «س» يُعدّ «ص». فمثلا: يعدّ الطّلب سعيا إلى حمل المخاطب على القيام بالعمل المستقبليّ.

وبيّن سورل أنّه توجد خمسة أصناف أساسيّة من الأعمال في القول، وهي الأصناف التي تدعّمت مع فندرفاكن[2]، وهي مرتبة كالآتي:

- الخبريات: المتكلّم قد يخبر الآخرين عن حالة الأشياء في الكون
- التوجيهات: المتكلّم قد يسعى إلى جعل الآخرين يفعلون شيئا ما.
- الوعديات: المتكلّم قد يلتزم بفعل شيء ما.
- إفصاحيّات: المتكلّم قد يعبّر عن حالة الأشياء ومشاعره ومواقفه.
- الإيقاعيات: المتكلّم قد يعبّر عن حالة الأشياء في الكون بواسطة قوله.

واعتبر مقياس الغرض هو الأساس لتصنيف الأعمال اللغوية، فالغرض «المقصود بالقول لقوّة ما يوجد دائما نسبة بين المحتوى القضوي لتلك القوّة... والعالم. وهنالك عدد مخصوص من الطّرق التي يمكن للمضمون القضوي أن يرتبط بها مع العالم»[3]. و«النحو هو اتجاه المطابقة الذي يرتبط به المضمون القضوي مع العالم»[4]. ولكن إضافة إلى مقياس الغرض في نظرية الأعمال اللغوية فقد بيّن سيرل أنّ كلّ عمل يتعلّق دائما بموضوع.

وإضافة إلى هذه الأعمال اللغويّة المباشرة بيّن سيرل وجود أعمال لغويّة غير مباشرة، ولكنّ الإشكال حسب ظنّه، هو كيف يمكن للمتكلّم أن يقول شيئا ويعني ذلك الشيء ولكنّه يعني كذلك شيئا آخر؟

1 - Searle, J. 1975, p 53.
2 - Searles, J et Vanderveken, D, 1985, Foundation of Illocutionary Logic, Cambridge, Cambridge University Press.

3 - نفسه، ص 152.
4 - نفسه، ص 52.

للإجابة عن هذه الفرضيّة قدّم سيرل ثلاثة اِقتراحات ميّز فيها بين معنى الجملة، ومعنى قول المتكلّم[1].

- أن يختلف معنى الجملة عن معنى قول المتكلّم مثلما هو الشأن في الاستعارة. مثال: زارني القمر.

أ- المعنى الظاهر من الجملة هو زيارة القمر لي، ذلك الكوكب النّوري.
ب- المعنى المقصود هو الثاني: زيارة الحبيبة لي.

- أن يكون معنى القول معنى مقصودا، ويقصد معه شيئا آخر. مثال: أرغب في أن تسافر.

أ- المعنى الأوّل: أثبت المتكلم رغبته في سفر المخاطب.
ب- المعنى الثاني: يلتمس المتكلم من المخاطب في أن يسافر.

- أن يقول المتكلّم جملة قد يقصد بها ما قاله، وقد يقصد كذلك عملا آخر في القول، له محتوى قضوي مختلف. مثال:

طالب (س) يقول: لنذهب إلى السينما هذا المساء.
طالب (ص) يجيب : يجب أن أعدّ اِمتحانا

العرض الذي قدّمه الطالب (س) له محتوى قضويّ معيّن، والرّد الذي قدّمه الطالب (ص) له محتوى قضوي مختلف لا علاقة له بمحتوى الجملة الأولى التي قيلت. لأنّ الجواب الذي قيل ظاهره إثبات لإعدادِ اِمتحان، ولكنّ معناه المقصود، وهو المعنى غير المباشر، فهو رفض الدّعوة، وهذا المعنى غير المباشر هو الذي عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني في البلاغة العربية «بمعنى المعنى» هذا المعنى الذي لا يمكن تبيّنه إلاّ بالعقل، وباستحضار مختلف العناصر المقامية الحافّة بالخطاب. ولكن هذا المعنى غير المباشر في نظريّة الأعمال اللغويّة لا نتبيّنه بالعقل بالنّظر في خصوصيات التركيب النحوي، وإنّما يرتكز أساسا على خصوصيات المقام والخلفيّات المشتركة بين المتخاطبين، لذلك بقي هذا البعد من المعنى مقاميّا تداوليّا لا دخل للمكوّنات اللغويّة فيه.

ولذلك، فإنّ هذه المقاربة لنظريّة الأعمال اللغويّة مقاربة مقاميّة تداوليّة، اهتمّت بالنظم أكثر ممّا اهتمّت بالنّظام. واهتمّت بالجانب المعجمي أكثر مما اِهتّمت بالجانب النّحوي، على عكس النظريّة العربيّة،لا يّما التي يمثّلها عبد القاهر الجرجاني الذي جعل للمقام مكانته، وللجانب النحوي مكانته أيضا في إنشاء الخطاب وتحليله. وعندما جعل كذلك النظم أساس الكلام الذي أقامه على النّحو ومعانيه ووجوهه وفروقه. «فالنّظم ليس سوى توخي معاني النحو في معاني الكلم». وبذلك يكون قد جعل نظريته البلاغيّة نظريّة مقصديّة مقاميّة ونحويّة، وهو الأمر الذي لم نجد له نظير ولا سبق في البحوث التي جاءت قبله، ولا حتّى في البحوث اللّسانيّة الحديثة.

لقد تمكّن عبد القاهر –وهو يؤسّس لنظريّة الإنشاء– من التوصّل إلى أنّ المتكلّم – وهو ينشئ كلامه

1 – اِستفدنا في هذا ممّا درسناه من دروس الأستاذ شكري المبخوت (دروس الماجستير بكليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنّوبة – 2003).

القصدي التواصلي- له «كفاية نحويّة»[1] قبل التلفّظ بذلك الكلام، يتصرّف فيها حسب مقاصده وأغراضه قبل عمليّة التلفّظ، وبذلك «فالمعاني لديه هي الأحكام الإعرابيّة التي تحتضنها الأبنية النحويّة المنقشة في النّفس. أمّا الألفاظ «فتترتّب لك بحكم أنّها خَدَمٌ للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، والعلم بمواقع المعاني في النّفس علم بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النّطق[2]، فالألفاظ تأتي حسب عبد القاهر لتسم المعاني وتُخصّصها، لا لأن تكون أقلّ منها شأنا، وبذلك بنى نظريته في النّظم على اعتبار العمل اللغويّ الإنجازي صورة من العمل الإعرابي المجرّد المؤسّس على حضور المتكلّم العامل المعرب[3]، وتأسّست نظريته في دلالة النّظم على الدّلالة النحويّة المحدّدة لاختيار العناصر المعجميّة للبنية، على خلاف ما تصوّره اللّسانيون المحدثون الذين جعلوا الأولويّة للدّلالة المعجميّة في الكلام، وأعطوا المقام القيمة الكبرى على حساب البنية النحويّة الدّلاليّة[4].

وبذلك ميّز عبد القاهر بين مستويين من المعاني عندما أدخل النّحو في عمليّة إنشاء الكلام وهما:

- المعنى الأوّل والمتمثّل في الدّلالة النحويّة المجرّدة، وهذا المستوى من المعنى يتحدّد من زاوية حضور المتكلّم العامل المنشئ للأبنية الإعرابيّة والمحدث للمعنى بما يؤلفه بينها من علاقات.
- معنى المعنى، القصدي المقامي البلاغي النحويّ، وهو المعنى الثاني المتعدّد حسب تعدّد المتقبّل لاختلاف اِنتماءات المتخاطبين وثقافاتهم وتكوينهم والمواضع والظروف التي قيل فيها الكلام، وكذلك حسب اعتقاد المتكلّم، فالمعنى الثاني إذن مرتبط بمقاصد وباعتقادات العامل المنشئ للكلام من جهة، مثلما هو الشأن في «القسم» الذي قد يعني توكيد الكلام، وقد يعني الاستعطاف، ويكون مرتبطا أيضا بفهم المخاطَب، وبخصوصيات المقام من جهة أخرى.

وبذلك تكون المعاني الأُوَل معاني نفسيّة ذهنيّة ،تتولّد من أعمال لغويّة وتؤدي إلى مَعانٍ ثوانٍ، أي المعاني البلاغيّة في علاقتها بمختلف الدّلالات المعجميّة والنحويّة وغيرها من معاني النّحو وأحكامه.

وقد وصف عبد القاهر العمل اللّغويّ كذلك، بأنّه عمل مرتبط بأمور شتّى محيطة بمستعمل اللّغة من أجهزة نظريّة جاهزة ألفاظا وقواعد نحويّة، وكذلك من ظروف ذاتية نفسيّة وذهنيّة، وأخرى موضوعيّة اجتماعيّة وثقافيّة وغيرها. ممّا يؤثّر في إنتاج العمل اللّغوي، فيخرج الكلام من مجاله العادّي المألوف إلى مجال المجاز، إذ يكنّي ويشبّه ويستعير بحكم بعض الظروف الدّافعة إلى التوسّع في المعنى وإثراء اللغة على مستوى الألفاظ، معجما وصرفا واِشتقاقا. وعلى مستوى المعاني في كنايات وتشابيه واِستعارات. بمعنى أنّ اللّغة تنمو في الاِستعمال بفضل التنظير الذي يوجّهها.

ووجدنا أيضا ونحن نستقرئ بعض البحوث الغربيّة الحديثة بحثا موسوما بـ «معنى المعنى»

1 – خالد ميلاد، ص 539.

2 – دلائل الإعجاز، ص 44.

3 – خالد ميلاد، ص 540.

4 – Austin, Quand dire c’est faire, Paris, éd. du Seuil, 1970, p 143.

(the meaning of meaning) اشترك في تأليفه «أوقدن» و«رتشاردز»(Ogden et Richards)، وقد اِهتمّا فيه بوظائف الأقوال الشعريّة، وبيّنا أنّها بالأساس وظائف تأثيريّة إفصاحيّة اِنفعاليّة (Fonctions émotive)[1] وتداوليّة، لأنّ هذه الأقوال تعبّر عن المشاعر والمواقف بهدف إثارة مشاعر المخاطب والتأثير فيه.

ومن ثنائيّة «المعنى» و«معنى المعنى» تنبّهنا إلى أنّ عبد القاهر قد تمكّن من التمييز بين أمرين هامين من الكلام توصّلت إلى اِكتشافهما اللّسانيات الحديثة وهما اللّغة (langue) و«الكلام» (Paroles) إذ بيّن أنّ اللّغة مشتركة بين جميع النّاس على مستوى الألفاظ والنّحو. وأمّا الكلام، فهو خاصّ وفرديّ ينشئه المتكلّم اِنطلاقا من اللّغة المشتركة، ولكن يتصرّف في تلك اللّغة حسب أغراضه، فيكون الكلام ناشئا من تخيّر لغة مخصوصة في غرض مخصوص وهذا الإنجاز يكون في النّظم الذي تحضر فيه كلّ عناصر اللّغة.

II – الفكر اللّغوي عند الجرجاني والاتجاه العرفاني

تعتبر مسألتا اللغة والفكر من أهمّ المسائل التي شغلت البحوث اللّسانيّة الحديثة، ومن بينها الدّراسات التوليديّة التي أكّدت على أهميّة المكوّن التركيبي في نظام اللّغة، معتبرة المكوّنين الصّوتي والدّلالي تأويليين، والمكوّن المعجميّ ليس له قيمة كبرى، لأنّه يشتمل على الاستعمالات الخاصّة وعلى العبارات الشاذة، وهو الأمر الذي أضعف دراسة المعجم ومعه الدّلالة المعجميّة ذات الصلة الوثيقة بالدّلالة العرفانيّة، ومن بين اللّسانيين العرفانيين الذين يمثّلونها نذكر تالمي (Leonard Talmy) الذي أكّد على أهميّة المكوّن المعجمي أمام المكوّن النحوي للّغة وذلك في كتابه «نحو دلالة عرفانيّة»[2]، إذ بيّن أنّ المكوّن المعجمي يتّسم بالانفتاح، فهو قابل للتزايد والتكاثر لما يشتمل عليه من جذور الأسماء والأفعال والصّفات، أمّا المكوّن النحوي فهو مغلق لأنّه ثابت العناصر.

وهذا الاختلاف بين المكوّنين النحوّي والمعجميّ نتج عنه اختلاف في الوظيفة الدّلاليّة لكلّ منهما. فالمكوّن النّحويّ يحدّد بنية الكلام (التمثيل العرفاني) عند المستمع، والمكوّن المعجميّ يعطي محتوى ذلك الكلام أو ذلك التمثيل العرفاني، والبنية توجد في الفكر، ثمّ يأتي المعجم ليعبّر عنها، وهذه البنية حسب طالمي Talmy محدودة ومقيّدة دلاليّا، أمّا المحتوي المعجميّ فهو منفتح دلاليّا، وسمة التقييد في المكوّن النحوي جعلت طالمي يتّخذه منطلقا في بحثه، وجعل الجملة باعتبارها قادرة على حمل ما يسميّه المركّب أو المعقد المفهومي منطلق تحليله للدّلالة العرفانيّة[3]. وهو ذات الأمر الذي اِنطلق منه عبد القاهر الذي بيّن أهميّة التركيب في تحليل الكلام وإنشائه، لأنّ التركيب يكشف عن مقاصد المتكلّم وأغراضه، وأن كلّ تركيب مخصوص له مقصد مخصوص، ولأنّ المفردات وُضعت لتستعمل مركّبة، «فالألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها. ولكن لأن يضمّ بعضها إلى بعض[4]، «لأنّ الغرض الأصلي من وضع الكلم هو

1 – خالد ميلاد، ص 490.

2 – صدر سنة 2000، ج1 وج2.

3 – نحو دلالة عرفانيّة، ج1/ ص ص 160–164.

4 – دلائل الإعجاز، ص 416.

التركيب لإمتناع وضعها إلاّ لفائدة»[1]، صحيح أنّ المعجم إذا تكاثر ساهم في تطوّر اللّغة وإحيائها، ولكنّ ما يطوّر اللّغة أكثر هو أن يوضع ذلك المعجم في نظام ليعبّر عن معان تتجاوز تلك المعاني السطحيّة الظاهرة المشتركة، لتفرز معاني أكثر التصاقا بالذات الإنسانيّة المتكلّمة. وتعبّر عن التحوّل الذي يطرأ في حياتها بفعل التحوّلات الحضاريّة.

وقد اهتمّ «طالمي» أيضا في كتابه بإظهار العلاقات النحويّة بين المفردات داخل الجمل، وبيّن أنّ المعنى يظهر في التأليف بين المفردات، فالدّلالة إذن عنده هي تلك الدّلالة الجمليّة النحويّة السياقية التي تحكمها الظروف أيضا، وغلّب بذلك الجملة على المفردة مثلما تبيّن لنا مع عبد القاهر الذي يرى أنّ المفردة لا قيمة لها وحدها، وهي منفصلة عن النّظام، وإنّما المزيّة في تعلّق الألفاظ بعضها ببعض بتوخّي معاني النحو فيما بينها[2]. والنّحو فكريّ وبنية مجرّدة، أمّا الألفاظ فهي معجميّة وهي لغويّة. بينما الدّلالة النحويّة هي المكون الأساسي عند النحاة والبلاغيين العرب. ويكون الكلام بهذا المعنى نحويّا في مستوى أوّل، مجاله الفكر، وبلاغيّا في مستوى ثان ومجاله اللّغة معجما وتصريفا واشتقاقا. منزّلا كلّ ذلك في تركيب مخصوص وفي موضع ومقام مخصوص أيضا، فيكون للكلام إذن حُكمان حسب ما يلي:

- الألفاظ: وضعية قابلة للنموّ والتزايد حسب التحوّلات التي تطرأ على المجتمعات وحسب تطوّر الجهاز النظري للّغة.
- التراكيب: وضعيّة، وهي قارّة أوجدها النّحاة.
- الكلام (معاني الألفاظ): فرديّ وخاصّ وقصديّ تؤثّر فيه الظروف.
- التراكيب المخصوصة: فرديّة وخاصّة وقصديّة تؤثّر فيها الظّروف.

هكذا حاولنا من خلال هذا البحث أن نستقرئ أهمّ البحوث اللّغوية التي اهتمّت باللّغة إنشاء وتحليلا، وركّزنا عملنا على النّظر في أهمّ نقاط التقاطع في التنظير اللغوي بين البحث اللّغوي العربي القديم الذي نَمْذَجْنا له بمدوّنة عبد القاهر الجرجاني، والبحث اللّساني الحديث بمختلف توجّهاته. وكشفت لنا هذه النقاط عن امتداد البحوث وتواصلها في مجال اللّغة، باعتباره المجال الأكثر التصاقا بالإنسان مهما اختلف شعبه أو جيله، إذ تبقى اللّغة هي العنصر الرّابط بين النّاس والشعوب والأجيال، إمّا بممارستها أو بالتّنظير لها وبتعدّد البحوث فيها، أو تواصلها ونموها وانتشارها. وبالتوصّل إلى نتائج متشابهة أو متطابقة رغم اختلاف الباحثين مكانا وزمانا، مما يدلّ على أنّ النظام العام للّغة واحد مهما اختلفت الشعوب، وهو نظام مرتبط بما يحفّ به من ظروف وأحداث لها تأثير في جهاز التنظير، وجهاز التنظير له أثره أيضا في توجيه الاستعمال وتنشيط عملية التواصل وتضخيم وجوه الاستفادة من اللغة.

وهذا التلاقي بين فكر الجرجاني وفكر اللسانيين المحدثين، يعلن عن شغف مشترك بين كلّ المفكرين في شؤون اللغة، بداية بالكشف عن كنهها وأسرارها وخصائصها. ويعني أيضا أنّ البحث متواصل لا ينتهي،

1 – مفتاح العلوم، ص 141.

2 – دلائل الإعجاز، ص 341.

لما يطرأ على اللّغة في كلّ عصر ولدى كلّ شعب من تحوّلات وتغيّرات تفرضها طبيعة التاريخ، وتحوّل المجتمعات وتطوّرها على مستويات عدّة اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة وغيرها، فالتحوّل الحضاري هو الذي يفرض مختلف التجاوزات والتحولات في اللّغة، لا سيّما على مستوى المعجم الذي ارتبط بظهور المهن والصّناعات، والذي رافقه تحوّل في التصوّرات والرّؤى، والتنظير في اللغة يشرّع تجددها ونموها ،ويضمن السير في مسالك مأمونة لحصول مختلف الفوائد منها.

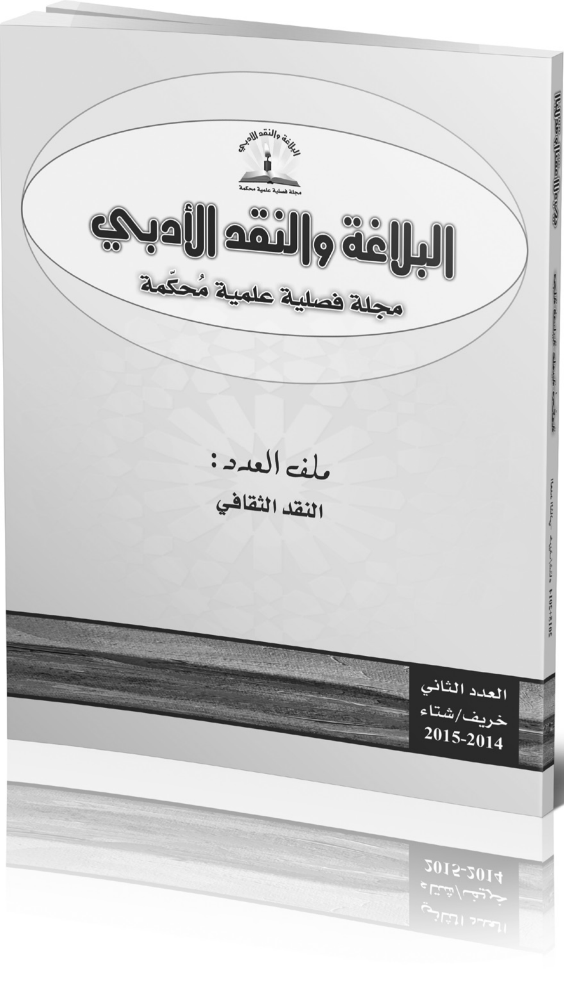
المصادر والمراجع

أ- العربية

- حمدي، توفيق، مواقف البلاغيين والنقّاد العرب من الاستعارة، نشر مؤسسة محمّد علي الحامّي والمعهد العالي للغات بتونس، تونس 2001،
- دي سوسير، فاردينان، دروس في الألسنية العامّة، تعريب صالح القرمادي ومحمّد الشاوش ومحمّد عجينة، الدّار العربيّة للكتاب، 1985.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، مكتبة الجاحظ، الكتاب الثاني، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الجرجاني، عبد القاهر
  - أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر أبو فهر، مكتبة الخانجي،1991.
  - دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبده ومحمّد رشيد رضا، بيروت، لبنان، دار المعرفة.
- خطّابي، محمد، لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب الناشر، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الأولى 1991.
- المتوكّل، أحمد، الوظائف التداوليّة في اللغة العربيّة، الدرا البيضاء، دار الثقافة، 1982.
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، المطبعة الميمنيّة، مصر.
- القزويني، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت 1992.
- المبخوت، شكري، الاستدلال البلاغي، كلّية الآداب والفنون والإنسانيّات، دار المعرفة، تونس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت. طبعة 2/ 2010 ،
- ميلاد، خالد، الإنشاء في العربيّة بين التركيب والدّلالة، نشر مشترك جامعة منّوبة، كليّة الآداب، منّوبة والمؤسّسة العربية للتوزيع، تونس 2001،
- نايل، محمد، نظريّة العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث، دار الطباعة المحمديّة بالأزهر.

ب- الأجنبية

- Austin, Quand dire c’est faire, Paris, Ed du Seuil, 1970.
- Searle (John.R), Les actes de langage. Essai de philosophie du langage. tr. Helen Paul ; Charl; Coll; Savoir; Hermann; Paris, 1975.
- Searles, J et Vanderveken, D, Foundation of Illocutionary Logic, Cambridge, Cambridge University Press. 1985


البلاغة والنقد الأدبي
مجلة فصلية علمية محكمة
البلاغة والنقد الأدبي
مجلة فصلية علمية مُحكّمة
ملف العدد :
النقد الثقافي
العدد الثاني
خريف/شتاء
2015-2014

الهندسة الفضائية لبنية المسار
في اللغة العربية

عبد العالي العامري[1]

«تشكل المعرفة الفضائية من وجهة نظر نفسية، مركز المعرفة البشرية».

محمد غاليم. المعنى و التوافق، مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. ص 262.

تقديم

يقتضي الحديث عن الهندسة الفضائية لبنية المسار في اللغة العربية، تحديد بعض مبادئها النظرية والنمذجية العامة، كما هو موضح في دراسات تالمي (Talmy) وراي دجاكندوف (Ray Jackendoff)، مع توضيح مفهوم المعجمة (Lexicalization) في إطار المعرفة الفضائية (Cognition Space).

لقد ذهب تالمي إلى تصنيف ثنائي (Binary)، حيث قسم اللغات من حيث المعجمة إلى اللغات ذات الإطار الفعلي (Verb-framed language) واللغات ذات إطار الملحقات (Satellite-framed language)، الشيء الذي جعله يغفل بعض اللغات التي لم يشملها التصنيف الثنائي، الأمر الذي تداركه دان سلوبين (Dan Slobin)، إذ انطلق من تصنيف تالمي وأضاف صنفا ثالثا، يتمثل في نمط اللغات ذات الإطار المتكافئ (Equipollently-framed languages) تنضوي تحته اللغات الخارجة عن التصنيف الثنائي.

والجدير بالذكر أن اقتراح دان سلوبين جاء بناء على ملاحظات كل من يونغ كونغ وزلاتيف (Yang klang and Zlatev) اللذيْن عملا على إضافة بعض اللغات إلى التصنيف الثنائي، كإدخال لغة الباسك (Basque) ضمن نمط اللغات ذات الإطار الفعلي واللغة البولونية (Polish) ضمن نمط اللغات ذات إطار الملحقات.

والواقع أن اللغات الطبيعية بما فيها اللغة العربية، تختلف عن بعضها البعض من حيث معجمة بعض عناصرها التصورية من جهة، وفيما يخص بعض الوسائط العامة التي توظفها في ذلك من جهة أخرى.

وسأحاول موضعة اللغة العربية في نمطية معجمة النماذج الفضائية المسارات منها على وجه الخصوص، وذلك للوقوف على النمط أو أنماط المعجمة (Les types de Lexicalization) التي تنتمي إليها اللغة العربية.

---

1 – أستاذ مبرز بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالجديدة/ باحث في اللسانيات بمختبر إعداد اللغة العربية بكلية الآداب بالقنيطرة.

كما أننا ننطلق من افتراض أساس مفاده أن للعربية نسقاً لغويا غنيا، يجعل منها لغة متعددة الأنماط فيما يخص المعجمة، فهي تندرج ضمن نمط اللغات ذات الإطار الفعلي، ونمط اللغات ذات إطار الملحقات، وهذا النمط المزدوج يجعل من اللغة العربية لغة تنضوي ضمن نمط النظام الموازي (Parallel System)، هذا بالإضافة إلى حضورها القوي تحت نمط اللغات ذات الإطار المتكافئ(Equipollently-framed languages)، وخاصة صنف الأفعال المتتالية (Serial-verb).

ونزعم أن التعدد الذي تتميز به اللغة العربية من حيث أنماط المعجمة، يعود بالأساس إلى الغنى اللغوي لنسقها (Arab has rich case system).

أولا: اللغات ومعجمة النماذج المسارية

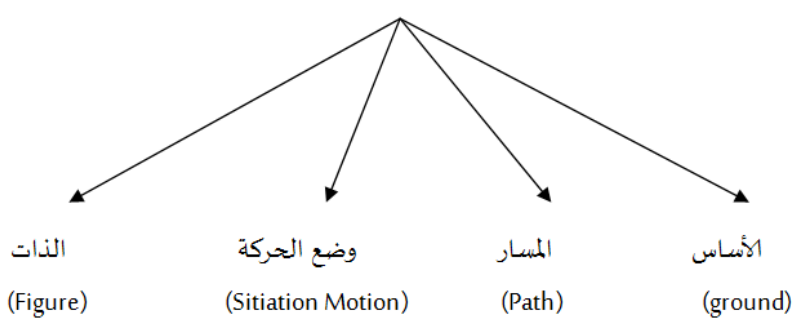
1 - بعض المبادئ النظرية والنمذجة العامة

قدم تالمي بعض المبادئ العامة التي راكمت البحث في هذا الجانب، وعمل على تحديد أربعة مكونات دلالية كجزء من حدث الحركة يعبر عنها في أي لغة، وهي كالتالي:

- وضع الحركة (Motion Sutiation): وهذا الوضع عبارة عن حدث الحركة في حد ذاته، يتحرك عبره الأساس على طول المسار.
- الذات (Figure): هي الوحدة التي تستند عليها الحركة.
- الأساس (Ground): هي الوحدة التي تنتمي إليها الذات.
- المسار (Path): هو الموضوع الذي يتحرك عبره موضوع ما.

ويمثل تالمي (1972) لهذه المكونات على الشكل التالي:

(1) وضعية الحركة[2]



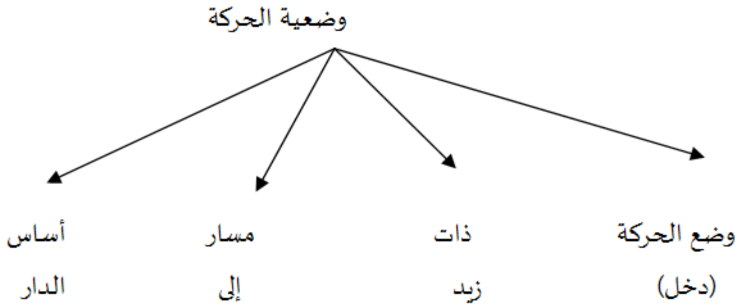
ويمكن التمثيل لوضعية الحركة لدى تالمي بهذه الجملة:

(2) دخل زيد إلى الدار.

وتأخذ الجملة (2) الشكل التالي، تبعا لتالمي: (1972) و(1985)[1]:

1 - انظر غاليم (1999).

(3).



وهكذا يفترض تالمي أن الوضع الحركي مخصص في المستوى التحتي لكل اللغات بواسطة بنية تركيبية خاصة، كما يلي:

- المكون المخصص ذات يكون اسما.
- المكون المخصص أساس يكون اسما.
- المكون المخصص مسار يكون حرفا.
- المكون المخصص حركة تكون حرفا.

وأضاف تالمي (1985) مكونين إلى خطاطة الحركة الأساسية، وهما الكيفية (Manner) والسبب (Cause). ولعل افتراضه المهم هو تفحص الفروقات في معجمة النماذج بين اللغات كالإنجليزية والإسبانية مثلا.

وإلى جانب ما قدمة تالمي (Talmy) من مبادئ نظرية ونمذجية عامة، نجد كذلك راي دجاكندوف (Ray Jackendoff) من خلال أعماله (1983) و(1990)، وخاصة ما يتعلق بمقاربته التي تستمد مشروعيتها من المقاربة المحلية لدى كروبر، في إطار الدلالة التصورية، حيث تم التمثيل لحدث الحركة النموذجي بواسطة تطبيق بنية الموضوعات المحلية، كما في الشكل التالي:

[GO Event [thing] [FROM/to Path]]

وظف جاكندوف دالة ذهب [GO] في تحليل البنية الدلالية لأفعال [1/2] مثل: مشى، وركض،... إلخ. وهي أفعال تمتلك البنية التصورية أعلاه.

تساعد هذه المقولات الدلالية في تحديد البنية التصورية لبعض أفعال الحركة، وهو ما يمكننا من رصد الكيفية التي يمعجم بها ذهنيا متكلم اللغة العربية، إذ إن جاكندوف، بذلك يعتمد في تحليله الفضائي/ التصوري على مقولات دلالية كلية (Universal Semantic Catégories) لدورها الفاعل في تحديد التشابه والاختلاف بين المحمولات وموضوعاتها في جميع اللغات.

ويمكن التمثيل للشكل أعلاه في اللغة العربية على الشكل التالي:

1 - Jackondoff.Ray . semantic structures.p26.

2 – شوطا عبد اللطيف: طبقة أفعال الحركة.ص 249.

(4) [حدث (ذهب [شيء. س] ؛ [مسار. ش])]]

ويمثل المتغيرات (س وش) معلومة تشبع بواسطة المركب الاسمي (الفاعل) (المحور)، والمركب الحرفي (المسار). فدالة «ذهب» هنا أولية بالنسبة لحدث الحركة، أما المحور والمسار فهما عبارة عن عنونات دلالية (Semantic labels)، تطبق على مجموعة المركبات الاسمية والمركبات الحرفية التي يجب إشباعها.

وأشار دجاكندوف في إطار دراسته لأفعال كيفية الحركة التي تعتمد على الكيفية، ولا تدل على مسار مجتاز،مثل: رقص(To dance) والتوى(To wave) ورفرف (To wiggle) إلى كون هذا الصنف من الأفعال تصف حركة شيء دون اجتياز المسار؛ لأنها تعبر، فقط، عن حركة داخلية للموضوع، لذلك فهي أفعال لا تدخل ضمن دالة «ذهب»، التي تقتضي وجود شيء ومسار، ولا يمكن أن توصف بواسطة مجموعة الأوليات المقدمة في دجاكندوف (1983) باعتبارها طبقة مغلقة، وذلك نحو:

(5) رقص زيد
(Zaid danced)

(6) العلم يرفرف
(The flay wared)

إن من هذه الأفعال ما يصطلح عليها بأفعال الكيفية أو الأعمال الطبيعية (Natural action). ومثل هذه الأفعال ليست، حسب دجاكندوف، من اهتمام البنية التصورية، ما دام يمكن للفرد أن يعبر عن فرادية كيفية الحركة بواسطة السمات التفككية. «فهو يزعم أن البنية التصورية يجب أن ترمز إلى بنية موضوعية مناسبة، وترتبط في المعجم ببنية فضائية مرمزة مفصلة جيدا»[1]. غير أنها تقبل أن تتوارد معها العبارات المسارية الهدفية وذلك نحو:

(7) John wiggled out the hole.

البئر خارج التوى جون

'التوى جون خارج البئر'.

(8) Debby danced into the room.

الغرفة في رقصت ديبي

'رقصت ديبي في الغرفة'.

2 - المعجمة في اللغات الطبيعية

1.2 تعريف المعجمة: (Lexicalization)

يقصد بالمعجمة (Lexicalization) صهر الموضوع في بعض المكونات الدلالية، كالأساس أو الذات أو الوضع الحركي... إلخ[2]. ولا يمكن أن تكون محدودة في الكلمات أو المفردات، بل إن الوحدة المعجمية قد

1 - ackondoff.Ray:semantic structures.p88.

2 - لا تعد المعجمة نقل رأس إلى رأس في المعجم (كما هو معروف في التصور التركيبي عند كيل و هيزر)، بل يقصد بها أن عناصر البنية التصورية للمعرفة الفضائية تكون غير ظاهرة على مستوى التركيب، وإنما مصهرة في بعض المكونات التصورية الأخرى مثل:الأساس أو الحدث الحركي للفعل أو الذات...إلخ.

تكون مفككة ومبعثرة في عدد من الكلمات، كما تدل على ذلك ظاهرة الإصهار. أي أن المعجمة تتمثل في طرق التعبير عن المكونات الدلالية خصوصا المسار، والتي تعد أساس كل وضع حركي.

2.2 أنماط المعجمة

ما يستفاد من الأعمال التي قدمت في هذا الموضوع، خاصة أعمال تالمي (Talmy) ودجاكندوف (Jackandoff) ودان سلوبين (Dan slobin)، أن هناك نمطيات لمعجمة المسارات في اللغات الطبيعية، لتوفر اللغات على بنيات مختلفة للمعجمة، وتترابط هذه الاختلافات في البنية النحوية أيضا.

وفي هذا الإطار، هناك تصوران أساسيان في ما يخص أنماط المعجمة في اللغات الطبيعية. فالتصور الأول يعود لتالمي (Talmy) من خلال أعماله الأولى والأخيرة، ثم دان سلوبين من خلال أعماله (1966) و(2000) و(2004) بناء على اقتراحات من قبَل «يونغ كونغ وزلاتيف» (2004) (Yang Kang And Zlater).[1]

أ – المعجمة عند تالمي

بينت الأعمال الأولى لتالمي (1975–1983) أن اللغة الإنجليزية تخصص نمطيا بكون فعل الحركة يمعجم الحركة (Motion) والكيفية (Manner)،كما في:

(9) The bottle floated intro the cave

أو الحركة (motion) والسبب (Cave)، كما في:

(10) I cut the wrapper of the package.

(قطعت لفاف العلبة)

في حين أن أفعالا في الإسبانية تُمَعْجَمُ الحركة والمسار، بخلاف اللغة الإنجليزية، كما في:

(11) – La botella entro en la cueva flotando.

(دخلت القنينة إلى القبو تطفو) .

(12) – Quité el papel del paquete cortando.

(أزال لفاف العلبة بقطعة)

ويوضح تالمي الفرق الجوهري بين الإنجليزية والإسبانية، الذي يتمثل في كون الإنجليزية تعبر عن المسار خارج الفعل بواسطة حرف اتجاهي (Directional Perposition)، أما اللغة الإسبانية، فيكون عنصر الكيفية (The manner element) محذوفا أو معبرا عنه بواسطة المصدر باعتباره نعتا[2].

ولاحظ تالمي (1985) أن اللغة الإسبانية تعتمد على الكيفية والمسار، وتمنع تعابير مسارية هدفية، الأمر الذي يؤدي إلى لحن الجمل التالية:

1 – انظر زلاتيف و يونغ كونغ (2004).

٢ – أحمد بريسول. دلالة أفعال الحركة في إطار المعجم المولد.ص 77.

(13)–l Cueva la a floto botella la.

وفي هذا الصدد، فاللغة الفرنسية تمنع هي الأخرى تعابير مسارية هدفية، نحو:

(14)–l Cave la a flotté a bouteille la.

ولهذا، يجب أن تتضمن هذه الجمل، فعلا للحركة الخارجية يعبر عن دالة ذهب وعبارة تفيد كيفية الحركة، نحو:

(15) La botella entro a la cueva flotando.

والأمر نفسه في اللغة الفرنسية:

(16) La bouteille est entrée à la cause flotant.

ويلاحظ يونيياما (1986) أن اللغة اليابانية، كذلك، تمنع ورود تعابير هدفية مع أفعال تعبر عن كيفية الحركة، نحو:

(17)l John – wa eki-e Hashitta.

(جرى جون إلى المحطة)

(18) l John- wa kishi-e oyoida.

(سبح جون إلى الشاطئ)

لكن هذه الأفعال إذا ركبت مع الفعل (iku) (ذهب)، أمكن ورود تعابير هدفية، نحو:

(19) John-xa eki-e hashitte.Ha

(ذهب جون إلى المحطة جاريا)

(20) John-wa kishi- e oyoida

(ذهب جون إلى الشاطئ سابحا)

ويتضح من خلال هذه الأعمال الأولى لتالمي (1985–1983) أن اللغات الطبيعية تميل إلى اتباع بعض نماذج المعجمة، كما هو موضح بين اللغة الإنجليزية واللغة الإسبانية. ولهذا، فأعمال تالمي الأولى لم تفصح عن نمطيْ المعجمة، والمتمثلين في التصنيف الثنائي (binary)، الأمر الذي تؤكده أعماله الأخيرة بجلاء.

وفي هذا الاتجاه، تقول: «مايا هانجمان (Maya hickmann): «ركز تالمي من خلال أعماله (1975، 1983، 1985، 2000) على أن اللغات الطبيعية تصنف إلى صنفين رئيسيين، فالصنف الأول يطلق عليه اللغات التي تعتمد على الكيفية، والصنف الثاني، يطلق عليه اللغات التي تعتمد على المسار، فالنمط الأول يرمز كيفية الحركة في أصل الفعل والمعلومات المتعلقة بالمسار مجتمعة مع الفعل كحروف الجر. أما الصنف الثاني، فهو يشرح مسار الحركة في الفعل وطريقته أو كيفيته بوسائل مختلفة»[1].

1 - Hickmann. Maya. Children's discourrse space and time across language. p 71.

ولهذا، وضحت مايا هايخمان (Maya Hickmann) اقتراح تالمي الذي اعتمد تصنيفا ثنائيا في ما يخص نماذج المعجمة، حيث جاء هذا التصنيف على النحو التالي:

- **التصنيف الأول**: اللغات ذات الإطار الفعلي (Verb-framed language)

يتم في هذا النمط من المعجمة ترميز الحركة على طول المسار؛ أي ترميز معلومات المسار في الفعل الرئيسي للجملة، ومن أمثلة هذا النموذج حسب تالمي، ما يلي:

Entrer,sortir,monter,descendre in french (verb-framed language)

ومن بين اللغات التي تندرج في إطار هذا الصنف حسب تالمي، نجد اللغات الرومانية (الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية، البرتغالية... إلخ)، بالإضافة إلى اللغات السامية كالعبرية واللغات التركية واليابانية والكورية.

- **التصنيف الثاني**: اللغات ذات إطار الملحقات (Satellite-framed langauge)

يتم في هذا النمط من المعجمة ترميز للمسار من خلال استخدام حروف الجر المرتبطة بالفعل الرئيسي، ومن أمثلة ذلك، نجد ما يلي:

- go down, go in, go out, go op in English (verb-satellite language)

ومن بين اللغات الطبيعية التي تندرج ضمن هذا النمط، نجد اللغات الجرمانية (الإنجليزية، الألمانية، السويدية، الإسلاندية)، بالإضافة إلى اللغات السلافية، (الروسية، البولندية، الصربية، الكرواتية). فهذه اللغات تندرج في إطار اللغات التي تشرح مسار الحركة في الفعل وطريقته بوسائل مختلفة.

وإلى جانب هذه اللغات، نجد اللغة الصينية (الماندرينا Mandarina)، فهي الأخرى تدخل في هذا النمط من المعجمة، ومن أمثلة ذلك نجد:

(21) Jinlai
Come in
«جاء إلى»

(22) Jinqu
Go in
«ذهب إلى»

يسمح هذا التصنيف لدى تالمي (Talmy) للفعل الرئيسي في الجملة ضمن الصنف الذي يشرح مسار الحركة في الفعل وطريقته (كيفيته) بوسائل مختلفة، شريطة أن يكون مرمز الأبعاد في حركة الأحداث (Motion event)، وعلى سبيل المثال كيفية الحركة (Manner de motion)، عكس اللغات التي تعتمد على الفعل والمعلومات المتعلقة بالمسار مجتمعة مع الفعل.

وتعد اللغة الصينية وفقا لتالمي (2000) من بين اللغات المشبعة المسار، مثلها مثل اللغات الهندوأوروبية،

أي اللغات التي تعتمد على الكيفية بصرف النظر عن اللغات الرومانية. فاللغة الصينية تصنف ضمن لغة الأفعال المتتالية (Serial-verb language)، حيث تتضمن فعل في كل سلسلة معينة.

ويلاحظ تالمي أن كيفية الفعل، مرمزة في الفعل الرئيسي، لأن مسار الفعل في هذه اللغة ليست له وظيفة معينة، كما في الأفعال التامة. وأشار أيضا إلى أن مسار الأفعال في لغات الفعل المتتالي، غالبا ما تظهر أدلة واضحة على معجمة المسار.

وتعمل اللغة الصينية المعاصرة والكلاسيكية على ترميز معلومات مسار أحداث الحركة في الفعل الرئيسي للجملة، وخضعت اللغة الصينية بعد مدة من الزمن إلى فعل التحول من صنف اللغات ذات الإطار الفعلي إلى صنف اللغات ذات إطار الملحقات، وهذا الأمر يرجعه بعض الدلاليين، وعلى رأسهم الباحثة مايا هانجمان (Maya Hickmann) إلى عنصر الإتصال بين اللغات، ومثال ذلك ما وقع للغة الإيطالية التي كانت تندرج في إطار النمط الأول، وانتقلت صوب النمط الثاني، وهذا الأمر قد يكون حافزا عن طريق الاتصال مع اللغة الألمانية، خاصة في شمال إيطاليا. وأفادت مجموعة من التقارير أن هناك تصوراً مماثلا لفرنسية بروكسيل التي تقع تحت تأثير اللغة الهولندية[1].

وإذا كان تصنيف تالمي الثنائي قد وضع حدوداً فاصلة بين اللغات في إطار تصنيفي للمعجمة، فهناك بعض اللغات تعمل على استخدام النظام الموازي (Parallel System)، كاللغة المتداولة في جنوب إفريقيا (shona)، واللغة اليونانية التي تندرج ضمن اللغات ذات الإطار الفعلي واللغات ذات إطار الملحقات[2].

ب – المعجمة عند دان سلوبين: (Dan Slobin)

لقد أجريت العديد من الدراسات من طرف دان سلوبين، لإثبات أن تصنيف «تالمي» ليس شاملا. حيث انطلق سلوبين (1966)[3] من تصنيف «تالمي» لأفعال الحركة، وذلك للمقارنة بين أفعال الحركة في الإنجليزية وفي الإسبانية، فهو يتفق مع «تالمي» حول أن بعض اللغات تميل إلى إتباع بعض نماذج المعجمة، وبين أن هذا الأمر يمكن أن يلاحظ، أيضا، بواسطة أفعال من نوع خاص وفي لغة خاصة. فالإنجليزية، مثلا، لها مجموعة واسعة من أفعال كيفية الحركة، في حين أن هذه الأفعال قليلة في الإسبانية.

ومع ذلك، انتقد «سلوبين» تصنيف «تالمي» وقدم أمثلة مضادة للقول بأن لغة مثل الإسبانية لا يمكن أن تقبل التعبير عن الكيفية في الفعل الرئيسي المعبر عن الحركة بنفس الطريقة كما في اللغة الإنجليزية.

ويزعم «سلوبين» إلى أن العامل الفيصل بين الإنجليزية والإسبانية هو تقاطع أو عدم تقاطع المسار مع حد (boundary). ففي الإسبانية لا يمكن أن يتقاطع المسار مع حد لما يستعمل فعل كيفية الحركة ما دام التقاطع مع حد يستلزم مسار فعل حركة في الإسبانية.

1 – انظر سلوبين (2004).

2 – انظر تالمي (1985) و(2000).

3 – انظر سلوبين (1966).

ويخلص إلى أن معاني أفعال الحركة في لغة ما يجب أن ينظر إليها على ضوء الإطار النمطي للغة والسياق التي ترد فيه.

وتوالت عدة تنقيحات لما قدمة «تالمي» من لدن «دان سلوبين» (2000-2003-2004)[1]، حيث لاحظ تالمي أن اللغة الصينية تتوفر على المسار والكيفية في الفعل التسلسلي، وتمت مراعاة المساواة بينهما.

ويذهب «دان سلوبين» إلى أن ذلك قد يكون مناسبا. ولكن بناءاً على اقتراح من لدن «زلاتيف) و«يونغ كونغ» (2004) (Yang klang and Zlatev)، اتضح أن بعض اللغات مثل التايلاندية لا يمكن وصفها ضمن نمط اللغات ذات الإطار الفعلي (Verb-framed languages)، أو اللغات ذات إطار الملحقات (Satelleite-framed languages)، وأمام هذا الوضع يقترح سلوبين صنف ثالث يضم مثل هذه اللغات التي لم يشملها تصنيف «تالمي»، يسمى بنمط اللغات ذات الإطار المتكافئ -Equipollently (framed) languages، ليشمل هذا الصنف أو النمط مقولات فعل اللغات التسلسلي الذي تندرج ضمنه معظم لغات شرق وجنوب آسيا، مثل: الصينية، النمساوية الآسيوية، الهونغ السحنة، وأيضا لغات الأفارقة والهنود الحمر، التي تعبر عنها بالكيفية والمسار بواسطة عناصر متكافئة و متساوية من حيث القوة والأهمية[2].

ويخلص دان سلوبين إلى أن القيود المفروضة على وضع تصنيف ثنائي أصبحت واضحة، وأنه من الضروري إعادة النظر فيه عن طريق إضافة صنف ثالث، يحتوي اللغات التي تخرج عن أنماط المعجمة الكامنة في التصنيف الثنائي، وهكذا تم اقتراح تصنيف ثلاثي، وهو على الشكل التالي:

أ – اللغات ذات الإطار الفعلي: (Verb-framed languages)

إن الوسيلة المفضلة للتعبير عن المسار هو الفعل، مع التعبير بواسطة لاحقة الكيفية، ولهذا يقترح نوع البناء النموذجي لهذا النمط على الشكل التالي:

- مسار الفعل (Path verb) + لحقة كيفية الفعل (Subordinate manner verb).

ويندرج ضمن هذا الصنف، اللغات الرومانية، واللغات السامية والتركية واليابانية والكورية.

ب – اللغات ذات إطار الملحقات: (Satellite-framed langauge)

إن الوسيلة المفضلة للتعبير عن المسار يتمثل في العنصر غير اللفظي المرتبط بالفعل. ولهذا، يقترح نوع البناء النموذجي لهذا النمط على الشكل التالي:

- كيفية الفعل (Manner verb) + ملحقات المسار (Path satellite).

ويندرج ضمن هذا النمط اللغات الجرمانية والسلافية والفنلاندية.

ج – اللغات ذات الإطار المتكافئ: (Equipollently-framed languages)

1 انظر سلوبين(2000).

2 - Hickmann. Maya. Pace in language linguistique systems and cognitive categories. p 120.

يتم التعبيرعن المسار والكيفية بأشكال تركيبية مماثلة، وفي ما يلي يقترح دان سلوبين، أنماط الأبنية النموذجية التي تعتمد عليها اللغات التي تندرج في إطار هذا النمط، وهي كالتالي:

- كيفية الفعل (Manner verb) + مسار الفعل (Path verb) في لغة الفعل المتتالي (Serial-verb language).

ومن بين اللغات التي تندرج ضمن هذا البناء، نجد لغات النيجر، والكونكو، ثم اللغة الصينية القديمة واللغة التايلاندية.

- كيفية (Manner) + مسار(Path) الفعل.

ويندرج في إطار هذا النمط اللغات الثنائية، وذلك مثل: ألتباسكان (Althabaskan)، ولغة هكان (Hokan).

- كيفية + مسار.

ويندرج في هذا النمط اللغات الأندونيسية.

وبهذا، فإن دان سلوبين (Dan Slobin) تجاوز اقتراح تالمي (Talmy) الثنائي (Binary)، إلى اقتراح ثلاثي يتضمن اللغات الخارجة عن نمطي التصنيف الثنائي.

وأمام هذا الوضع، لا بد من وضع تصنيف للغات من خلال الجدول التالي:

أنماط اللغات (Type des langues)	أمثلة
اللغات ذات الإطار الفعلي	اللغات الرومانية: (الفرنسية،الإيطالية، الإسبانية، البرتغالية...إلخ). - اللغات التركية. - اللغة العبرية. - اللغات اليابانية والكورية. - لغة الباسك.
اللغات ذات إطار الملحقات	اللغات الجرمانية: (الإنجليزية،الألمانية، الروسية، السويدية، الإسلاندية). اللغات السلافية: (الروسية، البولندية، الصربية، الكرواتية).
اللغات ذات الإطار المتكافئ	- اللغة الصينية القديمة. - لغات النيجر والكونغو. - اللغة التايلاندية. - اللغات الأندونيسية. - اللغات الثنائية (لغة هكان). الغة شمال كاليفورنيا (Klamaky)
لغات النظام الموازي	اليونانية، ولغة جنوب افريقيا (Shona).

ويتم تصنيف اللغات بناء على بعض الوسائط العامة التي تتميز بها كل لغة على حدة. الشيء الذي جعل زلاتيف ويونع كونغ (2004) يقترح أن اللغات ذات الإطار الفعلي (Verb-framed language) واللغات ذات إطار الملحقات (Satellite-framed language) تختلف عن بعضها البعض في ما يخص بعض الوسائط العامة (Parametre general).

وعمل دان سلوبين (2004) إلى إدخال مجموعة من التعديلات في ما يخص التصنيف الثنائي، حيث عمل على إضافة لغة الباسك (Basque) ضمن نمط اللغات ذات الإطار الفعلي (V-framed language)، غير أنها تختلف عن اللغة الإسبانية التي هي الأخرى تندرج ضمن النمط السالف الذكر. حيث هناك بعض التنوع في طرق التعبير عن معلومات المسار فيما يخص هذا النمط من المعجمة، ففي لغة الباسك (Basque)، نجد أن متحدثي هذه اللغة يميلون إلى ذكر كل من الهدف والمصدر، لأن لغة الباسك تتميز بنسق غني عكس اللغة الإسبانية[1]. ويصفون عادة معلومات المسار كاملة وذلك بدءً باتجاه المسار إلى نهاية الأساس.

ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك في لغة الباسك، نجد ما يلي:

(25) Txuri trakurra leihotik behera joon zan

Txuri dog window below go

«Txuri the dog went don from the window»

يتضح إذا، أن لغة الباسك لغة غنية النسق، وتختلف عن الإسبانية حتى وإن كانتا تندرجان في النمط نفسه من المعجمة، كما تعمل على وصف المسار واتجاهه ونهاية الأساس، وذلك حسب أنطونيو وإربارطيكس (2004) (Irbartexe and antunano).

وثم إدراج اللغة البولونية (Polish) ضمن نمط اللغات المشبعة للمسار، ناهيك عن تخطي التصنيف الثنائي إلى تصنيف ثلاثي يضم لغات الفعل المتتالي (Serial- verb).

وأمام هذا الوضع، فما موقع اللغة العربية ضمن نمطية هذه المعجمة؟

ثانيا: موقع اللغة العربية في نمطية معجمة المسارات

1 – نمط اللغات ذات الإطار الفعلي

تتوفر اللغة العربية على مجموعة من الأفعال التي تمعجم الحركة (Motion) والمسار(path)، وذلك نحو:

(26) دخلت القنينة إلى القبو تطفو.

(27) دخل الولد إلى الملعب يجري.

(28) أزال الولد لفاف العلبة بقطعه.

1 – إن الاختلاف بين لغة الباسك واللغة الإسبانية يعود بالأساس إلى الاختلاف في أصل اللغات العائلية ، فالأولى (لغة الباسك) هي لغة ذات أصول قوقازية عكس اللغة الإسبانية ذات الأصول الجرمانية.

فاللغة العربية تماثل اللغة الإسبانية في هذا الصنف من نمط المعجمة التي تتمثل في الحركة والمسار، بخلاف اللغة الإنجليزية.

ومن أمثلة اللغة الإسبانية التي تتوافق مع اللغة العربية في إطار هذا النمط من المعجمة، ما يلي:

(29) (La botella entro en la cueva flotando).

(30) Quite el papel del paquete cortando.

(31) Saqué el corcho de la botella retorciéndol.

تعمل اللغة العربية إلى جانب اللغة الإسبانية على ترميز الحركة (Motion) على طول المسار؛ أي ترميز معلومات المسار في الفعل الرئيسي للجملة. وتشترك اللغة العربية في هذا النمط من المعجمة مع اللغة الإسبانية على الرغم من الاختلاف على مستوى القرابة السلالية التاريخية أو الجينيالوجية (genealogical)، فالعربية تندرج ضمن اللغات السامية الحامية، واللغة الإسبانية ضمن اللغات الرومانية. وعلى الرغم من هذا الاختلاف على مستوى القرابة السلالية، فإن هناك خصائص معجمية ودلالية ووسائط عامة هي التي جعلتهما يلتقيان في إطار هذا النمط من المعجمة.

وتنفرد اللغة العربية بخاصية أخرى فيما يتعلق بنمط المعجمة، تتمثل في إمكانية توارد اللغة العربية ضمن نمط اللغات ذات إطار الملحقات.

2 - نمط اللغات ذات إطار الملحقات

تدخل اللغة العربية ضمن هذا النمط من أنماط المعجمة، وذلك من خلال تخصيص فعل الحركة (Motion verb) نمطيا بكونه يمعجم الحركة (Motion) والكيفية (Manner)، والحركة (Motion)، والسبب (Cause)، أي النمط الذي يشرح مسار الحركة في الفعل وكيفيته بوسائل مختلفة.

1.2 نمط الحركة والكيفية

تندرج اللغة العربية ضمن هذا النمط من المعجمة التي تمعجم أفْعَاله الحركة وكيفيتها. وذلك نحو:

(32) تطفو القنينة إلى داخل القبو.

(33) يجري الطفل إلى داخل البيت.

ومن بين اللغات الطبيعية التي تماثل العربية في هذا النمط من المعجمة، نجد اللغة الإنجليزية، وكذا اللغة الروسية، فهما معا يعملان على معجمة الحركة والكيفية، وذلك نحو[1]:

1 - انظر تالمي (1972).

(34) • the bottle floated into the cave.

القبو إلى داخل تطفو القنينة

' تطفو القنينة إلى داخل القبو'

(35) • On V-bezàl V dom

(He van-in into the house)

' يجري إلى داخل المنزل'

وفي الإنجليزية والروسية، هناك بعض العناصر التي هي أقرب إلى الفعل من حروف الجر. وقياسا على اللغة الألمانية التي تتضمن البنية التالية:

(36)-Er ging ins haus hinien.

حلل تالمي ما يلي:[1]

(37)- he walked into the room

الغرفة إلى داخل مشى

'مشى إلى داخل الغرفة'

وبناء على الجملة التالية:

(38)- in the walked into the Room

الغرفة داخل إنه

' إنه داخل الغرفة'

ففي اللغة الإنجليزية يتم دمج أو صهر الحركة والكيفية مع المسار، وهذا الأمر هو ما حققه الفعل «مشى» (walked).

والجدير بالذكر أن اللغة الإنجليزية أو الروسية والإسبانية تتشابه في صهر الحركة (Motion) والاتجاه (Directionel) في الفعل (Verb)، وذلك مثل: entrar في الإسبانية وenter في الإنجليزية، علما أن الاختلاف يتمثل في عنصر الكيفية (Manner)، فيتم دمج هذا العنصر في الفعل في الإنجليزية، بينما يحتل مكانة هامشية في اللغة الإسبانية.

2.2 الحركة و السبب:

تعبر اللغة العربية بواسطة الحركة (Motion) والسبب (Cause) وذلك نحو:

(39) قطع لفاف العلبة.

1 – ويعد هذا الأمر، كنتاج لنهاية الاشتقاق من: [ST] التي تقرأ انتقال (Move) إلى– في (to- in) ملحق(Sat) إلى– في (to-in) حروف جر. وهذا الأمر يرصده تالمي على الشكل التالي:

وتماثل اللغة الإنجليزية اللغة العربية، في هذا النمط من المعجمة، فتخصص نمطيا بكون فعل الحركة يمعجم الحركة والسبب، وذلك نحو:

(40) • I cut the wrapper of the package

يتضح إذا، أن اللغة العربية تخصص نمطيا بكون فعل الحركة يمعجم الحركة والكيفية، والحركة والسبب، وذلك على نحو متشابه مع اللغة الإنجليزية.

وعلى الرغم من أن اللغتين موضوع المقارنة يختلفان من حيث الانتساب السلالي، فإنهما يشتركان في بعض ضوابط المعجمة، إضافة إلى كون اللغة العربية واللغة الإنجليزية يمتلكان رصيدا وافرا من أفعال الحركة.

وأما هذا الوضع الذي يخص اللغة العربية في ما يتعلق بنمط المعجمة، الذي يوضح بأنها لغة تندرج ضمن الإطارين معا؛ أي نمط اللغات ذات الإطار الفعلي (Verb -framed langauge)، ونمط اللغات ذات إطار الملحقات (Satellite -framed langauge).

إن هذا الوضع الثنائي (Binary) الذي تتميز به اللغة العربية يجعلها تندرج أيضا ضمن نمط اللغات التي تعمل على استخدام النظام الموازي.

3- نمط النظام الموازي: (Type Parallel System).

أفرزت الدراسة اللسانية أن العربية لغة تصنف ضمن الإطارين معا؛ أي ضمن نمط اللغات ذات الإطار الفعلي واللغات ذات الإطار الفعلي، ويسمى هذا الانتماء المزدوج بنمط النظام الموازي: (Type Parallel System)، وذلك نحو:

(41) جرى زيد إلى المنزل.

(42) دخل زيد إلى المنزل جاريا.

فالجملة الأولى تندرج في إطار اللغات ذات الإطار الفعلي، والثانية تندرج ضمن نمط اللغات ذات إطار الملحقات.

وما يماثل اللغة العربية في إطار هذا النمط من المعجمة، نجد اللغة اليونانية ولغة (Shona)، أي اللغة المتداولة في جنوب إفريقيا.

ومن أمثلة اللغة اليونانية ما يلي:

(43)-etreksa	mesa	(s-to	spili)
Iran	in	to-the	house
(جرى)	(في)	(إلى)	(المنزل)

(Iran in (to the house)

(جرى إلى المنزل)

[S-framed language]

[اللغات ذات إطار الملحقات]

تمثل هذه العبارة صنف اللغات المشبعة للمسار (S-framed language).

(44)-bika	(trekhonds)	(S-to spili)
I.entred	running	to the hous
دخلت	جاريا	إلى المنزل

I entred (the house) (running)

'دخلت المنزل جاريا'

[V-framed language]

[اللغات ذات الإطار الفعلي]

تمثل هذه الجملة صنف اللغات ذات الإطار الفعلي (Verb-framed language). ويتضح، أن تصنيف تالمي تصنيف ثنائي يعمل على وضع كل لغة ضمن نمط من المعجمة، مع إيراد بعض اللغات التي تندرج ضمن النمطين معا، التي تستخدم النظام الموازي كاللغة اليونانية واللغة المتداولة في جنوب إفريقيا (Shona).

إضافة إلى هذين النمطين، يمكن الإشارة إلى كون اللغة العربية تندرج في نمط اللغات ذات الإطار المتكافئ (Equipollently – framed language)، وخاصة في نمطي الأفعال المتوالية (Serial verb).

4- نمط اللغات ذات الإطار المتكافئ: (Equipollently – framed language)

تندرج اللغة العربية ضمن نمط إطار اللغات المتكافئ، خاصة في صنف الأفعال المتتالية، حيث يتم التعبير عن المسار والكيفية بأشكال تركيبية مماثلة، كما في لغات النيجر والكونكو، واللغات الثنائية مثل الهوكان واللغات الأندونيسية واللغة التايلاندية والصينية القديمة.

ويأخذ هذا النمط من المعجمة، البناء النموذجي التالي:

- كيفية الفعل+ مسار الفعل في لغة الفعل المتوالي[1].

ويمكن إيراد البنى التي تتسم بتتابع الأفعال المتوالية (Serial-verb) التي توجد في العربية والعامية على حد سواء.

وهذه بعض الأمثلة منها:

(45) دخل يجري.

(46) خرج يهرول.

(47) خرج يركض.

(48) خرج يسرع.

49) خرج يمشي.

1 - hickmann. Maya. Space in language linguistique systems and cognitive categories. p 121.

فهذه التراكيب التي تندرج ضمن نمط الأفعال المتوالية، تتوفر على فعلين، يمكن القول إن الفعل الأول منها يندرج ضمن طبقة الأفعال الخفيفة (Light verbs)، في مقابل الأفعال الثقيلة التي تتضمن الحدث الرئيسي. و الأمر نفسه ينطبق على العامية المغربية التي تتضمن هي الأخرى تتابع الأفعال للدلالة على الأحداث المركبة. وذلك مثل:

(50) امشى يجري.

(51) ادخل يزرب.

(52) اخرج يربل.

إذا هذه الأمثلة، تبين أن اللغة العربية تستعمل وسائل متنوعة في التعبير عن المسار، علما أن هذه الأفعال المتتالية/ المتتابعة، قد يركب معناها وتوجد مصهرة في بعض اللغات الأخرى. ولا تلجأ اللغة العربية إلى استخدام أفعال مركبة للتعبير عن المسار لحظة/ أثناء المعجمة، كما تفعل بعض اللغات.

والجدير بالذكر أن مسألة نمط الأفعال المتوالية (Serial-verb)، تبقى مسألة حاضرة في نسق اللغة العربية الفضائي، لكن بمستوى قليل.

وما يماثل اللغة العربية في هذا الإطار نجد اللغة التايلاندية واللغة الصينية القديمة. فتم تصنيف اللغة التيلاندية (Taï) ضمن لغات الفعل المتتالي (Serial verb) حسب (زلاتيف ويونغ كونغ) (2004) (Zlatev and yangklng)[1]. ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك، نجد ما يلي:

(53)- Chàn daan khâw pâj

I walk enter go

'Iam walking in (away from)'

(54)-Chàn daan khâam thanõu khâw paj naj Sùan

I walk goss road enter go in park

'I walked across the rood and intro the park'

ولهذا، فإن اللغة التيلاندية (Taï) لها نمط إطار اللغات المتكافئ، ما دامت تندرج ضمن البناء النموذجي للغة الفعل المتتالي (Serial verb)، الذي يتضمن في بنيته المعجمية فعلين أول وثانٍ (verb (1)+verb (2)).

وفقا لزلاتيف ويونغ كونغ (2004) بأن هناك حجة، تتمثل في كون الفعل (مشى) (walk) و(دخل) (enter) و)ذهب((go) لها مكانة متساوية من حيث البناء، وليست مشبعة أو مضمرة، بل تحدث للأفعال المستقلة في لغة الفعل التسلسلي من النوع أعلاه.

1 - Zlatev and Yangklang. A third way to travel:the place of tai and serial verb languages in motion event typology. p 160-165.

أما فيما يخص اللغة الصينية القديمة (Classical chinese)، فتم تصنيفها في بدء الأمر ضمن نمط اللغات ذات الإطار الفعلي (Verb-framed language) إلى جانب اللغة الفرنسية، ومع مرور الزمن انتقلت إلى صنف اللغات ذات إطار الملحقات حسب تالمي ومايا هانجهان.لكن عادة ما تندرج اللغة الصينية القديمة ضمن لغة الفعل المتتالي الذي يأخذ شكل أو البناء التالي:فعل(1) + فعل(2)، الذي يحتوي على معنى معجمي كامل.

ومن بين الأمثلة التي تجسد هذا النمط من البناء في اللغة الصينية القديمة، نجد ما يلي:

(55)- Zou chu m

من البوابة خرج يركض

Run go-out gate

البوابة من خرج يركض

(56)-(He) Rân (and) went out of the gate

البوابة من خرج ركض

"خرج يركض من البوابة"

وهناك عدد قليل جدا من الحالات التي يتم فيها استخدام عبارات ظرفية مع الفعل الأول (Verb1) والفعل الثاني (Verb 2)، في إطار لغة الفعل التسلسلي (Serial verb).

هكذا تماثل اللغة العربية بعض لغات شرق أسيا في إطار لغات الفعل المتتالي، مثل اللغة التايلاندية واللغة الصينية القديمة.

خاتمة

إن النتائج المتوصل إليها تؤكد أن نمطية المعجمة الفضائية تقودنا نحو بناء نسق دلالي نفهم من خلاله الكيفية التي تمعجم بها اللغة العربية النماذج المسارية. هذا الأمر، يدفعنا إلى القول إن اللغة العربية ليست لغة محايدة بأي مستوى من المستويات المعجمة، بل هي مثل باقي لغات العالم لها نظامها الفضائي الخاص، وتمتلك مكانزمات خاصة تجعل منها لغة غنية بمحتوياتها وإوالياتها المقولية.

كما أفضت هذه الدراسة إلى التأكيد على أن هناك مجموعة من المبادئ النظرية والنمذجية العامة التي تخضع لها اللغات الطبيعية، بما فيها اللغة العربية، كما أشارت إلى ذلك بعض الدراسات المتقدمة في مجال البحث اللساني في ما يخص المعرفة الفضائية. كما أن هناك هندسة فضائية لبنية المسارات للغات الطبيعية، وأن كل لغة لها نمط معجمة معين، بالإضافة إلى كون بعض اللغات يكون له أكثر من ذلك، مثل: العربية واليونانية ولغة (Shona)، حيث تعمل هذه اللغات إلى استخدام النظام الموازي.

وتتميز بعض اللغات بالتحول والتغير من نمط إلى نمط آخر، بفعل عامل الاتصال اللغوي، كما حدث لفرنسية بروكسيل التي انتقلت إلى صنف اللغات الجرمانية بفعل التأثر باللغة الهولندية، وكذا اللغة الإيطالية التي تأثرت باللغة الألمانية.

وأخذت اللغة العربية صورة اللغة التي تستخدم النظام الموازي، واندرجت كذلك في سياق لغات الفعل المتتالي (Serila verb)، أي إطار اللغات المتكافئ، الذي ماثلت بعض لغات شرق أسيا، بفعل غناها المعجمي وخصائصها التركيبية والصرفية والصواتية.

المصادر والمراجع

أ- العربية

- غاليم محمد. المعنى والتوافق مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب الرباط. الطبعة الأولى .1999
- برسيول أحمد. دلالة أفعال الحركة في إطار المعجم المولد. منشورات دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، لبنان. الطبعة الأولى2013.
- شوطا، عبد اللطيف (-00022001)، طبقة الأفعال في اللغة العربية: تحليل دلالي، دكتوراه الدولة في الآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك - الدار البيضاء.

ب- الأجنبية

- Hickmann. Maya. Space in language linguistique systems and cognitive categories. 2006.
- Hickmann. Maya. Children's discourrse space and time across language, cnrs, University René Descartes, Paris. 2003.
- Jakendoff. Ray. Semantic and cognition, mit press. 1983.
- Jakendoff. Ray. Semantic structures, mit press. 1990.
- Zlatev and Yangklang. A third way to travel:the place of tai and serial verb languages in motion event typology.2004.

عندما تخلق النظرية مقومات تجاوزها :
قراءة في مصيروظائف اللغة

مبارك حنون[1]

«Tel je le vois, le progrès en science provient toujours d'une combinaison de pensées décousues et de pensées rigoureuses».

Bateson, Gregory 1972. Vers une écologie de l'esprit. Tome 1. Le Seuil. Paris 1977

كان هذا العمل، في أصله، تعريفا بوظائف اللغة عند ياكوبسون قدمته في ندوة نظمتها جمعية أساتذة مركز تكوين المعلمين والمعلمات بفاس بالمغرب سنة 1983 حول محور «مقاربة تحليل النص الأدبي». عدت إليه لأؤثث جنباته وأربط فكرة الوظائف بتداعياتها على مستوى تغيير وجهة اللسانيات وأساسياتها وفتح أبوابها في وجه نسمات فعل القول والخطاب.

1 – تمهيد

تعرف بعض الأفكار والنظريات، أحيانا، انتشارا واسعا ويكون لها تأثير بارز وعميق في الحياة العلمية والفكرية، فتتلاقح مع أفكار أخرى أو تتناسل عنها أفكار مجددة لترسم خريطة جديدة لرؤيا الإنسان إلى الكون وظواهره والتحكم في أنشطته وتحسين إدراكه لها. ويُمكن أن يدرج بعض الباحثين والمفكرين ضمن هذا الصنف الذي تروج إنتاجاته الفكرية رواجا منتجا وواسعا، ويفضي إلى تجديد في الأفكار والرؤى.

ومن الأفكار والنظريات التي لاقت ترحابا وانتشارا وتفاعلا نقديا وطورت، إلى حد كبير، النظر اللساني والأدبي، وأتاحت نسج أعمق العلاقات بين هذين الحقلين المعرفيين، «نظرية» وظائف اللغة. فقد شكل ظهور نسق هذه الأفكار تغييرا عميقا لا في النظرة إلى الأدب، من حيث اعتباره نتاجا لغويا مسبوكا بطرق جمالية، بل في النظرة إلى اللغة أيضا، باعتبارها متعددة الاستعمالات أو متعددة الأنساق. ومن ثمة، انبثقت لسانيات التواصل. ومن مفارقات النظريات أن تحمل النظرية نفسها في ذاتها معاول تهديمها وتجاوزها. فقد كان سوسير، وبعده ياكوبسون، من اللسانيين الذين وضعوا أسس تجاوز أنفسهم. ومن جهة ثالثة، كان لظهور نظرية وظائف اللغة أثرها في تحريك سواكن النصوص لتتحدد في ضوء وظائف اللغة معالم نظرية النص والأجناس النصية، والتحليل اللساني للأدب.

إن الحديث عن وظائف اللغة، لا عن وظيفة اللغة الواحدة، بحث مترامي الأطراف يسعى إلى حصر

1 – أستاذ اللغويات، جامعة قطر – قطر.

شمولي للأدوار والاستعمالات المسندة إلى اللغة، وما يترتب على ذلك من خصوصيات في البناء اللغوي المتناغم مع كل وظيفة من الوظائف. إلا أنه يجدر التنبيه على أن الاستعمالات قد لا تقصي بعضها البعض بل تتعايش وتتساكن في المنتج اللغوي الواحد.

وإذا كان الحديث عن تواصلية اللغة، بمعناها العام، ليس بالأمر الجديد، فإن تفكيك عملية التواصل وتحليل العلاقات بين مكوناتها، والكشف عن حزمة من الوظائف، وعن صلاتها ببعضها البعض، وما تنطوي عليه كل وظيفة من إحالات على أنواع مختلفة من القول والكتابة- فإن كل ذلك وغيره ما كان ليتصدر الكتابة اللسانية والأدبية لولا طرح وظائف اللغة في سياق عملية تواصلية معقدة اتضح مفهومها مع شانون Shannon وويفر Weaver انظر عملهما 1949 وتوسع وتدقق مع هارولد لاصويلل 1952، (1948) Harold D. Lasswell ورايلي ورايلي (1959) Riley & Riley وآخرين (انظر: Schramm (1961)، Berlo 1960، Gerbner (1956)، Newcomb (1953)). غير أم ملامح هذه النظرية ما كانت لتتحدد لولا استحضار معارف أخرى فلسفية (أرسطو) ولسانية (حلقة براغ).

في هذا السياق المعرفي المتنوع التخصصات والمتشابك المعارف، كان إنتاج «نظرية» وظائف اللغة. غير أن «نظرية» وظائف اللغة، كما صاغها ياكوبسون، قد كانت عرضة للكثير من الانتقاد بغاية التحسين وتدارك مختلف النواقص التي انتُبه إليها على مدار الحوار اللساني واللساني-الأدبي. لكن الملامح الأساسية للنظرية قد ظلت جلية وراسخة لَأنها، أساسا، خطاطة. فقد وصف ياكوبسون عملية التواصل بـ «الخطاطة»، غير أنه يجمل بنا أن نعد «نظريته» في وظائف اللغة خطاطة أيضا. وقد قامت هذه الخطاطة على مكونات هي: 1. عوامل التواصل؛ 2. الوظائف اللسانية المترتبة عليها؛ 3. العلاقات الهرمية بين العوامل والوظائف؛ 4. أنواع الخطابات والنصوص التي يولدها التأليف بين هذه العوامل والوظائف.

نروم، من خلال هذا الموضوع الوقوف على مفهوم وظائف اللغة عند ياكوبسون وما انطوى عليه هذا المفهوم من قدرات على تطوير البحث اللساني والأدبي بتوظيفه لمفهوم استعمالات اللغة. فقد كانت «الوظائف» الباب الذي فُتح على الأدب، باعتباره إنتاجا لغويا، وعلى الخطاب ودور الوظائف في بنائه، وعلى مختلف أنواع النصوص وبنياتها التي يولدها التأليف بين هذه العوامل والوظائف، ومن هنا بروز مفهوم استعمالات اللغة.

سنحاول، في هذه البحث، رصد الأجواء المعرفية السابقة على «نظرية» الوظائف واللاحقة بها، والآثار اللسانية والأدبية الناجمة عن بزوغ هذه النظرية حتى لا تبقى «نظرية الوظائف» حبيسة المنطوق والحصر الاستعمالي. وإن كان طوحنا أكبر من ذلك، إذ إننا نتوخى، ولو في عجالة، إبراز مدى إسهام خطاب الوظائف في تطوير البحث اللساني والبحث الأدبي.

هكذا، سنرصد تاريخية العوامل المكونة للتواصل اللفظي (القسم1)، لنردف ذلك بسيرورة بناء العوامل المكونة للتواصل (القسم 2). وسنعرض، في القسم 3، لمفهوم الوظيفة وبيان التباساته، وفي القسم 4 نتناول وظائف اللغة عند ياكوبسون وتفاعلاتها وعلاقاتها والنقد الموجه إليها؛ على أن نخصص القسم 5 لتقديم صورة أخيرة عن هندسة الوظائف عند ياكوبسون وما اكتنف ذلك من تصدعات. أما القسم 6

فنفرده لأجناس الخطاب وأنواع النصوص المترتبة على مفهوم الوظائف. ونختم مقالنا بأهم الاستنتاجات ذات الصلة بالاستعارات المؤسسة للتواصل والوظائف من منطلق المقاربات السوسيو-تداولية.

2 - في تاريخية العوامل المكونة للتواصل اللفظي

ظهرت نظرية وظائف اللغة على يد ياكوبسون، ونشأت في إطار اللسانيات الوظيفية. لكن التداول حولها وحول المفاهيم التي أطلقتها قد تم، أساسا، داخل لسانيات تسائل وضعها ومفاهيمها ومناهجها وأدواتها. لقد ساهمت هذه الوظائف في تطوير نظرة اللسانيين إلى اللغة بل ومراجعتها، ومن ثمة بناء نظريات ومقاربات أكثر ملاءمة للواقع اللغوي وتفاعلاته.

لا نسعى، في هذا القسم، إلى عرض مفصل لأهم الروافد الفكرية للعوامل المكونة للتواصل اللفظي، بل سنحاول أن نذكر، وبإيجاز، بأهم الروافد الفكرية لمفهوم التواصل الذي أصبحت معالمه تتحدد بالتقدم في تعرف عملية التواصل من خلال تفكيكها إلى العوامل المكونة لها. ولعل الفضل الأكبر يعود إلى النشاط الفكري الذي تحلق حول التواصل التقني الذي أفرز عدة نماذج كان لها الفضل الكبير في وضع ملامح لنظرية التواصل البشري اللفظي.

يبدو أن النظرة إلى اللغة باعتبارها تواصلا قد فتح باب البنيوية نحو آفاق نظرية أخرى، ولا شك أن لفظة «الوظيفة» قد أتاحت فرصة الانفتاح والتطور هذه، علما بأن شبكة من المفاهيم والتصورات والمبادئ الإبيستيمولوجية قد مهدت السبيل لبروز تصور جديد لا للتواصل اللفظي فحسب بل للفعل اللغوي في مختلف تمظهراته وعلى نحو شمولي. ومن هذه المفاهيم السياقُ (دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي)، واعتبار استعمال اللغة أجدى من دراسة بنيتها، ورهن معنى الرسالة بالسياق، ومحورية النشاط اللغوي لا السَّنَن code، وتجاوز الجملة إلى الفعل اللغوي، وتحويلها إلى قول énoncé. كما لا ينبغي أن يغيب عن بالنا الدور الهام الذي كان للسانيات الاجتماعية في صياغة لسانيات جديدة مثلتها التداولية pragmatique وفعل القول énonciation وتحليل الخطاب analyse de discours وتحليل التخاطب analyse de la conversation.

لقد ظلت البنيوية، لفترة طويلة، حبيسة مفهوم «دورة الكلام» السوسيرية التي تندرج ضمن منطق التواصل السنني communication codique الذي تنظم خيوطه مفاهيم الدال signifiant والمدلول signifié والعلاقة بينهما، واللسان والنسق. فكان أن اُختزل نموذج التواصل في نسيج علائقي ذهني ومجرد أُلغِيت بموجبه الذات المتواصلة ومختلف العوامل الخارجية المؤطرة له. واتضح، نتيجة لذلك، أن كل عملية تواصلية تشترط فقط تسنينا codage وفكا décodage داخليين له، لأن المشترك والاجتماعي رأسمال تختزنه ذاتا المتكلم والمستمع. هكذا، فُهِم أن كل تواصل يشترط سلفا وجود نسق دلائل ضمني وخفي على السيميوطيقي أن يبنيه وأن يعرضَه في صورة نسق[1].

ومما لا شك فيه أن يكون نموذج ياكوبسون في التواصل يسعى إلى تجاوز الانحسار اللساني والسيميائي الذي وضعنا فيه سوسير بالاستعانة بما تكون قد وفرته «التكنولوجيا» من إمكانات انطلاق التفكير وبناء

1 - Fortin, Gwenolé (2007). p 114

رحابته. ومن شأن ذكر ذلك أن يثير انتباهنا إلى المجهود الفكري «الخارج-لساني» الذي مكنه من وضع خطاطته التواصلية.

عادة ما يقال إن نموذج ياكوبسون يمتح من نموذج شانون Shannon وويفر Weaver [1]. غير أن الذين تبنوا نموذج ياكوبسون، في صيغته الأصلية أو في صيغة معدلة إلى هذا الحد أو ذاك، قد متحوا من نماذج أخرى. ويتميز نموذج شانون وويفر بكونه يحيل، أساسا، على مشاكل ضبط البث التلغرافي، إذ كان شغل الباحثين الشاغل يكمن في توصيل الإخبار، ليتشكل التواصل من مصدر أو مرسل ورسالة مشفرة (مسَنَّنَة) ومستقبِل يقوم بتفكيك شفرتها في سياق تعكره صفوه الضوضاء bruit. وقد كان من حسنات هذا النموذج، على بسَاطته، أن ركز على عامل «الضوضاء» الذي يشوش على نقل الخبر، وإن كان هذا النموذج يشكو، في الجوهر، من عدم ملاءمته لمختلف مقامات التواصل المتمثلة في طبيعة المرسل والمرسل إليه بل وتعددهما، وعنصر التفاعل بينهما، علاوة على قصر هذا التواصل على رسالة واحدة، وحصر التشويش على مستوى القناة.

وتواصلت النماذج ذات الخلفيات المختلفة لتبدو صورة العملية التواصلية في أثرى مكوناتها وأعقد عملياتها. فكان أن ظهر نموذج هارولد لاصويل Harold Lasswell الذي عُرف باهتمامه بالتواصل الجماهيري، وهو ينطلق من إمكانه وصف الفعل التواصلي وصفا ملائما متى ما أُجيب عن الأسئلة التالية: «مَن،، و ماذا يقول؟، وبواسطة أية قناة؟، ومع من يتكلم؟، وما الأثر المتوقع من كلامه؟»[2]. ومن نافلة القول الإشارةُ إلى أن هذه الأسئلة الأساسية قد استُمدت من البلاغة كما تصورها كينتيليان Quintilien. ومن البين أن هذه الأسئلة والأجوبة المتوقعة منها تَحيلنا على: دوافع العملية التواصلية بكافة أبعادها النفسية والاجتماعية، وتحليل مضمون الرسالة، ومجموع التقنيات التي تنشر الخبر في وقت محدد وبالنسبة إلى مجتمع معين، وتحديد المستقبِل وفق متغيرات عدة، والسلوك المتوقع من المستقبِل. وتأسيسا على ذلك، نستنتج أن الباحث قد بنى تصَورا للتواصل بوصفه يتجاوز عملية نقل الرسالةَ ليصبح عملية دينامية تتمفصل حول مكونات حاسمة وهامة وذات بعد أكبر، دون أن ينسى أن الغاية منه تتلخص في التأثير والتحريض على العمل[3].

وتوالت النماذج لتسد الثغرات وتُطوِّر، وفقا لذلك، الخطاطة التواصلية. فقد وضع رايلي ورايلي Riley & Riley 1959 نموذجا يكرس مفهوم التفاعل، إذ نُظِر إلى المرسل والمرسل إليه باعتبارهما ينتميان إلى مجموعة بشرية تكبر أو تصغر، جماعة بشرية ذات ولاءات ورؤى ثقافية محددة[4]، مؤسسا بذلك السياق الاجتماعي للعملية التواصلية التي أضحت، وفق هذا المنحى، عملية اجتماعية. فيما

1 - Théorie mathématique de la Communication (1948).

2 - L'«Analyse du contenu» et le langage de la politique In: Revue française de science politique, 2ème année, n°3, 1952. pp. 505-520.

3 – نفسه

4 – انظر:
De la communication à l'interaction : l'évolution des modèles In: Communication et langages. N° 93, 3ème trimestre 1992. pp 69-83.

أضاف نيوكامب Newcomb 1953، بعدا اجتماعيا ونفسيا إلى التواصل بحديثه عن المتواصلين أو الأطراف المتواصلة المتفاعلة مشيرا إلى الموقف (المظهر العاطفي للعلاقة) والرابطة (تخصيص العلاقة)، والتواصل الذي يعد بحثا عن التوازن أو التقليل من اللاتوازن[1]. أما بيرلو David K. Berlo 1960[2]، فقد أبان أهمية المظهر النفسي في كل تواصل، وهو تواصل تؤثر فيه عناصر خارجية من قبيل المعرفة والنظام الاجتماعي وكفاءات المرسل والمرسل إليه وثقافتهما، والطريقة التي عولجت بها الرسالة، وتشفيرها وبنيتها ودور الحواس الخمس. وبناء على ذلك، يكون بيرلو Berlo قد قدم نموذجا يتلاءم مع التواصل التذاوتي intersubjectif ومع التواصل الجماهيري، لأنه يمكن للمصدر والمستقبل أن يكونا شخصا أو مجموعة أشخاص، أو تنظيما أو مؤسسة. علاوة على أن النموذج يأخذ بعين الاَعتبار شخصية المرسل والمرسل إليه ومعارفهما وكفاءاتهما ومحيطهما. وقد انتهى بيرلو Berlo إلى توضيح مفهومه للتشفير (التسنين) باعتباره سلوكا (حركات، هيئات...) يحوي تعابير أخرى غير اللغة (الرقص، الموسيقى، الفن..)، ليصبح العنصر الذي يجعل التواصل بسيطا أو معقدا، أو يحول دون تحقيقه. كما أضاف شرام Schramm 1961[3]، عنصرا أساسيا آخر إلى الخطاطات السابقة، ويتعلق الأمر بالتجارب المشتركة، إذ لا بد من مشترك بين المرسل والمتلقي لكي تُفهم الرسالة (الحقل الدلالي).

لقد اقتصرنا على هذه الروافد لغناها الفكري والحياتي، ولقدرتها على فهم التطورات اللاحقة على «اقتراح» ياكوبسون المتعلق بالعوامل المكونة للتواصل اللفظي، وللوقوف على الحدود (أو الأطر) التي رسمها ياكوبسون لعناصر خطاطته.

3 – العوامل المكونة للتواصل عند ياكوبسون

تشكل الأعمال المشار إليها أعلاه، من حيث المبدأ، الخلفية الفكرية لياكوبسون ومن تولى، على إثره، نظرية الوظائف بالتطبيق والتجديد والنقد. فما عساه يكون موقع عوامل التواصل في نظرية ياكوبسون للوظائف؟

أعتقد أن صياغة ياكوبسون لعوامل التواصل ولوظائف اللغة قد كانت محكومة برغبته في تبين خصائص الشعرية أو الأدبية (خصائص لغة الأدب) ضمن شبكة هذه العوامل. فقد كان شديد الحرص على إنشاء علم حقيقي للأدب، وهو الإطار الذي يتيح لنا أن نفهم، حق الفهم، الكلام الذي مهد به ياكوبسون لهذا الموضوع[4]. فقد افتتح حديثه عن اللسانيات والشعرية بالتساؤل عما يجعل من رسالة لفظية أثرا أدبيا؟ مؤكدا، بذلك، أن اللسانيات علم شامل للبنيات اللغوية، وأن بنية اللغة الشعرية جزء لا يتجزأ من بنيات اللغة المتبادلة التعلق، وأن اللغة لا تنفصل عن الأنواع الأخرى للسلوكات اللفظية، وأنها تتقاسم عددا من الخاصيات مع بعض أنساق الدلائل الأخرى، وأن كل سلوك لفظي موجه نحو غاية ما علما بأن الغايات

1 - Newcomb, T. M. (1953). An approach to the study of communicative acts. Psychological Review, 60, 393–404.

2 - Moch, Olivier (2011) in: http://olivier-moch.over-blog.net/article-les-modeles-de-communication-72295675.html

3 – نفسه.

4 - «Linguistique et poétique «in: Essais de Linguistique Générale. T. 1. Minuit. 1963.

تتنوع. واستكمالا للنسيج الفكري الذي ينطلق منه، فقد صرف تفكيره إلى مقتضيات هذه الأفكار من قبيل أن الرسالة اللفظية لم تعد، ولا يجب أن تكون، مقصورة على الجملة وعلى «النحو» داعيا، بشكل ضمني، إلى لسانيات الخطاب linguistique du discours أو لسانيات القول linguistique de l'énonciation[1]. هذه القضايا المثارة هنا، بنوع من التكثيف، تطرح ضرورة الإقرار بأن اللغة تتسم باحتوائها على بنيات متنوعة تستعمل عند الحاجة لتأدية غايات وأغراض خاصة ومتنوعة.

والجدير بالذكر أن نثير الانتباه إلى أن مشروع ياكوبسون ينهض على مفهوم «التواصل»، أي أن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل، مهما كانت الوظائف الأخرى. وبعبارة أدق، فالتواصل، فيما يبدو، من خلال ثنايا نص ياكوبسون، مكون يخترق مختلف العوامل الأخرى، وربما يلازمها وإن ضمُر مداه. غير أن استعمال اللغة، في نظر باحثين آخرين، لا يتميز بإرادة تقديم إخبار، لأن اللغة ليست فقط وسيلة، وإنما هي مخرج éxutoire، وشكل من أشكال الفعل، وأداة لتأكيد الذات ككائن اجتماعي، وموضع للاستمتاع والمعاناة[2].

وحتى تتاح إمكانية دراسة اللغة في تنوع وظائفها، وبغية تحديد موقع الوظيفة الشعرية ضمن نظام الوظائف اللغوية الأخرى، كان تقديم «صورة مختصرة» عن «العوامل المكونة لكل سيرورة لسانية ولكل فعل تواصلي لفظي» مطلبا أوليا. ومن البديهي القول إن عمل ياكوبسون يقوم، في تحديده للعناصر المكونة للتواصل ولوظائف اللغة، وإلى حد كبير، على نظرية التواصل كما صيغت سابقا عند شانون Shannon وويفر Weaver[3]. فوضع، انسجاما معها، خطاطة للتواصل الإنساني على النحو الذي سنعرضه أسفله. وهكذا، فإن أي فعل كلامي وأية كل عملية تواصلية يفترضان مرسلا destinateur ومرسلا إليه destinataire، في حين تستوجب الرسالة message الموجهة مرجعا référent تحيل عليه (أي موضوع الخطاب). وقد يكون موضوعُ الخطاب عالمَ الأشياء أو عالمِ الأفكار. كما أن الرسالة لايمكن لها أن تحقق ما لم يسندها سَنَن code (قواعد، لسان) مشترك بين المرسلَ والمرسل إليه. وتحتاج هذه الرسالة إلى قناة فيزيقية canal، أي إلى وسيط يُستخدَم للتبليغ (الصوت، أو الكتابة، أو الإشارات). فهناك إذن عوامل ستة ملازمة لأي تواصل لفظي: مرسل، ومرسل إليه، ورسالة، ومرجع، وسنَن، وقناة. فالمرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه. ولكي تكون الرسالة إجرائية وذات أثر، فإنه ينبغي أن يكون للرسالة سياق contexte (مرجع référent) تحيل عليه، سياق يكون بمقدور المرسَل إليه أن يفهمه، وهو سياق لفظي أو قابل لأن يحوَّل إلى لفظي. كما يجب أن يكون للرسالة سَنَن مشترك بين المرسل والمرسل إليه، اشتراكا كليا أو، على الأقل، جزئيا. وأخيرا، لا بد للرسالة من اتصال contact، أي قناة فيزيقية وربط سيكولوجي بين المرسل والمرسل إليه، وهو اتصال يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه[4]. وبمجرد ما يستعمل المتكلم اللغة، فهو يدمج بشكل آلي «العوامل المختلفة للتواصل اللفظي وغير القابلة للمصادرة»[5].

1 - نفسه. ص 212- 213، وانظر أيضا ياكوبسون 1973.

2 - Yaguello, Marina. p 19

3 - Jakobson Roman (1963), Linguistique et théorie de la communication, in : Essais de linguistique générale, traduit de l'anglais par N. Ruwet, Paris, Minuit

4 - Jakobson (1963), p 213-214

5 - نفسه ص 214.

وقد مثل ياكوبسون لهذه العوامل في الخطاطة التالية:

	السياق	
المرسل	الرسالة	المرسل إليه
	الاتصال	
	السنن	

إن كل ممارسة لسانية، وكل تواصل لفظي يشترط، إذن، تحليل العواملِ المذكورة من حيث تحديد المرسل (المتكلم، الباث، المخاطِب، الكاتب...)، والمرسل إليه (المتلقي، المخاطَب، المستمع، القارئ...)، والرسالة (القول، الخطاب، النص...)، وربط الاتصال بين المرسل والمرسل إليه، وسياق الرسالة (السياق اللساني، سياق المقام، السياق الثقافي...)، والسنَن (اللسان، القواعد..) الذي يتكفل بتفكيك الرسالة.

قلنا سابقا أن الأمر يتعلق بخطاطة فحسب، ولهذه الخطاطة بعد عام، لأن ياكوبسون كان يرمي إلى أن تغطي هذه الخطاطة أنماطا تواصلية أخرى غير اللغة. وتبعا لذلك، فإن الباحثين قد سجلوا عدة مؤاخذات على هذه الخطاطة. وهي مؤاخذات تكاد تشمل كل العوامل والمكونات. صحيح أن عرض ياكوبسون لها قد اتسم بالاختزال والتكثيف والعمومية والانتقائية[1]، فكانت التعريفات سريعة أغفلت جوانب وأبعادا عدة. وربما كان من حسنات ياكوبسون أنه اعتبر، على نحو ضمني، أن حضور كل هذه العوامل ضروري لكي يكون التواصل ناجحا، إذ تنسجُ العلاقات بين الرسالة وباقي العوامل. فتزامن العوامل وتشابكها وربما تحلق كل العوامل حول الرسالة يعد مسألة إجبارية ليستطيع التواصل تحقيق غاياته. ولأن التحديدات التي قدمها ياكوبسون لهذه العوامل لم تكن مكتملة ولا دقيقة، وكذا إغفاله لعوامل أخرى، فإن مشروع خطاطة التواصل يحمل في طياته ما لا يتيح نجاح هذه العملية، أي قدرتها على رفع الالتباس الذي تكثر قنواته وروافده.

وفي هذا السياق، نعرض بعض المآخذ الرئيسة التي سجلها أكثر من باحث:

1 – إغفال تداول الأدوار بين المرسل والمرسل إليه و«التغذية الراجعة» التواصلية[2]؛

2 – عدم الإشارة إلى الكفاءات اللسانية والكفاءات المصاحبة للغة paralinguistiques والكفاءات الإيديولوجية والثقافية والخصائص النفسية التي يتوافر عليها كل من المرسل والمرسل إليه، وكذا عدم أخذ طبيعة العلاقة بين المتكلم والمستمع حال تبادل الأدوار بعين الاعتبار من حيث وجود نظام للحقوق والواجبات والتناوب على الكلام وضرورة التكيف معها[3].

3 – عدم استحضار العلاقات الهرمية والقيم المجتعية، وكذا اعتبار الأداة اللفظية مادة خاما في حين أن تناول الكلمة مرتبط بعوامل عدة منها المظاهر المصاحبة للغة من قبيل الخصوصيات الفردية

1 – فقد وسم وصفه هذا بالوصف السريع. انظر الصفحة 219 من كتابه السالف ذكره.

2 - Orecchioni, K. (1980)

3 - 1980. p 19-23, 1996. p 28-29

في النطق، والنبرات، والحركات والميم والنظرة والهيئة، واللباس، والمساحيق، والحلاقة والانتماء الإثني والسوسيو ثقافي[1].

4 - حاجة مفهوم السياق إلى تمييزات وفروقات إضافية؛ (Orecchioni، نفسه). وكان كل من بايلون Baylon ومينيو Mignot 1991 قد نبها على أن السياق ثلاثة أنواع هي: 1. سياق «المتواصلين» وهو عبارة عن المعطيات الفضائية-الزمانية chronotopiques، ثم السياق اللساني أو الداخلي، فـ«المرجع» أي ما تحيل عليه الرسالة[2].

5 - الحاجة إلى إعادة النظر في مفهوم السنن واستقلاليته في التواصل اللفظي مع استحضار مفهوم الاستنتاج: وتداعياته inférence[3].

6 إعادة النظر في القناة باعتبار التواصل متعدد القنوات ويمر بالضرورة عبر السمع والبصر.

وأخذا في الحسبان مجمل الملاحظات المشار إلى أهمها أعلاه، وضعت الباحثة بياردزكا Biardzka نموذجا مراجعا للتواصل اللفظي قصد قيامها بدراسة الفكاهة، وهو نموذج قد استجاب بإيجابية لمجمل المؤاخذات المثارة، نثبته أسفله[4]:

المرجع
المقام
السياق
التفاعل

المرسل — الرسالة — المرسل إليه

(كفاءاته ومحدداتها) — السنن (كفاءاته ومحدداتها)

الاستنتاج
الاتصال

يتضح لنا أن بالخطاطة إضافات تهم المرسل والمرسل إليه والسنن والسياق. فإلى جانب السنن، يُسند موقع هام إلى الاستنتاجات les inférences، بحيث تقوم علاقة دينامية للـ«تغذية الراجعة» (التفاعل) بين المرسل والمرسل إليه اللذين مُنحا عددا من الكفاءات. وبالنسبة إلى عنصر السياق، فقد أعيدت صياغته ليغدو ثلاثة مكونات: السياق بالصفة التي تجعل منه ضروريا للمرجع ولا يقبل الانفكاك عنه، والمقام (أي المسهمون في الفعل التواصلي وكذا كل عناصر المشهد (الديكور) الحاضرة)، والسياق اللساني السابق للنص الأساس واللاحق به[5].

---

1 - Chabane, Jean Charles. 1999. 35-53 et Orecchioni 1996. p 23.

2 - انظر ص 76 عند: Chabanne, Jean Charles. (1999)

3 - Biardzka, Elżbieta. 2014

4 - مرجع سبق ذكره.

5 - نفسه. ص 39.

لعله قد اتضح، إذن، أن نموذج ياكوبسون نموذج ناقص، لذا اقترحت بدائل تسمح بمقاربة خِطابية جيدة. لكن الجميل في هذه الخطاطة، كما وضعها ياكوبسون، أنها خطاطة غير مغلقة، وإنما هي خطاطة قابلة للتطوير والتكييف. وإذا تأملنا في دلالات هذا البناء الهندسي لأركان التواصل، تأكد لنا أن استحضار هذه العوامل أو هذه المكونات، في الخريطة التواصلية، يدل على أنها تحظى بمقام الشروط والمقومات الضرورية للتواصل عموما وللتواصل اللفظي خصوصا. وتعد هذه «الخطاطة التواصلية» خطاطة لنوعية المنتج اللغوي وصنف النص المراد بناؤه. وبالفعل، فالمرء قد يذهب إلى أبعد من ذلك حينما يقول إن هذه الخطاطة تعرض المادة الأولية لأي خطاب ممكن. ومن شأن التأليفات بين هذه العناصر أن تحدد، أكثر، نوعية المنتج وصنفه.

وانطلاقا من هذه العوامل التي حددها ياكوبسون أو تلك التي أضافها غيره من أجل تأهيلِ التواصل وتمكينه، يبدو أن مفهوم التواصل ذاته بحاجة إلى تشريح وإذن إلى تدقيق. ربما يستدعي ضبطُ الأفكار وتوليدها التمييز داخل التواصل اللغوي بين أطروحتين أو نموذجين: النموذج الكلاسيكي أو النموذج السَّنَني codique والنموذج الاستنتاجي inférentiel. فوفق النموذج السنني، فإن كل متواصل يسنِّن الرسالة بواسطة علامة يقوم المرسل إليه بتفكيكها. بينما يعترض النموذج الاستنتاجي على النموذج الكلاسيكي بإمكان استعمال الجملة الواحدة لتبليغ عدد غير محدد من الرسائل المختلفة التي لا يمكن أن يعاد تركيبها بالتفكيك فقط. ويستنتج من ذلك أن كل نموذج يسند وظائف مختلفة إلى اللغة في مجال التواصل اللساني[1]. إن وظيفة اللغة في التواصل تكمن في توفير مؤشرات خاصة بالمعنى المطلوب، لا القيام بتسنينه[2]. بل إن البعض يذهب إلى أبعد من ذلك، وإلى أبعد مما طرحناه آنفا فيحكم على نموذج ياكوبسون باعتباره نموذجا موضوعا لكائنات بسيطة أي لآلات لا لأشخاص يتسمون بالثراء والتعقيد.

وهكذا، وعلاوة على ما ذُكر أعلاه، قد ينصرف الذهن إلى القول بعدم صلاحية خطاطة التواصل، وكذا الوظائف المترتبة عليها. وقد انضاف إلى التيار الجارف من الباحثين المنتقدين والمتجاوزين لأطروحة ياكوبسون كل من ديلّ هايمز Dell Hymes 1967 وجون كامبرز John Gumperz 1989 وأوستين Austin 1962 وروجر سورل Roger Searle 1969، وهابرماس Habermas 1987 وسبيربر وويلسون Sperber and Wilson 1989 ومدرسة بالو آلطو Palo Alto . فتضافرت الانتقادات والمقاربات المختلفة ليتولد عنها أن التواصل يجب أن ينظر إليه من زاوية علوم الإنسان، أي باعتماد نموذج أكثر ملاءمة، وترك نموذج شانون Shannon لمهندسي التواصل اللاسلكي، والإطاحة بالنموذج «التليغرافي» للتواصل وذلك بدءا من الفترة التي أصبحت فيها اللسانيات تتجاوز الجملة، وأضحت تقارب الخطاب بوصفه فعلا تواصليا[3]. وقد قدم كوينولي فورتان Gwenolé Fortin 2007 الأعمال المختلفة التي أسهمت في تطوير الأفكار والمقاربات المتمحورة حول الفعل التواصلي المستلزم لأشخاص محددين في مواقف معينة، نوجزها أسفله:

1- الأعمال اللسانية التي اتخذت لها من المؤشرات les embrayeurs (خصوصا المبهمات والضمائر)

---

1 - Sperber, Dan et Origgi, Gloria (2005), p 7-8

2 – نفسه. ص 16.

3 - Fortin, Gwenolé (2007). L’approche socio-pragmatique ….. p 115

موضوعا، والتي اتسمت بالتركيز على القول في الموقف القولي (رومان ياكوبسون Roman Jakobson وإيميل بونفينيست Emile Benveniste في سنوات 1960)؛

2- الفلسفة التحليلية والتداولية الأنجلو-ساكسونية التي دشنها أوستين Austin سنة 1960؛

3- الأبحاث التي جرت في حقل التداوليات اللسانية وخاصة منها نظريات الحجاج والاستلزام (جان كلود أنسكامبر Jean-Claude Anscombre و أوزوولد ديكروOswald Ducrot 1980 (أنسكامبر Anscombre وديكرو Ducrot 1995)؛

4- النظريات النفسية-الاجتماعية حول التفاعل التي طورتها على وجه الخصوص مدرسة بالو آلطو Palo Alto، وطورها فيما بعد كوفمان Goffman في سنوات 1970؛

5- وأخيرا، أعمال كامبرز وهايمز حول إثنوغرافيا التواصل (كامبرز Gumperz وهايمز Hymes 1972)[1].

الظاهر أن نموذج ياكوبسون قد أثار من حوله نقاشا يبدو، في ظاهره، تطويرا للعوامل التواصلية وتحليلا لاشتغالها وتفاعلها فيما بينها. إلا أنه نقاش أسهم بحيوية وعمق نظري وعملي في تطوير لا فقط نظرتنا إلى التواصل الحقيقي والواقعي، بل في إرساء وضع statut لتصورنا للنص والخطاب ومختلف أنواع النصوص، كما سنرى أسفله. وقد تأكد لنا، على مستوى العوامل، أن امتلاك إدراك سليم لها من شأنه أن يساعد المرء على استمرار التخطيط للتواصل ومباشرته وتحليله على نحو أفضل. غير أن حصيلة ما عرضناه من أفكار يفضي بنا إلى استنتاجات إضافية تشكل نقطا خلافية، منها: هل يتمحور النموذج على الرسالة، كما هو الحال عند ياكوبسون، أم على عملية نقل الإخبار؟ وهل على النموذج أن يُؤسَّس على قاعدة اللسانيات أم على قاعدة ما هو تقني؟ وهل السَّنَن هو نقطة الانطلاق أم أن الفعل اللغوي هو المبتدأ والمنتهى؟ وهل يمكن إرساء لسانيات أخرى غير لسانيات السَّنَن في صلب اللسانيات البنيوية؟ أليست اللغة أكبر من عملية نقل الرسائل؟ ثم، ألا يسلمنا الانتقال من الجملة، بوصفها وحدة للتواصل وللتحليل، إلى النص والخطاب (الفعل اللغوي)، وإلى وحدات أخرى؟ وما وقع ذلك على مكونات العملية التواصلية؟ هل يقتصر أمر الجمل (والوحدات الأخرى الأكبر منها) على البنينة أم يتجاوزها إلى التأويل؟

ولعل اقتناعنا بأن التواصل مفهوم متعدد الأشكال protéiforme ومتعدد المعاني، فإنه سيحيل لا محالة على علم النفس، والممارسات الاجتماعية، والخطابات العلمية، ووسائل الاتصال، وعمليات التواصل، وعلى مختلف الفاعلين، وعلى المنقول، وعملية النقل... وإذا كان الأمر كذلك، فلا شك أن مقاربة التواصل ستكون مقاربة متعددة التخصصات (أي مقاربة بينية)، ولا شك أن تكون العوامل متنوعة بتنوع الأغراض وتنوع الأشكال التعبيرية المختارة، وهو ما يردم المقاربة التنميطية والمعيارية التي بقدر ما تكثف وتقرب إلى الأذهان بقدر ما تختزل أبعاد التواصل وتشابكها وتعقيدها. غير أن معيار الاستعمال والتداول خليق به أن يبعدنا عن الابتسار وأن يعيدنا إلى «حمام» الحياة.

3- تحديد مفهوم الوظيفة

ربما يكون من الثابت أن الثقافة الحديثة قد أقامت تصورها للسانيات، وكذا تصورها للأدب على مفهوم

1 - المرجع السابق ص 122-123.

«الوظيفة». ولعل مساءلة هذا المفهوم مطلب آني للتأكد مما آل إليه مفهوم اللسانيات وربما مفهوم الأدب. ويجب التذكير، بهذا الصدد، أن مفهوم الوظيفة قد عُد مفهوما رئيسيا في أشغال حلقة براغ اللسانية، لذا اعتبر النقطة المشتركة التي سمحت بإضفاء طابع الهوية والانسجام على الحلقة وذلك في غمرة المهام التي كانت تقوم بها[1]. ولأن مفهوم الوظيفة متعدد المعاني لدى البنيويين، فقد كان يجب ضبط هذا المفهوم وتحديد حمولته الدلالية لتجنيبه هذه التعددية والالتباس الدلالي. ولأن هذا المفهوم بهذه الصفة، فقد استوقف أنظار عدد من الباحثين، فانكبوا عليه تفكيكا وتشريحا وتحديدا Martinet, André ؛François, Denise 1969 ؛Auroux, Sylvain 1990 ؛1969 ؛Guy Achard-Bayle. 2010 ،Christian Puech et alii 1995 ؛Andréé Tabouret Keller 2007-2008 Fontaine, J. 1974. ومع أن دونيز فرانسوا Denise François قد اعتبرت أن مفهوم الوظيفة «يمنحنا معيارا صالحا على كل مستويات اللغة»[2]، فقد حرص عدد من اللسانيين على ضبط المقاصد، مما جعل أهم اهتمامات اللسانيين تنصرف إلى الكشف عن تعددية معاني الوظيفة، ذلك أن استعمالات هذا المصطلح قد كانت متفاوتة الدقة[3]، حتى إننا نكاد نجزم بأن كل لساني قد كان يُعِد استعمالا لهذه اللفظة خاصا به. وقد نبه كاي Guy، على وجه الخصوص، على المفهوم الأصلي أو المفهومين الأصليين الرائجين في حلقة براغ اللسانية، ليذكر أن 1. للغة وظيفة أو وظيفتين، أي أنها تستخدم للقيام بشيء أو أشياء مختلفة؛ 2. اللغة تتكون من عناصر قد تكون لها وظائف أو قد لا تكون لها.[4] أما أندري مارتيني André Martinet فقد تأسف لكون الاستعمالات المتباينة لكلمة الوظيفة لم تحظ بعد بإجماع عام عليها[5]، وأشار، في موضع آخر، إلى أن مفهوم الوظيفة يحيل، في الأغلب، على «الدور» و«النشاط النافع» لا على المعنى الرياضي للفظة القاضي بالعلاقة الوظيفية بين س و ز. كما لاحظ مارتيني Martinet أن، في المقاربة النظرية للسانيات، تنوعا في استعمالات هذه اللفظة بحيث إننا لا نميز الوظيفة المعنية، متوقفا عند معنيين: أحدهما هو دور الشيء أو سلوكه أو جدواه، وهو ما توافقت عليه الجمعية الدولية للسانيات الوظيفية. وثانيهما، هو مفهوم النحو التقليدي للوظيفة الذي يحيل على دور الكلمة في الجملة، منبها على خطر استعمال «الوظيفة» بالمفهوم الرياضي للكلمة[6]. كما ميز بيير سويكرز Pierre Swiggers ، من جهته، بين الوظيفة باعتبارها «مبدأ مكونا بنائيا»، والوظيفة باعتبارها «مسطرة فعلية»[7]. ولم يفت هاليداي Halliday 2004، وبانكز Banks a2005، أن يشيرا إلى أن، لكلمة «وظيفي»، معنيين في اللسانيات النسقية الوظيفية. فاللسانيات وظيفية بمعنيين، أحدهما داخلي والثاني خارجي. فإذا كانت الوظيفية الداخلية تتعلق بالطريقة التي تشتغل بها جميع المكونات المختلفة للغة من أجل تكوين المعنى، فإن الوظيفة الخارجية تخص الطريقة التي تشتغل بها اللغة في وضعية اجتماعية من أجل توليد المعنى. فالمقاربة، إذن، مقاربة دلالية واجتماعية. فهي دلالية لأن

1 - Guy Achard-Bayle. 2010.

2 - Linguistique: guide alphabétique, sous la direction de Martinet, André, Denoël, 1969. p 106.

3 - Martinet, A. (1969) Fonctions du langage et linguistique appliquée. p 9.

4 - Guy Achard-Bayle (2010), p 433.

5 - «Les fondements d'une syntaxe fonctionnelle, traduction de «The Foundations of a Functional Syntax» 1964, in: Marche Romane, Université de Liège, cahiers de l'Association des Romanistes de l'Université de Liège. Tome XXII, 1972. p 103.

6 - Martnet, A. Alfa, Sâo Paulo, 38: 11-18, 1994.

7 - Swiggers, P. (1984). «Le Cercle Linguistique de Prague et les courants structuralistes. A propos de la notion de «fonction»», in Stangé-Zhirovova et Rubes (1984), 69-103.

الكل متمركز على تكوّن المعنى، وهي اجتماعية لأن كل شيء يتموقع في وضعية اجتماعية خاصة[1]. وقد أسهم كريستيان بويش وآخرون Christian Puech et alii في هذا التحديد بنصهم على أن الوظيفة هي «من جهة، هدف التواصل، لأن اللسان وسيلة من أجل غاية»، ... كما أنها تعتبر كل ما يسمح بتمييز الدلائل أو مكونات الدليل في النسق اللساني: ذلك أن الأمر يتعلق بمبدإ الملاءمة»، ومن جهة ثالثة، فإن الوظيفة تعني ... التكيف التطوري للنسق العام للسان مع حاجيات متكلمي الجماعة اللسانية»[2].

فمن أي معنى يصدر مفهوم الوظيفة عند ياكوبسون؟ خاصة ونحن نعلم أنه عندما يتعلق الأمر بوظائف اللغة، فإن مفاهيم الوظيفة تقترن بتفاوت بالمعنى المتداول: الدور، والنشاط المجدي[3]. ولأن ياكوبسون أحد أعمدة اللسانيات الوظيفية، فلا شك أنه يستعمل مفهوم الوظيفة بالمعنى المتداول في اللسانيات الوظيفية وفق التصور الذي يربط مفهوم الوظيفة بمفهوم البنية بالنظر إلى أن الوظيفة هي سبب وجود البنية وتطورها[4].

4- وظائف اللغة في اللسانيات[5]

بدهي أن الحديث عن وظيفة أو ظائف اللغة ليس حديثا جديدا، فقد سبق لكل الحضارات والثقافات أن ربطت اللغة بالتفاهم والتعبير عن الفكر وتمثيله وتحقيق الأغراض المنشودة. وفي هذا السياق، فإن نظرية ياكوبسون (1963) حول وظائف اللغة لا تعد إلا نظرية من النظريات التي آلت على نفسها كشف خبايا اللغة والوقوف على بنياتها، والنظرية التي نالت شهرة وجدالا واسعين واهتماما كبيرا واخترقتها تداعيات وانتظارات واجتهادات علمية عديدة ومختلفة. لقد انشغل العديد من الباحثين بفكرة تحليل الكيفية التي يستعمل بها البشر اللغة، وانخرط في استجلاء هذه المسألة علماء من مواقع معرفية مختلفة: من الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، واللسانيات، والتربية، والمنطق.

نحاول، في ما سيأتي، أن نستحضر أهم الأفكار التي أسهمت في بلورة تصور ياكوبسون الخاص بوظائف اللغة. وسنقصر حديثنا، هنا، على إسهامين أساسيين كان لهما وقع بيّن في ما عرضه ياكوبسون. ويتعلق الأمر بكل من مالينوفسكي Malinowski، وبوهلر Bühler اللذين قاربا وظائف اللغة من منطلقين مختلفين. وربما يكون إسهامهما قد أعان ياكوبسون على الوقوف على تعقيد وظائف اللغة وبنياتها. لكن أمر الاستعانة بهما قد يكون حكم على ياكوبسون في يزج بنفسه في منطق المعيرة والتقييس في وضع علمي تعرف فيه الكثير من العلوم التكامل المعرفي.

لقد كان للسانيات الأنثروبولوجية، من خلال مالينوفسكي Malinowski، أثرها القوي في ربط الوظائف بالواقع العملي المتمثل، عنده، في حسن الإصغاء وربط الأقوال والأفعال بسياقاتها بغية تحقيق

1 - David Banks, La Linguistique Systémique Fonctionnelle : Une approche sémantique et sociale.

2 - 1995, « Structuralisme», in Encyclopaedia Universalis, 21, 666c

3 - Francois, D. 1969. p 103.

4 - Francois, D. 1969. p 106.

5 - Alice aux pays du langage. Paris. Le Seuil.

انظر: عرضي لوظائف اللغة مدين إلى حد ما لـ (1981) Marina Yaguello.

غاية الفهم. وربما تتمثل الخلاصة الكبرى، في هذا الباب، في علاقة السياق (سياق التخاطب: وهو عبارة عن مجموع الشروط المباشرة والقابلة للإدراك، والسياق اللساني: وهو يتضمن الإشارة، والصوت، والميم) الحميمية بالنص وتشكيله، وبدور السياق في تكوين المعنى وهندسته. والمتأمل في مشروعه النظري، يجد أن المقام قد كان حاضرا بقوة وبارزا في ظلال الكلام. بحيث إنه تحدث عن «الوظيفة التداولية»، مسندا إليها السرد والفعل. ملاحظا، من جهة أخرى، أن الكلمة تُشحن بالثقافة العميقة، من حيث وقعها ومن حيث التاريخ، لأن الدلالة لا تتشكل ملامحها إلا بالعوائد والطقوس المتمثلة في القيم والأفكار والتمثلات، أي من خلال «سياق الواقع الثقافي». وتسمى هذه الوظيفة هنا بـ«الوظيفة السحرية»[1].

وبذلك، فالوظيفة الأساسية للغة ليست التعبير عن الفكر ولا إعادة إنتاج نشاط الفكر، بل إن وظيفتها تكمن، على العكس من ذلك، في قيامها بدور تداولي نشيط في السلوك الإنساني... فالكلمات تسهم في الفعل وتعتبر أفعالا بذاتها»، والكلام البشري يُعد بمثابة نوع من أنواع الفعل بدل أن يكون استنساخا للفكر[2]. وفي هذا الكلام تشديد على أن اللغة أداة فعل وعمل داخل المجتمع. ولم يكن بد من أن يحدد مالينوفسكي، تبعا لذلك، ثلاثة أنواع من السياقات: السياق اللغوي، والسياق الموقفي والسياق الثقافي، وهي سياقات مسؤولة عن دلالة الكلمة.

أما عند بوهلر Bühler، الذي ميز داخل نظرية اللغة بين نموذج أداتي للغة (فعل الكلام) ونموذج بنيوي لها (بنية لسانية)[3]، فقد خص اللغة، بما أن لها صلات بالفرد والارتقاء بشخصيته، بثلاث وظائف هي: الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية، والوظيفة الإفهامية أو وظيفة النداء، والوظيفة التمثيلية، ويرتبط بكل وظيفة ضمير: ضمير المتكلم، وضمير المخاطب، وضمير الغائب. وهي وظائف تقوم على الإنجاز performance، لذا اعتبر سيزالي Cesalli وظيفية بوهلر وظيفية إنجازية[4]، وتبقى الوظيفة التمثيلية هي الوظيفة الأساسية للغة، والوظيفة التي يشدد على استقلاليتها[5]. ووتتسم هذه الوظائف الثلاث بكونها مرتبة وتراتبية فيما بينها[6].

إذا نحن استحضرنا ملابسات مفهوم الوظيفة عند الوظيفيين، والوضع المعرفي المتنوع لوظيفة اللغة، يحق لنا أن نتساءل: بأي وضع معرفي وتاريخي عرض ياكوبسون وظائفه؟ وما مدى استيعاب هذا الوضع

1 – انظر: The problem of meaning, pp 306, 307.

2 - The problem of meaning, p 312 and Coral Gardens, p 242.

3 - Bühler, 1938 : 196.

4 - Cesalli, L. (2008), «Faire sens. La sémantique pragmatique d'Anton Marty (1847-1914)», Revue de philosophie et de théologie 140, 13-28.

5 – نقلا عن: Bühler (1909), p 964-965.

6 - Cesalli, L. (2009), Zweck vs. Leistung: les deux fonctionnalismes de Marty et de Bühler.
- Rousseau, André, «L'éclectisme intellectuel et linguistique de Karl Bühler: de l'axiomatique aux sciences cognitives». Les dossiers de HEL (Suppléant électronique à la revue Histoire Epistémologie Linguistique, Paris, SHESL, 2004, n°. 2.
http://htl.linguist.jussieu.fr/dosHEL.htm

لوظائف اللغة؟ وما مدى حضور الخلفيات الفكرية التي أسندتها، والنقاش الفكري الذي ولدها، وما مدى انسجامها مع عوامل التواصل المعروضة في اختلافها وتنوعها أعلاه؟

ونحن نسائل ونتساءل، يجمل بنا، مرة أخرى، أن نثير الانتباه إلى أن ياكوبسون ينطلق، في تحديده للوظائف، من موقع الشعرية، باعتبارها نشاطا لسانيا، أي أن منطلق تفكيره قد كان من موقع الشعرية أي اللغة في وظيفتها الشعرية. مثلما نثير الانتباه إلى أن الباحث ينظر إلى الوظائف من منظور لساني ووفق معايير لسانية. ومن جهة ثالثة، يتعين علينا أن نعرف أن اللغة، قال بذلك أم لم يقله، ليست فقط أداة للتوصل وللتفاهم المتبادل، لأننا قد نتكلم لنتواصل، كما قد نتكلم لنضلل بعضنا البعض، أو لنفرض سلطتنا أو رأينا، أو لنجعل الآخرين منصاعين لما نرغب فيه، أي أن اللغة قد تكون أداة للتواصل، وقد تكون أداة لبسط النفوذ أو للخداع أو مجالا للتلذذ وللانتشاء. غير أن السؤال المُعَلَّق، كيفما كان تعدد الأغراض والمقاصد، يهم كيفية تجسيد هذه الوظائف وتحقيقها في مختلف الممارسات اللغوية المرتبطة بمختلف المقامات. ويبقى أن نضيف إلى كل ذلك أن ياكوبسون ينطلق، في تصوره هذا، من تعدد المقامات، وتعدد الرسائل وتنوعها، وثراء التجاذبات بين الناس، واختلاف الأغراض، وإن كان كل ذلك محكوما بالتفاعل والتداخل والتراتب.

ينطوي عرض ياكوبسون للوظائف على منطلقين: منطلق تقليدي ومنطلق تجديدي. فأما المنطلق التقليدي فهو يتضمن الوظائف التي أشار إليها بوهلر Bühler، فيما تعد الوظائف المتبقية وظائف تجديدية.

لقد رأى ياكوبسون أن كل عامل من عوامل التواصل السالف ذكرها يولد وظيفة لسانية مختلفة. وبما أنه حصر ستة عوامل، فسنكون أمام ست وظائف لسانية: الوظيفة التعبيرية expressive أو الانفعالية émotive (المركزة على المرسل)، والوظيفة الإفهامية conative أو التحفيزية (المركزة على المرسل إليه) والوظيفة المرجعية référentielle (المركزة على المرجع)، والوظيفة الإنتباهية phatique (المركزة على القناة)، والوظيفة الميتالسانية métalinguistique (أو الوظيفة الواصفة للغة) (المركزة على السَّنَن)، والوظيفة الشعرية poétique (المركزة على الرسالة)[1].

ونحن نعرض أهم شروح ياكوبسون لكل وظيفة من الوظائف، يتعين علينا أن نأخذ في الحسبان مجموعة من الاعتبارات منها:

1- لا تُعَرَّف هذه الوظائف إلا من خلال معايير لسانية في ما زعمه ياكوبسون.
2- تجيب وظائف اللغة التي حددها ياكوبسون عن الأسئلة التالية: من يتكلم؟؛ مع من يتكلم؟؛ ولماذا يتكلم؟؛ وماذا يقول؟؛ وكيف يقول ما يقوله؟؛ وماذا يقصد؟، وكيف يربط أطراف الكلام؟
3- لا تتم صياغة الرسالة على الوجه الأكمل ما لم تسهم فيها كل الوظائف إسهاما رئيسيا أو ثانويا.
4- يحتوي النص أو الخطاب على بنيات لسانية مختلفة تنسج في ما بينها علاقات تراتبية.

1 - Jakobson, p 214.

ونحن نهم بعرض وظائف اللغة، يعترضنا سؤال لا يقل أهمية عما سبقه، سؤال يمكننا صياغته على النحو التالي: هل من دلالة لترتيب ياكوبسون للعوامل المؤسسة للعملية التواصلية؟ وهل من دلالة لترتيب ياكوبسون لهذه الوظائف بالطريقة التي رتبها بها؟ وبعبارة أخرى، هل للبدء بالوظيفة التعبيرية دلالة ما معينة؟ هل لها ولغيرها ما يفسر رتبتها بنيويا ونشوئيا؟ أم أن الترتيب لا يعدو أن يكون اعتباطيا؟ لا نعتقد أن الإجابة سهلة وبسيطة النتائج. قد نذهب إلى أن الوظيفة التعبيرية قد تكون الوظيفة الأولى لأنها تؤكد الذات ووجودها وتميز الإنسان عن باقي كائنات الكون، وتجعله يحس بذاته وأناه. لكنها، في ذات الوقت، تعبير عن قلقه وفكره وكينونته وإخبار بحاله وموقفه. إنها لحظة الوعي الأولى بالذات المتكلمة عن نفسها وعن غيرها. وإذا نحن تأملنا في الرتبة التي أسندت إلى الوظيفة الشعرية لقلنا هل معنى ذلك أنها الوظيفة الأكثر تعقيدا والتباسا وربما تكثيفا لغيرها من الوظائف؟ أم أنها الوظيفة الأخيرة في مسلسل درجات الوظائف من حيث الرمزية؟ أليست الوظيفة الشعرية قرينة الوظيفة السحرية، وإذن الوظيفة الأولى في مسلسل ظهور الوظائف أو في وضع خريطة قدراته؟ هل تسبيق وظيفة على أخرى مرده عامل نشوئي أم عامل بنيوي؟ وهل تقوم وظيفة ما على ظهور سابق لوظيفة أخرى؟ وهلا كانت الوظيفة الأصلية للغة هي التواصلية (الإخبارية أو الإفهامية)، وهل يعني ذلك أن الوظائف الأخرى ثانوية كما زعم، مرة، مارتيني[1] ؟

ومهما يكن من أمر، فإن في ترتيب وظائف اللغة وفي الشكل الهندسي الذي وُضِعت به ما يثير أكثر من سؤال. ربما يعود ترتيب الوظائف إلى الترتيب الذي أعطي لعناصر عملية التواصل. ومن الطبيعي أن تنسحب أسئلتنا هذه على العوامل نفسها: لِمَ وكيف رُتِّبَت بالطريقة التي رُتِّبَت بها؟

ومهما يكن من أمر، فإن الفعل البشري، ومنه هذا الصنيع، يحتاج إلى تفسير، إذ من غير المقبول أن تُعرض الأشياء دون أن تخضع لدلالة وقصد معينين. ومنجهة أخرى، هل تستنفد هذه الوظائف كل طاقات اللغة، أي هل هذه هي كل وظائف اللغة، أم أن هناك وظائف أخرى يمكن استخراجها وإيجاد حيز لها في الهندسة التي اقترحها ياكوبسون؟ سنعرض، أولا، الوظائف التي أثبتها ياكوبسون لنعود إلى مناقشة طريقة عرضها لاحقا عسانا نكون قد استجلينا بعض الخبايا.

	المرجعية	
الانفعالية	الشعرية	الإفهامية
	الانتباهية	
	الميتالسانية	

أ- الوظيفة التعبيرية expressive أو الانفعالية émotive

وهي وظيفة تركز على المرسل وضمير المتكلم «أنا»، أي الوظيفة التي تعبر عن موقفه وعن حالته النفسية تجاه ما يتحدث عنه، وتعبر عن أفكاره، ورغباته، وانفعاله الصادق أو الكاذب أو المموه. وإذن، فإن المرسل يتغيا، بهذه الوظيفة، تعريفنا بحالته سواء أكانت هذه الحالة حقيقية أم خيالية، وهو يظهر،

1 - Martinet, p 12.

بالفعل، ما يحس به وما يفكر فيه. ولتبليغ كل ذلك، تعتمد هذه الوظيفة على المستويات الصوتية والنحوية والمعجمية. فالأصوات ملامح انفعالية إضافية إلى ملامحها التمييزية، وهذه الملامح الانفعالية تـحتوي على إخبار عن المتكلم (كأن تقول جئت البارحة، البارحة جئت متعبا، مشددا على مكون من المكونات). كما يمكن للمتكلم أن يعبر، عبر استحضاره لكلمات وتغييبه لأخرى، عن كفاءته اللغوية وحظوة ما معينة. وقد اعتدنا أن نعبر، عن هذه الوظيفة، بصيغ التعجب interjections. وقد حاول ياكوبسون أن يبرهن على أن لهذه التعابير خصوصيات صوتية وتركيبية، مبرزا أن هذه الوظيفة تلون كلامنا على المستويات الصوتية والتركيبية والمعجمية. فهي تستعمل عناصر لسانية مسننة، مثل تطويل مصوت حال قولنا: جاااااء الرجل، والمصوت، هنا، مجرد وحدة تعبيرية لا فونيما. وقد يحق لنا أن نتساءل عن الوضع اللساني لهذه الأدوات التعبيرية الانفعالية، خاصة إذا علمنا أن مسرحيا كان يؤدي أربعين رسالة مختلفة بترداده عبارة «هذا المساء» وذلك من خلال تلوينات تعبيرية يضفيها على تلك العبارة. وفي كل الأحوال، فإن ل هذه التلوينات الانفعالية، وهي طريقة في الأداء، قد بنينت رسائل مختلفة، حتى كادت طريقة القول تصبح هي القول ذاته[1].

قد يقودنا ذلك إلى نوع من الالتباس: هل التلوينات الانفعالية ترتبط بالرسالة أم بتحقيقها؟ ولعل في هذا الطرح ما قد يفسد علينا الفصل بين الوظائف. فطريقة القول الانفعالية قد تكون ذات صبغة جمالية أو شعرية، كما أن شكل الرسالة قد يكون هو الرسالة ذاتها.

ومن زاوية أخرى، أثارت هذه الوظيفة جدالا يخص تسميتها. فقد فضل البعض تسميتها بالوظيفة التعبيرية على تسميتها بالوظيفة الانفعالية، لأن «الانفعالية» قد تُفهم بمعناها العادي المشير إلى عاطفة بشرية علاوة على أن كل رسالة، بما فيها الرسالة الأكثر برودة، تظهر شرط مرسلها[2]. ومن جهة ثانية، وباستحضارنا مفهوم القرينة indice، فيما رأى راستييه Rastier، فإنه يمكننا أن نتحدث عن الوظيفة العرضية (العرضي: من الأعراض) أو القرينية بدل الحديث عن الوظيفة التعبيرية، بحيث «تتأسس التمثلات الأساسية المعاصرة للوظائف اللسانية وفق نموذج الدليل كما قدمه كارل بوهلر Karl Bühler. فالدليل يشتغل كدليل بفضل علاقاته مع المرسل والمتلقي والمرجع. وبالنسبة إلى كل قطب من هذه الأقطاب، فإن الدليل ينتسب إلى نمط سيميوطيقي مختلف: إنه عرض (قرينة) بالنسبة إلى المرسل، وعلامة بالنسبة إلى المتلقي ورمز بالنسبة إلى المرجع». وكل إنتاج هو إنتاج قريني (وظيفة تعبيرية) بالنظر إلى المنتج، وكل إنتاج علامي وظيفته (وظيفة إفهامية) بالنظر إلى المتلقي. ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن الإنتاج قريني كذلك لحالة العوامل الأخرى ولتمثلها لدى منتج الرسالة، بوعي أو بدونه، وعن حق أو عن باطل.[3]

كما أن العلاقة بين الوظيفة التعبيرية والوظيفة الإفهامية قد تلتبس أو تشحب، إذ يحدث تناسب تام بين الذات والرسالة يُمثَّل له مثلا في الصرخة العفوية المعبرة عن ألم. فهي ، في آن واحد، «موجهة» إلى المتلقي، ومقترنة بالمرسل.

1 - P., 214-215.

2 - Klinkenberg (1996), p. 53

3 - Rastier, 1989, p 43.

وفيما يخص علاقة الذات بالشعرية، فإن الكتابة الذاتية أو المركزة على الذات قد تتداخل مع الكتابة الشعرية، أي أن الوظيفتين الانفعالية والشعرية قد تتقاطعان. وهو تقاطع تتقاسمه معها الوظيفة الإفهامية لأن التعبير عن الانفعالات من شأنه أن يؤثر في المرسل إليه أملا في أن يتصرف وفق ما يتوخاه المرسل. هذه الوظيفة الإفهامية قد تتعايش معها وظيفة شعرية جمالية. فلنتخيل حوارا بين اثنين يحاول المتكلم فيه إخضاع المخاطب للقيام بعمل ما، فيقول له ضمن ما يقول: إنك إن لم تفعل ذلك تكون كمن يحفر قبره بأسنانه.

ب- الوظيفة الإفهامية conative أو التحفيزية

أما الوظيفة الإفهامية، فهي تشدد على المرسل إليه مستعملة ضمير المخاطب في المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث. وهي تستهدف تحقيق نتيجة، وأثرا، وتحض على الفعل، وتحدث لدى المتلقي رد فعل لفظي (جوابا عن سؤال، مثلا) أو رد فعل نفسي (ولادة رغبة أو نصيحة) أو رد فعل مادي (سلوكا يتخذه). و تجد هذه الوظيفة تعبيرها النحوي في فعل الأمر impératif وفي النداء vocatif اللذين يختلفان، من الزاوية التركيبية والصرفية وفي الغالب من الزاوية الفونيمية، عن باقي المقولات الاسمية والفعلية. ذلك أن جملة الأمر تختلف عن الجملة الخبرية، إذ تخضع الجمل الخبرية لاختبار الصدق والكذب، فيما لا تخضع جمل الأمر لذلك. وتستخدم هذه الصيغ، كما هو معلوم، لإقامة علاقة بين المرسل والمرسل إليه، علاقة تداولية خارجة عن نطاق القول. ويمكن للمخاطب أن يكون واقعيا أو متخيلا. وارتباطا بهذه الخاصية، تعود الصيغ الدينية والسحرية والصلاة إلى الوظيفة الانتباهية أو التحفيزية. وقد يعني ذلك أن للكلام شكلَ فعل، وسلطة. وتستدعي الوظيفية الإفهامية هاته صنفا من الأفعال: الأفعال التي تتخذ معناها من الفعل الذي مارسه المرسل على المرسل إليه. كما يدخل ضمن نطاق هذه الوظيفة كل ما يغير أو يرمي إلى تغيير الواقع أو الكائنات[1].

غير أن توجيه الخطاب إلى المرسل إليه قد يدل على أكثر من الإفهام والتفهيم، كما أن صيغ الأمر قد تأخذ تلوينات متعددة تصل إلى التعنيف والتهديد، فيتخذ الخطاب صيغا مختلفة، ويبنى بناءات متعددة. إن السعي إلى تغيير حالة المتكلم، حالته المعرفية (معرفته للكائنات والأشياء)، أو حالته العاطفية (أحاسيسه وانفعالاته)، أو استعداداته للقيام بالفعل ذاته. وهو ما يطلق عليه Léon Festinger «التواصل الأداتي» (الإشهار والدعاية).

ج- الوظيفة المرجعية référentielle أو الوظيفة التعيينية dénotative أو الوظيفة المعرفية cognitive

وهي تركز على ضمير الغائب، وتحيل على الموضوع المتحدث عنه، أو على السياق أي المظهر اللغوي الإخباري الصرف. وبالفعل، فإننا نقدم إشارات حول حالات نصفها أو نذكرها على الأقل. والأقوال المرجعية هي الأقوال القائمة على قيمة ذات فائدة: إنها حاملة لإخبار فقط (المكتوب على علامات المرور: «طريق منعرجة»، تلغراف، نصوص عملية أو تقنية). غير أن الوظيفة المرجعية لاتحيل فقط على مرجع حقيقي (واقعي)، وإنما تحيل أيضا على مرجع خيالي أو مفهومي، وتعطينا انطباعا بأننا نحاكي «الواقع»

1 - Jakobson . p 216.

و«العالم الخارجي». وعليه، فهي عبارة عن «مشاكلة للواقع vraisemblable» على حد تعبير رولان بارت Roland Barthes. إذ يمكننا أن نبني عالما خياليا انطلاقا من عالمنا الواقعي (الحديث عن كوكب ما وعن نمط الحياة فيه.. مثلا). هكذا، يصبح المرجع لا معادلا لموضوع واقعي، بل معادلا لموضوع معرف. ولعل المرجعية قد أصبحت ذات طبيعة أدبية. إذ يمكن للوظيفة السحرية أن تقوم مقام الوظيفة المرجعية وإن تحول ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب[1]. وفي ذلك إشارة إلى أن لعبة الضمائر قد تكون مضللة، فوجودها ليس محددا للوظائف، إنه مجرد مؤشر، والمؤشر غير يقيني.

ومن بداهة القول أن تكون الوظيفة المرجعية، وفق هذا التحديد، ملتبسة، لأن المرجع، هنا، قد يعني الأشياء الخارجية، أو السياق اللغوي، أو المقام، كما أشير إلى ذلك أعلاه. وكان ياكوبسون[2] قد أشار إلى أن السياق هو «ما نسميه أيضا، في منظومة مصطلحية غامضة إلى حد ما، بـ«المرجع»، علاوة على أنه قد يكون لفظيا أو قابلا لأن يكون لفظيا، بالإضافة إلى أنه يعني «ما نتحدث عنه»[3]. لكن الحديث عن المرجع قد يكون بطرق مختلفة. وفي ذلك إشارة إلى أن الوظيفة المرجعية تتقاطع أحيانا كثيرة مع وظائف أخرى، فالإخبار ليس دائما محايدا. وعليه فالوظيفة المرجعية تقول أشياء أخرى غير الذي تقوله. ومع ذلك، أصر الباحث على أن يسمي هذه الوظيفة بالوظيفة المرجعية دونما تفصيل للقول فيها.

وما قد يزيد طين التحليل بلة التباسات أخرى مواكبة. ذلك أن الرسالة كلما تكلمت عن نفسها وأحالت على نفسها، قلما تتكلم عن المرجع وتحيل عليه، فيتوارى المرجع تواريا متفاوتا، ويترتب على ذلك الغموض ما قد يجعلنا نقول بأنه في مقابل رسالة ذات معنى مزدوج هناك مرسل مزدوج، ومرسل إليه مزدوج، بل وأيضا مرجع مزدوج. وهو ما يفيد بأن هيمنة الوظيفة الشعرية على الوظيفة المرجعية، كما يرى ياكوبسون[4]، لا تقضي على المرجع، أو على التعيين (la dénotation).

لكن، ما طبيعة المرجع وما مدى حضوره، ومستويات هذا الحضور؟ هل يغيب؟ أم أن المرجع مراجع متعددة، قد تبرز وقد تخفت؟ عادة ما يشار إلى أنه عبارة عن ظلال. ومفاد هذا الكلام أن المرجع يبقى حاضرا في الشعرية، وإنْ بملامح باهتة أو غامضة. لكن من المعلوم، أيضا، أن يكون للرسالة، أحيانا، أكثر من مرجع.

د- الوظيفة الانتباهية phatique

وهي وظيفة سبق لمالينوفسكي Malinovski أن تحدث عنها. وتحث الوظيفة الانتباهية أو وظيفة الاتصال والاحتكاك المتخاطبين على الحفاظ على حبل الاتصال واستمراريته. وبذلك، فهي تركز على القناة، وتطفو حينما يكون هدف الرسالة إقامة التواصل أو تحديده أو مراقبته. فنحن نوجه الكلام إلى شخص لنطلب منه القيام بأمر ما، سواء أتعلق الأمر باستعلام معبر عنه صراحة أم ضمنا. وبذلك،

1 - نفسه . ص 216-217.

2 - نفسه. ص 213.

3 - نفسه. ص 216.

4 - نفسه. ص 238-239.

تحرص هذه الوظيفة على استمرار التواصل «الأكوستيكي» acoustique بين المرسل والمرسل إليه وعلى السير العادي لقناة التواصل. هكذا يشتمل التواصل المعتمد على الهاتف، مثلا، على صيغ لا وظيفة لها سوى التأكد من أن دورة الكلام خالية من أي خلل. («آلو، أتسمعني»، «نعم أسمعك جيدا»، «هممم، هممم..») («أتفهم؟»، «اسمع جيدا»، «أتدرك ما أريد قوله»).[1] ولا غرو في أن يكون لهذه الوظيفة وقع كبير لأننا محكومون بالكلام في مجتمعنا ما دام الامتناع عن الكلام في حالات عدة يعتبر موقفا عدائيا أو موقفا لا يُشعر بالاطمئنان. إننا ننتج، بفضل تعابير لسانية، نوعا من المتعة بالإحساس بأننا لسنا وحدنا وبأن مواصلة التبادل مع عدد من المستمعين إشعار منا جميعا باللحمة الاجتماعية والعاطفية والشعورية التي تجمعنا. ويمكننا أن نذكر، هنا، حوار العشاق، والرسائل القصيرة عبر الهاتف المحمول والفايسبوك وتويتر وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي. وتتميز هذه الوظيفة بكونها الوظيفة اللفظية الأولى التي يكتسبها الأطفال، وهي مؤشر لدى الأطفال على النزوع إلى التواصل. وفضلا عن ذلك، فهي تقوم على صيغ طقوسية[2]. ولعل في ما ذكره ياكوبسون، هنا، ما يضفي على هذه الوظيفة صبغة العفوية، مثلها في ذلك مثل صيغ التعجب، وما يرتقي بها إلى مصاف السلطة الروحية التي تشد الناس إلى بعضهم البعض تحقيقا لأغراض نفسية-اجتماعية ورمزية ووجودية وربما ميتافيزيقية.

هـ- الوظيفة الميتالسانية métalinguistique

تمتلك اللغة، من بين كل الأنساق السيميولوجية، سلطة الحديث عن نفسها إذ تتخذ من نفسها موضوعا. والوظيفة الميتالسانية هي الوظيفة الوحيدة التي لا يمكن أن توجد بمعزل عن اللسان، وعن اللغة. إنها التركيز على السنن (اللسان، القواعد). وترمي إلى استعمال اللغة من أجل الحصول على السنن وتحليله والتأكد من السنن المستعمل. وتلعب هذه الوظيفة دورا كبيرا إيجابيا في اكتساب واستخدام لسان ما. ذلك أنه بدون تفسيرات ميتالسانية يعجز الطفل عن تعلم لغته، كما نعجز عن تحديد معان كلمات جديدة أو أجنبية[3]، وهي، أيضا، عبارة عن اختيار أسلوبي، اختيار كلمة مناسبة ملائمة (الكلمات المتقاطعة.. المترادفات... الأضداد.. المشترك اللفظي : المثلثات..إلخ..). ولا ينبغي أن يذهب الظن بنا إلى أن اللغة الواصفة le métalangage لغة المختصين لأن التأمل في اللغة قد يكون مشتركا بيننا جميعا مهما كانت مستوياتنا الفكرية. إذ تقوم اللغة الواصفة بدور هام في اللغة المتداولة. فنحن أشبه ما نكون بالسيد جوردان Jourdain عند الكاتب الفرنسي الساخر موليير Molière الذي يقول النثر دون أن يدري، فنلجأ إلى توجيه أسئلة من هذا القبيل إلى المخاطب: «لا أفهم ماذا تقصد؟، أتفهم ما أريد قوله؟، ما معنى كلمة «العين» هنا؟». وقد أشار ياكوبسون إلى ذلك، مثلما أشار إلى أن عملية تعلم اللغة واكتسابها من قبل الطفل عادة ما تستلزم عمليات ميتالسانية مماثلة[4].

1 – نفسه، ص 217.

2 – نفسه، نفس الصفحة.

3 – نفسه، ص 218

4 – نفسه، ص 217–218.

وفي نقاش الوظيفة الواصفة للغة، اعتبر راستييه Rastier[1] أن النص ينتج في الواقع عن تفاعل ثلاثة أنساق: اللهجة: le dialecte (نظام اللغة) واللغية الاجتماعية le sociolecte (الاستعمال الخاص للهجة خاصة بممارسة اجتماعية محددة والتي يناسبها خطاب مبنين إلى أنواع أو أجناس) وl'idiolecte (استعمال لغة ولغية اجتماعية خاص بكاتب معين). وبذلك، تُعمم الوظيفة الواصفة للغة لتصبح ميتاسَنَنِية أو ميتا نظامية métasystémique، وهو ما يسمح بأخذ الرسائل غير اللسانية بعين الاعتبار.

ومن الواضح أن هناك نوعا من التداخل الدقيق بين الوظيفة المرجعية والوظيفة الميتالسانية، وهو أمر أوحى به ياكوبسون حين حديثه عن تمييز المنطق بين مستويين لغويين هما: «اللغة-الشيء» langage و«اللغة الواصفة» أو «الميتالغة» métalangage. والأدهى من ذلك أن تتوافق الوظيفة الميتالسانية مع الوظيفة الشعرية أو لنقل إنها قد توظف لخدمة الوظيفة الشعرية كما هو الحال في ما يسميه البلاغيون العرب بالكتابة عن موصوف: «القمر هو الكوكب المضيء ليلا». صحيح، إذن، أن الميتالغة تعتمد على وحدات متعادلة (متساوية) (أ=أ) عبر تأليف تعابير في جملة واحدة. إلا أن ياكوبسون يرى أن هناك فرقا بين الميتالغة والشعر: ففي الميتالغة يستخدم التعبير لبناء معادلة، بينما في الشعر فالمعادلة هي التي تستخدم لبناء التعبير[2].

و- الوظيفة الشعرية poétique

وهي الوظيفة التي تشدد على الرسالة ذاتها والمركزة على الدال والمنظمة له، إنها «الوظيفة البلاغية» fonction réthorique أو «الوظيفة النصية» fonction textuelle. فالجملة «أنت زجاج يتكسر في دماغي» تعكس الأهمية الموكولة إلى موضوع التبادل «الذي يجهد المرسل نفسه من أجل ضمان عدد ما من خاصياته الداخلية، وذلك باستقلالية عن المساعي التي يمكنه أن يحققها..»[3].

إن الوظيفة الشعرية ليست وظيفة الفن الوحيدة، ولا توجد في الشعر فقط. إنها ليست سوى العامل المهيمن في البنية. ومؤدى هذا الكلام أن الوظائف الأخرى ليس محكوما عليها بالغياب في النصوص الأدبية، وإنما هي تقوم بدور تابع ولاحق، تماما كما هو الحال بالنسبة للوظيفة الشعرية في الأنواع اللسانية الأخرى التي تلعب فيها دورا تابعا ولاحقا (الشعار السياسي، الإشهار...). وإذن، فهناك تراتبية في الوظائف تشغل الوظيفة الشعرية فيها، في الأعمال الأدبية، قمة الهرم. فالشعر الملحمي، المركز على ضمير الغائب يوظف بشكل كبير الوظيفة المرجعية، أما الشعر الغنائي، المتجه نحو ضمير المتكلم، فهو شديد الارتباط بالوظيفة الانفعالية، والشعر المركز على ضمير المخاطب موسوم بالوظيفة الانتباهية[4].

ويكمن المعيار اللساني للتعرف على الوظيفة الشعرية في نمطين أساسين للترتيب المستعمل في السلوك الكلامي: الانتقاء Séléction والتأليف combinaison. فالتكلم يستلزم انتقاء (اختيار) بعض الكيانات اللسانية وتأليفها في وحداث لسانية ذات درجة عليا من التعقيد. وهذا يظهر على المستوى المعجمي: إذ يختار المتكلم الكلمات ويؤلفها في جمل تبعا للنسق التركيبي للسان الذي يستعمله. ومن المعلوم أن الانتقاء

1 - (1989). p 49-50, (1994) p 222 et 224

2 - Jakobson. p 222.

3 - Baylon & Mignot, p 78.

4 - 1963, p 218-219.

يتسم بالغياب ويتعلق بالكيانات المترابطة في لسان ما لا في الرسالة المحققة، بينما يتسم التأليف بالحضور، وتكون الكيانات مترابطة في الرسالة المحققة. فلنفترض أن موضوع رسالة ما هو الأب، فإن المتكلم يقوم بعملية انتقاء من بين مجموعة من الكلمات الموجودة والمتباينة التشابه كـ «الوالد، ورب الأسرة، ومعيل الأسرة...، ولكي يركب المرء جملة يقوم بعملية انتقائية أخرى من بين الأفعال المتشابهة دلاليا: (يؤنب، يعنف، يرشد، ينصح). وتتألف الكلمتان المختارتان في سلسلة كلامية. إن الانتقاء ناتج إذن عن قاعدة التعادل équivalence والترادف synonymic والتعارض opposition. أما التأليف فهو يعتمد على المجاورة contiguïté. وعليه، فالوظيفة الشعرية تُسقِط مبدأ تعادل محور الانتقاء على محور التأليف. وهكذا، يصبح التعادل عملية تكوينية لسلسلة الكلام. ويمنحُ تقريب المشابهة من المجاورة الشعرَ ماهيته الرمزية والمعقدة والمتعددة الدلالة[1].

إن الوظيفة الشعرية هي خلق معادلة أخرى للغة. من هنا يبدأ التناقض بين الوظيفة الشعرية والوظيفة المرجعية، وتبدأ العلاقة المعقدة بين الوظيفة الشعرية والمرجع. ومما لاشك فيه أن الوظيفة الشعرية تمتاز بالبروز على حساب المرجع، إلا أن هذا البروز وهذا التفوق لايلغيان المرجع بل يجعلانه غامضا. فالدال اللساني لا يُنْسى في الوظيفة الشعرية لصالح المدلول. وهذا يعني شيئين اثنين متلازمين، أولا: الانتقال من الوظيفة التواصلية المرجعية إلى الوظيفة الشعرية، وثانيا: استعادة الكلمات لطاقتها الرمزية وتحررها من الدلالة الحرفية. فالقصيدة الشعرية تتموضع في الحدود الفاصلة بين الكلمة والشيء، والمكتوب يصبح هو الشيء أي أنه يحيل على ذاته. ومن ثمة، تستعيد المادة الصوتية طاقاتها على حساب الدلالة. ومؤدي هذا الكلام أن العلاقة بين الدال والمدلول تتخلخل وتتراخى لصالح الدال، و أن الدال لم يعد ذلك العنصر الشفاف الناقل للمعنى، فتأليف الأصوات (طريقة تأليفها وتكرارها) وتوازنها، والأساليب البلاغية، وطرق تركيب النص، كل ذلك يفقد الكلمات مدلولاتها المباشرة الأحادية. وإذن، فالدال لم يعد يحمل معنى واحدا، ولم يعد يحيل على معنى واحد بل على معان متعددة. إننا ننتقل من المعنى التصريحي dénotation إلى المعنى الإيحائي connotation أو من اللغة التصريحية إلى اللغة الإيحائية.

في مجال الوظيفة الشعرية، وحين تتراخى العلاقة بين الدال والمدلول، فإن الكلمة تنفتح على عالم الصور التي تتوارد لتملأها. هكذا ينفتح عالم اللغة على عالم غير لغوي، وهو انفتاح على الرؤيا وعلى الرغبة، وانفتاح على إمكانيات أخرى في التأليف وفي الانتقاء. وهكذا، يصبح الدليل غير ما كان عليه كأنه يتحول من وحدة لا تنفصم وضرورية بين الدال والمدلول إلى طرفين حرين مستقل أحدهما عن الآخر، فتصبح الدلالة في العمل الأدبي غيرها في العمل الذي تنتفي فيه الخاصية الأدبية، فهي ليست ما تعنيه كلمة ما أو ما تصرح به. بل هي عالم الصور الذي تثيره فينا، عالم الصور المبنين على مستويات عدة: الصوتية والصرفية والتركيبة والمعجمية والدلالية.

إن الوظيفة الشعرية، إذن، هدم للمسافة الفاصلة والضيقة بين الخطاب العادي وموضوعه، إنها توسيع لهذه المسافة وتمديد لها، وكلما بعدت المسافة بين الخطاب وموضوعه، كلما تخلص الدليل من إساره المرجعي الأحادي وانغمس في إعادة بناء وتركيب متجانسين لهذا المرجع، لأن تنظيم الدال عبر المماثلة بين

1 – نفسه. ص 220–221.

الأصوات وبين القوافي وبين التنغيم والإيقاع يعرض مدلولا آخر ينضاف إلى المدلولات الأخرى. إن انفكاك الدليل، مرة أخرى، من الإسار المرجعي، من قبضة الأشياء يعني تحرير الخزينة الذهنية للإنسان، تحرير اللاوعي الجماعي بكافة الرموز التي يختزنها، ويعني تدفق الرمزية المختزلة والمكثفة وانسيابها في تأليف الدلائل اللسانية فيما بينها، مسافة أخرى تفصل العمل الإبداعي عن الإطار المرجعي المباشر وتفتح أمام الناقد ضرورة استحضار الأسطورة لمعالجة النص الأدبي.

قد ينصرف ذهننا إلى أن وظائف اللغة تنعم بنوع من التوازن. والحال أن التوازن المفترض يتعرض للاختراق والاختلال فتهيمن وظيفة معينة على باقي الوظائف. فليس من الأكيد أن تكون كل الوظائف وكل العوامل متموقعة على المستوى التحليلي نفسه. فالوظيفة الشعرية، خاصة، يمكنها أن تتموقع، ولو جزئيا، على مستوى ثان، باعتبارها مستفيدة من بعض تغييرات التوازن الوظيفي، خاصة إذا كانت هذه التغييرات موسومة[1]. وفي هذه الحالة، فإن الوظيفة الشعرية، من جهة، والوظائف الأخرى، من جهة ثانية، سترتبط بينهما علاقة غير سيمترية تسمى تضايفا مرتفعا corrélation haussière: ذلك أن ارتفاع قوة الوظيفة الشعرية يتأتى من انتقاص أو ارتفاع دال وخاص لقوة كل وظيفة لغوية أخرى، غير أن العكس ليس صحيحا بالضرورة (مثلا، الوظيفة الانفعالية لا تصبح بالضرورة أكثر قوة إذا ما ارتفعت قوة الوظيفة الشعرية). ومن الصعب أن نفكر ألا يثير إبراز أو تنقيص موسوم لوظيفة، على الأقل في بعض الحالات، الانتباه إلى الرسالة ذاتها.

5- في هندسة الوظائف

حاولنا، إذن، أن نعرض عرضا نقديا وظائف اللغة عند ياكوبسون والإشكالات التي رافقتها، محاولين، جهد الإمكان، تقديم أهم الرؤى التي رافقت مسيرة نظرية الوظائف ومعاودات النظر فيها وفيتداعياتها. وقد تبين لنا أن بنيتها وهندستها ما تزالان تخضعان لاهتزازات. ونلخص أهم سمات هذه النظرية في ما يلي:

1- لا تكاد تشكل هذه الوظائف بنية متراصة المكونات ونظاما محكما.
2- تتسم الوظائف بالتعايش بل إنها تكون عرضة للتداخل والتقاطع.
3- تعاني الوظائف من هشاشة الحدود الفاصلة بينها: قيام الوظيفة الواحدة بدور الوظيفة الأخرى: تبادل المواقع.
4- لا يعني ترتيب عرضها أية أفضلية نشوئية أو نسقية، وبذلك فهندستها ما تزال موضوع نقاش ساخن.
5- تعاني هذه الوظائف من تغييرات «التوازن الوظيفي».
6- قدمت الوظائف نفسها باعتبارها قائمة علي معايير لسانية، لكن هل تعكس كل وظيفة من الوظائف بنية لسانية معينة تامة العناصر، أم أن ما طُرِح لا يعدو أن يكون ملامح أولى غير مكتملة. وما مدى وضوح المعايير اللسانية.

1 - Klinkenberg. 1996. p 58.

هذه السمات تضفي نوعا من الالتباس على الوظائف، وتكاد تفقدها شرعيتها. بل إن الأمر قد ذهب بالبعض إلى التساؤل عن مدى تعدد الوظائف وتمايزها عن بعضها البعض، ومدى تفاعلها[1] ، ويلاحظ بخصوص التفاعل الأول بين الوظيفة أن كل إخبار – وظيفة مرجعية– يغير مخزون معارف المتلقي، لذا يمكننا إذن القول بأنه يؤثر عليه: فهو بذلك وظيفة إفهامية. مثلما لوحظ أن هناك العديد من الإخبارات المزعومة التي تفضي في النهاية إلى انتهاج سلوك: سقوط الأحجار ليس الهدف منه إخبار السائق بل أساسا دفعه إلى اتخاذ موقف»[2]، ثم يشير إلى الوظيفة الواقعية والوظيفة الظاهرة أي الوظيفة الإفهامية والوظيفة المرجعية.

ونحن نستعرض الوظائف والنقاش الثري الذي دار حولها ومس قضايا لسانية كبرى نظرية ومنهجية، استوقفتنا موضوعات عدة متناثرة هنا وهناك، مضمرة أو جلية منها: التنوع، والقصد، والاستعمال، والتراتبية، والمعنى التصريحي والمعنى الإيحائي، والقرينة، والرمز، والأسطورة، والخطاب، والنص، والبلاغة بمقوماتها، والبنية والنشوء ... وما إلى ذلك من المفاهيم. فإلى أي حد ساهمت هذه المفاهيم في إجلاء نظرية الوظائف والكشف عن اشتغالها، أو إلى أي حد أربكتها وشوشت عليها؟ لا يسعنا هنا إلا أن نطرح إشكاليات أخرى أثارها عدد من الباحثين.

منها، أولا، هل استنفد ياكوبسون الوظائف اللغوية، ومن ثمة ما موقع الوظيفة السردية التي عدها برنارد فيكتوري Bernard Victorri أساس بروز اللغة وظهورها (1999)، وما موقع الوظيفية الإقناعية، والوظيفة التضليلية؟ والوظيفة البلاغية أو الجمالية، إذا نحن اقتصرنا على هذه الوظائف فحسب؟ ولعلي أريد أن أشير، من خلال ذلك، إلى التسميات العديدة للعوامل والوظائف التي اقترحت وتنافست ومدى التشويش المفهومي المنتشر. وغالبا ما وُسِمَت هذه الوظائف باعتبارها «الوظائف الأساس»، وهو ما قد يعني إمكان إضافة وظائف أخرى.

ومنها، ثانيا، أن ياكوبسون حاول أن يستدل على أن تحليله للوظائف قائم على معايير لسانية. إلا أن المعايير، فيما يبدو، قد تنوعت وتعددت لأنها استحضرت عوامل لسانية واجتماعية ونفسية، مثلما استحضر آخرون عوامل من طبيعة أخرى. وقد كانت تلك المعايير متكأ لترتيب الوظائف وإرساء هرمية وظيفية. وفي هذا الإطار، رأى أركان Arcand وبوربو Bourbeau أن معيار التصنيف الهرمي هو القصدية (وفق أي قصد تم نقل هذه الرسالة؟)[3]. وإذا أضفنا إلى ذلك أن وظيفة معينة قد تقدح زناد وظيفة أخرى، فتكون وظيفة معينة وسيلة لوظيفة تشكل الغاية[4] قد ندرك لماذا تعددت معايير التصنيف. وربما كانت المعايير اللغوية التي بثها ياكوبسون في ثنايا الوظائف أو الرسائل الموجهة بالوظائف معايير تحتاج إلى الكثير من الضبط والتحديد. ويتعلق الأمر، هنا، بالمراوحة بين التحديد اللساني للوظيفة والتحديد القصدي. ربما تكون الوظيفة الشعرية قد تميزت بتحديد أكبر وأوفر، فيما ظلت الوظائف الأخرى هلامية التحديد اللساني على الرغم من بث بعض المفاهيم اللسانية هنا وهناك[5].

1 - Klinkenberg, p 61.

2 – نفسه. ص 61– 62.

3 - Arcand, R et N. Bourbeau (1995), p 27-35.

4 - Hebert, Louis (2011) p 2-3.

5 – انظر: Dominicy, Marc (1982) La poétique de Jakobson

ومنها، ثالثا، أن الهرمية النسقية بين الوظائف قد تفضي إلى ألا وجود لمساواة بينها لا في البنية ولا في الاستخدام. ولعل ذلك هو ما حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار الوظائف التعبيرية والمرجعية والإفهامية وظائف أساسية، فيما لا تعد الوظائف الميتالسانية والانتباهية والشعرية وظائف ممارسة للهيمنة، بل قد تكون مساعدة، بمعنى أن وظيفة معينة قد تستخدمها وظيفة أخرى أو تفَعِّلُها تفعيلا زائدا عن الحد من أجل غاية جمالية، بحيث تكون، مثلا، الوظيفة الشعرية غاية والوظيفة الانتباهية وسيلة[1].

ومنها، رابعا، أن الوظائف تكون بحسب السياق. فما قد يؤدي وظيفة شعرية في وضع لا يؤديها في وضع آخر، وما قد يؤدي وظيفة ميتالسانية في موقف قد لا يؤديها في موقف آخر. ومفاد ذلك أن الوظيفة قد تتحكم فيها السياقات والشروط المعرفية والتاريخية والاجتماعية والنفسية.

وإذا أضفنا هذه الملاحظات إلى ما سبق ذكره، تبدى لنا أن موضوع الوظائف بقدر ما فتح الأعين على استعمالات اللغة وكشف عن تعدد البنيات اللغوية وغير اللغوية وتداولها في النصوص والخطابات في سياقات ومقامات متنوعة، بقدر ما أثار من مشاكل نظرية وعملية ذات مرجعيات مختلفة. وسيكون من الواضح أن تكون لهذا الصنيع انعكاسات على مستوى تصورنا للغة واستعمالاتها. وبالفعل، فقد تأتى إرساء المقاربة السوسيو- تداولية التي أحدثت قطيعة مع القاربة التقعيدية canonique في التواصل.

6- الوظائف وأجناس النصوص

أشرنا، أعلاه، إلى أن الخوض في الوظائف قد كانت له انعكاسات مباشرة على مستوى فهم اللغة واشتغالها (اشتغالاتها) ومقاربتها (مقارباتها)، وهو ما أدى إلى مراجعة شاملة للممارسة اللغوية ومقاربتها الشمولية. ومن ثمة بروز نظريات عديدة كان همها الأول يكمن في تطوير «لسانيات الكلام» وإرسائها على أسس علمية وووضعها في المكانة العلمية الجديرة بها. وإذا جاز لنا أن نلخص أهم الأفكار التي أعطت للبحث اللساني وضعا جديدا مع مختلف أصناف التداوليات les pragmatiques، في الحقبة التي تلت سوسير، لذكرنا ما يلي:

1- التبني المتدرج للمفهوم «الإمبريقي» للغة وللنتائج النظرية والعملية المترتبة عليه؛
2- تأكيد طبيعة التنوع في اللغة مع بيان مختلف أبعاده وقابلية اللغة التعبير عن هذا التنوع؛
3- بيان أن اللغة بنيات لا بنية واحدة، وهي بنيات مطاطة تستوعب كل الأغراض والحساسيات. وبذلك، فهي جاهزة للاستعمال وفقها ووفق الممكن منها (العوالم الممكنة)؛
4- ومن ثمة، بيان إمكان تعدد استعمالات اللغة المفتوح، أي أن الاستعمالات غير نمطية وغير معيارية، في خطيتها وتراتبيتها، وفي تعددية «مناطقها»؛
5- معالجة اللغة في تمظهراتها الأكثر واقعية: أي من خلال النص والخطاب بدل الجملة؛

شكلت هذه الأسس نبراس ثورة لسانية واكبت إنتاج مختلف أصناف «الكلام» عبر الإمكانات العديدة الموضوعة رهن إشارة المتكلمين وفقا لاستراتيجياتهم الكلامية ذلك أن الإنسان قادر على إنتاج (هنا والآن

1 - Arcand, R et N. Bourbeau (1995) .p 27, et p 35.

وهناك وغدا) أقوالا عديدة ممكنة وبطرق مختلفة. وفق هذا المنوال، يتسنى لنا إبراز الطرق المختلفة الواقعية والممكنة التي يستعمل بها البشر اللغة.

لقد أتاحت نظرية الوظائف وما أثارته من أفكار الفرصة لتوظيف مختلف حصائل التطور الفكري اللساني. فقد أمكن لحضور الوظائف أو غيابها أن يوظفا بغاية تمييز الوحدات بل أيضا تمييز فئات الوحدات وأنواعها (الأنواع النصية). إن مجرد ذكر الوظائف بل وتصنيفها يقدم خدمة لـ«تحليل» النصوص، ويؤسس، ضمنا، لنظرية «النص»، خاصة وأن النص يضم عدة وظائف تأتلف أو تتراكب على أن تحدد طبيعته أو طبيعة الرسالة باعتماد الوظيفة المهيمنة. وقد كان التمييز الأول بين النص الأدبي والنص غير الأدبي. وكان من اللازم تحليل مقومات الأدبية وتمييزها عن «المقومات غير الأدبية»، ثم فحص «المقومات غير الأدبية». فكان أول تصنيف للنصوص يقوم على العناصر وعلى الوظائف. وإذا قلنا إن العناصر والوظائف محددة لطبيعة النص، فمعنى ذلك أنها تسمح بتخصيص النصوص المختلفة وتمييزها، إذ يبدو أن لكل نص أشكالا لغوية تخصه وبناء خاصا يعرفه. وباعتماد ذلك، توزعت النصوص بين السردية والوصفية والإقناعية والتفسيرية أو الديداكتيكية والتعبيرية والتوصيفية والبلاغية والحوارية. وبطبيعة الحال، فإن وظائف ياكوبسون تستوعب هذه النصوص. ومن نافلة القول أن يكون النص الواحد متعددا، وفي هذه الحالة ينبغي تحديد النوع النصي المهيمن. وانطلاقا من هذه الأسس، بدأ البحث في «النحو» الملائم للنص أو الأنحاء الملائمة للنصوص.

لقد أدى النقاش حول الوظائف ونسقيتها إلى إبراز وحدات أكبر من الجملة، أي ظهور مفهومي الخطاب والنص، أو ظهور لسانيات الخطاب ولسانيات النص. وربما يصح القول بأننا انتقلنا من الوظائف إلى إرساء اللسانيات باعتبارها علما للنصوص. وقد توازى هذا الأمر مع تقويض النموذج التواصلي التليغرافي على يد ثلة من اللسانيين من بينهم إيميل بنفينيست وأوستين وأنسكومبر وديكرو وجماعة بالو آلطو وكامبرز وهايمز وغيرهم الذين أصبح معهم التواصل مرادفا للفعل. لقد قدم القول énoncé نفسه باعتباره نصا، والنص منتج أو بناء لغوي يتخذ شكل نوع، والنوع هو الذي يخصص اللغة. ومن ثمة، فإن دراسة الأنواع يجب أن تصبح مهمة أولية بالنسبة إلى اللسانيات[1]. وإذا صح أن التواصل تواصلات (جمع لا مفرد) أو أنماطا، فإن النصوص أنواع أيضا تتمتع بتنظيم خاص، وذات طابع مموقع situé[2]، أي أنه بناء لغوي في إطار ممارسة اجتماعية. وبمعنى آخر، فإن المقام يبدو محدِّدا للنص. وبالنظر إلى اختلاف إسناد النوع إلى النص أو إلى الخطاب، فإن الأمر يتعلق مرة بالبعد الشكلي، ويتعلق ثانية بشروط الإنتاج.

هكذا، انتشر خطاب لساني جديد واكتسح اللسانيات الصورية مستجمعا كل الروافد المتنوعة. يتصل الأمر بتوجهات لسانية تتشكل من لسانيات القول ولسانيات الخطاب واللسانيات التداولية، هي لسانيات تؤسس، إلى جانب غيرها، لسانيات التعدد والتنوع على أكثر من مستوى. وتكمن أهمية ياكوبسون في أنه حاول التنظير لوظائف اللغة مع ربط هذه الوظائف بالبنيات اللغوية المتعددة داخل اللغة الواحدة مع التدليل على أن الوظائف تُنظَّم بصيغة هرمية إذ تتقدم الوظائف الأخرى وظيفة معينة. غير أن قضايا عديدة

1 - Rastier, Arts et Sciences du texte. p 230

2 - Bronckart, Jean-Paul (2008); p 41

ظلت تشكو من النقص: منها أن الوظيفية لم تسع ولن تسع لمختلف تداعيات نظرية الوظائف التي أكدت أن اللغة قد كشفت أن ذات بنيات فرعية على مختلف المستويات، وأن اللغة محكومة بشروط مختلفة داخلية وخارجية، وأن الاستعمال هو القمين بإظهار قدرات اللغة ووظائفها. وفي الحقيقة، فإن حديث ياكوبسون عن الوظائف قد كان حديثا وبحثا أوليا في الخطاب والنص أتيحت الفرصة لتناوله من قبل باحثين آخرين، وبمقاربات تسد النقص الحاصل في التراث البنيوي ومنه شقه الوظيفي.

خاتمة

لقد حاولنا، في هذه المقالة، الوقوف على تحديدات مفهوم التواصل والوظيفة والاستعمال والتعدد والتنوع من خلال معالجتنا لوظائف اللغة. وقد تبين لنا أن هذه المفاهيم تحمل، في آن واحد، تناقضاتها وشروط اكتمالها. فقد برهنت كل الأبحاث المنشغلة بهذه المفاهيم، في مختلف حقول المعرفة اللسانية، على ضعف تسييج المفهوم، وربما صعوبة تسييجه بالنظر إلى تعدد المقاربات والانطلاق من الفهم الإمبريقي للغة. ومع أن مفهوم التواصل ألصق بالحياة وتداعياتها فإنه قد عولج باعتباره مفهوما مبسطا وتقنويا، واستنكف المرء عن أن يراه شفافا وثاخنا، في الآن ذاته. ويصدق نفس الشيء على مفاهيم الرسالة والمرسل والمرسل إليه والسَّنن والقناة والمرجع، مثلما يصدق على مختلف الوظائف. بل إن بنيات النص اللسانية تبدو، من منطلق ياكوبسون، ذات ملامح باهتة. لذا، يتبدى لنا أنها مفاهيم لا تطابق واقع الحال والممكن معا.

لقد تأكد لنا أن النظرية، وهي تبني نفسها، ما إن تطور مفهوما حتى تفتح فيه ثغرات وثقوبا، وهي ثغرات وثقوب لا تكون عنوانا على الضعف بل هي عنوان على التقدم. فقد شكلت هذه المفاهيم فرصة للتقدم المعرفي والضبط الإبيستيمولوجي. ولعل ما عرفته السوسيو- تداوليات من تقدم يبرهن على صحة ما نذهب إليه، فقد ساهمت نظرية ياكوبسون حول الوظائف في بث الحياة في اللسانيات وربطها بمختلف الذكاءات والعوالم الممكنة.

المراجع والمصادر

- Andrée Tabouret-Keller, (2007-2008) Contextos XXV-XXVI/49-52 (pags. 123-133). ISSN: 0212.6192.
- Anscombre, Jean-Claude et Ducrot, Oswald (1995), L'argumentation dans la langue, Liège: Philosophie et langage, Mardaga, p 184.
- Arcand, R et N. Bourbeau (1995) La communication efficace. De l'intention aux moyens d'expression, Anjou (Québec), CEC.
- Auroux, Sylvain (1990): Encyclopédie philosophique universelle, vol. II, tomes 1 et 2. Paris, Presses universitaires de France.
- Austin, John Langshaw (1970), Quand dire, c'est faire, Paris: Seuil, p 183.
- Baylon Christian & Mignot, Xavier (1991), Communication, Paris, Nathan
- Benveniste, E. 1966-1977 : Les problèmes de linguistique générale, 2 tomes, Gallimard, Paris.

- Biardzka, Elżbieta et Partyka, Ewa (2013) « l'humour comme altérité communicationnelle: de la définition à la typologie» Echos des Etudes Romanes Volume IX Num 1.

- Biardzka, Elżbieta, (2014) «Humour communicationnel sexué dans les dialogues de cinéma», [w:] Discours rapporté, genre(s) et médias, dir. Françoise Sullet-Nylander, Malin Roitman, Juan-Manuel Lopez-Muñoz, Sophie Marnette et Laurence Rosier, Stockholm, Stockholm University,, s. 105-116. - Bibliogr. („Romanica Stokholmiensia» ; XX)

- Bronckart, Jean-Paul (2008) Genres de textes, types de discours et «degrés de langue» in: Texto! Janvier 2008. Vol. XIII. N° 1.

- Buhler, K. (1938). «Der dritte Hauptsatz der Sprachtheorie. Anschauung und Begriff im Sprechverkehr», Onzième Congrès Internationale de Psychologie, Paris 1937. Rapports et Comptes Rendus, Paris, 196-203

- Cesalli, L. (2008), «Faire sens. La sémantique pragmatique d'Anton Marty (1847-1914)», Revue de philosophie et de théologie 140, 13-28

- Cesalli, L. (2009), Zweck vs. Leistung: les deux fonctionnalismes de Marty et de Buhler. Verbum XXXI, 2009, n°. 1-2

- Chabanne, Jean-Charles (1999), Verbal, paraverbal et non-verbal dans l'interaction verbale humoristique, in: J.-M. Dufays, L. Rosier (dir.), Approche du discours comique, actes de la journée d'étude Adiscom-Cothum, direction. J.-M. Dufays et L. Rosier, coll. «Philosophie et langage», Bruxelles, Mardaga, p. 35-53.

- Dominicy, Marc (1982) La poétique de Jakobson.in: Dierickx,J. (ed) Initiation à la Linguistique Contemporaine III. Université Libre de Bruxelles.

- Fontaine, J. (1974). Le cercle linguistique de Prague. Paris (?) : Marne.

- François, Denise (1969): «Fonctions du langage», in Martinet, 103-110.

- François, Denise. (1969) Linguistique: guide alphabétique, sous la direction de Martinet, André, Denoël, .

- Goffman, Erving (1973), La mise en scène de la vie quotidienne. Vol. 1. La présentation de soi, Paris: Minuit, 251 p.

- Gumperz, John & Hymes, Dell (1972), Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, New York: Holt, Rinehart and Winston, 598 p.

- Gumperz, John (1989), Engager la conversation, introduction à la sociolinguistique interactionnelle, Paris : Minuit, 185 p.

- Hébert, l. (2011) les fonctions du langage. In: Louis Hébert (dir), Signo (en ligne), Rimouski(Québec) http://www.signosemio.com/jakobson/fonctions-du-langage.asp.

- Hymes, Dell (1967), «Models of the interaction of language and social life», in McNamara (dir.), Problems of Bilingualism, Journal of Social Issues, XXIII, 2, pp. 35-71.

- Jakobson, Roman (1963), Linguistique et théorie de la communication, in : Essais de linguistique générale, traduit de l'anglais par N. Ruwet, Paris, Minuit.

- Kerbrat-Orecchioni, Catherine (1980), L'Enonciation. De la subjectivité dans le langage, Paris : Armand Colin, 290 p.

- Kerbrat-Orecchioni, Catherine (1980), L'énonciation. De la subjectivité dans le langage, Paris, Armand Colin.

- Kerbrat-Orecchioni, Catherine (1996), La conversation, Paris, Seuil.

- Kerbrat-Orecchioni, Catherine (1998) La notion d'interaction en linguistique : origine, apports, bilan In: Langue française. N°117,. p 51-67.

- Kerbrat-Orecchioni, Catherine (2001), Les actes de langage dans le discours. Théorie et fonctionnement. «Quand dire, c'est faire : un travail de synthèse sur la pragmatique conversationnelle, Paris : Nathan Université, p 200.

- Klinkenberg, J-M (1996). Précis de sémiotique générale. Paris. Seuil

- Martinet, André, (1964) «Les fondements d'une syntaxe fonctionnelle' traduction de «The Foundations of a Functional Syntax», in: Marche Romane, Université de Liège, cahiers de l'Association des Romanistes de l'Université de Liège. Tome XXII, 1972.

- Martinet, André (dir.) (1969): La linguistique. Guide alphabétique. Paris, Denoël

- Martinet, André (1969) Fonctions du langage et linguistique appliquée. In: Communication et Langage N° 1.

- Puech, Christian et alii, 1995, «Structuralisme», in Encyclopaedia Universalis, 21, 666c

- Rastier, François (1989) Sens et Textualité. Paris. Hachette.

- Rastier, François (2001) Arts et sciences du texte. Paris. PUF.

- Rousseau, André, (2004) «L'éclectisme intellectuel et linguistique de Karl Bühler: de l'axiomatique aux sciences cognitives». Les dossiers de HEL (Suppléant électronique a la revue Histoire Epistémologie Linguistique, Paris, SHESL n°. 2.

- Searle, John Roger (1972), Les Actes de langage, Essai de philosophie du langage. Paris : Herman, «Savoir», 261 p.

- Shannon, Claude (1948), «A mathematical theory of communication», in Bell System Technical Journal, vol. 27, p 379-423.

- Shannon, Claude et Weaver, Warren (1949), The Mathematical Theory of Communication, Urbana, Illinois: University of Illinois Press, p 148.

- Sperber, Dan et Origgi, Gloria (2005) Qu'est-ce que la pragmatique peut apporter à l'étude de l'évolution du langage» in: Jean-Marie Hombert (ed). L'origine de l'homme du langage et des langues. Paris, Fayard, p 236-253.

- Swiggers, P. (1984). «Le Cercle Linguistique de Prague et les courants structuralistes. A propos de la notion de 'fonction'», in Stangé-Zhirovova et Rubes (1984), 69-103. http://htl.linguist.jussieu.fr/dosHEL.htm

- Bernard Victorri (1999) La place de la fonction narrative dans l'émergence du langage et la structure des langues in: Théorie, Littérature, Enseignement, 17.

نحو مقاربة مُثْلى للتواصل والفهم

محمد بلبول[1]

نتوخى في هذه المقالة تسجيل بعض الملاحظات التي نأمل أن تساعد، مستقبلا، في المساهمة في توضيح مفهومي «تواصل» و«الفهم» واضعين في خلفية الصورة نظرة نظامنا التعليمي إلى تدريس اللغة العربية واللغات الحية. وتبدو لنا أهمية التوضيح نابعة من مقتضى مُفاده أن الحديث عن التواصل غالبا ما يتم بمعزل عن الفهم. وفضلا عن هذا، فإن أي عملية بناء محتوى نظري لهذا المفهوم (ونعني به التواصل) تستلزم تحليل كيفية اشتغال بعض التقابلات التي تحدد تصور المؤسسة المدرسية للغة وللمعرفة وللتجربة الإنسانية التي تحثّ المؤسسةُ التعليمية والتربوية المتعلمَ على الانخراط فيها بما يتلاءم ومؤهلاته ويستجيب لانتظاراته. على هذا الأساس ارتأينا، على المستوى المنهجي، أن نقارب إشكالية التواصل في التعليم من خلال فحص ثنائيتين:

- اللغة/ التواصل
- التواصل/ الفهم

آملين أن نفتح مسالك كفيلة بأن تدفعنا إلى التفكير في قضايا اللغة والتواصل والتعليم بمنظور يستلهم تصورات علمية جديدة (بالنسبة لوضعنا المعرفي الراهن) ورؤى مستقبلية لما يجب أن يكون عليه التعليم في عالم لا تعوزه وسائل الاتصال والتواصل بقدر ما يفتقر إلى منظور أخلاقي للفهم، على المؤسسات الأكاديمية والتربوية أن تجعله من أولويات اهتماماتها في سبيل الخروج من النزعة الاختزالية التي تفصل إشكالية التواصل عن عمقها الفكري والفلسفي الذي بدونه تصبح الإشكالية مجرد مسألة تقنية.

1 – اللغة/ التواصل

تقترن اللغة بالتواصل في البراديكَم العلمي والبيداغوجي السائد. هذه حقيقة تكشف عنها الأدبيات والممارسة التعليمية لا في المغرب فحسب، بل في جل الدول. كيف لا والهدف الأول والأخير لتعلم اللغة هو بلوغ كفاية تواصلية تباينت النظريات في تحديد طبيعة الملكة المؤدية إلى حصولها، هل هي المعرفة النحوية أم المعرفة الثقافية والموسوعية أم أنها حاصل تفاعل ملكات متنوعة؟

أُقترحت إجابات عديدة عن هذا الإشكال لسنا معنيين، في هذا المقام؛ بالإحاطة بدقائقها؛ لكن هذا لن يعفينا من الإشارة، ولو باقتضاب، إلى أبرز الأفكار التي حددت، في العقود الأخيرة، مسار البحث

---

1 – أستاذ اللسانيات/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة محمد الخامس/ الرباط.

التطبيقي في قضايا اللغات والتواصل. يمكن القول وبإيجاز شديد أن هناك تصورين لما يصطلح على تسميته بالقدرة التواصلية: تصور أول، يستلهم نظرية الأفعال اللغوية، لا يقيم تعارضا بين المعرفة اللسانية النحوية والمعرفة التداولية ويعتبر النظام اللساني نظاما وظيفيا بالأساس، مُبَنْيَنا لتأدية وظيفة التواصل الذي يتحقق عبر الأفعال اللغوية القصدية[1]، وهي أربعة أنماط: (أ) أفعال قولية (Utterance acts)، (ب) أفعال قضوية (Propositional acts)، (ج) أفعال في القول (Illocutionary acts) وهي المعتمدة في التمييز بين الأفعال اللغوية؛ وآخرها (د)أفعال التأثير بالقول (Perlocutionary acts)[2]. ويستتبع هذا أن البحث التداولي بحثٌ في الخصائص اللسانية البنيوية- الوظيفية، وليس بحثا في خصائص مقامية خارجية، خصوصا عند جون سورل. يذهب الموقف الثاني إلى أن القدرة اللغوية تتضمن ثلاثة مكونات مهيكلة سلميا، وهي: المكون اللساني ويمدنا بالمعرفة اللسانية الخالصة، المستقلة عن السياق؛ والمكون الاجتماعي-اللساني الذي يحدد البراميترات (الوسائط) الاجتماعية-الثقافية للاستعمال اللغوي؛ ثم المكون التداولي الذي يحدد مبادئ استعمال اللسان في مواقف تواصلية ملموسة. ويستتبع هذا أمران: أولهما أن المعارف اللسانية الخالصة، ضمن هذا المنظور، ضرورية للتواصل لكنها غير كافية. وثانيهما أنه من المفترض منطقيا أن تكون الملكة اللسانية (= النحوية) بوصفها معرفة مستقلة عن السياق مصممة بشكل يسمح لها بالتفاعل مع أنساق معرفية خارجية (سياقية) منها الملكة التداولية والملكة الاجتماعية اللسانية[3].

من المفيد الإشارة في هذا السياق أن جل النظريات اللسانية الوظيفية ظلت منسجمة بشكل أو بآخر مع تصور النظرية الرياضية للتواصل المعروفة بنموذج الشفرة والتي وجد فيها جاكبسون حجة رياضية لتدعيم المظهر التأليفي اللاحشوي الذي يبرزه التحليل اللساني للبنية الفونولوجية والنحوية للغات

1 – تعرف الأفعال اللغوية بأنها أعمال قصدية لأن غايتها الأولى والأخيرة هي التعبير عن المقاصد والمعاني وهذا ما يميزها من جهة عن الأقوال الصادرة عن غير العقلاء التي تعوزها القصدية، ومن جهة ثانية يميز سورل، مقتفيا أثر غرايس، الدلالة القصدية عن الدلالة الطبيعية التي تصدر عن الإشارات والعلامات لا عن الدلائل.

2 – فأما النمط (أ) فيراد به فِعْل إنتاج الكلمات والجمل، وأما (ب) فَفِعْل حَمْل والإحالة ففي قولك ضرب زيد عمراً فإن فعل الحمل يتمثل في «ضرب» ويتحقق فعل الإحالة في الإحالة على زيد وعمرو؛ أما (ج) ففعل الإثبات والوعد والأمر؛ (د) أفعال الإقناع والترغيب والترهيب والحمل على الفعل.

3 – تتشكل الملكة الاجتماعية اللسانية من مجموع القدرات التي بفضلها نتعرف على اللهجات التي تمكننا من تحديد الأصول الاجتماعية والجغرافية والوطنية و المهنية للمتكلم. ويندرج في إطار هذه الملكة القدرة على تمييز السجلات(registres) المتنوعة التي تفرضها المقامات الاجتماعية: السجل الرسمي، السجل الاحتفالي، السجل الحميمي، السجل المحايد. ويدخل في عداد هذه الملكة القدرة على توظيف الأمثال ومأثور الكلام والتعابير المسكوكة والعبارات التي تحيل على المعتقد. أما الملكة التداولية فيندرج تحتها القدرة الخطابية والقدرة الوظيفية. فالأولى تسمح بتنظيم الجمل في متواليات لإنتاج مجموعات جملية متجانسة ومتسقة وذلك عبر إحكام التنظيم الموضوعاتي والتنظيم المنطقي والتحكم الأسلوبي والفعالية البلاغية، وتستلزم هذه القدرة أيضا معرفة خصائص الأنواع المختلفة للسجلات الخطابية، أي التمييز بين السجل السردي، والسجل الاستدلالي (الحجاجي) والسجل التقريري. أما الثانية، وهي الملكة الوظيفية، فتتمثل في القدرة على استعمال الخطاب الشفوي و/ أو الكتابي لأغراض تواصلية ويفصُل هذا الإطار الوظائف الصغرى (micro-fonctions) – وهي مقولات تصلح لتحديد الاستعمال الوظيفي للأقوال البسيطة و يمكن أن يدخل في هذا الإطار الأفعال اللغوية المشار إليها أعلاه في الهامش السابق– عن الوظائف الكبرى (macro-structure): وهي المقولات التي تساعد في الاستعمال الوظيفي للخطاب، نذكر منها، على سبيل التمثيل لا الحصر، وظيفة السرد ووظيفة الوصف ووظيفة التعليق ووظيفة البرهنة....انظر التفاصيل في:
Conseil de l’Europe,2001, p 86-101.

الطبيعية؛ إذ يصرح أن «مكونات الشفرة، ومنها مثلا السمات المميزة توجد حرفيا وتشتغل فعليا في التواصل الكلامي... ليس المتلقي وحده، حين يفك شفرة الرسالة، من يمارس الحذف (Ellipse)، على المستويين النحوي والفونولوجي، بل المشفِّر أيضا، ويمكن لهذا الأخير على وجه الخصوص أن يغفل بعض السمات أو حتى بعض تكتلاتها المتآنية أو تسلسلها. لكن الحذف محكوم، أيضا، بقوانين مشفَّرة. إن اللغة ليست أبدا كيانا أحادي المكوّن يستعصي عن التفكيك، فالشفرة في كلّيتها تتضمن مجموعة من الشفرات الفرعية: كما أن قضايا من قبيل تلك التي لها صلة بقواعد تحويل الشفرة المركزية، المثلى، والواضحة، إلى شفرات فرعية حذفية (Elliptiques) بدرجات متنوعة، فضلا عن قضايا مقارنة هذه الشفرات المختلفة من زاوية قياس كمية المعلومة المنقولة، كل هذه المسائل تفرض أن يعالجها، في الآن نفسه، اللسانيون والمهندسون [الذين يصمِّمون نظرية عامة للتواصل وفق أسس رياضية]»[1]. مجمل القول إن رومان جاكبسون يشدد في محاضرته التي اجتزأنا منها هذا الاستشهاد على مسألتين: أولاهما أن اللسان بنية وظيفية تشتغل كشفرة تواصلية وهي بنية مركبة من شفرات فرعية؛ ثاني المسألتين أن دراسة الألسن يجب أن يتصدى لها وبصورة متوازية كل من اللساني والمهندس المشتغل ببناء نماذج قياس التواصل بحكم الاعتبار الأول أي بحكم تواصلية اللسان/ الشفرة الذي يجسد الصورة المثلى التي تتوق الشفرات التواصلية الاصطناعية إلى بلوغ تماسكها البنيوي ونجاعتها الوظيفية.

يختزل نموذج الشفرة (Le modèle du code) عملية التواصل في الخطاطة المكونة من ثلاثة أركان: المرسل والمتلقي والشفرة. يستعمل المرسل في الأوضاع المعتادة، بمقتضى هذا النموذج، الأصوات اللغوية لتشفِير (Encode) الرسائل التي يبعثها إلى المتلقي الذي يفكّ شفرتها ليتوصل إلى المعنى المقصود بفضل امتلاكه والمرسلَ الشفرةَ نفسها. ولن نفشي سرا إن قلنا إن هذا النموذج التواصلي متجذر في الثقافة الأدبية العامة وكذا في البيداغوجية، إلى درجة أننا نسينا أو تناسينا أنه مجرد فرضية وليس معطى موضوعيا، وهو تجذر تُعزى أسبابه إلى مزاياه الكثيرة والمعروفة، في مقدمتها أنه على قدر لا بأس من التفسيرية: هناك معطى يتمثل في أن الأقوال تجعل بالإمكان تداول الأفكار، وتسمح الفرضية القاضية بأن الأقوال هي أفكار مشفَّرة (codées) في نظام إشاري من تفسير هذا المعطى[2]؛ أما نقطة ضعفها فتتمثل في أن القول الواحد يمكن أن يصلح أساسا لتوصيل عدد غير محدد من الرسائل المختلفة والتي لا يمكن استنباطها عن طريق فك الشفرة، والأمثلة التي تشهد على صحة هذا الاعتراض وافرة، فمنذ فجر البلاغة إلى أحدث النظريات التداولية لم يعد أحد يناقش بداهة أن معنى الجمل، حين تغدو أقوالا (énoncés)، تابع لمعلومات سياقية غير محققة في البنية اللسانية للرسالة.

التصورات المبلورة عن الكفاية التواصلية في مجال ديادكتيك اللغات تتغذى من هذا البراديگم الذي اصطلحنا على تسميته بنموذج الشفرة والذي يمكن اعتباره، في مستوى معين من التحليل، قاسما مشتركا بين فلسفة اللغة العادية وبين النظريات البيئية للمعنى التي دأبت على اعتبار المعنى جزءا من المحيط وليس واقع ذهنيا. ونريد بناء على ما تقدم من ملاحظات، أن نخرج من أسر هذا النموذج بتوجيه العناية نحو نظرية

1 – ررمان جاكبسون (1961).

2 – انظر مزيدا من التفاصيل في دان سبيربر و ديدري ويلسون (1986) ، ص ص 17–20.

معرفية للتواصل تتعارض مع فرضيةالشفرة؛ وهي نظرية تتيح إمكانات واعدة للاشتغال البيداغوجي في حقل اللغة والتواصل وذلك بفضل مقترحاتها التي تسمح لنا بالعبور من فكرة شبه مبتذلة عن اللغة والتواصل إلى سلسلة من الفرضيات المخصوصة، وبالنظر أيضا إلى أن العلوم المعرفية التي تهتم بالمحتوى المعرفي للذهن البشري كفيلة بإدماج البحث البيداغوجي في خريطة البحث الأكاديمي والعلمي. فالبحث البيداغوجي، على حد تعبير دانييل أندلير، بقي متواريا عن الأنظار وغير مستثمر بما يكفي، فضلا عن كون البراديكَم البيداغوجي المهيمن ظل أسير نزعة طبيعية تبسيطية تختزل الملكات المعرفية في استعدادات يتعين إيقاظها ولا يراهن على سيكولوجية للملكات المعرفية الخاصة والمميزة تستند إلى مكتسبات فلسفة الذهن ومنجزات العلوم المعرفية.

في ضوء ما تقدم من ملاحظات، سنقف عند نظرية معرفية للتواصل تتعارض و نموذج الشفرة، وتبرهن أن التواصل اليومي بين الأفراد يرتكز على القدرة الاستنتاجية أكثر مما يستند إلى الشفرة. هذه النظرية وضع أسسها الأنثروبولوجي دان سبربر بمعية ويلسن دريدر في كتابهما المعنون: المناسبة (relevance)، كما أنه استثمرها للبرهنة على أن النموذج الاستنتاجي ينسجم والفرضية الأحيائية التطورية لانبثاق الملكة اللغوية[1].

ينطلق النموذج الاستنتاجي من أن القول عبارة عن قرينة (indice) للمعنى المراد من قبل المتكلم، ويصبح فك تشفير المعنى اللساني مجرد عنصر من ضمن عناصر أخرى تساهم في التأويل. فتأويل الأقوال متوقف عن بلوغ المعنى اللساني وربطه بالمقام، وتلعب اللغة في التواصل الاستنتاجي دور تزويد المرسِل بالقرائن الدقيقة والمعقدة بخصوص المحتوى الذي يأمل أن يؤثر في الحالة الذهنية للمتلقي كما أن التواصل يتحقق عبر تزويد المتلقي بقرائن المعنى الذي يود المرسل تبليغَه. وبما أننا نعيش في عالم لا تؤثثه فقط الموضوعات الفيزيائية والأجسام الحية بل أيضا الحالات الذهنية، فإن عملية التواصل الحاصلة بين المتخاطبين تروم التأثير في هذه الحالات الذهنية قصد تعديلها أو استئصالها وتثبيت حالات أخرى مكانها (كما يحدث في التربية والتعليم وفي عمليات غسل الدماغ).

ما يهمنا في هذا السياق يتعلق بالمكانة التي تحتلها اللغة في كل من النموذجين المتقابلين، أي نموذج الشفرة ونموذج الاستنتاج. فإذا كانت اللغة تلعب الدور المركزي في فهم الرسائل التي يبثها المرسل نحو المتلقي بالنسبة لنموذج الشفرة، فإنها مجرد عنصر من مجمل عناصر أخرى تتدخل في بناء معنى الرسائل التي نرغب في إيصالها للمتلقي؛ ذلك أن الفهم في هذا الإطار هو فهم استنتاجي يستند إلى القرائن لا إلى المعنى الحرفي اللساني.

للمفاضلة بين النموذجين يلجأ دان سبربر وكلوريا أوردجي (2000) إلى مجابهة الإشكال الشائك المتعلق بأصل وتطور اللغة ليخلصا إلى أن النموذج الاستنتاجي للتواصل ينسجم والفرضية الأحيائية حول نشأة/ انبثاق ملكة اللغة ويدعمها بيد أن نموذج الشفرة لا يقوى على تفسيرها. والمفيد التنبيه بهذا الخصوص إلى أن الخوض في المسألة يقتضي تبني موقف من الأطروحتين التاليتين:

---

1 - انظر بوجه خاص دان سبربر وكلوريا أوريدجي (2000).

– الملكة اللغوية مُنْتَّج للتطور الأحيائي للنوع.
– الملكة اللغوية مُنتَج للانتقاء الطبيعي بدل أن تكون نِتاج قوى أخرى فاعلة في التطور الأحيائي، مثل الانحراف الجيني.

كل نظريات التطور الأحيائي لا تجادل في معقولية هاتين الأطروحتين فتتصور الملكة اللغوية بوصفها تكيُّفا بالمعنى الأحيائي أي كسمة تابعة لوظيفتها[1]. بمعنى آخر هنالك تلازم بين السمة البيولوجية والوظيفة، وتحدد وظيفية السمة الأحيائية في مدى مساهمة أثرها في النجاح الإنجابي (تأمين استمرارية النوع) للكيانات العضوية المزودة بها[2].

ما هي إذن وظيفة الملكة اللغوية بالمعنى المحدد أعلاه؟ قدمت إجابات عديدة ومتنوعة في السنوات الأخيرة عن هذا السؤال، منها أن الوظيفة السردية هي أساس انبثاق الملكة ومنهم من يذهب إلى أن تدعيم الروابط الاجتماعية – عبر نشر الإشاعات – هو العنصر المسؤول عن تطور اللغة. ويذهب جان لوي ديسال (2000) إلى أن تطور اللغة مرتبط بالتنظيم السياسي للمجموعات البشرية وبالخصوص مرتبط بتكوّن التكتلات. العنصر المشترك بين هذه الفرضيات أنها تعتبر التواصل اللساني بمختلف أشكاله أثرا تكييفيا. بيد أننا يمكن أن نشكك في صوابية هذه الفرضيات حين ننطلق من افتراض مفاده أن التواصل اللساني هو في الواقع أثر غير مباشر للملكة اللغوية. فالملكة اللغوية لا تصلح للتواصل بل هي بالأساس، إذا نحن تصورناها كسمة أحيائية (بيولوجية)، بنية للتعلم. ولتأمين التواصل نحتاج علاوة على الملكة اللغوية إلى قدرات معرفية واجتماعية خاصة؛ والدليل على أن شرط الملكة لتحقيق التواصل اللساني ضروري وغير كاف، يتمثل في أن اللغات التي تمكِّن الملكة اللغوية من اكتسابها، من وجهة نظر تواصلية، أنظمة ناقصة بحكم مفارقة محدودية العتاد اللغوي في مقابل فائض المعنى، وبتعبير آخر تشير المفارقة إلى محدودية الوسائل التعبيرية في مقابل لا نهائية عالم المعنى. تعجز نظرية الشفرة عن تفسير فعالية التواصل اللساني في ظل هذه المفارقة لأنها نظرية تفترض أحادية معنى الإشارة وميكانيكية عملية إنتاج وتأويل الرسائل الصوتية، وهي علاوة على هذا ذات نزعة سيميائية محدودة الباع تعتبر أن كل عملية تواصل تقتضي وجود نسق ثاوٍ من الدلائل على الباحث أن يكتشف قوانينه الداخلية التي تؤمن تماسكه الوظيفي. في مقابل هذا، تنجحً نظرية النموذج الاستنتاجي في رصد واقع أننا في التواصل نعني أكثر مما نقول وأن فهمنا للرسائل اللسانية استنتاجي ولا يقتضي بالضرورة اشتراك المتخاطبين في نظام للتواصل شبه متطابق، ما يعني أن التحولات التي تمس ملكة اللغة والتي يمكن أن تحرف نحوَ الكائن المتحوِّل[3] لا تؤثر سلبا في التواصل.

في سبيل توضيح هذا الكلام الأخير لا بد من الإشارة إلى معضلة مفارقة تطور اللغة التي تتمثل في أن تطور الملكة اللغوية ستكون له عواقب وخيمة على التواصل بين أفراد المجموعة، إن نحن ربطنا التواصل

1 – نفسه.

2 – نفسه.

3 – المقصود le mutant؛ في النظرية التطورية التحولية (المخالفة للنظرية الداروينية)، وتزعم أن التطور في مجال البيولوجيا يتحقق عبر تحول فجائي. فالمتحول (le mutant) هو المنحدر من سلالة تحقق فيه تحول mutation، وهو تغيير فجائي في خاصية وراثية للنوع أو السلالة يمس كمّ أو نوع الجينات.

بملكة اللغة وباللغات الخاصة الموافقة لهذه الملكة ربطا على طريقة نموذج الشفرة؛ خاصة وأن التحول الذي يمس القدرات لا يشمل جميع أفراد النوع دفعة واحدة، وللتوضيح نسوق المثال التالي[1]. لنتخيل لغة أولى لا تملك بنية تركيبية تربط الصوت بالمعنى؛ في لغة من هذا القبيل لا يعتبر الفعل / قَطَفَ/ قَطَفَ/ محمولا بموضوعين، إنه فقط متتالية من الأصوات التي تشير إلى عمل القطْف، وتعيّن كلمة تفاحة جوهرا فيزيائيا لا أكثر. ويستتبع هذا أن القول: / قَطَفَ التفاحة/ ، في لغة من هذا القبيل، لا تشير إلى عملية نزع جسم التفاحة من غصن من أغصان الشجرة المنتجة لهذه الثمرة. لدينا فقط مفهومان مُفَعَّلان دون أن يكونا مربوطين دلاليا. إن التفعيل الذهني لمفهوم أو مجموعة مفاهيم بدون رابط تركيبي بينها لا يشير لا إلى حالة الشيء، ولا إلى فعل يربط هذين المفهومين، كما أنه لا يعبر عن اعتقاد أو رغبة.

مما لا شك فيه أن لغة من هذا النمط لن تكون ذات قيمة نفعية إلا بالنسبة لأناس قادرين على التواصل الاستنتاجي. وسيتواصل المتكلّمون للغة تفتقر إلى العلاقات (التركيب)، اعتمادا على القرينة. إن تفعيل ولو مفهوم واحد عن طريق فك الشفرة يمكن المخاطب من قرينة كافية لبناء معنى تام، أي تحديد قصدية المتكلم. يكفي أن يتلفظ الشخص «ص» بلفظ التفاحة ليستنتج الشخص «س» أن «ص» يعني: [اقطف التفاحة]. وفي المقابل فإن إشارات التواصل الحيواني، وهو تواصل مُحْكم التشفير، لا تسمح أبدا بتشكيلات متنوعة من البناءات التأويلية بسبب قصور في الاستنتاج لديها.

لنتخيل الآن أن الشخص «ص» أصبح بين عشية وضحاها كائنا متحولا (mutant) أي كائنا عرف طفرة تمثلت في أن ملكته اللغوية أضحت أكثر تعقيدا من ملكة أمثاله، وبفضلها يستطيع، منذ طفولته الأولى، تحليل الكلمات التي يكتسبها إما ككلمات موضوعات، وإما بوصفها كلمات محمولات مزودة ببنية حملية مكونة من موضوع واحد أو موضوعين؛ حين يسمع «ص» شخصا يتلفظ بلفظ «ماء»، فإن ما يُفَعَّل في ذهنه ليس مفهوم ماء، بل بنية تركيبية لها محمول غير محقق صوتيا مفرّع ليأخذ «ماء» كموضوع. إن تفكيك الشفرة الذي يقوم به «ص» يتجاوز ما شفره الناطق بلفظ ماء والذي لديه نحو أبسط من نحوه. إن هذا اللاتوافق بين ملكة «ص» وملكة «س»، الذي لم يعرف الطفرة بعد، لا يقف، مع ذلك، حجرة عثرة أمام تواصلهما بفضل قدرتهما الاستنتاجية المبنية على تأويل القرينة لا على تفكيك الشفرة (décodage).

حين يتكلم المتحول (ونعني به الشخص الذي لديه ملكة أغنى مقارنة بملكة أمثاله اللذين يتقاسم معهم الانتماء إلى العشيرة) فإنه يشفر بواسطة نفس الإشارات المتداولة في محيطه المباشر مفاهيم ذرية ويشفر أيضا بنيات: محمول- موضوع. المتواصلون مع هذا المتحول لا يتعرفون على هذه البنيات ولكنهم يتوصلون مع ذلك إلى المعاني المقصودة بسلكهم سُبُلا للاستنتاج لا تتطلب معرفة لسانية غنية؛ ويوضح هذا الوضع المتخيل كيفية انبثاق وتطور ملكة لغوية أكثر تعقيدا وغنى، ملكة تسمح للمتحولين المزودين بها من استبطان شفرة أغنى من شفرة باقي أفراد عشيرتهم. لا يمكن تصور هذا السيناريو إلا في إطار وجود نسق تواصلي استنتاجي. وفي المقابل لا يسمح نسق تواصلي مؤسس على فرضية الشفرة بالانزياح عن النحو المشترك لأن حصول هذا الأمر مكلف على مستوى التواصل. إن ما يُستخلص، في نهاية المطاف،

1 – المثال وارد في دان سبيربر وكلوريا أوريدجي (2000).

من هذه القصة الخيالية هو أن الاستعدادات لدى النوع البشري للتعامل مع سلوك تواصلي غير مشفّر باعتباره إشارة مشفرة يمكن أن يسهل، في لحظة أولى، الفهمَ الاستنتاجي لمقاصد المرسِل ويؤدي، في مرحلة ثانية إلى تقنين هذا السلوك التواصلي غير المشفر باعتباره إشارة.

2 – التواصل/ الفهم

في المؤسسة التعليمية، وعبر أسلاكها المختلفة، يمكن حصر محاور التدخل البيداغوجي، بصورة مثالية، في ثلاثة محاور: الشهادة (le témoignage) والاستدلال واللغة. كل مضمون معرفي نحاول تبليغه في الحرم المدرسي يمكن اعتباره شهادة أي رواية بخصوص موضوع ما، الغرض من روايتها التأثير في الحالة الذهنية للمتعلم، كما أننا نحرص على أن تكون الأحكام والنتائج التي نقدمها معللة منطقيا، أي منسجمة مع مقدمات معينة. وبصرف النظر عن النقاش النظري حول التصورات العلمية التي توجه تدريس اللغات لغاية التواصل، يمكن أن نزعم أن المدرسة ظلت تعتبر اللغة نسقا تواصليا بامتياز، تتقاطع فيه أنساق العتاد اللساني البنيوي (معجم تركيب أصوات) ومواضعات الاستعمال (التداوليات والبلاغة) والمعرفة العامة بالمحيط (المعرفة الموسوعية). وبفضلها نُبَنين أقوالنا في خِطابات سردية أو استدلالية أو تفسيرية.... لكن المفارقة تكمن في أن اللغة يمكن، متى احترمت شروط استعمالها، أن تؤمن التواصل دون أن تضمن الفهم. فالتواصل الناجح يتحقق حين تستوفي المعلومة شرط الوضوح، وهو شرط ضروري لكنه غير كاف لحصول الفهم. وبحسب إدغار موران (1999)[1]، هناك صنفان للفهم: الفهم الفكري– الموضوعي والفهم بين الذوات (intersubjective) ، فالأول يقتضي المعقولية والتفسير. وما التفسير سوى اعتبار ما تتعين معرفته كيانا يتمتع بخاصيات موضوعية تنطبق عليه كل الوسائل الموضوعية للمعرفة التي رسختها المناهج العلمية الحديثة. وعلى هذا الأساس يكون التفسير ضروريا لحصول الفهم الفكري أو الموضوعي؛ وفي المقابل، فإن الفهم الإنساني يتجاوز التفسير الذي بقدر ما يعتبر كافيا لبلوغ الفهم الفكري والموضوعي للأشياء المادية يكون قاصرا في مجال الفهم الإنساني[2] الذي تتدخل لتحقيقه اعتبارات مختلفة عن تلك التي تحدد الفهم الموضوعي. ويمكن اعتبار مجال الأدب، المجال الذي يواجه، من جملة ما يواجه، إشكالية الفهم بين الذوات البشرية كذوات تحب وتكره وتتألم وتخطئ وتسعد بنجاحها وتشقى بإخفاقاتها؛ ويفرض هذا الصنف من الفهم أن نتحلّى بالانفتاح والتعاطف و الأريحية.

تطرح هذه التحديدات والفروق على مستوى محور الفهم البحث في مسارات متعددة في سبيل الخروج بنظرة تربوية تدمج هذه المقولة ضمن مجال التربية على التواصل وعلى المواطنة التي أضحت مطلبا استراتيجيا في عالمنا المحاصر بأسئلة الهوية والاختلاف والتعايش والديمقراطية والحفاظ على البيئة؛ سنقف في القسم الأخير من هذه المساهمة على مسارين يبدوان مرتبطين أكثر من مسارات أخرى محتملة بثنائية التواصل/ الفهم وهما:

1 – يضع إدغار موران اللبنات الأولى لنظرية للفهم ترتكز على فلسفة إنسية تعتبر أن جوهر الإنسان يكمن في توليفة الأجزاء دون إعطاء الأسبقية الأنطلوجية و/ أو المنطقية لجزء على حساب الأجزاء الأخرى، فالحديث عن الإنسان التاريخي هو حديث عن مفهوم مركب غير قابل للتفكيك ويحدده في الثلاثية: فرد/ مجتمع/ نوع.

2 – نفسه. ص 52.

- مسار معوّقات الفهم
- مسار أخلاقيات الفهم[1]

1.2 - معوقات الفهم

أ - مما يحول دون الفهم الجهلُ بالقيم الملزمة والمنتشرة في كنف ثقافة أخرى، كما هو الشأن بالنسبة للمجتمعات التقليدية التي تراعي بصرامة قيم احترام الأشخاص المسنين، وطاعة الأطفال اللامشروطة للذين يكبرونهم سنا، أو عدم فهم ثقافة المجتمعات الغربية التي لا تقبل المساومة بخصوص القيم المتعلقة بتقديس الفرد واحترام الحريات بما فيها حرية القاصرين في مناقشة من هم أكبر منهم سنا.

ب - عدم فهم البعد الأخلاقي للثأر في المجتمعات القبلية، وقتل الأصول لغسل العار في بعضها الآخر. وعدم فهم إلزامية القانون في المجتمعات المتطورة.

ت - هناك في الغالب استحالة فهم الأفكار والحجج التي تؤطرها رؤية للعالم من منطلق رؤية مغايرة للعالم.

ث - وهناك في الأخير استحالة فهم بنية ذهنية لبنية ذهنية أخرى.

كل هذه المعوقات مشتقة من أربع آفات تعوق من جهة الفهم بين الذوات والمجموعات الإنسانية؛ وتعطل من جهة أخرى الفهم الفكري الموضوعي و هي: «التمركز على الذات» (Egocentrisme) الذي يتمظهر في تمجيد وتجميل الذات مقابل تبخيس قيمة الآخر؛ و«التمركز الإثني» (Ethnocentrisme) و«التمركز الاجتماعي» (Sociocentrisme) اللذان يغذيان النزعات العنصرية والإقصائية. أما الآفة الرابعة، وهي «الفكر الاختزالي» فتعيق أكثر الفهم الفكري الموضوعي وإن كانت الآفات الثلاث لا تخلو من مسوغات للانطباق على بُعدِي الفهم: أي الفهم في بعده الإنساني والفهم في بعده الفكري الموضوعي.

إن الموقف الاختزالي الذي يختزل معرفة المركب ويحصرها في عنصر من عناصره، بحجة أنه العنصر الوحيد الدال الذي تهيمن دلالته على الكل، موقف تترتب عنه نتائج كارثية على مستوى الأخلاق وكذا على مستوى المعرفة الفيزيائية. نميل في الغالب إلى اختزال شخص أو مجموعة أشخاص في سمة إيجابية أو سلبية. من ذلك مثلا أننا نميل، في العالم العربي الإسلامي، إلى اختزال الغربي في الكائن المادي المجرد من البعد الروحي، ويُختزل الفلسطيني - في العقل الجمعي الإسرائيلي- الغربي - في الإرهابي، و ينظر للعربي في كثير من الإنتاجات الثقافية والأكاديمية الغربية بوصفه كائنا غير عقلاني؛ ويتطلب الفهم تجنب اختزال الأبعاد الإنسانية في سمة نعتقد، خطأً، أنها السمة المحدّدة لجوهر المعني بالأمر[2]. الشيء نفسه يصدق في

1 - ننبه القارئ الكريم أن مجمل الأفكار الواردة أسفله تعزى إلى إدغار موران الذي ضمّنها تقريرا أنجزه تلبية لطلب اليونسكو، وقدا رتأينا تقديم ملخص عنها أولا، بالنظر لراهنيتها بالنسبة لنظامنا التربوي الذي لّما يصل إلى امتلاك الفلسفة التربوية المناسبة لإدراجها في مجال المفكر فيه بالنسبة إليه؛ و لإيصالها، ثانيا، للقارئ العربي تعميما للفائدة، وهي أفكار نابعة من المشروع الفكري الذي يشتغل عليه المؤلف والمتداول تحت عنوان «الفكر المركب». وينبغي التنبيه في نهاية المطاف أنها أفكار تنتمي إلى مبحث «الأخلاق» الذي يجب أن يستند إله صرح الفكر التربوي.

2 - يشدّد إدوارد سعيد (2003) على ضرورة صياغة مقاربة إنسانية مؤسسة على معرفة الآخر، وعلى تبني منهجية مقارِنة تفحص

مجال الفهم الموضوعي، فمن المعروف أن النظام التعليمي في البلدان العربية والنامية تبنى، في تصوره للمحتوى العلمي، البراديكم الغربي الذي وضع أسسه ديكارت وفرضته تطورات التاريخ الأوروبي منذ القرن السابع عشر[1]. ويقوم هذا البراديكم على الفصل بين الذات والموضوع وهو فصل ينتج عنه انشطار المعرفة إلى خطاب فلسفي انعكاسي حيث تطرح قضايا الوجود والتواصل والوعي والمصير، وخطاب علمي موضوعي منشغل بعالم الموضوعات وما تقتضيه من ملاحظة وتجريب ومعالجة.

الذات/ والموضوع
الروح/ الجسد
الذهن/ المادة
الكيف/ الكمّ
الغاية/ العلة
الشعور/ العقل
الحرية/ الحتمية
الوجود/ الجوهر

لا أحد ينكر أن هذا البراديكم الذي شكل نواة الفكر الحديث قد حقق نتائج باهرة في القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة في مختلف مجالات المعرفة العلمية والتقنية، لكنه أنتج في المقابل كثيرا من الأخطاء ومن سوء الفهم لأنه غيّب الرؤية الترابطية في تناول القضايا والمشاكل، وهو تغييب صادَر الفهمَ الموضوعي للمشاكل؛ من هنا تأتي ضرورة فهم فكر يفصل ويختزل بواسطة فكر يميز ويربط؛ وهذا لا يعني التخلي عن المعرفة القطاعية المتخصصة (معرفة الجزء) ولا هجر التحليل من أجل التركيب، بل يتعين رسم مسارات تفاعلية بينهما.

2.2 أخلاقيات الفهم

يجوز أن ننظر إلى أخلاقيات الفهم بوصفها أسلوبا للحياة، أسلوبا يفرض علينا أن نسعى إلى الفهم بمنتهى التجرد عن المصلحة؛ إنه مجهود فكري لا يطمع في تجاوب الطرف الآخر، ولا في الاستفادة من مقابل أيا كانت طبيعته. غايته بلوغُ فهم الشروط الطبيعية والثقافية للسلوك والمواقف الإنسانية ضمن سياق معين. «إن فهم المتعصب غير القادر على فهمنا، يعني فهم جذور وأشكال ومظاهر التعصب الإنساني، أي فهم لماذا وكيف نحقد ونحتقر»[2].

تتعارض أخلاقيات الفهم مع الموقف الخُلُقي (moraliste) الذي يعطي الأولوية للحكم على الاستدلال والتفنيد، بعبارة أخرى يعطى الأسبقية للإدانة على إعمال الفكر والتمحيص، إذ غالبا ما تُغلِّب الثقافة

بدقة متناهية المجتمع والحقب والتأويلات المختلفة. إن دراسة من هذا القبيل لن تقتصر غايتها على تحقيق أهداف أكاديمية بل ترمي أيضا إلى إحداث تغييرات سياسية واجتماعية. ويبقى نجاحها مرهون بتجردها من أية أفكار مسبقة.

1 – إدغار موران 1999، ص 9.

2 – نفسه، ص 55.

والتربية السائدتان، في البيت والمدرسة، الإدانة بالمروق والخيانة على حساب الفهم المستند إلى التجرد الذي يقتضيه إعمالُ الفكر. لا ينبغي أن يُستخلص من هذا أن الفهم مرادف لالتماس العذر ولتبرير الانحرافات السلوكية والفكرية بل يجب أن نعتبره موقفا فلسفيا إنسانيا يقدم الفهم على الإدانة في سبيل أنسنة العلاقات البشرية. ولتحقيق هذا الهدف لابد من تحقيق شرطين متلازمين: شرط التفكير الجيد، وشرط تحديد مبادئ المعرفة الملائمة للعالم الذي نحيا فيه.

أ) يتمثل التفكير الجيد (le bien penser) في القدرة على إدراك التلازم بين النص والسياق، الكائن والمحيط، المحلي والكوني، الجزء والكل، أي إدراك تعقيد شروط السلوك البشري.

ب) من التحديات المطروحة على أية منظومة تربوية معاصرة التحدي المتمثل في أن المؤسسات التعليمية والأكاديمية تقدم معارف مجزأة وغير مُدمجة في المحيط ما يحول دون التوظيف الأمثل لهذه المعارف في حل المشاكل القائمة؛ وحين نحكم على معرفة بأنها غير مدمجة فإن هذا يعني أنها معرفة مجردة عن السياق.

فمما لاشك فيه أن معرفة المعلومات والمعطيات المعزولة لا يحقق المبتغى، إذ لابد من ربطهما بالسياق ليتحدد معناهما. فعملية الإدماج في السياق شرط جوهري لتحقيق فعالية الاشتغال المعرفي، بمعنى أن الثورة المعرفية لا تنحو نحو بناء معارف موغلة في التجريد بل على العكس تعمل على ربطها بالسياق وهو الربط الذي يحدد شروط إدماجها ويبرز حدود صلاحيتها (أي نسبيتها). كل نزعة تخصصية منكفئة على ذاتها تفشل بالضرورة لأنها تمنع من معالجة سليمة للمشاكل الخاصة التي لا يمكن أن تطرح للتفكير إلا في سياقها. ولن يتأتى الخروج من هذا المأزق إلا بالعناية بالثقافة العامة التي تلح على أهمية ربط المعلومات والأفكار بالسياق. إن أية معرفة متخصصة، مهما بلغت درجة معقوليتها المنطقية والعلمية، تظل في حاجة إلى أن تربط بتخصصات أخرى لتتمكن من دمج إشكالاتها الخاصة في سياق فكري عام يعكس المشاكل والاهتمامات المصيرية الراهنة للبشرية في لحظة تاريخية من لحظات وجودها.

تدعو هذه الملاحظات إلى إعادة بناء تصور المدرسة للعلاقة بين المعارف والتخصصات من جهة، وإلى جسر الفجوة بين هذه الأخيرة و بين مشاكل العالم من جهة ثانية. كما تدعو إلى إعادة الاعتبار إلى الذكاء العام الذي يعتبر أساس تطوير القدرات الخاصة. فبخلاف ما هو شائع فإن نمو الملكات العامة للذهن محفز لنمو القدرات الخاصة أو المتخصصة. فبقدر ما يكون الذكاء العام في مستوى عال، بقدر ما يتفوق في معالجة المشاكل الخاصة. في ضوء هذا نفهم عبارة فرانسوا ريكانتي «ينتج فهم الأقوال، الذي لا يمكن تبسيطه بجعله نتيجة تفكيك للشفرة، عن عملية غير قالَبِية للتأويل،عملية تجند الذكاء العام وتستدعي المعرفة بالعالم». أي تستدعي الربط بالسياق.

3. خلاصات

لم يكن هدفنا في هذه المقالة الوصول إلى خلاصات تحدد وضعية الممارسة التواصلية في منظومة تعليمية تحتل فيها اللغة العربية مكانة مركزية بحكم أنها لغة تكون تارة موضوع التدريس وتكون في أحايين كثيرة وسيلة لتلقين معارف أدبية وعلمية. فهذه الخلاصات تتطلب أبحاثا ميدانية شاملة يساهم فيها أساتذة ومكوِّنون من تخصصات مختلفة، لقد كان هدفنا، كما توحي بذلك صيغة العنوان الذي ارتضيناه عتبة لهذه

المقالة، التشديد على ما نأمل أن يكون وذلك عبر الوقوف عند مسألتين: أولاهما تتعلق بوضوح المرجعية النظرية والفلسفية التي تؤطر النظرة إلى مقولات مثل اللغة والتواصل والملكات (و/ أو الكفايات)؛ وثانيهما إبراز أن «التواصل» هدف «فقير» في العملية التربوية والتعليمية إذ يتعين إغناؤه على المستوى التربوي والبيداغوجي بربطه بمفهوم «الفهم» الذي لا يعتبر وسيلة وغاية التواصل فقط بل الهدف الأسمى للتربية. من أجل هذا بدا لنا أن نظامنا التعليمي يجب أن يضع نصب عينه التربية على الفهم الذي حاولنا أن نبرز، معتمدين مرجعية معينة، أنه أعلى مراتب التواصل وأوثقها صلة بشرط الوجود الإنساني وبالمعرفة في معناها الشمولي.

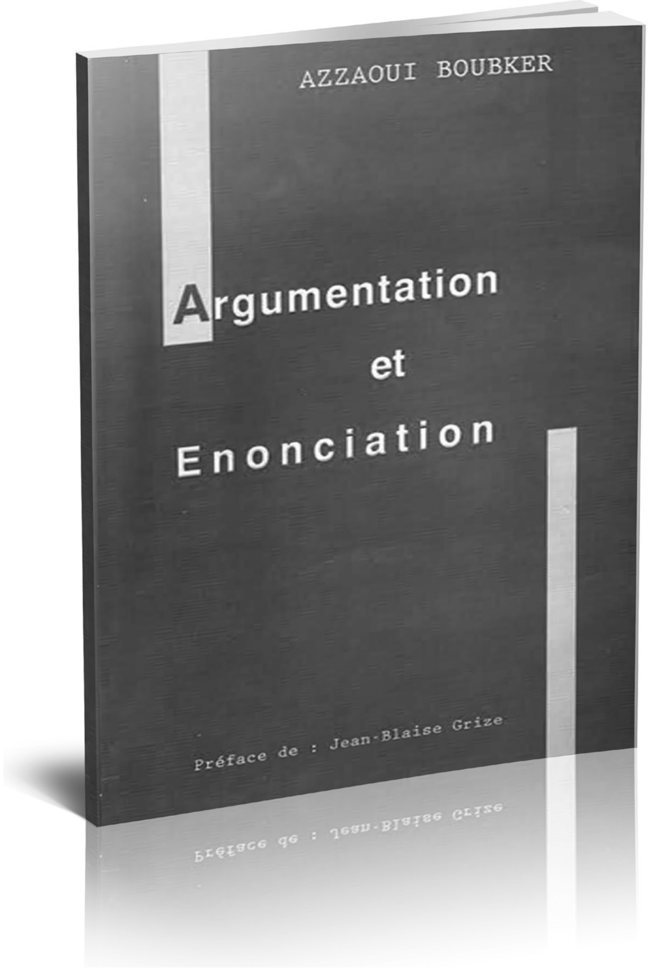
المصادر والمراجع

أ – العربية والمترجمة

– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تونس، الدار التونسية للنشر.
– جاكندوف، راي (2002)،الدلالة مشروعا ذهنيا، ترجمة محمد غاليم، ضمن كتاب دلالة اللغة وتصميمها، الدار البيضاء، توبقال، 2007
– الرحالي، محمد (2003)، تركيب اللغة العربية، مقاربة نظرية جديدة، الدار البيضاء، دار توبقال.
– غاليم، محمد (2007)، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، الدار البيضاء، دار توبقال.
المبخوت شكري (2008)، نظرية الأعمال اللغوية،تونس، مسكلياني للنشر.
– واحة اللغة العربية لتلاميذ الشعب العلمية والتقنية من السنة أولى بكالوريا، تأليف جماعة من الأساتذة، الدار البيضاء 2007.

ب – الأجنبية

- Andler, D. (2002), Processus cognitif, in Philosophie des sciences, tome 1, Paris, éd. Gallimard, col. Follio/Essais.
- Benveniste, E. (1966) Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard.
- Conseil de l'Europe. 2001. Cadre européen commun de référence pour les langues. Paris, Didier.
- Dessalles, J-L. (2000) Aux origines du langage. Une histoire naturelle de la parole, Paris, Hermès
- Jakobson, R. (1961). Linguistique et théorie de la communication, in Essais de linguistique générale, les fondations du langage, Paris, Minuit, 1963
- Morin, E. (1999) Les septs saviors nécessaires à l>éducation du futur, Paris, Seuil.
- Origgi, G. ; Sperber, D. (2000), On the proper function of language, in P. Carruthers, A. Chamberlain, Evolution and the Human Mind, Cambridge University Press.
Edward, S.
- Sperber, D. ; Origgi, G.(2000), Qu'est-ce que la pragmatique peut apporter à l'étude de l'évolution du langage ? ; ms.
- Sperber, D. ; Willson, D. (1986), La Pertinence, Paris, Minuit, 1989.


AZZAOUI BOUBKER
Argumentation
et
Enonciation
Préface de : Jean-Blaise Grize

اللسانيات والأدب: مبحثان معرفيان

محمد غاليم[1]

«The foundations of cognitive poetics obviously lie most directly in cognitive linguistics and cognitive psychology, together forming a large part of the field of cognitive science. We need to understand the basic premise that behind these innovative disciplines all forms of expression and forms of conscious perception are bound, more closely than was previously realised, in our biological circumstances.» Stockwell, P. 2002, p 4.

«Both narrative theory and language theory should [...] be viewed as resources for-elements of-the broader endeavor of cognitive science.» Herman, D. 2000.

تقديم

العلوم المعرفية مجال واسع يتناول، من وجهة نظر متعددة الاختصاصات، دراسة مختلف العمليات والحالات الذهنية المعرفية؛ كالتفكير، والتذكر، وفهم اللغة وإنتاجها، وأنساق الإدراك الحسي (من سمع وبصر وذوق وشم ولمس)، والقراءة، والوعي، والخيال، والانفعالات العاطفية، الخ. أما الاختصاصات التي تتقاطع في العلوم المعرفية فمتعددة، أهمها علم الحاسوب (وخاصة الذكاء الاصطناعي)، واللسانيات، والفلسفة (وخاصة فلسفة الذهن وفلسفة اللغة)، وعلم النفس بفروعه (وخاصة علم النفس المعرفي)، والأنتروبولوجيا المعرفية التي تعالج، في جزء منها، السياقات الاجتماعية والثقافية للإنسان... الخ.

وقد أدت التطورات المتسارعة، في هذا المجال، إلى إعادة النظر في كثير من التصورات الموروثة حول موضوعات العديد من هذه العلوم (وغيرها) التي تشترك كلها في دراسة طبيعة المعرفة أو طبيعة السلوك المعرفي الذكي. كما أدت، بالتدريج، إلى دخول مباحث أخرى في مجال العلوم المعرفية[2]. ومن هذه المباحث النظرية الأدبية التي ارتبط دخولها، أو «زواجها الإبستيمي» بالعلوم المعرفية، وخاصة باللسانيات المعرفية، كما سنرى، بظهور ما سمي «شعرية معرفية» («Cognitive poetics»)، اعتُبِرت، منذئذ، مكونا «رسميا» من مكونات العلوم المعرفية، إلى جانب اللسانيات.

ونتناول في ما يلي بعض أبرز جوانب هذا الارتباط، من خلال محورين رئيسين:

- نخصص أولهما للشعرية المعرفية؛ فنورد بعض أبرز سمات العلاقة بين مكوِّنَيْها الرئيسين (الأدب

1 - جامعة محمد الخامس/ معهد الدراسات والأبحاث للتعريب- الرباط.

2 - انظر غاليم (2004)، ص 249.

واللسانيات المعرفية)، ونحدد موضوعها، ونوضح مفهوما من مفاهيمها المركزية؛ هو مفهوم المعرفة المتجسِّدة.

- ونخصص ثانيهما للسردية المعرفية؛ فنتناول بعض أهم جوانب موضوعها، ونستدل على تفاعلها مع العلوم واللسانيات المعرفية بتحليل نماذج من القضايا المشتركة، ونوضح اتجاه هذا التفاعل نحو بلورة نظريات تلعب فيها اللغة دور الوِجاه (Interface) بين السرد (أو الأدب عموما) والمعرفة.

1 - عن الشعرية المعرفية

1.1 - بعض سمات العلاقة بين اللسانيات والأدب

لقد أبدت العلوم المعرفية، وضمنها اللسانيات المعرفية، منذ بدايتها، انفتاحا تجاه الأدب والدراسات الأدبية. والزواج الإبستيمي بين العلوم المعرفية والدراسات الأدبية مستمر لأكثر من ثلاثة عقود حتى الآن، إذا اعتبرنا، تبعا لفانديل وبرون (2009)، كتاب ليكوف وجونسون «الاستعارات التي نحيا بها» الصادر سنة 1980، العمل المؤثر الذي أدى إلى المزيد من التعاون المنظم متعدِّدِ التخصصات. يقول فان أورت 2003 (Van Oort)، في نفس السياق: «منذ نشر الكتاب المؤثر لجورج ليكوف ومارك جونسون «الاستعارات التي نحيا بها»، في 1980، تعزز النقد الأدبي بفكرة «شعرية معرفية» (Cognitive Poetics)؛ أي بنظرية نسقية للذهن لا يكون الأدب فيها هامشيا، بل مركزيا في فهم النفسية البشرية»[1].

ومن خلال أولويات البحث، كانت الدراسات اللسانية المعرفية المبكرة تظهر بالفعل على أنها دعوة أولية إلى مشروع شعرية معرفية مشترك. ففي بدايات الثمانينيات، اتجه علماء ولسانيون معرفيون؛ مثل جيروم برونر وجورج ليكوف ومارك تورنر ومارك جونسون وليونارد تالمي وجيل فوكونييه، نحو مجالات اعتبرت تقليديا أساسية في الدراسات الأدبية؛ كالاستعارة والقصة والجشطلت والصورة (Figure) والأرضية (Ground)، وفينومينولوجيا المعنى الذاتي على العموم. وهو ما يفسَّر بكون اللسانيات المعرفية، بحكم تعريفها، تعتبر الظاهرة اللغوية ظاهرة نفسية ذهنية لا يمكن فهمها إلا في علاقتها بباقي الظواهر الذهنية الأخرى المرتبطة بطبيعة المقوَلة البشرية، وبمختلف الاستراتيجيات الإدراكية والمعرفية التي تحدد صلة الإنسان بعالمه.

ومما له أهميته في هذا الباب، أن هذا الفرع الخاص (اللساني) من البحث المعرفي بدأ بمعالجة الصور الأدبية للكلام باعتبارها صورا معتادة (وغير معتادة) للفكر. وفجأة بدا النمط الأدبي للتفكير حاضرا في كل مكان، وارتقت أذهاننا إلى «أذهان أدبية»؛ بتعبير تورنر (1996)، تُبَنْيِنُ تجاربنا اليومية من خلال إسقاط بنيات سردية (وغير سردية) مألوفة وقليلة عليها.

لكن الأرضية المشتركة الظاهرة بين اللسانيات المعرفية والدراسات الأدبية لم تؤد إلى برنامج بحث مشترك متعدد الاختصاصات منذ البداية. وبهذا المعنى، يحتل العمل الرائد الذي أنجزه مارك تورنر؛

1 - انظر فانديل وبرون Vandaele and Brone (2009)، ص 1. وانظر فان أورت (2003)، ص 238.

اللساني والباحث الأدبي المعرفي في النظرية السردية، موقعا استثنائيا[1]. وهو موقع يجسد بوضوح اعتبار المعرفة الأدبية (ممثلة في النظرية السردية) واللسانيات على حد سواء موردين رئيسين للعلوم المعرفية، بل مجالين فرعيين من مجالات البحث العلمي المعرفي. فتعتبر اللغة عموما، والبنيات السردية خصوصا، من هذا المنظور، نسقين أداتين لبناء نماذج ذهنية للعالم[2].

وتجدر الإشارة إلى أن الاهتمام الأدبي المعرفي بالخطاب الفني لم يقتصر على لسانيين معرفيين أشرنا إليهم آنفا؛ مثل ليكوف وتورنر وجونسون وتالمي وفوكونييه. ففانديل وبرون (2009) يوردان أن ألان ريشاردسن (2004، ص1)، في رسمه «لخارطة حقل» «الدراسات في الأدب والمعرفة»، يرجع «بالنقد الأدبي المعرفي» إلى مجموعة من الكتب والأبحاث التي نشرها في الثمانينيات روفن تسور Reuven Tsur عن الشعر[3]، ونورمن هولند Norman Holland، وروبرت دو بوغراند Robert de Beaugrande، وآخرون. ويشير ريشاردسن إلى أنه حتى منتصف التسعينيات، مع حضور قليل، ولكنه متزايد، في الملتقيات المتخصصة، وتبادل المعلومات السريع الذي مكنت منه شبكة الأنترنيت، بدأت مجموعة نشيطة في التشكل، قوامها باحثون أدبيون ذوو انتماءات جغرافية وثقافية متنوعة، مهتمون بالمعرفة وعلم الأعصاب.

وهكذا، عوض أن يُعتبَر النقد المعرفي أنموذجا قام دفعة واحدة على أساس مشترك من الافتراضات والمناهج، يجب أن يعتبَر «ميدانا» واسعا تلتقي فيه اهتمامات العلوم المعرفية المهيمنة بالعمليات الذهنية النشيطة (واللاواعية إلى حد كبير)، التي تجعل السلوك، بما فيه قراءة الأدب، أمرا مفهوما (ريشاردسن (2004)، ص ص 1-2). ويبقى هذا التخصيص للفكر المعرفي فضفاضا بالضرورة؛ لأنه يعكس الواقع الحالي للمجال، وتنوع فرضياته ومناهجه بل تعارضها أحيانا. ويبدو أن النقد الأدبي المعرفي، من حيث هو نقد يتفاعل والعلم المعرفي، يرث التنوع الكبير الذي يطبع هذا العالم.[4] فليس غريبا أن تكون المقاربات المعرفية للظواهر الأدبية، بالنظر إلى مجموع القضايا التي تتناولها، وإلى إرثها الغني متعدد التخصصات، وتفاوت الخلفيات النظرية والاهتمامات لدى أصحاب هذه المقاربات، أقربَ إلى مجموعة فضفاضة من المخططات الاستكشافية منها إلى برنامج بحث متسق[5].

2.1 – عن موضوع الشعرية المعرفية

قُدِّمَت الشعرية المعرفية إلى الجمهور الواسع من خلال كتاب بيتر ستوكويل Peter Stockwell «مقدمة للشعرية المعرفية»، الصادر في 2002. وهو كتاب رائد، في مجاله، أوضح أن الشعرية المعرفية لا تنظر إلى الأدب باعتباره مجرد أمر يخص قلة من المحظوظين، بل شكلا مخصوصا للتجربة البشرية اليومية، وعلى وجه الخصوص، معرفة قائمة على قدراتنا المعرفية العامة التي تضفي معنى على العالم[6].

1 – انظر فانديل وبرون (2009)، ص 2.

2 – انظر هيرمان (2000).

3 – وانظر غاليم (2004)، ص ص 255-256.

4 – انظر فانديل وبرون (2009)، ص ص 3-4.

5 – هيرمان (2009)، ص 79.

6 – انظر ستين وكافينس Steen and Gavins (2003)، ص 1.

وتُعْنَى الشعرية المعرفية أساسا، تبعا لستوكويل (2002)، بقراءة الأدب. إذ يمكننا أن نقرأ الأدب متى أردنا، ولكن عندما نريد التفكير بصدد ما نفعله ونحن نقرأ، وعندما نريد أن نفكر في ذلك ونفهمه، عندئذ لا نكون مجرد قارئين، بل نكون خائضين في علم القراءة. وموضوع هذا العلم ليس هو مقوِّمات صنعة النص الأدبي وحدَها، أو القارئ وحده، ولكنه العمليةُ الطبيعيةُ للقراءة المتمثِّلةُ في تعامل الاثنين مع بعضهما، وهذا شيء يختلف تماما عن نشاط القراءة البسيط والأوّلي. فالنصوص الأدبية مصنوعات، لكن «القراءات» موضوعات طبيعية. إن القراءات، في الاصطلاح العلمي، معطيات يمكننا من خلالها تعميم بنيات ومبادئ عبر القراء والنصوص.[1] ومن ثمة، فالشعرية المعرفية ليست دراسة النصوص وحدها، ولا حتى دراسة النصوص الأدبية على وجه التحديد، وإنما هي دراسة القراءة الأدبية[2].

ومن الواضح أن أسس الشعرية المعرفية تكمن بصورة مباشرة، من جهة أولى، في اللسانيات المعرفية وعلم النفس المعرفي اللذين يغطيان معا مساحة كبيرة من مجال العلوم المعرفية، وفي النقد الأدبي من جهة ثانية.

أما اللسانيات المعرفية وعلم النفس المعرفي، فالافتراض الأساس الكامن وراءهما هو أن كافة أشكال التعبير وأشكال الإدراك الواعي مرتبطة ببعضها في أوضاعنا الأحيائية على نحو أوثق مما كان يُظَنّ من قبل. إننا، بعبارة أبسط، نفكر بالأشكال التي نفكر بها، ونتحدث بالكيفيات التي نتحدث بها؛ لأننا، على نحو ما، حاويات بشرية الحجم من الهواء والسائل، نملك أجهزة الاستقبال الرئيسة في الجزء العلوي من أجسادنا؛ وهذا يعني أن أذهاننا «متجسِّدة» («Embodied»)، ليس بالمعنى الحرفي فقط، بل المجازي أيضا. ويسعى هذا الافتراض المعرفي الأساس إلى تجاوز ثنائية الروح والجسد؛ كما عبر عنها الكثير من الفلاسفة عبر التاريخ، ومن بينهم ديكارت.

وللشعرية المعرفية علاقة واضحة أيضا بحقل النقد الأدبي، وهو حقل شهد البحث فيه تحولا في الاهتمام عبر مثلث «المؤلف- النص- القارئ»؛ فشكل كل ضلع من الأضلاع الثلاثة بؤرة اهتمام تقاليد بحثية مختلفة. وتعيد الشعرية المعرفية إعادة صياغة هذا المجال بصورة مختلفة، من حيث عدم وقوفها حصرا عند هذا الضلع أو ذاك. فالمعرفة الشعرية، من منطلق عنايتها بالقراءة الأدبية، وبالبعدين النفسي واللغوي معا، تقدم أداةً لدراسة التأويل، سواء أكان صيغَةَ المؤلِّف للعالم أم وصفا قِرَائِيّاً، ولدراسة الكيفية التي يتجلى بها هذان التأويلان في الظاهرة النَّصِّية. فالشعرية المعرفية، بهذا المعنى، ليست مجرد تحول في الاهتمام، بل هي إعادة تقييم جذرية لعملية النشاط الأدبي برمتها.

إن حمل «المنعطف المعرفي» على محمل الجد يعني أكثر بكثير من مجرد الاهتمام بالبعد النفسي للقراءة. إنه يعني إعادة تقييم شاملة لكل المقُولات التي نفهم من خلالها قراءة الأدب وتحليله، دون أن يعني ذلك التخلي عن كل تصورات النقد الأدبي والتحليل اللغوي الماضية، التي يشكل العديد منها نقطة بداية بالغة الأهمية للبحث في إطار الشعرية المعرفية[3].

1 - انظر ستوكويل (2002)، ص ص 1-2.

2 - نفسه، ص 165.

3 - نفسه، ص ص 4-6.

ومجمل القول إن الشعرية المعرفية بُنِيت على أن تفسير القراءة يكون بالإحالة على مبادئ التحليل اللغوي المعرفي العامة لدى الإنسان، التي تربط دراسة الأدب باللسانيات وعلم النفس والعلوم المعرفية بصفة عامة. وبالفعل، فقد كان من أهم نتائج بروز الشعرية المعرفية وعيٌ متزايد في أوساط العلوم النفسية-الاجتماعية بالطبيعة المحددة والخاصة للأدب من حيث هو شكل من أشكال المعرفة والتواصل[1].

وبذلك يبدو، في الوقت نفسه، أن من التحديات الكبرى التي تواجه الشعرية المعرفية تحقيقَ توافق في مجال يتناول أسسا علمية معرفية تخص تجارب قراءة ذاتية- ثقافية؛ أي مجال يجمع بين التصور المعرفي في المعرفة وبنية اللغة، والتصور الشعري في إنتاج المعنى الأدبي. ويبدو أن بالإمكان إيجاد أرضية وسطى بفضل «تحالف استراتيجي» بين الشعرية واللسانيات المعرفية. فهذه الأخيرة، باعتبارها فرعا خاصا من فروع العلم المعرفي، تشكل أنموذجا قائما بذاته؛ لأنها، أساسا، تولي الفينومينولوجيا الغنية للفكر واللغة ما تستحقه من اهتمام؛ وهي، من هذه الزاوية، توافق المشروع التقليدي للشعرية.

وفي هذا الاتجاه، تحاول الشعرية المعرفية ذات التوجه اللساني المعرفي إنتاج المعنى الأدبي بمبادئ بناء المعنى في المجالات اللغوية-المعرفية الأخرى. وذلك بناءً على أن من منطلقات عدد مهم من اللسانيين المعرفيين أن النسق اللغوي لا يشكل قالبا معرفيا منفصلا؛ أي إنَّ الظواهر المعرفية، التي يبدو أن من العسير التوفيق بينها (من الإدراك واللغة والتفكير ذي المستويات العَليا، إلى الاختلافات بين أجناس الخطاب في مستوى معين من بناء المعنى اللغوي)، تُوَجَّه أو تُبْنَى انطلاقا من نفس المجموعة من الآليات المعرفية القاعدية[2].

3.1 – المعرفة المتجسّدة

يشمل مجال الشعرية المعرفية، إذاً، أبحاثا تتناول قضايا رئيسة في اللسانيات المعرفية والدرس الأدبي على حد سواء. ومن هذه القضايا بناء العوالم (النصوص)، وبناء الشخوص، والمنظور السردي، وخطاب التباعد (بما في ذلك السخرية)، والهزل، والعاطفة، والتصوير الشعري، إلى غير ذلك (وغير ذلك). وتعالج معظم هذه القضايا بتطبيق مفاهيم اللسانيات المعرفية وتصوراتها، في محاولةٍ لاستكشاف إمكاناتها التفسيرية في مجال الشعرية المعرفية.

ومن هذه المفاهيم والتصورات المركزية المعرفة المتجسّدة (Embodied cognition)، والتأويل وبناء التصورات، ومنظور الفضاءات الذهنية والأيقونية، والربط الاستعاري، والمزج التصوري (Conceptual blending)، ومفهوم البناء (Construction) في نحو الأبنية، وارتباط الصورة والأرضية في المعرفة، إلخ[3].

ونكتفي هنا، لضيق المجال، بتوضيح مختصر لمفهوم «التجسد» (Embodiment) الذي تقوم عليه المعرفة المتجسّدة – بالنظر إلى أهميته في العلوم المعرفية، وضمنها اللسانيات والشعرية المعرفيتان.

1 – انظر ستين وكافينس (2003)، ص 2.

2 – انظر فانديل وبرون (2009)، ص 6.

3 – نفسه، ص 4-5.

يعتبر مفهوم «التجسد» مركزيا في اللسانيات المعرفية. وهو يعني تأكيد أهمية التجربة الإنسانية، ومركزية جسد الإنسان وبنيته المعرفية النوعية، وأن الذهن البشري، ومن ثمة اللغة، لا يمكن دراستهما بمعزل عن تجسد الإنسان.

ويستلزم مفهوم التجربة المتجسدة أن الإنسان يملك تصورا نوعيا للعالم؛ بسبب طبيعة جسده الفيزيائي الخاصة، وتأويله للواقع يتم، إلى حد كبير، من خلال طبيعة جسده.

ومن أمثلة الكيفية التي يؤثر بها تجسدنا في طبيعة التجربة مثال اللون. فبينما يملك النسق البصري البشري ثلاثة أنماط من القنوات اللونية، فإن ذواتا أخرى تملك عددا مختلفا. مثال ذلك أن النسق البصري لدى الأرانب يستخدم قناتين لونيتين، بينما يستخدم الحمام أربع قنوات. فامتلاك عدد مختلف من القنوات اللونية يؤثر في تجاربنا مع اللون؛ فيمكننا من إدراك ألوان معينة من ألوان الطيف دون أخرى.

وقياسا على هذا، فإن طبيعة التكوين الأحيائي لدى الإنسان (أي نمط الأعضاء الجسدية التي يملكها)، تحدد، إلى جانب طبيعة المحيط الفيزيائي الذي يتفاعل معه، باقي مظاهر تجربته. ويُعرَف هذا المفهوم، المتعلق بكون الذوات المختلفة تملك أنماطا مختلفة من التجارب بسبب طبيعة تجسيدها، بمتغير التجسد (Variable embodiment)[1].

وللتجربة المتجسدة؛ أي لكون بنيتها مستمدة، جزئيا، من طبيعة أجسادنا ومن تنظيمنا العصبي، نتائجُ على المعرفة. فالتصورات التي نكوّنها، وطبيعة «الواقع» الذي نفكر فيه ونتحدث عنه، أمْران تابعان لبنيتنا الجسدية؛ فلا يمكننا أن نتحدث إلا عما يمكننا إدراكه وتصوره، وهي أشياء مشتقة من التجربة المتجسدة. ويجب أن يحمل الذهن، من وجهة النظر هذه، آثار هذه التجربة المتجسدة.

وقد افترض مارك جونسون (Mark Johnson)، في كتابه الكلاسيكي «الجسد في الذهن»، سنة 1987، أن من الكيفيات التي تعبر بها التجربة المتجسدة عن نفسها، في المستوى المعرفي، أنها تظهر في شكل بنيات مجردة من الصور أو خطاطات صُوَرية (Image schemata)[2]. وهي عبارة عن تصورات أولية؛ مثل: الاتصال والوعاء، ذات دلالة لكونها مشتقة من التجربة قبل-التصورية لدى الإنسان؛ أي من تجربة العالم التي تبنى مباشرة بواسطة الجسد البشري. وهذه التصورات الخطاطية الصُوَرية ليست تجريدات فارغة، وإنما تستمد مادتها، إلى حد كبير، من تجاربنا الحسية-الإدراكية التي تكونها أولا قبل تكوّن غيرها. ولقد استدل جونسون (1987) على أن هذا النمط من التصورات المتجسِّدة يمكنه أن يتوسع بكيفية نسقية لإنتاج تصورات أكثر تجريدا، ومجالات تصورية مبنينة. وتسمى عملية التوسع هذه إسقاطا تصوريا (Conceptual projection). ويعتبر أن التصور الاستعاري يمثل صورة من صور الإسقاط التصوري. وتبعا لهذا، فإن السبب الذي يجعلنا نتحدث عن الكينونة في حالات معينة؛ كالحب أو الهم، هو أننا نبني

1 - انظر إيفانس وكرين (2006) Evans and Green، ص ص 44-45.

2 - انظر جونسون (1987)، ص xix.

تصورات مجردة؛ مثل الحب، ونفهمها بفضل تصور أساسي هو الوعاء؛ كما في الجمل التالية: سقط زيد في حب هند؛ عمرو غارق في همومه؛ الحكومة في أزمة شديدة.

ويعتمد اللسانيون المعرفيون بهذا الخصوص على عدد من النتائج المتوصل إليها في مجالات علمية، منها علم النفس التطوري. ومن ذلك أعمال عالمة النفس ماندلر 2004 (Mandler) حول الكيفية التي تنتج بها التجربة المتجسّدة الخطاطات الصوَرية. فقد استدلت على أن الأطفال ينتبهون، في سن مبكرة لا تتجاوز الشهرين، إلى الأشياء والعلاقات الفضائية في محيطهم، ويستطيعون، بفضل هذه الصلة الوثيقة بالتجارب الفضائية، القيام بتجريدات عبر تجارب مماثلة، وإيجاد بنيات دالة من خلال هذا النوع من العمليات. مثال ذلك أن الخطاطة الصوَرية المتعلقة بالوعاء لديهم أكثر من مجرد تمثيل فضائي-هندسي. إنها «نظرية» حول نمط معين من التنظيم يحتوي فيه كيان معين كيانا آخر[1].

وبعبارة أخرى، فإن خطاطة الوعاء تكون دالة؛ لأن الأوعية دالة في التجربة اليومية. ففي وضع كالذي تصفه الجملة: الشاي في الفنجان، يستلزم الوضع الفضائي المتعلق بالحرف في دالة احتواء تشمل عددا من النتائج؛ مثل تخصيص محل الكيان الذي يحتويه الوعاء وتحديد حركته الممكنة. فكون الشاي محتوى في الفنجان يقيه من التدفق، وإذا تحرك الفنجان تحرك معه الشاي[2].

ولهذا السبب يمكن أن يستعمل الحرف «في» في أوضاع غير فضائية؛ كالأمثلة السابقة عن الكينونة في الحب أو الهم. فلأن الأوعية تقيد النشاط يصبح تصور القوة وحالات كالحب أو الأزمة من خلال الاحتواء أمرا ذا دلالة.

وتسمي ماندلر هذه العملية، القائمة على تكوين خطاطات صوَرية من خلال إعادة وصف التجربة الفضائية، تحليلا للمعنى الإدراكي. وتعتبر أن أساس القدرة على بناء التصورات يتمثل في الخطاطة الصوَرية؛ حيث يتم إسقاط بنية فضائية في بنية تصورية. كما تعتبر أن التجارب القاعدية المتكررة مع العالم تشكل الأساس الراسخ للهندسة الدلالية لدى الطفل، التي تكون جاهزة قبل أن يبدأ الطفل في إنتاج اللغة. وكل هذا يعني، بعبارة أخرى، أن التجربة التي تكون ذات دلالة لدينا؛ بفضل بنية أجسادنا، هي التي تشكل قاعدة عدد كبير من تصوراتنا الأساسية[3].

2 – عن النظرية السردية المعرفية

1.2 – قصص وأذهان

موضوع النظرية السردية المعرفية (Cognitive narrative theory)، عموما، هو المعرفة السردية (Narrative cognition) المتعلقة بأدوار البنيات السردية داخل شبكة العلاقات والتقاطعات القائمة بين

1 – انظر ماندلر (2004) ؛ و إيفانس وكرين (2006)، ص 46.

2 – انظر تيلر وإيفانس (2003)، ص xi.

3 – انظر ماندلر (1992)،ص591 وص 597؛ وانظر إيفانس وكرين (2006)، ص 47؛ وانظر الشمري (2009)، الفصل الأول.

مجموعة من الظواهر التي تدرسها العلوم المعرفية؛ كالإدراك واللغة والمعرفة والذاكرة والعالم[1]. فينصب الاهتمام، بتحديد أخص، وفي نفس الوقت، على الكيفية التي يفهم («يقرأ»، بتعبير ستوكويل الآنف الذكر) بها الناس البنيات السردية، وعلى السرد نفسه باعتباره نمطا من أنماط الفهم. وذلك مضمون العلاقة بين القصص والأذهان.

لذلك يبدو من الطبيعي أن يعتمد الباحثون في هذا المجال، وفي مجال المعرفة الأدبية (أو الشعرية المعرفية) على العموم كما ذكرنا آنفا، أدوات وصفية وتفسيرية من مجموعة متنوعة من التخصصات المهتمة بالأذهان من زوايا مختلفة، وعلى رأسها اللسانيات المعرفية، وعلم النفس المعرفي، والاجتماعي، والتطوري، والإناسة. وتضم أيضا مجالات منها تحليل الخطاب، وعلم الحاسوب، والنظرية الأدبية، والفلسفة، وغيرها[2].

لقد كان المنظرون للسرد، يهتمون دائما، إلى هذا الحد أو ذاك، بالعلاقة بين الأذهان والسرد. فحتى في ذروة التشريح البنوي للنصوص، كانت نظريات «التلقي» قد بدأت في اقتراح البديل؛ فافترض ولفغانغ أيزر Wolfgang Iser «القارئ الضمني»، ونادى ستانلي فيش Stanley Fish بـ «أسلوبية عاطفية»، ووضع بول گرايس Paul Grice قواعد «مبدأ التعاون»، ودعا رولان بارت Roland Barthes القراء إلى المشاركة في بناء النصوص القابلة للكتابة. وكانت كل هذه التحولات تشير إلى المنعطف المعرفي، واتجهت الكثير من المقاربات السردية منذ ذلك الحين اتجاها معرفيا. كما بدأت العلوم المعرفية نفسُها، في الوقت ذاته، تتعرف؛ كما يقول يان، الطبيعة «ذات البناء القصصي» للإدراك، وإنتاج المعنى، والذاكرة، وتكوين الهوية[3].

ويمكننا، بنوع من التبسيط، تعميم الحديث عن تطور التفكير في الأذهان والنصوص، من خلال ذكر ثلاث مراحل؛ هي المرحلة الهرمينوطيقية المرتبطة بالفينومينولوجيا (التي سبقت علم السرد «Narratology»)، والمرحلة البنوية لعلم السرد الكلاسيكي، والمرحلة المعرفية أو «المنعطف المعرفي».

فالتقليد الهيرمينوطيقي حاول، على العموم، دمج بُعْدَي النص، التأثيلي الموضوعي والتحليلي الذاتي، في بعضهما؛ أي دمج المظهر «النحوي» والمظهر «النفسي» في مظهر واحد؛ كما عند شلايرماخر (Schleiermacher) 1998[4]. ومالت النظريات البنوية والشكلانية إلى تجاهل الذاتية، وأكدت، عوض ذلك، توزيع الفجوات النصية وبِنْيَتِها. أما المقاربات المعرفية للسرد فتربط، بكيفية نسقية، البنيات النصية بأنشطة الذهن البشري المتعلَقة بمعالجة المعلومات.

إن هذا يعني أن كيفية تصور العلاقة بين الأذهان والسرد تابعة لكيفية تحديد موضوع البحث كما يتمثله الباحث. فهو «النص الملموس بكامله» في الهيرمينوطيقا، وهو «البنية العميقة» للسرد في البنوية، وهو العمليات المعرفية التي تشكل الفهم السردي في الدراسات المعرفية.

1 - وانظر يان (2005) Jahn، ص 67.

2 - وانظر هيرمان (2009) Herman، ص 79.

3 - انظر يان (2005)، ص 67.

4 - انظر برنارتس ودو جيست وهيرمان وفيرفيك (2013) Bernaerts, De Geest, Herman and Vervaeck، ص 4. وانظر شلايرماخر (1998).

ومن أبرز آثار المنعطف المعرفي تعزيز الأساس التجريبي للدراسات السردية، وتقوية الاتصال بتخصصات غنية أخرى في العلوم المعرفية؛ كالذكاء الاصطناعي، وعلم نفس الخطاب، والأحياء التطورية، وفلسفة الذهن، واللسانيات المعرفية، وعلم الأعصاب، إلخ.

وبينما اهتمت الموجة الأولى (أو «الجيل الأول») من المقاربات المعرفية للسرد، أساسا، باستعارة تصورات من العلوم المعرفية، أظهرت الموجة الثانية (أو «الجيل الثاني») وعيا أقوى بالخصائص الفريدة للقصص (الأدبية) وقيمتها المفترضة في البحث المعرفي. وبعبارة أخرى، امتلكت الموجة الثانية من الدراسات السردية المعرفية قدرة أكبر على أن ترى بوضوح كيف يمكن لدراسة القصص أن تثري نظريات الذهن[1].

والمقصود، حصرا، بـ«الجيل الثاني» من المقاربات المعرفية للأدب عموما، تيار مخصوص في العلم المعرفي الحديث، يعطي الأولوية لتجسُّد العمليات الذهنية، وتوسعها إلى العالم من خلال المنتوجات المادية والممارسات الاجتماعية-الثقافية.

فقد اعتبر «الجيل الأول» من النظريات في العلوم المعرفية الذهنَ قائما على تمثيلات قضوية مجردة؛ فكان الذهن، في تصور هذا الجيل الأول؛ مثله مثل الحاسوب، يعالج المعلومات باستقلال كبير عن الأدمغة والأجساد والأنساق الحسية المخصوصة. لقد كانت تلك؛ كما يقول ليكوف وجونسون (1999)، «فلسفة بدون لحم ودم. لم يكن هناك جسد في ذلك التصور للذهن»[2].

وعلى العكس من ذلك، ترفض مقاربات «الجيل الثاني» نماذج الذهن السابقة التي تجعل هذا الأخير مقصورا إلى حد مبالغ فيه على تحليل المعلومات. وتُنَزِّل هذه المقاربات العمليات الذهنية، بدلا من ذلك، منزلة تَصِلُها بالظواهر الأحيائية التطورية والممارسات الثقافية. ويمكن أن يعتبر مصطلح «الجيل الثاني من العلمَ المعرفي» مرادفا لمصطلح آخر يستعمله العلماء المعرفيون، هو: («مقاربات-e-approachs» «e») للمعرفة. وتشير e هنا إلى المقاربات (أو النظريات) التي تعطي الأولوية لخصائص الذهن المتفاعلة (enactive)، والمتجسِّدة (embodied)، والموسَّعة (extended)؛ وهي كلها مصطلحات تبدأ بالحرف e. ويمكن أن يضاف إليها أيضا مصطلحا: التجريبية (experiential)، والعاطفية (emotional)، ما دام هذا الأنموذج الجديد يعطي للاستجابات التجريبية والعاطفية دورا في المعرفة أهم من دورها في الموجة الأولى الموصوفة بالموقف المعرفي الحاسوبي[3].

ونستطيع تَبَيُّن العديد من صيغ هذا التطور، لدى الجيل الثاني، في الدراسات الأدبية المعرفية. ومن ذلك أن مارك تورنر (1996) Mark Turner يضع جذور النشاط الذهني الخاص بالإنسان في العمليات «الأدبية». وذلك بناءً على أن الطرق التي نفكر بها تقوم على آليات سردية أدبية؛ مثل «الاستعارة» و«القصة» و«المَثَل». وتفترض زنشاين (2003) و(2006) Zunshine، في إطار تصورها للتركيب الاجتماعي-المعرفي للأدب؛ كما

1 – انظر برنارتس ودو جيست وهيرمان وفيرفيك (2013)، ص ص 6 و8-9. ويعود مصطلحا «الجيل الأول» و«الجيل الثاني» إلى ليكوف وجونسون (1999)، ص ص 75-76.

2 – ليكوف وجونسون (1999)، ص 75.

3 – انظر كوهونن وكراكسيولو (2014) Kohhonen and Caracciolo، ص 261.

سنذكر بشيء من التفصيل في فقرة لاحقة، أن مستويات القصدية يمكنها أن تتضاعف في الخيال السردي؛ فيتم تحفيز القراء، واختبار قدرتهم على قراءة أذهان الآخرين. ويفسر هيرمان (2009) الترابطات القائمة بين الحكايات والخصائص (Qualia)، مبرزا القدرة الفريدة التي تملكها الحكايات على خلق «بيئة يمكن فيها لأمثلة مما كان؛ كتجريب أوضاع وأحداث معينة، أن توضع جنبا إلى جنب، وتُقوَّم بمقارنة بعضها ببعض، وتحلَّل إلى أوصاف أخرى للعالم»[1].

لكل هذه الأسباب يمكن أن تكون للنصوص السردية والقراءة الأدبية أهمية خاصة لدى المنظرين المعرفيين. أو بعبارة أخرى، إذا كان الفلاسفة وعلماء النفس يعتبرون أن ذواتنا وأذهاننا تَنْتُجُ بشكل أساسي، عن بناء سردي، فإن ذلك يعني أن تخصصا راكم عقودا من الخبرة في التنظير للقصة وتأويلها، يمكنه أن يساهم في فهم البناء الذاتي السردي. ولقد سبق لبرونر Bruner (1991) أن اعترف بخبرة النظرية الأدبية في هذا الصدد. وهو الذي يعتبر أن السرد يسمح ببناء الواقع الاجتماعي، وليس بتمثيله فحسب، وأننا «ننظم تجربتنا وذاكرتنا للأحداث البشرية في شكل سردي أساسا»[2]. وذلك بناءً على أن السردَ يمثل إحدى الاستراتيجيتين الرئيستين لبناء العالم معرفيا، والاستراتيجية الثانية هي التفكير المنطقي-التصنيفي.

هكذا، وبعد المنعطف المعرفي، أصبح بالإمكان تصورُ الأسئلة المألوفة - من قبيل: ما الأدب؟ لماذا نقرأ الرواية؟ - بطرق جديدة، والتنظيرُ لوعي القارئ في مستويات مختلفة - من المستوى القصدي إلى العصبي -، وتحليلُ استحضار الوعي الروائي وفقا لذلك[3].

2.2 - نماذج من التقاطعات المعرفية السردية

من مظاهر الصلة الوثيقة بين النظرية السردية والعلوم المعرفية، وضمنها اللسانيات المعرفية، أن للكثير من القضايا التي في بلورة أسس النظرية السردية، كما أن البحث في قضايا النظرية السردية يمكن من فهم أعمق للكثير من قضايا العلوم المعرفية. واعتمادا على بعض ما يستدل به هيرمان (2000) على هذه الصلة، من خلال جزء من المواد المثبتة في ويلسون وكيل (1999)، نورد نماذج من هذه القضايا التي يتقاطع أو يلتقي فيها البحث المعرفي والسردي.

1.2.2 - نظرية الذهن

راكمت الدراسات التجريبية في العلوم المعرفية مجموعة من النتائج التي تبين أن إسناد الخصائص الذهنية إلى الأشخاص الآخرين - وهو موضوع نظرية الذهن - يعتبر من الوسائل الأساسية اللازمة التي تنظم بها الكائنات البشرية فهمها للسلوك الاجتماعي فيما بينها.

ويمكن للمنظِّرين السرديين المهتمين بالآثار المعرفية للتقابل بين السارد، الذي هو أيضا شخصية من شخصيات الرواية (Homodiegetic narrator أو «السارد الداخلي»)، والسارد الذي ليس شخصية

1 - انظر هيرمان (2009)، ص 151. وانظر تفاصيل هذه الترابطات في الفصل السادس «رباط السرد والذهن»، من المرجع نفسه.

2 - برونر (1991)، ص 4.

3 - انظر برنارتس ودو جيست وهيرمان وفيرفيك (2013)، ص ص 9-10.

في الرواية، لكنه يعلوها ويعرف كل شيء عنها (Heterodiegetic narrator أو «السارد الخارجي»)، أن يستفيدوا، إلى حد كبير، وهم يحققون ذلك بالفعل، من القضايا التي يثيرها البحث في مشكل أذهان الآخرين، أو نظرية الذهن.

وعلى المنوال نفسه، يهتم الباحثون في المشكل الفلسفي والمعرفي للأذهان الأخرى، بالأوصاف السردية-النظرية للقضايا الإبستمولوجية التي يثيرها مشكل اتصال السارد «الخارجي» بالأذهان المتخيَّلة. فمن الممكن أن يتضمن إسناد الناس يوميا أسبابا ودوافع إلى الفاعلين الاجتماعيين؛ من منطلق المعرفة النفسية العامية، عمليات تماثل بشكل جوهري تلك التي تحرك إسناد الأسباب والدوافع إلى الشركاء في العوالم السردية. وإذا كان الأمر كذلك فعلا، فإن المعرفة النفسية العامية يمكن أن تعتبر قائمة بشكل جوهري على نمط من التفكير ذي طبيعة سردية أساسا. فيعتبر التفكير اليومي في الكيفية التي يفكر بها الناس الآخرون، وخاصة في معرفتهم الاجتماعية، بمثابة وضع أفواج من الناس في شبكات سردية؛ حيث يمكن اعتبارهم شخصيات تقوم بأعمال هدفُها تفادي الصراعات أو القضاء عليها، وتعزيز التعاون بين الحلفاء، وتحقيق الغايات، و غير ذلك[1].

وتعتبر أعمال ليزا زنشاين من الأعمال الرائدة في حقل النظرية السردية، التي تجسد العلاقة بين مباحث نظرية الذهن، من جهة، والأبعاد المعرفية لطبيعة البنيات السردية، من جهة ثانية. فقد بينت زنشاين (2003) و(2006)، خاصة، أن البحث في قدرتنا المعرفية على تفسير السلوك من خلال حالات ذهنية تكمن خلفه – أو قدرتنا على قراءة الذهن-، بما في ذلك القدرة على تمثيل التمثيلات، يمكنه أن يزودنا بمجموعة من الرؤى المثيرة بخصوص تفاعلنا مع النصوص الأدبية. فمن الاستلزامات الأولية المرتبطة بتطبيق ما نعرفه عن نظرية الذهن، في مجال الدرس الروائي، أن نظرية الذهن تجعل من الأدب كما نعرفه أمرا ممكنا. ذلك أن عملية إضفاء معنى على ما نقرأه عملية مؤسسة، في حد ذاتها، على قدرتنا – وهي قدرة نظرية الذهن – على منح البناءات اللغوية الواهية، التي نسميها بسخاء «شخصيات»، الطاقةَ على الأفكار والأحاسيس والرغبات المتنوعة؛ فنبحث عن «الإشارات» التي تسمح لنا بتخمين أحاسيسها، ومن ثمة التنبؤ بأعمالها. ويبلغ الوهم ذروته حين نقتنع، ونحن نقرأ الروايات أو نسمعها، بأن الناس الذين يحكي الحاكي قصتهم قد عاشوا تجربة أغنى بكثير مما يمكن للحاكي أن يطمح إلى حكيه. وبذلك تسمح لنا نظرية الذهن، أيضا، بتضييق مجالنا التأويلي، وتمكيننا من البدء في تفحص ما لا نهاية له من الاختيارات المختلفة داخل هذا المجال[2]. وكل ذلك يتم لدينا بكيفية «آلية»، و«بدون جهد» ظاهر، ما دامت عُدَّتنا المعرفية تقودنا إلى ربط سلوك الأشخاص بحالاتهم الذهنية، أو إلى رؤية الأجساد تحركها الأذهان. والروائيون بارعون في استغلال تأهّبنا الدائم هذا لافتراض وجود ذهن وراء أي سلوك ملاحَظ، عندما يختبرون مقدار ونوع تأويل حالات الشخصيات الذهنية التي يعرضونها هم أنفسهم، والتي ينتظرون من قرائهم عرضها.

هكذا يتضح أن أهمية ما يمكن أن تقدمه العلوم المعرفية لدراسة الخطاب السردي، لا تتجلى إلا عندما

1 – وانظر هيرمان (2000).

2 – انظر زنشاين (2003)، ص 273–275؛ وانظر غاليم (2012).

نشرع في البحث في الكيفية التي يختبر بها الروائيون قدرتنا على قراءة الأذهان، وربما يدفعون بها أيضا إلى أقصى حد. ومن شأن هذا أن يوصل الباحثين إلى البدء في تلمس أجوبة لأسئلةٍ من قبيل: هل بالإمكان أن يقوم الأدب السردي على تمرين قدرتنا على قراءة الأذهان، وأن يَرُوزَ حدودَها أيضا؟ وكيف يشجع اختلاف السياقات الثقافية-التاريخية على استكشافات مختلفة لهذه القدرة؟ وكيف تفعل ذلك مختلف الأجناس الأدبية؟ و غير ذلك من الأسئلة التي تمكن من تفاعل عميق بين مجال العلوم المعرفية ومجال الدراسات الأدبية؛ حيث يملك كل مجال الكثير مما يقدمه إلى المجال الآخر[1].

2.2.2 - حل المشاكل

يهتم علم النفس بدراسة تمثيل المعلومات وتحليلها من قبل الأجهزة العضوية المركبة. وهو مجال يحفل بالكثير من القضايا التي تعتبر أيضا من صميم اهتمامات النظرية السردية.

فمن هذه القضايا المركزية، التي شغلت (وتشغل) الدرس النفسي، القضية التي اعتبرها ويليم جيمس (1890) (William James) سمة مميِّزة للكائن الذكي، وهي حل المشاكل (Problem solving)؛ أي انتقاء الأعمال التي تحقق الأهداف. وقضية النماذج الداخلية للمحيط المبنيَن فضائيا، التي سماها تولمان (1948) Tolman «خرائط معرفية» (Cognitive maps). والخطاطة التي اعتبرها بارتليت (1932) Bartlett تمثيلات ذهنية تلتقط العلاقات البنوية النسقية في مقُولات التجربة. وقد تم تقسيم مفهوم «الخطاطة» هذا، لاحقا، إلى تمثيلات معرفية نشيطة وساكنة؛ أي متواليات نمطية للأحداث (Scripts)، وحالات أو أوضاع نمطية («أطر») Frames، عند مينسكي (1975) Minsky؛ وشانك وأبلسون (1977) Schank and Abelson.

ومن نماذج النظرية السردية التي لها صلة وثيقة بهذا الموضوع، نموذج الحبكة (plot) الذي طورته رايان Ryan منذ 1991، والذي تحتل فيه أنشطة حل المشاكل لدى المشاركين في البنية السردية مكانا مهما. ومفاد ذلك اعتبار هؤلاء المشاركين من مستعملي معيار حل المشاكل لانتقاء الأعمال المناسبة؛ أي إنهم يعملون بطريقة من شأنها تفادي الصدام بين العوالم الممكنة المأمولة، والعوالم الواقعية (أو بعبارة أدق، «عوالم النص الواقعية»)؛ حيث يمكن أن يكون من الصعب تحقيق الغايات المثلى المرجوة.

ويفترض تورنر (1996)، على أساس مبدإ «التخيل السردي»، ترابطات جوهرية بين القصص والتفكير بالقياس. فمثلما ينتظر ساردُ الحكاية الرمزية أو المَثَل من السامع/ المتقبل أن «يستخلص العبر» منها؛ بربطها بأوضاع تؤوَّل على أنها مماثلة، فإن الناس عموما يعملون على إضفاء معنى على التجارب الجديدة من خلال القصص التي يسقطونها على أوضاع وأحداث قد يصعب تحليلها إلى هذا الحد أو ذاك.

3.2.2 - التفكير على أساس الحالة

يحدد العلماء المعرفيون التفكير على أساس الحالة (Case-based reasoning) باعتباره تصميما من نوع معين للحاسوب، يُمَكِّنُ الفكرَ والعملَ مِنْ أن تَقُودَهُ حالةٌ سابقةٌ مميَّزة واحدة (أو نمط نموذجي (Prototype)، أو

1 انظر زنشاين (2003)، ص ص 277-278؛ وانظر غاليم (2012).

سابقة (Precedent)، أو مثال يحتذى، أو حادثة). ويقوم التفكير على أساس الحالة على مجموعة من الحالات السابقة؛ أي ينطلق من حالة قاعدية، ويستعمل عملية تفكير من مرحلتين لتحديد حالة مصدر، ذات صلة بحالة هدف. وتتضمن المرحلة الأولى استرجاع أو إيجاد الحالة المصدر المناسبة، أو النمط النموذجي، أو السابقة. أما المرحلة الثانية فتتضمن مراجعة أو إعادة استخدام الاستنتاجات المناسبة التي يمكن استخلاصها بصدد الحالة الهدف؛ على أساس كيفية انطباق المصدر على الهدف. ومن ثمة، يستمد التفكير على أساس الحالة قوته من محاولة تمثيل ما يكفي لجعل حالة معينة تماثل حالة أخرى أو لا تماثلها.

وبهذا الخصوص، يمكن أن يشكل تصور تورنر (1996) للتخيل السردي، أي ربط قصص مألوفة بأوضاع جديدة ليصبح فهمها والتحكم فيها أمرا ممكنا بفضل ذلك، هو نفسه، نظيرا مهما للتفكير على أساس الحالة، وأن يلقي الضوء على عمليتي الاسترجاع والمراجعة أو إعادة الاستخدام، وهما مكونان قاعديان في التفكير على أساس الحالة. ذلك أنه يمكننا، على أقل تقدير، أن نلاحظ أن ما يُنْتِجُ إسقاطَ قصة معينة دون أخرى على مجموعة محددة من الأوضاع، ويُحَدِّدُ بالضبط الكيفيةَ التي يُمكِّن بها هذا الإسقاط من إضفاء معنى على الأوضاع الهدف، هي قضايا تعكس تلك التي يتناولها البحث في طبيعة التفكير على أساس الحالة. بل يمكن أن نعتبر أن بمقدور النظريات السردية، بالفعل، أن تساعد على توضيح التصور الأساس في التفكير على أساس الحالة، وهو تصور «الحالة». فالقصة مورد قاعدي لِبَنْيَنَة تدفق التجربة في شكل أوضاع نمطية نموذجية أو حالات، وللإخبارِ عن أوضاع مثيرة للانتباه انطلاقا من تلك الأنماط النموذجية؛ أي إنّ القصص تزوّدنا ببنيات معرفية تواصلية يمكن استخدامها لإقامة علاقات ارتباط بين معطيات ناشئة، من جهة، وأوضاع أو حالات شَهِدْناها من قبل، من جهة ثانية. ويتناسب ازدياد سردية القصة (أي درجة قابليتها لأن تُحلَّل باعتبارها قصةً) تناسبا مباشرا، مع فرادة أو ندرة الوضع الذي تخبر عنه بالنظر إلى الأوضاع النمطية النموذجية السابقة.

4.2.2 – مشكل الربط

يعتبر مشكل الربط (Binding problem) في العلوم المعرفية من المباحث التي تفتح آفاقا جديدة أمام الدرس النظري السردي. ويتعلق مشكل الربط، أساسا، بتمثيل اقتران (أو تزامن) الخصائص. مثال ذلك أن إدراك خط أحمر عمودي متصل، بين خطوط زرقاء عمودية متصلة ومتقطعة، وخطوط حمراء مائلة متصلة ومتقطعة، يتطلب من المُدْرِك أن يربط لون كل خط باتجاهه (أعمودي هو أم مائل؟) وبصفته المتصلة أو المتقطعة؛ مثلما أن تحليل جملة نحو: ضرب زيد عَمْرا، يتطلب من مستعمِل اللغة ربط «زيد» بدور المنفذ، وربط «عمرو» بدور الضحية. ويكمن الربط بهذا المعنى في أساس القدرة على التمثيل الرمزي[1]، ولا تشكل أنماطُ التمثيل السردية استثناءً في هذا المجال. فالفهم السردي يتطلب، على الخصوص، ربط الأعمال والسياقات بالقطع الزمنية للعالم المَحْكِيّ التي يمكنها أن تسبق، أو تلحق، أو تكون غير محددة في الزمن بالنظر إلى بعضها البعض. كما أن فهم قصة معينة يتطلب ربط الأعمال والأحداث بمجالات فضائية

1 – انظر ويلسون وكيل (1999)، ص 85.

مخصوصة في العالم الذي تستحضره القصة، وربط المشاركين بأنماط العمليات (المادية والذهنية واللغوية، إلخ) التي يمكنهم القيام بها أو الخضوع إليها، والتي بفضلها يمتلكون الأدوار والعلاقات[1].

3.2 – اللغة وِجَاهاً بين السرد والمعرفة

عند النظر في الكيفية التي استعمل بها المنظرون للسرد النماذج اللسانية منذ بدايات النظرية السردية البنوية، ومقارنة ذلك باعتماد محللي السرد اليوم على ما يقترضونه من تصورات ومناهج من العلم المعرفي، يمكننا أن نفترض، كما ذكرنا آنفا، أن النظرية السردية والنظرية اللغوية يجب أن تُعْتَبَرا معا مَوْرِدَيْن ومُكَوِّنين لمشروع علمي أكبر يمثله العلم المعرفي. والنتيجة: مقاربة لسانية سردية مشتركة للقصص التي تؤوَّل على أنها استراتيجيات لبناء نماذج ذهنية للعالم.

فمن الواضح أنه يصعب عدم الإقرار بأن النماذج اللسانية كان لها تأثير في النظرية السردية على مدى العقود الأربعة أو الخمسة الماضية؛ أي منذ بداياتها. فقد عمد تودوروف T. Todorov يُزاد (1969)، في دراسته السردية الرائدة لديكاميرون Decameron، إلى اقتراض مقُولات من الأنحاء التقليدية لمقاربة الكيانات والمنفذين في السرد بالأسماء، والأعمال والأحداث بالأفعال، والخصائص بالصفات. ونجد اليوم مقاربات؛ كأعمال يان (1997 و1999) وفلودرنيك (1996) Fludernik، تنادي بتحديث النظريات السردية وإغنائها عن طريق دمج نماذج وأدوات من تحليل الخطاب، والذريعيات اللغوية، واللسانيات المعرفية، إلخ.

لكن على العكس من هذا، وتبعا لنهج يعيد تحديد موقع النظرية السردية باعتبارها مجالا فرعيا في البحث العلمي المعرفي، تصبح المهمة الأكثر إلحاحا ليس هي تخصيص دور النماذج اللسانية المعرفية في النظرية السردية، بل إعادة تنظيم دراسة اللغة والسرد بكيفية تُمَكِّن من تواشج جديد للمنهجيات، وتركيب مبتكر لمناهج البحث وغاياته. وهذه الهندسة الجديدة للمجال، تتطلب، من جهة أولى، عمل منظري السرد على الربط بين عدة مناهج للتحليل اللغوي لدراسة مظاهر الفهم السردي. وتتطلب، من جهة ثانية، تغيير آفاق البحث اللساني نفسِه وتوسيعه، بإعادة صياغة موضوع اللغة باعتبارها وِجَاها (Interface) رئيسا بين السرد والمعرفة. ويُعْتَبَر مشروع ديفيد هيرمان المتعلق «بمنطق القصة» صيغة من الصيغ الممكنة لبلورة هذا المطلب[2].

ونرى أن نظرية الدلالة التصورية التي طورها راي جاكندوف (2007 مثلا)، من الجانب اللساني، تمثل صيغة ممكنة أخرى لبلورة نفس المطلب[3]؛ وذلك بالنظر إلى توسيعها آفاق النظرية اللسانية بدمجها في العلوم

1 – انظر هيرمان (2000).

2 – انظر مثلا هيرمان (2000 و2009 و2013).

3 – انظر عن نظرية الدلالة التصورية وتطبيقاتها في دراسة ظواهر في اللغة العربية: غاليم (2007) و(2010). وانظر علاقة هذه النظرية بدراسة التصورات ودراسة المعرفة الأدبية عموما والسردية خصوصا، في غاليم (2004) و(2009) و(2012) و(2013).

المعرفية الساعية إلى بلورة ما أصبح يسمى اليوم «نظرية صورية للمعرفة» (Formal theory of cognition)، وضمنها المعرفة اللغوية والمعرفة الأدبية.

3 – على سبيل الختم

أشرنا آنفا إلى أن من التحديات الكبرى التي بدا أن الشعرية المعرفية قد تواجههاتحقيق «توافق» في مجال يتناول أسسا علمية معرفية (موضوعية)، لكنها تتعلق بتجارب تخص قراءات أدبية ذاتية- ثقافية. إلا أن ما أوردناه، في الفقرات السابقة، يدل على أن هذا «التوافق» لا يمكن أن يكون إلا طبيعيا؛وذلك بفضل الأساس المشترك بين الشعرية واللسانيات المعرفية، المتمثل في الفينومينولوجيا الغنية للفكر واللغة، التي شكلت مجال الاهتمام التقليدي للشعرية، وأولتها اللسانيات المعرفية عناية كبرى منذ البداية. وبناءً على أن من الافتراضات الرئيسة الكامنة وراء اللسانيات المعرفية وعلم النفس المعرفي، اللذين يغطيان معا مساحة كبيرة من مجال العلوم المعرفية، أن كافة أشكال التعبير وأشكال الإدراك الواعي واللاواعي مرتبطة ببعضها في أوضاعنا الأحيائية على نحو أوثق مما كان يُظَنُّ من قبل.

ولعل من صيغ التعبير عن أنماط الحجج التي ق قام عليها ما تقدَّم من افتراضات وارتباط، إبان «الجيل الثاني» من النظريات المعرفية، ما أجمله ليكوف وجونسون (1999) في النمطين التاليين[1]: أولا، تبعيةُ التصورات والعقل القويةُ للجسد؛ وثانيا، الدورُ المركزي الذي تلعبه في البناء التصوري وفي العقل العملياتُ التخيلية، وخاصة الاستعارة، والتصوير، والكناية، والأطر، والفضاءات الذهنية، والأنماط النموذجية، والمْقُولات المبنية على أساسها.

المصادر والمراجع

أ- العربية

- الشمري، غسان، 2009، الدلالة المعرفية، مبادئ ونماذج تحليلية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- غاليم، محمد، 2004، «الدرس الأدبي والعلوم المعرفية»، مجلة «المناهل»، السنة 27، العدد: 71/ 72، الرباط.
- غاليم، محمد، 2007، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحاليل جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
- غاليم، محمد، 2008، «أي منهج لدراسة الظواهر الإنسانية والثقافية؟»، مجلة «الثقافة الشعبية»، السنة الأولى، العدد الثالث، المنامة، مملكة البحرين.
- غاليم، محمد، 2009، «اللغة والأجناس الأدبية في السياق المعرفي»، ضمن كتاب: تداخل الأنواع الأدبية، إشراف: نبيل حداد ومحمود درابسة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن.

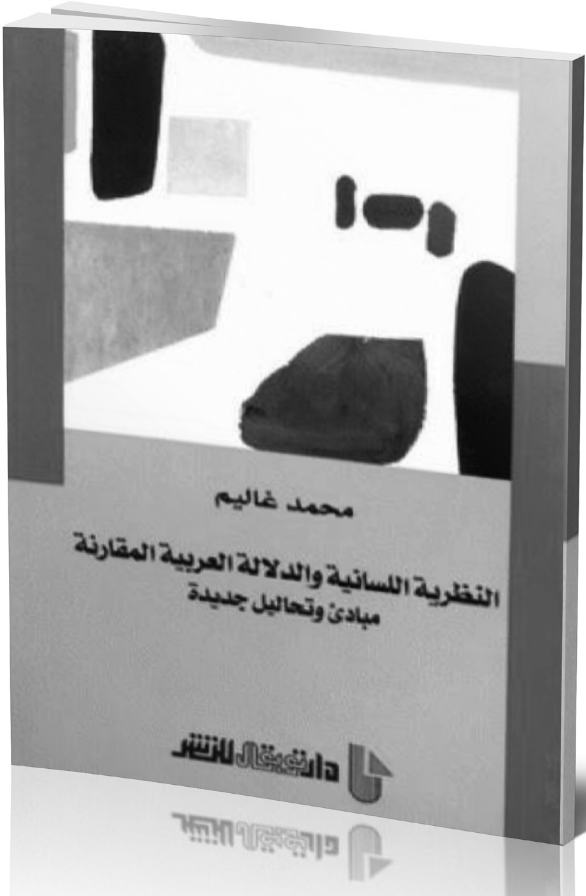
1 – انظر ليكوف وجونسون (1999)، ص 76.

- غاليم، محمد، 2010، المعنى والتوافق، مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي، الطبعة الثانية، دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن.
- غاليم، محمد، 2012، «الخطاب السردي ونظرية الذهن»، بحث قدم في الندوة الدولية حول: «لسانيات النص وتحليل الخطاب»، الدورة الثالثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير.
- غاليم، محمد، 2013، «المعنى والتصورات»، ضمن كتاب: لسانيات النص وتحليل الخطاب، إعداد: محمد خطابي، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن.

ب- الأجنبية

- Bartlett, F. C. 1932, Remembering, Cambridge University Press.
- Bernaerts, L., De Geest, D., Herman, L. and Vervaeck, B. 2013, Cognitive Narrative Studies: Themes and Variations. In: Bernaerts, L., De Geest, D., Herman, L. and Vervaeck, B. (eds.), Stories and Minds Cognitive Approaches to Literary Narrative, University of Nebraska Press.
- Bruner, J. 1991, The Narrative Construction of Reality, Critical Inquiry 18.
- Evans, V. and Green, A. 2006, Cognitive Linguistics, an Introduction, Edinburgh University Press.
- Fludernik, M. 1996, Towards a «Natural» Narratology, London: Routledge.
- Herman, D. 2000, Narratology as a Cognitive Science, Image and Narrative 1.1.
- Herman, D. 2009, Cognitive approaches to narrative analysis. In: Brone, G. and Vandaele, J. (eds.), Cognitive poetics: goals, gains, and gaps, Mouton de Gruyter.
- Herman, D. 2013, Storytelling and the Sciences of Mind, MIT Press.
- Jackendoff, R. 2007, Language, Consciousness, Culture, Essays on Mental Structure, MIT Press.
- Jahn, M. 1997, Frames, Preferences, and the Reading of Third-Person Narratives: Towards a Cognitive Narratology, Poetics Today 18.
- Jahn, M. 1999, 'Speak, friend, and enter': Garden Paths, Artificial Intelligence, and Cognitive Narratology. In: Herman, D. (ed.), Narratologies: New Perspectives on Narrative Analysis, Columbus: Ohio State University Press.
- Jahn, M. 2005, Cognitive narratology. In: David Herman, Manfred Jahn and Marie- Laure Ryan (eds.), Routledge Encyclopedia of Narrative Theory, 67–71. London: Routledge.
- James, W. 1890, Principles of Psychology. New York: Dover.
- Johnson, M. 1987, The Body in the Mind: The bodily Basis of Meaning, Imagination and Reason, Chicago University Press.
- Kohhonen, K. and Caracciolo, M. 2014, Introduction: What is the «Second Generation», Style, V. 48, N° 3.

- Lakoff, G. and Johnson, M.1980, Metaphors We Live By, Chicago/London: The University of Chicago Press.
- Lakoff, G. and Johnson, M. 1999, Philosophy in the Flesh, The Embodied Mind and its Challenge to Western Thought, Basic Books.
- Mandler, J. 1992, «How to build a baby II. Conceptual Primitives», Psychological Review, 99.
- Mandler, J. 2004, The Foundations of Mind: Origins of Conceptual Thought, Oxford University Press.
- Minsky, M. 1975, A Framework for Representing Knowledge. In: Winston, P. (ed.), The Psychology of Computer Vision, New York: McGraw-Hill.
- Ryan, Marie-Laure, 1991, Possible Worlds, Artificial Intelligence, and Narrative Theory, Bloomington: Indiana University Press.
- Schank, R. C. and Abelson, R. P. 1977, Scripts, Plans, Goals and Understanding: An Inquiry into Human Knowledge Structures. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.
- Schleiermacher, Friedrich 1998, Hermeneutics and Criticism. And Other Writings, Translated and edited by Andrew Bowie, Cambridge: Cambridge University Press.
- Steen, G. and Gavins, J. 2003, Contextualising cognitive poetics. In: Gavins, J. and Steen, G. (eds.), Cognitive Poetics in Practice, Routledge.
- Stockwell, P. 2002, Cognitive Poetics. An introduction, Routledge.
- Todorov, T. 1969, Grammaire du «Décaméron», The Hague: Mouton.
- Tolman, E. C. 1948, Cognitive Maps in Rats and Man, Psychological Review 55.
- Turner, M.1996, Literary Mind, Oxford University Press.
- Tyler, A. and Evans, V. 2003, The Semantics of English Prepositions: Spatial Scenes, Embodied Meaning and Cognition, Cambridge University Press.
- Van Oort, R. 2003, Cognitive science and the problem of representation. Poetics Today 24(2).
- Vandaele, J. and Brone, G. 2009, Cognitive poetics. A critical introduction. In: Brone, G. and Vandaele, J. (eds.).
- Wilson, R. A. and Keil, F. C. 1999, The MIT encyclopedia of the cognitive sciences, MIT Press.
- Zunshine, L., 2003, Theory of Mind and Experimental Representations of Fictional Consciousness, Narrative, V. 11, No. 3.
- Zunshine, L., 2006, Why we Read Fiction, Theory of Mind and the Novel, Ohio State University Press.



محمد غاليم
النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة
مبادئ وتحاليل جديدة
دار توبقال للنشر

إشكالية الهوية والتحديث
في الخطاب اللساني العربي الحديث :
نحو منظور تأصيلي إبستمولوجي

امحمد الملاخ[1]

نسعى من خلال هذا البحث إلى تخصيص بعض سمات الخطاب اللساني الحديث. وليس مسعانا رصد المحطات التاريخية للسانيات في العالم العربي[2]، على الرغم من أهمية ذلك في بناء الذاكرة التاريخية للسانيات، وعلى الرغم أيضا مما يحمله هذا الجانب من دلالات على مستوى تقويم المنجز، وتحديد عوائق النمو، واختلالات التمثل العلمي لأسس البحث اللساني بمعناه الحديث، ورسم مسارات تطوره. بل سنركز على بعض الملاحظات المنهجية التي حددت مجرى مقاربتنا، وهذا يدخل في إطار مشروع نتناول في إطاره أهمية بعض القضايا الابستمولوجية في إنضاج محاور الاستدلال[3]، وتنويع المجالات المعرفية التي يمكن أن تحتضن كثيرا من الأسئلة التي كان يغلب عليها في المراحل السابقة الطابع الأدلوجي[4]، ولم يَرْقَ النقاش حولها إلى المستوى العلمي... ومن أهم الملاحظات التي يمكن أن نشير إليها في هذا السياق:

---

1 – أستاذ اللسانيات/ الكلية المتعددة التخصصات بآسفي/ جامعة القاضي عياض.

2 – تتضمن المكتبة اللسانية العربية مجموعة من الأعمال التي اهتمت بإنجاز منحى تقويمي لمسار الدرس اللساني في العالم العربي نذكر منها على سبيل المثال:
- غلفان، مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، اللسانيات العربية الحديثة، دراسات نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 4.
- غلفان، مصطفى،اللسانيات العربية : أسئلة المنهج.
- الفاسي الفهري، ملاحظات أولى عن تطور البحث اللساني بالمغرب.
- المجدوب، عز الدين، المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، قراءة لسانية.
- حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة : دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته.
- الملاخ امحمد، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات.

3 – بخصوص برنامج تحليل إبستمولوجي للسانيات، ينظر : Barber, Epistemology of language, pp 1-25.
ومن أجل تحليل مسهب لمحاور هذا البرنامج ينظر :
الملاخ، امحمد، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص ص 27– 30

4 – من القضايا التي غلب عليها الطابع الأدلوجي مسألة التأصيل وعلاقة التراث اللغوي العربي باللسانيات علاوة على مجموعة من المفاهيم التي لم تؤصل منهجيا ومعرفيا بالشكل الكافي مثل مفهوم الوصف والتفسير والنمذجة وموقع اللسانيات ضمن العلوم الإنسانية والعلوم الحقة و المجالات التطبيقية الممكنة التي يفتحها الدرس اللساني.

أولا - إننا نعتبر الكثير من القضايا التي استأثرت بنقاش مسهب في الأوساط اللسانية، من قبيل أن المفاهيم والنماذج المعاصرة ذات جذور تراثية في النحو العربي أو البلاغة أو فقه اللغة، أو أن اللسانيات أداة واصفة استحدثت لوصف اللغات الغربية، وأن اللغة العربية لا توصف إلا بآلة النحو العربي، وقضايا أخرى أقرب مماثلة، لم تعد تطرح بالحدة نفسها التي عرفتها مراحل الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم، وربما يكون هذا من إيجابيات تطور اللسانيات في الثقافة العربية. فقد تزايد الوعي بضرورة تناول علاقة اللسانيات بالتراث تناولا إبستمولوجيا قادرا على فرز مستويات الفصل والوصل بين المفاهيم وآليات الاستدلال والظواهر الموصوفة في كل من التراث اللغوي العربي القديم واللسانيات الحديثة، فهذا الوعي بالأسس الميتودولوجية والفلسفية والمعرفية والصورية للخطابات يمثل المدخل المناسب للوقوف على حدود العلاقة بين القديم والجديد، وإن كنا نسجل العودة بين الفينة والأخرى إلى نقاشات قديمة/ جديدة تروم تكريس المنحى التأصيلي

إن إشكالية علاقة اللسانيات باللغويات القديمة تعد جزء من منظومة ثنائيات يغلب عليها الطابع الإديولوجي ويتعلق الأمر بإشكالية الأصالة والمعاصرة والتراث والحداثة[1]، وهي إشكاليات مرتبطة بنقاشات عصر النهضة، وبقضايا من قبيل موقع العلوم الوافدة ضمن منظومتنا المعرفية التراثية. لقد دافع رواد التيار التأصيلي عن فكرة مؤداها أن المعارف اللغوية الحديثة رجع صدى لأفكار البلاغيين والنحاة والأصوليين، ولم يتم بناء الإطار الاستدلالي الملائم للبرهنة على هذا الطرح. إن منطق المماثلة بين الأفكار يخفي غياب فهم وإدراك لاختلاف وسائل إنتاج المعرفة بين الفكر اللغوي القديم والحديث. فاعتماد أسلوب النمذجة والصورنة سمة بارزة في الأنحاء المعاصرة لا تدرك إلا من خلال تقاطع اللسانيات مع المنطق والرياضيات والحاسوب ومجمل العلوم المعاصرة التي تتوسل الأسلوب نفسه في إنتاج المعرفة وتبليغها[2]. ثم إن المنحى التأصيلي يجعلنا نعتقد أن الأصول التصورية والفلسفية للاتجاه اللغوي القديم والحديث واحدة، كما يخفي ملمحا بارزا في المعرفة الإنسانية، وهو تجدد المحاور[3] الذي يشكل دعامة تطور الفكر الإنساني. فالثورة المعرفية التي تشهدها اللسانيات في سياق المد التقاطعي بينها وبين علوم مثل علم الأحياء والعلوم العصبية الحاسوبية والمعرفية يبين بالملموس أن البحث في اللغة مثله مثل البحث في خصائص المادة يمكن أن يشهد عصورا معرفية تختلف في سماتها وعلائقها مع علوم عصرها، أي أننا إزاء منظومة معرفية تتبدل فيها العناصر والمكونات والعلائق. نستحضر في هذا السياق مجالات توسع اللسانيات في إطار ما يعرف باللسانيات التطبيقية أو اللسانيات النقدية، فاتساع المعرفة اللسانية وقابلية

1 - ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 72.
ومن أجل برنامج تأصيلي مغاير للبرنامج التأصيلي التراثي ينظر :
امحمد الملاخ، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص 59-62

2 - يسمح النسق الافتراضي للعالم بصياغة فرضيات تخصص جهاز ملكة اكتساب اللغة، أما النمذجة فتمثل الآليات الصورية والمنطقية لبناء الأنحاء الصالحة لتمثيل تلك الخصائص. وبذلك يلتقي البناء النظري في اللسانيات مع مثيله في العلوم الفيزيائية. ويشكل اعتماد نهج النمذجة سبيلا للانتقال من الاعتماد على تراكم المعارف في الأبحاث اللغوية إلى صياغة أنحاء منضبطة بقيود وعمليات خوارزمية لتوليد واشتقاق وتمثيل خصائص البنى اللغوية وسماتها.

3 - بخصوص التقويم المحوري- نسبة إلى التحليل المحوري أو التيمي المنتسب إلى جرالد هولطن
- ينظر : عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ج1.
امحمد الملاخ، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص 164-178.

أدواتها للانطباق في مجالات التعليم والتخطيط اللغوي وتدريس اللغات والترجمة والحوسبة يبرهن على أن الخرائط المعرفية بين القديم والجديد غير متشابهة. ولا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام أننا نقدح في القديم. لا شك أن تراثنا غني بأفكار لم تفقد راهنيتها، فالحاجة ماسة إلى إقامة حوار نقدي مع معطيات الفكر اللغوي القديم بغاية تجديده وتحديثه. ينبغي أن نقطع مع ثقافة التكرار والاستنساخ، وإعادة النظر في مجموعة من المغالطات التي تسهم في تعطيل نمو المعرفة اللسانية، وعلى رأسها مغالطة عدم صلاحية النماذج اللسانية لوصف اللغة العربية لكونها تأسست على لغات أخرى. إذ لا توجد لسانيات عربية أو إنجليزية أو فرنسية، فالأنحاء التي تصوغها النماذج اللسانية أنحاء تروم وصف خصائص الملكة اللغوية، أو اللغة الطبيعية. إن الانتقال من وصف الأنظمة اللغوية الخاصة إلى وصف النظام اللغوي الطبيعي مظهر من مظاهر كونية العلم. ولعله مظهر عابر للعلوم المعاصرة بشكل عام التي تسعى إلى استنباط القوانين والمبادئ. ومن مظاهر المغالطات السائدة ضرورة ارتباط وصف اللغة العربية بالنحو العربي، لا شيء يمنع من إقامة أوصاف مؤسسة على أنحاء متباينة في منطلقاتها وأهدافها وأسسها، فنقيم أنحاء توليدية ووظيفية للغة العربية، أي ينبغي أن نفصل بين اللغة والآلة التي تصفها. هل نحتاج لإنجاز معجم عربي محوسب أو محللات صرفية أو تركيبية أو المعالجة الآلية للغة العربية المرور بالضرورة عبر مدخل التراث اللغوي؟ ثم هل أنجزنا ترصيدا تراكميا ناجعا في مجموعة من الأبواب اللغوية في تراثنا يمكننا من فرز الأفكار الدالة وغير الدالة في وصف اللغة العربية؟ لنأخذ بعض الأبواب النحوية التي نسعى إلى وصفها في إطار أنحاء عصرية مثل التنكير والتعريف والإحالة والزمن التعدية وغيرها، هل فعلا استطعنا أن نستخلص مقاييس وصف هذه الأبواب والتعميمات التي قُدِّمت في تراثنا كي نبدأ من حيث وقف غيرنا ؟ إننا نتحدث عن التراث اللغوي بإطلاقية غير مقيدة، فهل فعلا تعتبر اللغويات القديمة جسما متجانسا من الأفكار، تراث لغوي بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع؟ ومما أسهم في تكريس المنحى التراثي الصيغة الملتبسة التي دخلت بها اللسانيات إلى جامعاتنا حيث تم حشر هذا الوافد الجديد مع علوم اللغة العربية من نحو وصرف وفقه اللغة وبلاغة دون اجتهاد يُذكر في إيجاد آليات الوصل والفصل بين الأنساق النظرية معرفيا وبيداغوجيا.

ليست اللسانيات تجاوزا للفكر اللغوي القديم، وليست إثباتا له. إن ثنائية التجاوز والإثبات في حد ذاتها ثنائية زائفة، يمكن مبدئيا أن نجد في التاريخ اللغوي الإنساني بعض المحاور التي تتكرر، لكن في تاريخ التفكير اللغوي هناك دائما محاور جديدة، وحتى المحاور القديمة لا تُطرح بنفس الصيغة التقنية ولا بنفس الأدوات الاستدلالية في اللسانية الحديثة. إذا أخذت كمثال مسألة لغوية مثل الإحالة، ستجد أدبيات كثيرة ناقشت المسألة في النحو والمنطق والفلسفة وأصول الفقه، لكن هل نعتبر طريقة تناول المسألة في الدلالة الصورية والتداوليات المعرفية مماثلة لما قدم في تاريخ الفكر اللغوي؟

وإذا كان لا بد من الاحتكام إلى تصور تأصيلي، ففي ظننا ينبغي اجتراح دعائم ومفاتيح تأويلية جديدة لتطوير برنامج الاستراتيجيات التأويلية للغويات العربية القديمة، مستحضرين التطورات الجوهرية التي يشهدها البحث اللساني بشكل عام، نقدم بعضا منها في شكل خطوط كبرى:

- لا بد من استحداث أدوات واصفة ومفسرة للغة العربية تحتكم إلى ما راكمته اللسانيات من نماذج وأنحاء ونظريات، فالفصل أو الوصل بين النحو العربي واللسانيات، دون الاستناد إلى إطار معرفي واضح تستبين فيه مواطن التشابه والاختلاف الاستدلالي بين الأنحاء القديمة والحديثة، لم يعد منهجية مستساغة، فكثير من المفاهيم لا تستعمل بالدلالة نفسها مثل مفاهيم النحو والعامل

والربط، ويتعذر أحيانا إقامة مقايسة، بالمعنى الإبستمولوجي للكلمة، بين آليات النحاة ونظيرتها لدى اللسانيين، وإن كانت المقايسة واردة في بعض المستويات، لكن يستعصي أحيانا بلوغها في غياب إطار استدلالي واضح تتضح بموجبه المقتضيات المفهومية لكثير من الآليات التحليلية التي نستعملها دون الانتباه إلى اختلاف مضامينها.

لقد أضحت الحاجة ماسة إلى أن نستوعب ارتباط المفاهيم اللسانية المعاصرة بأنظمة معرفية تقوم على صورنة المفاهيم وتقنيات الوصف والتفسير وتتأسس على تقاطعات معرفية مغايرة للنظام المعرفي النحوي القديم، فاللسانيات المعاصرة تنتمي إلى منظومة معرفية متشابكة تضم المنطق والرياضيات وعلم الأحياء والعلوم المعرفية، وقد حتَّم هذا الارتباط أن تجدد أسئلتها وأساليب بحثها؛

- ضرورة فصل إشكالية مقاربة التراث النحوي عن إشكاليات زائفة من قبيل التأصيل والدفاع عن الخصوصية، فالتأصيل ينبغي أن يكون من خلال تجذير الأسس العلمية لممارسة البحث اللساني، ووصل البحث في خصائص النظام اللغوي العربي بخصائص الوصف الصوري لأنظمة لغوية أخرى. فالتأصيل العلمي للسانيات العربية لا يمكن أن ينفك عن نماذج التمثيل والنظريات التي تنخرط في سيرورة الإبطال والتعديل، فأدوات البحث ونتائجه لا يمكن إلا أن تكون مؤقتة ونسبية، خلافا للتصور التراثي للتأصيل الذي يدفعنا إلى الأخذ بتصور إطلاقي للمعرفة: لاشيء جديد كل ما يقال قد قيل من قبل؛
- نحتاج إلى تقويم الأنحاء التقليدية، وبشكل أخص إسهامات النحو العربي القديم في وصف وتفسير ظواهر اللغة العربية، باستعمال مناهج حديثة لتقويم مرتكزات هذا النظام المعرفي؛
- تجريب إمكانية إخضاع الأدوات اللغوية التراثية والحديثة المنتقاة لعملية التمازج والتكامل، وهي إمكانية تحفها مزالق متعددة ومنها التعميم والسقوط في الأحكام المسبقة وعدم مراعاة الخلفيات المعرفية والفلسفية للأنحاء التقليدية والمعاصرة...؛
- استثمار أسلوب تقويمي جديد ينبني على مسلمة مفادها أن دراسة أعمال النحاة العرب يجب أن تمر عبر استخلاص أهم المحوريات المتحكمة فيما أنجزوه، ومقارنتها بمحاور اللسانيات المعاصرة، بدل أن تقف المقارنة عند حدود سطحية. ومن شأن هذا المشروع أن يكشف اختلاف المفاهيم والتصورات والأدوات التي استعملها النحاة لوصف اللغة العربية عن نظيرها في اللسانيات المعاصرة، مثل مفهوم الإعراب أو الشكل أو العامل... لقد بلور أحمد المتوكل في عمله: (تأملات في نظرية المعنى في التفكير اللساني العربي) إطارا لتقويم التفكير النحوي القديم، يقوم على استخلاص التصورات الضمنية، ومحتويات التفسير وأدواته لدى النحاة والبلاغيين والأصوليين، مع تجريب إمكانية «تمازجها» و«تكاملها» مع النظريات الدلالية والتداولية المعاصرة؛
- بناء أدوات صالحة لوصف اللغة العربية تخضع للشروط الابستمولوجية مثل: البساطة والشمولية والدقة؛
- فحص الحدود الإبستمولوجية لفرضية مزج المفاهيم التراثية الواصفة بمفاهيم الأنحاء المعاصرة مع بناء إطار استدلالي متماسك لصياغة إمكانية تكاملها دون السقوط في التعميم والإسقاط أو الأحكام المسبقة، أخذا في الاعتبار أن استثمار المصطلحات النحوية القديمة تستلزم صورنتها وإعادة بنائها كي تدمج في الآلة الوصفية للنماذج اللسانية، فإعادة الصياغة المفاهيمية تجعلنا ندرك أننا لا نتحرك في أنظمة معرفية متجانسة؛

- تنظيم أدوات الوصف والتفسير بحسب مستويات الدرس اللساني المعاصر (المستوى الصرفي والتركيبي والدلالي والتداولي...).
- تجريب الإمكانات الوصفية والتفسيرية التي تتيحها النماذج اللسانية المعاصرة لمعالجة الظواهر اللغوية التي خصص لها النحو العربي أبوابا ومباحث، في أفق إعادة تنظيم أبواب النحو القديم، ومباحثه تنظيما جديدا يستجيب لشرط استنباط التعميمات الدالة والشمولية والدقة في الصياغة، مع الحرص على تطوير مسعى تقريب الظواهر النحوية التي درست في أبواب نحوية مختلفة، من أجل بناء آليات وصفية موحدة؛
- محاورة النصوص التراثية ومثيلتها اللسانية الحديثة من خلال استخراج مقدماتها واستنباط الأدوات التحليلية الثاوية في ثنايا النصوص النحوية القديمة؛
- بناء لسانيات عربية أصيلة وحديثة، تستطيع أن تجدد تصورها للتراث وتفتح منافذ إدراجه في البحث اللساني العربي، لسانيات تعي بأن تأسيس الإطار الإبستمولوجي لقراءة التراث النحوي، ووضوح التصور والمنهج، يعتبر مقدمة لتجاوز الإشكالات المكرورة حول علاقة النحو العربي باللسانيات المعاصرة؛
- استصراح المقاييس الصرفية والتركيبية والدلالية والتداولية التي وظفها النحاة في وصفهم لظواهر مثل: التعدي واللزوم والإسناد والعامل والبناء للمجهول والانعكاس والمطاوعة وأصناف الجمل... وهي ظواهر تداخلت مقاييس دراستها لدى النحاة القدامى، بين المقياس الصرفي والمقياس التركيبي والمقياس الدلالي والمقياس التداولي؛
- ضرورة التعامل مع النحو العربي من منطلق شمولي مؤسس على شساعة مباحثه، وتعدد الحقول المعرفية التي احتضنت قضاياه، مثل: فقه اللغة والبلاغة والأصول والمنطق... فالطريق نحو بناء صرح النحو العربي ينبغي أن يبدأ بمحاورة هذه المرجعيات المعرفية التي تختزن أصوله الابستمولوجية ومقدماته الاستدلالية، فالعودة إليها محاولة جادة لاستنباط النظام المعرفي المتحكم في جهاز النحو العربي، مثلما يشكل مدخلا نحو إعادة بناء وتركيب أدوات الوصف والتفسير المختلطة التي استعملت في دراسة الظواهر اللغوية. إننا ندرك أن البرنامج العاملي لم يكن سوى إطار تحليلي ضمن مجموعة من الأطر التحليلية التي وظفتها اللغويات العربية القديمة.

ثانيا – إن الانخراط في الممارسة اللسانية من خلال تبني أدوات النماذج اللسانية، قد ساعد على تحقيق شرط التراكم الذي مكن من تطوير النقاش حول مسائل كانت تخضع للنقاش العفوي، في حين أن صياغة تفسيرات دالة حول هذه المسائل كان يستدعي إنجاز ممارسة لسانية منضبطة بآليات الوصف والتفسير التي توفرها النماذج اللسانية، فمثلا مسألة ترجمة أوصاف النحاة القدامى إلى اللسانيات المعاصرة[1]، أو اعتماد المفاهيم الواصفة النحوية القديمة ومعرفة مدى صلاحيتها لوصف معطيات العربية، أو ضرورة مراجعة المتون التمثيلية للغة العربية المتضمنة في أعمال القدامى، وغيرها من القضايا، كانت تستلزم مراكمة أعمال لسانية تطبيقية.

1 – من اللسانيين الذين اجتهدوا في مجموع أعمالهم من أجل وصل اللغويات القديمة بالأنحاء المعاصرة وتحديدا النحو الوظيفي، نذكر الدكتور أحمد المتوكل الذي ذهب في اتجاه التنظير لآليات الوصل بين القديم والجديد مستفيدا من أعمال الدكتور طه عبد الرحمن من أجل صياغة ملامح منحى وظيفي في الفكر اللغوي العربي القديم غير منقطع عن الأوصاف والتحاليل الوظيفية المعاصرة.

ثالثا - إن المسار التراكمي الذي قطعته اللسانيات في العالم العربي، خول إمكانية صياغة مشاريع بحث علمية تستهدف معالجة مجموعة من القضايا التي أصبح تناولها أمرا ممكنا ضمن مقاربة قطاعية sectorial متشعبة التخصصات[1]؛ مثل إشكالية بناء ضوابط ترجمة المصطلح اللساني، أو إشكالية توسيع مجالات تطبيق اللسانيات نحو مجال الترجمة، أو تعليم وتعلم اللغات، والتخطيط اللغوي، والسياسة اللغوية، والمعالجة الآلية للغة، أو حوسبة اللغة العربية، أو المقارنة بين اللغات واللهجات... وقد تطلب استيعاب اللسانيات العربية لهذه القضايا تطوير البحث في تخصصات لسانية دقيقة مثل السوسيولسانيات والصرف والتركيب والدلالة والمعجم والذريعيات (التداوليات) والمعالجة الآلية واللسانيات الحاسوبية واللسانيات المقارنة... لا أحد يمكن أن يجادل اليوم بخصوص الوضعية الاعتبارية الخاصة التي تحظى بها اللسانيات باعتبارها علما يقود قاطرة العلوم الإنسانية بإطلاق، غير أن تقويم حصيلة هذا العلم في العالم العربي يحتاج إلى مقام أرحب. ويمكن أن أقول بإيجاز إننا قطعنا أشواطا مهمة في توطين المعرفة اللسانية في مشهدنا الثقافي العربي وفي مؤسساتنا الجامعية، وأهم ملمح للتوطين يتمثل في جعل «اللسان العربي» يخوض في التخصصات اللسانية بتعدد مشاربها وشعبها بما يقتضيه ذلك من تأهيل العربية اصطلاحيا كي تصير حاملة للمعرفة اللسانية، وليس ذلك بالأمر الهين، فالتراكم المنجز في مجال ترجمة الأعمال اللسانية بيِّن، والتراكم في البحوث اللسانية الدقيقة في مجال الصواتة والصرافة والتركيب والدلالة والتداولية في تزايد مستمر... زد على هذا أن هناك وعيا يتنامى في أوساط الدارسين بأهمية انفتاح اللسانيات على محيطها وضرورة انخراطها في قضايا من قبيل التعدد والتخطيط اللغوي وتعليم اللغات وتعلمها وإعداد المعاجم المتجددة والمعالجة الآلية... كما أن الوعي يتنامى بخصوص ضرورة دخول اللسانيات قطاعات أخرى غير مطروقة مثل لغة القانون والاقتصاد وفنون الإشهار والتواصل الجماهيري[2]...

يمكن التأكيد على أن اللسانيات مثلت منذ أواسط القرن العشرين مدخلا للحداثة المعرفية عندنا، وأفقا معرفيا خصبا لتأصيل العلوم الإنسانية، فباعتبارها ملتقى لمجموعة من العلوم، مافتئت تؤكد على ريادتها في قيادة المد التقاطعي للمعارف، إنها ملتقى تعدد الاختصاصات. فبفضل شبكة العلائق التي تنسجها مع علوم عصرها، أصبحت اللسانيات تشكل نقطة التقاء منظومة من العلوم التي تتشكل بإيعاز من اللسانيات، مثل اللسانيات المعرفية والحاسوبية والأحيائية. وبذلك اتسعت مجالات تطبيقها لتمتد نحو المعالجة الآلية والترجمة ومعالجة الأمراض اللغوية والتخطيط اللغوي وقضايا الاصطلاح والتعريب وتعليم اللغات وتعلمها ودراسة آليات الاكتساب اللغوي ونمو المعارف اللغوية لدى الطفل. وتشكل هذه المجالات مظهرا من مظاهر استثمار اللسانيات لخدمة الثقافة العربية، مثلما تمثل ملمحا من ملامح

1 - ينبني القوام الأنطولوجي للعلم المعاصر على تشابك وترابط التخصصات، أي أن مقاربة الظواهر في المسمى علوم إنسانية أضحت بينية وعبرية.
ينظر للتوسع:
Gilbert Weiss and Ruth Wodak, Critical Discourse analysis, theory and interdisciplinarity, p. 15-23.

2 - نعتبر أن ما ينجز في ضوء بعض التخصصات التي انبثقت من رحم الأعمال التي وجهت سهام النقد للسانيات الصورية التي أقصت الخطاب وظواهره من صلب اهتماماتها من قبيل اللسانيات النقدية والتحليل النقدي للخطاب يمثل خطوة دالة نحو الانفتاح على قضايا جديدة في البحث اللساني، ليسهم في خلق جيل جديد من الأبحاث اللسانية لا يخلو من جدة في صياغة افتراضات وأدوات تحليل مستجدة ونوعية، فضلا عن صناعة خرائط معرفية جديدة بين مجموعة من الحقول المعرفية التي تتخلق من رحم هذه الأعمال.

انخراطنا في المنظومة المعرفية الكونية. إن المظهر الكوني للمعرفة العلمية يلزمنا بضرورة استيعاب وتمثل خريطة المعارف المعاصرة في تخصص معين، وأن يكون لنا إسهام في النقاش الدائر.

ولا نتوخى هنا رسم منحنى تطوري دقيق لمسار الدرس اللساني العربي الحديث، كما أشرنا آنفا، وإنما نود الوقوف على بعض العوائق والاختلالات الابستمولوجية والميتودولوجية والمؤسساتية المرتبطة بالممارسة اللسانية في الثقافة العربية، وسنحصر النقاش في مجموعة من المحاور الأساسية نعتبرها سمات مائزة لتشخيص مظاهر الاختلال:

1 – ندرة المعطيات الجديدة لإقامة أوصاف لسانية جديدة، فاللغة الموصوفة في البحث اللساني العربي تمزج بين معطيات تنتمي إلى عربيات متباينة؛ عربية كلاسية وأخرى حديثة، وظلت تراوح دائرة المعطيات المكرورة والمتداولة، ولم تستطع النفاذ إلى معطيات جديدة في التركيب أو المعجم أو الدلالة، لأن لسانيات المتون لم تنضج بالشكل المطلوب في اللسانيات العربية، كما هو الحال في اللسانيات الغربية في ظل تطور أساليب المعالجة الآلية للمتون، وبالتالي أضعنا فرصة اكتشاف تحولات النسق اللغوي العربي، وحصرنا تمثلاتنا عن اللغة العربية في لغة منسجمة أو منشطرة إلى نوعين أو ثلاثة في أحسن الأحوال؛ لغة عربية كلاسية وأخرى حديثة ولغة وسطى دون أن يكون هذا التقسيم مدعوما بدراسات سوسيولسانية مدققة وبمسح تقني مضبوط لمتون تداول هذه اللغات من إعلام وصحافة وكتابات علمية أو أدبية، كما أضعنا فرصة تطوير لسانيات الظواهر باكتشاف معطيات للوصف جديدة. وبالتالي فالظواهر الموصوفة في التركيب أو الصرف أو المعجم أو الدلالة باتت مكرورة في مجموعة من الأعمال اللسانية قد تتجدد آلة وصفها، لكن المعطيات الموصوفة تظل هي نفسها.

2 – ضعف حصيلة ترجمة الكتب اللسانية بالنظر إلى الكم الكبير للمكتبة اللسانية الغربية، فالترجمة مدخل لتأصيل العلم وتوطينه، لقد تبنينا في مشاريعنا اللسانية اتجاهات وتيارات متعددة، دون أن يواكب ذلك عناء ترجمة الكتب والدراسات الأساسية المرتبطة بها. مع العلم أن للترجمة دورا في الترصيد المرجعي الداعم لتطور وانتشار المعرفة اللسانية. فما زالت المكتبة العربية تفتقر إلى كتب المداخل التيسيرية، التي تسهم في تقريب الاتجاهات الجديدة في البحث اللساني، وما يوجد منها يعوزه العمق الاستدلالي والتجريبي الذي يحتاج إليه طالب اللسانيات لتتفتق لديه ملكة التحليل والتطبيق والاستدلال اللساني، كي لا يتحول العلم عنده إلى كتلة من الأفكار والمعارف التي تفتقر إلى خيط ناظم، يفقد معه العلم جاذبيته المعرفية. وفي المقابل تشهد المكتبة اللسانية الغربية وفرة دالة من الكتب التيسيرية حتى في المجالات المغرقة في التخصص والدقة[1]. زد على هذا غياب مؤسسات خاصة بالترجمة أو ندرتها، تشتغل وفق مقاييس ولجان علمية متخصصة، تعمل على التنسيق مع مؤسسات البحث العلمي في العالم العربي لتلبية الحاجيات المعرفية الأساسية لمراحل نمو المعرفة اللسانية في العالم العربي وتطورها. ويمكن أن نضيف ندرة المجلات اللسانية المحكمة.

1 – يكفي الإشارة إلى سلسلة مداخل Cambridge University Press التي احتضنت مداخل تيسيرية في حقول اللسانيات ذات قيمة علمية وبيداغوجية، ومن اللافت للنظر أن المداخل التي تقدمها السلسلة محينة ومتجددة تعكس في تجددها الفترات المفصلية في تطور المعارف التي تقدمها.

3 – ضعف التراكم المواكب لما يستجد، فهناك عدد من التخصصات الدقيقة حصيلة منجزها غير مقنعة بالنظر إلى ما تعرفه من تطور في الغرب مثل علم النفس المعرفي واللسانيات العصبية واللسانيات المعرفية واللسانيات الحاسوبية واللسانيات الأحيائية. ولغياب التراكم انعكاس على إمكانية استثمار مجموعة من التخصصات في مجالات معينة قد تعود بالمنفعة على محيطنا الاقتصادي والاجتماعي والحضاري. إن مطلب التراكم ينبني على أسس علمية، كما يقتضي أن يكون مبنيا على استخدام سلطة العلم في الاكتشاف والتجديد والتطوير وابتكار أنجع الوسائل النظرية والاستدلالية لمعالجة مجموعة من المشاكل التي ينبغي أن يحصل تطور في معالجتها حتى يتسنى لنا الانتقال نحو مشاكل جديدة تستوجب حلولا نكون قادرين على ابتكارها ونعتقد أننا لا نحتاج إلى بديهة قوية كي نلاحظ ضعف التراكم على مستوى عدد من المسائل التي شكلت نواة برنامج البحث اللساني العربي مثل اللسانيات التاريخية أو المقارنة أو اللسانيات التطبيقية في مجال تعلم اللغات وتعليمها أو حوسبة اللغة العربية، واستعمال أدوات اللسانيات النفسية في دراسة الأمراض الكلامية للناطقين بالعاميات في العالم العربي، أو استعمال اللسانيات العصبية أو المعرفية في دراسة تمثلات الإنجاز أو الفهم عند المتكلم العربي.

4 – غياب مؤسسات البحث اللساني، مقارنة بما تعرفه المحافل اللسانية الدولية من نمو مطرد لخلايا البحث ومختبرات متعددة التخصصات وجمعيات لسانية ذات صيت دولي. فالمعرفة لا تكتسب أسباب التوسع والانتشار و التأثير دون وجود بنية سوسيولوجية داعمة.

5 – معظم ما ينجز في العالم العربي في إطار النماذج اللسانية الحديثة هو عبارة عن أقساط نحو بعبارة أخرى لا يوجد نحو توليدي كامل أو نحو وظيفي كامل للغة العربية ، ما نتوفر عليه هو عبارة عن أوصاف جزئية غير مكتملة الظواهر[1].

6 – الظواهر توصف بمعزل عن بعضها البعض فلا يدرك أحيانا الرابط بين الظواهر التركيبية أو الدلالية الموصوفة، المقاربة تصير غير ترابطية، كما أن التعميمات التي تفرزها الأوصاف اللسانية تظل منفصلة عن بعضها البعض، فلا تجسر التعميمات ولا تربط فيما بينها.

7 – الأعمال المنجزة غير تراكمية بمعنى أن الباحث لا يستمر في وصف الظاهرة أو الظواهر ، وإنما ينقطع لوصف سواها. وبالتالي تضيع التعميمات التفسيرية والوصفية التي لا تتأتى إلا بعد طول مراس ودربة بالظواهر الموصوفة. فمن محاسن الدرس اللساني أنه يعلمنا أنه ليس ثمة ما هو منجز ومكتمل، لا شيء يمنع من إعادة وصف الظاهرة وتحليلها متى توافرت المعطيات اللازمة وآليات الاشتغال المناسبة لوصفها.

8 – الاعتماد على مرجعيات نظرية وتطبيقية متجاوزة، فقدان سمة المواكبة المتجددة والمحينة لما ينجز في مختبرات البحث المتطورة في الغرب.

9 – الاشتغال العلمي غير مؤسس على برنامج بحث متسق بل على التراكم الخطي غير المتسق ،فالممارسة العلمية عند كثير من الباحثين اللسانيين العرب لا تنخرط في مشاريع علمية واضحة

1 – لقد أضحى من البدهي أن نجاعة الأوصاف اللسانية للظواهر غير كافية في ذاتها، فشرط التراكم لا مناص منه لتكتمل الصورة، فالأوصاف ينبغي أن تكون تراكمية متجددة للظاهرة الواحدة ولظواهر مختلفة.

الملامح ومحددة الأهداف من قبيل: صياغة برنامج لأوصاف تركيبية أو معجمية أو دلالية جديدة، معالجة آلية للغة العربية، بناء أنحاء أو أقساط أنحاء مقارنة، تخطيط لغوي وأطالس لغوية عربية جديدة، تجسير الهوة معرفيا واستدلاليا بين النحو العربي واللسانيات الحديثة والفكر اللغوي الاستشراقي أعني تجسير الهوة بين ثلاثة أنماط من التفكير اللغوي اتخذت موضوعا لها اللغة العربية...،

10 – من مظاهر الاختلال افتقار الممارسة العلمية إلى شرط المأسسة، فالتراكم الفردي النوعي مطلب للكتابة اللسانية العربية، لكن العمل المؤسسي مطلب أساس لأن الطابع الجديد الذي يسم المعرفة اليوم هو تداخل الاختصاصات، وتجزيء المعرفة إلى منظومات معرفية تخصصية صغيرة ينبغي تجسيرها من خلال الاشتغال البيني، والذي لا يمكن لباحث فردي مهما كبرت جهوده واتسعت حدود فهمه وإمكانياته المعرفية أن يضطلع به (الاشتغال البيني). إن ممارسة العلم المعاصر منغرسة في مؤسسات البحث العلمي فالعلماء ينتظمون في بنيات جماعية، ولقد كان لتوماس كون وإمير لاكاتوش دور كبير في تحليل سلطة التقاليد المؤسساتية في العشائر العلمية، ويفضي بنا النقاش هنا إلى سوسيولوجيا العلم، ودور مختبرات البحث والفرق العلمية المتخصصة أو المتعددة التخصصات بالمعاهد والجامعات ومراكز البحث في تطوير البراداي‍مات العلمية وتعديلها وإعادة صياغتها أو دحضها. فهذه التقاليد لم ترسخ بالشكل الكافي في المجتمعات العربية، لأسباب هيكلية وتنظيمية وتكوينية ومادية وسياسية...، فالحاجة أصبحت ماسة نظرا إلى ما تعرفه اللسانيات المعاصرة من نمو المقاربات المتعددة التخصصات، وظاهرة تشابك البراداي‍مات La compactification des paradigmes إلى تشكيل مختبرات بحث متعددة التخصصات في اللسانيات المعرفية والحاسوبية والمقارنة. فالتراكم ضمن التطور اللساني أضحى من الممكن وصفه أفقيا وعموديا، إذ يحدث (التراكم) في مسارات متشعبة الخطوط ومتعددة الأبعاد، وهذه الصورة أصبحت تفرضها الخريطة الابستمولوجية للعلوم المعاصرة، ولا يمكن للسانيات العربية أن تتموقع في راهنية البحث اللساني المعاصر إلا ضمن هذه الخريطة المعرفية الجديدة لكي يكون لها إسهام ذا دلالة. ومن المفروض أن يدفع التنظيم المؤسسي لممارسة البحث اللساني إلى دراسة عدد من القضايا اللسانية في أفق علمي منفتح على تخصصات متقاطعة ومتعددة تفضي إلى توسيع أنوية النظريات بقوانين وقيود علمية جديدة من خلال تطبيقات ممتدة نحو مجالات فرعية جديدة.

11 – الانخراط في نقاشات زائفة ومغلوطة من قبيل حدود الاتفاق أو الاختلاف بين اللسانيات والتراث اللغوي العربي، بينما الرهان العلمي الحقيقي مغيب في نقاشاتنا والمتمثل في نسج علاقة استدلالية وإبستمولوجية جديدة مع اللغة الموصوفة (العربية)، أعتقد أن خلق نظرية لسانية جديدة لا يمر بالضرورة عبر إقامة حوار معرفي خلاق مع التراث، لكن وفقط عبر استيعاب أسلوب الاستدلال والنمذجة والتكامل المعرفي الذي يسم المعرفة اللسانية المعاصرة، التي تتشكل فيها المعرفة في ارتباط بالمناخ السوسيوعلمي الحديث. كيف سيتأتى لنا بناء معرفة لسانية جديدة ونحن لانملك ناصية العلوم الصورية والتجريبية ولا نملك البنيات التحتية الملائمة ولم نحقق شيئا من التراكم المرجو في قطاعات متعددة ذات صلة مباشرة بالبحث اللساني الذي أعتبر أن بناءه الأنطولوجي قوامه نظام متعدد الاختصاصات؟ إن المظهر الكوني للمعرفة العلمية يلزمنا

بضرورة استيعاب وتمثل خريطة المعارف المعاصرة في تخصص معين، وأن يكون لنا إسهام في النقاش الدائر في المحافل اللسانية الدولية. فالحاجة ماسة لتطوير أبحاث لسانية تروم بناء أنحاء عصرية لمجموعة من اللغات، إيمانا منا بضرورة دخول اللغة العربية عصر التصنيع اللغوي، وقوامه تطوير أنحاء صورية تعتمد منطق الصياغة النظرية والتجريبية المقيدة بلغة الحوسبة والتمثيل المؤسسين على التعميمات والقيود. فالاستدلال اللساني لايختلف عن الاستدلالات المعمول بها في النظريات العلمية الحديثة، وقوامه عندنا افتراض واستدلال على الافتراض ثم تعميم وتنبؤ. فلا يكفي أن تقدم وصفا لعنصر أو مكون من مكونات النظام اللغوي لا يستند إلى افتراضات قابلة للروز والفحص،ثم تعميم تلك الافتراضات على بنيات لغوية مشابهة في اللغة التي نصفها أو في لغات أخرى، وإنما العلم بنية استدلالية تحكمها ضوابط إبستمولوجية. فالسعي إلى وصف اللغة جزء من مسعى عام يرتبط بتخصيص سمات الملكة اللغوية، والوسائط التي تضبط تنوع هذه السمات عبر اللغات الطبيعية. وللأسف أن تصورنا للممارسة العلمية مازال محكوما بمنطق تجميع الأفكار، فالمعرفة ليست ركاما من الأفكار،أو ترجمة لما سبقنا إليه غيرنا، وإنما عبارة عن أنساق نظرية تنبني على مسلمات أو فرضيات واستدلالات تكرس المنحى الاستكشافي للمعرفة.

المصادر والمراجع

أ- العربية

- حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة 2009.
- الفاسي الفهري، عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، ج 1، دار تبقال للنشر 1985.
- الفاسي الفهري، عبد القادر، ملاحظات أولى عن تطور البحث اللساني بالمغرب، ضمن مجلة فكر ونقد، العدد 96/ 2008.
- المجدوب، عز الدين، المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، قراءة لسانية جديدة كلية الآداب- سوسة، دار محمد علي الحامي، الطبعة الأولى 1998.
- الملاخ امحمد، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون. 2009.
- غلفان، مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، اللسانيات العربية الحديثة، دراسات نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 4.
- غلفان، مصطفى، اللسانيات العربية: أسئلة المنهج، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع 2013.

ب- الأجنبية

- Barber,A , Epistemology of language, oxford edition, 2003.
- Gilbert Weiss and Ruth Wodak, Critical Discourse analysis, theory and interdisciplinarity, Palgrave Macmilln, 2003.

ترجمة

النوع والتاريخ : حول آلية تطور الأنواع

Genre et histoire :
sur un mécanisme d'évolution générique[1]

سيرج زينكن[2]

ترجمة: وئام المددي[3]

لا يتوافق النوع؛ ذلك المصطلح التصنيفي منذ جذوره الأرسطوطاليسية، مع التاريخ بسهولة؛ فغالباً ما تظهر نظريات الأنواع في لبوس المنطقية والدقة إلى درجة أنها قد تنزع إلى إضفاء طابع تجريدي على الأحداث الزمنية. كما أن التصنيفات المعيارية للبلاغة الكلاسيكية خلقت زمنها الخاص؛ لأنها تطمح نحو الخلود، غاضّة الطرْف عن التاريخ. فسرديات «تطور الأنواع» الجدلية و/ أو العضوانية التي تمخض عنها القرن التاسع عشر، من هيجل إلى برونتيير، لا تهدف إلا إلى إعادة الاعتبار لهؤلاء، لكن عصرنا الراهن هجرها وأهملها؛ لكونها تصدر، على العموم، عن فكرة تطورية تؤمن باستمرارية نوع تعتبره فرداً، بل قد تراه كائناً حياً. إلا أن فكر القرن العشرين؛ ذلك الفكر النسقي التصنيفي الحافل بالقطائع، يرى أن كل ما هو تاريخي لا بد من أن يدخل في نسق مؤرَّخ؛ فالتاريخ، وخاصة الثقافي منه، يتطور من خلال القطائع الإبستيمولوجية، عبر مسارات تختلف درجة قوتها ورجّتها من نسق لآخر؛ كما هو الحال مع التشكلات الاستطرادية لفوكو. كل ذلك يدفعنا إلى التساؤل عمّا إنْ كانت مهمة مؤرِّخ الأنواع، اليومَ، تنحصر في دراسة تطور هذه الأنساق النوعية باعتبارها سيرورة لها قوانينها المنظمة الخاصة، والتي قد تربطها بالتحرك العام للتاريخ (حسب التيار الماركسي أو الليبيرالي أو تيار آخر). وإذا كانت هذه المهمة لا تزال تبدو قابلة للتحقق، طالما هي متعلقة بالثقافات «الباردة»، الممتدة في فترة مستغرقة الطول؛ كثقافة عصور ما قبل الميلاد، أو الثقافة الوسيطية، فإنها، وللأسف، تصبح أكثر تعذراً وتعنتاً كلما اقتربنا من الحداثة. والأدهى والأمرّ أننا لا نصادف الصعوبة، فقط، في تمييز مواضيع المقاربَة وتصنيفها دونما اعتبار للمسافة الزمنية، إذ ثالثة الأثافي أن طبيعة المواضيع الثقافية تتغير وتصبح متفرعة إلى ما لا نهاية في عصرنا الراهن؛ فأدب هذا

---

1 - Fortunes et infortunes des genres littéraires en Europe. 2ème Congrès du REELC (Clermont-Ferrand, CRLMC, septembre 2007)

2 – باحثة في الترجمة/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة عبد المالك السعدي/ تطوان.

3 – «سيرج زينكين» (Serge Zenkine): من مواليد 1954، باحث أكاديمي روسي نال الدكتوراه في الآداب، ويشغل الآن منصب مدير الأبحاث بجامعة العلوم الإنسانية بموسكو. (RGGU) ألّف العديد من الكتب والمقالات عن التاريخ الأدبي ونظرية الأدب وتاريخ الأفكار.. من أعماله: («مدام بوفاري» وقهر الواقع –منشورات جامعة كليرمون فيران (Clermont-Ferrand 1996)، شرح الرحلة الروسية لـ«ثيوفيل غوتييه» (Théophile Gautier)– منشورات(Champion 2007).. ترجم إلى اللغة الروسية أعمالاً لبعض مفكري القرن العشرين الفرنسيين، أمثال: «باتاي» (Bataille) و«كايوا» (Caillois) وآخرين.

العصر، الموسوم بالحرية والجدة، يستلهم من «جمالية المعارضة» التي يميزها يوري لوتمان عن «جمالية التماثل» المهيمنة على الثقافة الكلاسيكية. فكلما تغلغلت الحضارة في أعماق الحداثة أصبحت أعمالها مستعصية على التصنيف، ومنعتها فرادتها المتطرفة من الدخول في خانة تصنيف نوعي ما. ويظهر جلياً أن عصرنا «بعد الحداثي» قد وصل إلى الحد المنطقي لهذا التطور؛ إذ تكوّن لدينا اليوم إحساس يجعلنا نرى أن العمل الأدبي، كي تكون له قيمة، عليه ألا ينتمي إلى أيّ نوع – أو أن يتضمن عدة أنواع في الآن الواحد؛ الشيء الذي سيؤدي بالضرورة إلى الحالة الأولى–؛ إذ أصبحت التصنيفات النوعية للأدب «الجيد» فضفاضة ومترهلة إلى درجة أن أي نص نثري يمكن أن نصنفه على أنه رواية، وكل قطعة من الأبيات يمكن اعتبارها شعراً، دونما تمييز دقيق. فبتشرب حرية الإبداع، وإقصاء القيود البلاغية، أضحى الأدب ينسف جميع ضغوطات النوع؛ مما يدفعنا إلى القول إن كل عمل جديد، منذ الآن، سيصنف على أساس أنه عمل فريد من نوعه.

أتكون، إذن، خلاصة الأمر أن الأنواع الأدبية قد انقرضت؟ قطعاً، لكن يجب أن نبحث في الروايات والقصائد «الجادة». إننا نصادف أنواعنا الحديثة، ونحن نجوب أروقة المكتبات الكبرى: هذه «رواية بوليسية»، وتلك رواية «خيال علمي»، والأخرى «رواية رومانسية» إلخ. نجد هنا نصوصاً مقننة وموجهة وفق قواعد محددة بدقة، ومتعارف عليها من لدن الكتاب وقراء هذه الإنتاجات الجماهيرية. وللغة الإنجليزية مفهوم عام يضم هذه الأنواع «المنظمة»؛ ولهذا السبب فقط اعتبرت ثانوية – إنه الخيال، المناقض لأدب الإلهام التقليدي، والمغرق بالتالي في الأصالة –. أما مصطلح «السينما» فيظل المصطلح الأبلغ: إنه يميز أفلام «النوع» (أفلام الويسترن، الأفلام البوليسية، الميلودراما (المراثي)، الكوميديا، إلخ.) عن أفلام «المؤلف» الفريدة والمتملصة من قيود النوع. إنه لغز تقترفه ثقافتنا: لقد أصبحت تصنيفات النوع والمؤلف متكاملة ومتوزعة حسب درجات الأدب والفنون[1]. لكن الوعي النوعي لم يختفِ بالمرة، إنه يهرع إلى الثقافة الجماهيرية التي تشكل للأدب «الكبير» مأوىً يحفظ الأنواع التي تسمح لكتابِ أعمال «المؤلف» المتحَ على هواهم من البنيات من أجل التنويه بها، والسخرية منها، وتنظيمها، ومقارنتها، وأخيراً تحويلها وتطويرها كي تتجاوز الاستعمال المشترك. هكذا، يتوزع الأدب اليوم، من وجهة نظر نوعية، إلى نسقين فرعيين؛ يرتبط الواحد منهما بالنماذج الثابتة وب «جمالية التماثل»، في حين يحترف الآخر «جمالية المعارضة». ويقتسم هذان النسقان الفرعيان، فيما بينهما، تمظهُرَين من اللغة: اللسان والكلام حسب تعبير سوسير[2]. وعلى العموم، فإن هذا التقسيم للأدب الراهن لا يؤدي، في النهاية، إلا إلى إماطة اللثام عن التناقض، الذي يعتبر ضرورياً لعملية الإبداع التي ترتكز على توظيف نموذج موجود سلفاً، لكن مع وسمه بطابع شخصي خاص فيه ما يكفي من التفرد.

إنني أريد في هذا المقام أن أقارب تاريخ الأنواع من زاوية تكونها وتحولها. من هذا المنظور، فالنوع ليس نتاجاً لانعكاس معمم على الأدب، ولكنه بالأحرى مادة خام ترصد للصنعة الأدبية، لا تخص المنظرين ولا حتى الممارسين للأدب. إنه يشبه حجراً نتلقفه من طلل قديم كي نستعمله في بناء حديث، دون أن نأبه، في

1 – وحده الأدب الجماهيري (قصص بوليسية، روايات– مسلسلات، روايات الخيال العلمي، إلخ.) يجب أن يستدعي مفهوم النوع الذي سيكون تطبيقه مستعصياً على النصوص الأدبية الخالصة.

2 – لقد كانت هذه الثنائية نفسها تحكم علاقة الفولكلور بالأدب. ينظر:
- Roman Jakobson, Piotr Bogatyrev, «Le folklore, forme spécifique de création», dans Roman Jakobson, Questions de poétique, Seuil, «Poétique», 1979, p 59-72.

بعض الأحيان، لاستعماله السابق. بهذا يصبح تاريخ الأنواع هو تاريخ الاستعمالات المتجددة والتحولات التي تلحق هذه الأنواع.

إن هذه المقاربة ليست متداولة بشكل كبير في نظرية أدب القرن العشرين، التي تبحث عن الثوابت النوعية، وتفاضل بينها. إنها تحاول، مع نورثوب فراي، أن تجعل النوع صافياً من كل العوارض، ومؤسساً على مضامين النفس الخالدة[1]. إنها تنسج، مع ميخائيل باختين، أساطير عضوانية للأنواع التي تتمتع ب «الذاكرة الموضوعية للنوع»[2]، والتي تحافظ، بشكل ظاهر أو خفي، على بنياتها الأساسية على امتداد تاريخ عريق، ومتقطّع أيضاً. إن المنظرين، وخصوصا شديدي الحذر منهم، يقتصرون على استخلاص النواة الأساسية والثابتة في الأنواع الأدبية، والتي ستكون في تقابل مع المحيط المتغير. هكذا نجد جون ماري شافر[3]، الذي بلور أفكار جيرار جنيت[4]، يميز بين أربعة تعاريف للنوع؛ الشيء الذي يعني، بالضرورة، وجود أربعة تفريعات للنوع؛ واحد منها، فقط، مؤسّس على صيغ الخطاب، له خاصية موضوعية وثابتة، في حين أن التفريعات الأخرى المتبقية مرصودة للتعاريف المتجددة، والمتعسفة في بعض الأحيان.

هكذا، فعندما يختار الكاتب نوعاً ما (خاصة إذا كان كاتباً حداثياً)، فإنه لا يخضع لقوانين ذلك النوع وقواعده المغالية والممتدة، بقدر ما يجعل منه موضع لعب بالكتابة. إنه يجد أمامه بضع قوانين وشروط ذات أصل عرضي، نادراً ما تكون جلية، لكن غالباً ما تكون مختصة بأسماء نوعية: رواية الفروسية مع سيرفانتيس صاحب دون كيشوط، والرواية الشرقية مع فولتير صاحب زاديغ، والرواية التاريخية مع والتر سكوت صاحب إيفانوي، والرواية- المسلسل مع دوستويفسكي صاحب الجريمة والعقاب، والشعاريات مع رامبو صاحب «فينوس أناديومين»[5].. في جميع هذه الحالات نجد الكاتب «الجديد» يتصدى لمهمة تحويل النموذج السائد تحويلاً جذرياً. وكما هو الشأن بالنسبة للعامل التطبيقي، فغالباً ما يقوم بتجاهل النسق الكامل المشكّل من تلك القوانين. إنه لا يستطيع توزيع الأهمية على كل السمات المميزة التي تسم النوع في إطار نسق مشابه. إنه لا يتعرف النوع إلا من خلال بعض السمات الأشد راهنية، والمتعارف عليها في بلده؛ وبهذا يقترب النوع من النمط كما يعرّفه المنطق. إن منطق «الأنماط» المرن، الذي اكتشفه التأريخ الرسمي المعاصر في عمق تصوراته[6]، يظهر قابلاً للتطبيق على باقي الأنواع الأدبية. فالنوع يتمظهر باعتباره تنويعاً لبعض السمات المهيمنة التي تتواتر وتتشبث بمظهر من استمرارية التقليد الذي يتحول بتعاقب العصور والثقافات، واختلاف الجماليات ووسائل الإعلام. وفي نهاية المطاف، يمكن أن يكون أي نوع، كما هو شأن العلامة السوسيرية، مجرد تعالق اعتباطي بين التيمة والشكل؛ حيث يمكن للطرفين أن يتفرعا إلى ما لا نهاية دون التخلي عن العلاقة الدالة التي تربطهما.

---

1 - Northrope Frye, Anatomie de la critique, Gallimard, 1969 [1957].

2 – ينظر:

- Mikhaïl Bakhtine, La poétique de Dostoïevski, trad. Isabelle Kolitcheff, Seuil, «Pierres vives»,1970, p. 168.

3 - Jean-Marie Schaeffer, Qu'est-ce que le genre littéraire ? Seuil, «Poétique», 1989.

4 - Gérard Genette, Introduction à l'architexte, Seuil, «Poétique», 1979.

5 – ينظر التعليق الذي كتب حول هذه السونيتة:

- M.Riffaterre, La production du texte, Seuil, «Poétique», 1979, p 93-97.

6 - Ikolai Koposov, Kak doumaiut istoriki [Comment pensent les historiens], Moscou, Novoe literatournoe obozrenie, 2001.

ويعتبر الشكلانيون الروس أول من جاء بفكرة «السمة المهيمنة»، التي تمكن من التعرف إلى النوع دون الحاجة إلى الرجوع إلى النسق الشامل، وقد أطلقوا عليها بالضبط اسم المهيمنة؛ فمع التحول، تقوم المهيمنة بإعادة توزيع مراتب العناصر المكونة للعمل، كما «تشوهها» أيضاً؛ إذ تسند إليها وظائف جديدة، حتى (وإنْ كان شكلها الخارجي يظهر سليماً من أي تغيير. وقد كتب يوري تينيانوف في إحدى مقالاته المهمة «عن التطور الأدبي» يقول:

«إن النسق لا يرتكز على التفاعل المتساوي بين العناصر، لكنه يفترض وضعاً يقدم مجموعة من العناصر («المهيمنة») على الأخرى التي يلحقها التشويه. وبفضل هذه المهيمنة تستطيع بعض الأعمال اقتحام الأدب، واجتراح وظيفتها الأدبية (...). إنه الشأن نفسه بالنسبة للأنواع؛ إذ أصبحنا اليوم نلحق الرواية بسلسلة «رواية» بالنظر إلى أبعادها، وإلى نمط معالجة الموضوع، الذي كان يؤسس منذ زمن على حضور العقدة الغرامية».[1]

إن المثال الذي استحضره تينيانوف لا يقل وضوحاً عن صياغته العامة. وفي الواقع، فإنّ هذين التعريفين التاريخيين لـ «رواية» يتجليان، بوضوح، باعتبارهما تعريفاً شكلانياً («أبعادها»، «نمط معالجة الموضوع») وتعريفاً موضوعاتياً («حضور العقدة الغرامية»). وباحتكامنا إلى هذا المثال، يتكون لدينا شعور بأن الوعي الأدبي، من حين إلى آخر، يكيف تصوراته بطرائق مختلفة؛ فمرّة يتعرف إلى الرواية من خلال سماتها الشكلية، ومرة عبر الارتباط بتيماتها و«مضمونها» الإنساني، والأخلاقي، والعاطفي، إلخ. وعلى العموم، تظل لهذه الآلية أهمية كبرى في تاريخ الأدب. إنها تعاقب بين الاتجاهين «الشكلاني» و«الواقعي». وفي موضع آخر (بعيداً عن التعاقب الذي أسلفنا ذكره) يمكن أن توجه التعاريف المتجددة الأنواع الأدبية.

إن بعض الوقائع اللغوية تؤكد هذه النظرية؛ فلطالما كانت للأنواع أسماء خصها بها معاصروها - وليس بالرجوع إلى الماضي؛ كما في حالة «الأساليب» و«العصور» الفنية والثقافية («عصور ما قبل الميلاد»، «الباروكية»). ويظهر أن هذه المصطلحات النوعية قد تووضع عليها من خلال أسماء مشتركة لا تحمل أية قيمة اصطلاحية؛ مما يدل على أنها ستعود إلى وضعها السابق، المتمثل في الاسم المشترك، بعد أن تفقد محيطها الاصطلاحي الخالص، وتدخل في نطاق التسميات المتداولة التي لا تنتمي إلى أي مذهب أو تيار معين. الملحمة، الرواية، القصيدة الريفية الغزلية، المسرحية، الكوميديا، التمثيلية التهريجية، القصة، القصة القصيرة، الحكاية، اللوحة الفنية، البورتريه، الأغنية - كل هذه الكلمات، وكلمات أخرى غيرها (خاصة إذا وضعنا بعين الاعتبار الأصول المعجمية لمختلف اللغات، والتي تمنح استعمالات جديدة للمصطلحات المستعارة)، تمتلك، بحسبها النوعي الأدبي و/أو الفني الدقيق، معاني «مجازية» و«استعارية» ناتجة عن «انتشار» يعزى إلى بعض الوقائع، أو بعض الأوضاع، أو بعض الشخصيات، بل حتى إلى بعض أجزاء الجسد[2]. إن الأنواع الأدبية والفنية تسهم، بشكل تواتري ونسقي، في تصنيف الأعمال، بل في تصنيف الحياة

1 - Iouri Tynianov, «De l'évolution littéraire», dans Formalisme et histoire littéraire, traduit par C. Depretto-Genty, Lausanne, L'Age d'homme, 1991, p 240.

2 - من ضمن هذه المعاني المجازية معانٍ تمتح من المعجم الشعبي (مثلاُ: بورتريه، والتي تعني وجه)، ويسهل تفسير هذا الأمر إذا اعتبرنا أن اللغة الشعبية لغة غيرُ مقننة ومتحررة من القيود، الشيء الذي سيمنح لتطورها قدراً من الحرية أكبر من ذاك الذي تتمتع به اللغة الأدبية.

نفسها. إن رسم الفن للحياة عن طريق المجاز، والذي لا يمل المنظرون من الحديث عنه، يضرب في أعماق المجازات النوعية التي لم تعد تصنف شروط النوع وتعاقداته، بل أصبحت تصنف الأحداث الواقعية. ويمكن افتراض أن هذا التبادل، الذي يتمظهر على المستوى السطحي للمعجم من خلال المصطلحات الطافية، له يد في تجديد تعاريف النوع، التي تنتج بعد أن يُضمّ المعنى «المجازي» للمصطلح النوعي الذي يظهر خارج الأدب، وذلك عن طريق «تشويه» معنى أو معانٍ كانت سائدة؛ الشيء الذي يمكن اعتباره آلية منتجة تسهم في تطوير الأنواع.

ويظهر هذا التبادل بين الأشكال النوعية «الأدبية» و«الفنية»، بشكل أوضح، في الأنواع المقننة نسبياً، التي تمثل النصوص المنتهية. إننا ننتقل مِن «الأنواع» المشوشة، والمعروفة أيضاً، التي تساعد في تحديد الأجزاء والعناصر المعزولة أو الأفعال المنظّمة للنص. ويمكن في هذا السياق أن نميز أنواع النص من أنواع الخطاب[1]، أو الأنواع البنيوية من الأنواع الموضوعاتية[2]؛ فنحن نعرف، منذ شكسبير، أن التراجيديا يمكن أن تتضمن حلقات ووجوها وخطابات كوميدية، كما نميز الرواية الحديثة، غالباً، بقدرتها على دمج الخطابات المتباينة؛ وذلك بفسح المجال لها، وتوزيعها على الشخصيات، وإن بدرجات مختلفة (كما نجد في تعريف «الرواية المتعددة الأصوات» عند باختين). إن أنواع الخطاب (مصطلح باختيني، استعاره تودوروف منه فيما بعد)، التي قد لا تكون لها نهاية، تقترب، بشكل كبير، من «الواقع» أكثر من أنواع النص: سواء من خلال تمثيله عبر أشكال تعاقدية؛ كما هو الشأن بالنسبة للكوميديا أو التراجيديا، أو بتمثيله مباشرة عبر تقديم عينات من الحوار اليومي البعيد عن الأدب (مثلاً: الدعاء، المشاجرة). إلا أن التغيير يلحق أنواع الخطاب هي الأخرى، شأنها في ذلك شأن أنواع النص. كما أنها تخضع لمنطق التحولات نفسه، ويسري عليها النظام التعاكسي الذي يحكم «الشكل» و«التيمة»، وهذا ما سأحاول توضيحه في الصفحات التالية، من خلال تاريخ نوع حداثي إشكالي: الغرائبي.

إن هذا النوع، أو هذا الأثر النصي، قد تنوول بالدراسة في إطار عمل نظري سماه تزفيتان تودوروف: مدخل إلى الأدب الغرائبي. ففي هذا الكتاب، تمت مقاربة الأنواع وفق تصور تصنيفي دونما إثارةٍ لإشكال تطورها. لكننا نلاحظ تذبذباً غامضاً يحفّ بـ«المضمون» و«الشكل»، ونحن نجوب تاريخ «الغرائبي» على طول قرنين من الزمان. إنه تحرك لن ينفع معه وصف تودوروف للشكل النوعي.

لقد كانت كلمة غرائبي Fantastique، في اللغة الفرنسية، ترتكز، في بداياتها، على «مادة» الأفعال، لا على شكل تقديمها.. كانت تدل منذ القرن الرابع عشر على «الخيالي» كمقابل للواقعي، لكن ما إن نصل إلى أعتاب 1830 حتى نجد الغرائبي قد أعلن نفسه نوعاً أدبياً، خاصة مع حكايات هوفمان. وفي هذه الفترة، كما هو الشأن بالنسبة لفترات أخرى، لم يكن ينحصر الغرائبي بسهولة فيما هو ميتافيزيقي. لنظل مرتبطين بتصنيف جزئي للميتافيزيقي: إنه يحدد من خلال بعض التيمات المتواترة ذات العدد المحدود، التي حذف الواو تمتح من السلبي المقدس ذي الأصول المسيحية كما يرى الكثيرون؛ كالجن، والساحرات،

1 – في بعض اللغات، كاللغة الروسية، يحسن الحديث عن الآثار عوضاً عن الأنواع، وذلك من أجل إبراز الطابع المحلي لهذه الخطابات الجزئية المكونة للنص: فالنوع يميز العمل في شموليته، أما الأثر فيميز العناصر الجزئية التي يتكون منها.

2 – هذا التمييز لجيرار جنيت (مدخل إلى جامع النص).

والأشباح، ومصاصي الدماء، إلخ[1]. فتيوفيل غوتييه، على سبيل المثال، كان يحاكي بسخرية، منذ سنة 1831، موضة الغرائبي في قصيدته ألبرتوس، أو قصيدته الأخرى الروح والإثم. إنها أسطورة نظرية تلك التي نواجهها ونحن نقدم جرداً طويلاً للمواضيع المكرسة لغرفة ساحرة، ونعينه بمصطلح «نوعي»[2]. إن هذه الموضة، وهذا التعريف الموضوعاتي أيضاً، لم يصمدا طويلاً؛ إذ تمت الاستعاضة عن تيمتي «الغرائبي» و«الثقافي»، منذ الثلاثينيات، بـ«الميتافيزيقي المسيحي»، وستصبح وجوهه تمثالاً ينتمي إلى عصور ما قبل الميلاد (فينوس جزيرةِ ميريمي)، أو أميرةً مصرية (قدم المومياء لغوتييه)، أو راقصةً إسبانية (إينيس دي لاس سييراس لنودييه)، أو كائناً تجريدياً غامضاً سيحتل مكان الإنسان في الكون (الهورلا لموباسان). إلا أننا نجد الرواة الغرائبيين يوظفون، في الآن نفسه، بوعي متنام، سيرورة سردية ستصبح مع تودوروف سمة أساسية للنوع: القلق الوجودي والتردد بين اختيار التفسير "«الطبيعي» أو التفسير «الميتافيزيقي» للوقائع. لكن في نهاية القرن التاسع عشر ستخضع هذه الفكرة لمقاربة مفاهيمية من طرف بعض النقاد، خاصة مع الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف، الذي استطاع تودوروف أن يبلور عناصر تصوره الخاص بفضل نموذجه المقتبس من أعمال المنظر الشكلاني الروسي فيكتور توماشيفسكي.

هكذا نجد أن التعريف الثاني للنوع الغرائبي لم يعد موضوعاتياً بقدر ما أضحى شكلانياً ومؤسساً على غموض الرسائل الموجهة إلى القارئ. ويجب أن نضيف أيضاً، إلى جانب طبع الساردين غير الموثوق به، سواء أكانوا رئيسيين أم ثانويين، كون كاتب الحكاية الغرائبية لن يحكيها أبداً باسمه؛ فالوقائع والأحداث التي يراها الحس المشترك ثورية بما فيه الكفاية تكون منقولة بواسطة، إما عبر سارد مستهتر، أو قارئ كفّ، أو أحمق، أو مهلوس، إلخ. إن جمالية حكاية القرن التاسع عشر الغرائبية، كما هو الشأن بالنسبة لجمالية الرواية الواقعية التي تنتمي إلى الفترة نفسِها[3]، لهي جمالية الشهادة؛ جمالية الخطاب المنقول وكلمة الآخر. وإذا كانت شخصية الملفوظ الغرائبي تحتار عن طيب خاطر، كما يلاحظ تودوروف، بين تفسيرين (والقارئ هو من يفعل ذلك لأجلها!)، فلن يتبق أي عنصر أساسي لبنية التلفظ إلا ويصير شاهداً مشبوهاً. إنها هي التي تؤكد امتداد رقعة الميتافيزيقي عبر أحاسيسها الشاذة، وردود أفعالها الدرامية.. لقد أصبحت

1 - ينظر:

- Ferdinand Brunot, Histoire de la langue française, des origines à nos jours, Armand Colin, t. XII (par Charles Bruneau), 1948, p 144-146 :

«إنني أدرج تحت مسمى «الغرائبي» العجائبي الوثني، والعجائبي المسيحي، والسلف والسلفة ، والجنيات والباريات، إلخ.. (...) في سنة 1820، كما في سنة 1947، لا نؤمن بالجنيات على الإطلاق، لكننا قد نشعر بالخوف من الأشباح، (...). لقد أصبح الشيطان شخصية عائلية، (...) والساحرات أصبحن خادمات للشيطان...»

2 - ينظر:

-Théophile Gautier, OEuvres poétiques complètes, éd. par Michel Brix, Bartillat, 2004, p 12-15.

نذكر ضمن هذه التيمات المجازية للنوع: «الخفافيش العجاف»، «إنبيق تلتف حوله لوالب غريبة»، «وحوش منقوشة حول فلك الأبراج»، «أكوام آلات باروكية مغبرة»، «بعض من رؤوس الموتى»، «هيكل منتصب بذراعين مفتوحتين»، «القط الأسود».. خلاصة القول: «إنها واقعية الحكايات الغرائبية/ إنه النمط الحي للرؤى الهزلية/ إنه هوفمان، إنه رابليه!.» (نفسه، ص 13)

3 - ينظر: باختين، شعرية دوستويفسكي ، الفصل 5 «كلمة دوستويفسكي».

متحررة؛ بفضل تجربتها، من ربقة الأحداث والوجوه.. لقد أضحى العالم كله غرائبيا في حضرتها؛ ف «الغرائبي لا يقبل أنصاف الحلول: فإما ألا يكون، وإما أن يشمل الكون كلّه.»[1]

إلا أن التغيير سرعان ما سيدخل مرة أخرى على بنية النوع خلال القرن العشرين؛ فسرد الأحداث الخارقة سيشهد انتعاشاً متنامياً (كما نجد عند توماس مان، وغارسيا ماركيز، وكذلك مع المحاولات اللامتناهية لتالكيين في محاكاة «الملحمة الغرائبية»[2]، سيد الخواتيم على سبيل المثال) من خلال طابعه الخرافي بامتياز، الذي يدرج «الطبيعي» و«الميتافيزيقي» في توافق دلالي واحد؛ إذ يظل تضادهما محايداً في مستوىً من مستويات الدلالة، فمسخ كافكا لغريغور سامسا مخيب للآمال، لكنه مع ذلك يبقى مسخاً معلناً عنه منذ عنوان القصة، ومقبولاً في إطار السرد الخرافي الحديث؛ إذ تتحدث الأساطير والخرافات غالباً عن مسخ الإنسان إلى بهيمة.. ورواية أو قصة من هذا النمط لم تعد في حاجة إلى إلحاح داخلي على تأمين حيرة وغموض الملفوظات. لقد أصبح كل شيء فيها يقال بوضوح، دونما أي التباس أو إبهام. ومن جهة أخرى، نجد الأحداث الخارقة تسرد من خلال تنوع غني للاستعارات العكسية، كما هو الحال في قصص بورخيس وكورتازار «الغرائبية»[3]؛ فهنا يرينا النص برامجه السردية الخاصة، ويعرض لنا خدعه، إلا أن هذه البرامج تظل مستقلة عن «طبيعية» أو «ميتافيزيقية» الأحداث المسرودة؛ فمع ألان روب غرييه (في المتاهة) يتم الاستغراق رويداً رويداً في وصف لوحة فنية، من خلال سرد الحركات التي تحفل بها تلك اللوحة، وهذا السرد «الثانوي» موثوق بالسرد «الرئيسي» الذي يتشكل من أحداث خارجة عن إطار الرسم.. إنها استعارة عكسية ذات مفارقة سردية صارخة لا تحمل في عمقها أي طابع «غرائبي».

هكذا، وبعد أن تشكل في أدب القرن التاسع عشر، أصبح الغرائبي السردي المحدد بالغموض والحيرة يضعف ويتلاشى في الأدب الراهن. إنها مفاهيم أخرى، وآثار أخرى، تلك التي ظهرت (الخرافة، الاستعارة العكسية)، والتي تعيد الاعتبار للميتافيزيقي في النصوص المعاصرة – بتعبير آخر، لقد ظهرت مهيمنات بنيوية حلت محل المهيمنة البنيوية للغرائبي السابق، لتقاسمه بذلك حقل أحداثه القديم. يمكن القول إذن إنه لم يعد هناك نوع غرائبي محدد بدقة في الأدب، بقدر ما توجد تقاليد نوعية عديدة تجترح كل منها توظيفها الخاص للأثر الغرائبي[4].

لكن ثقافتنا المعاصرة تمخضت عن نوع غرائبي جديد يتعاون مع الغرائبي الأدبي؛ وذلك لكونه يقتبس منه تيمات جديدة، معيداً استعمالها: إنها السينما الغرائبية. فمع البدايات الأولى لجورج ميلييس في أفلامه الخرافية الكبرى، التي شهدتها ثلاثينيات القرن العشرين؛ من مثل: فرانكشتاين Frankenstein أو كينغ كونغ

---

1 - Jean-Paul Sartre, «Aminadab ou du fantastique considéré comme un langage», dans Critiques litt - raires (Situations, I), Idées/Gallimard, p 150.

2 – تعريف مقتبس من قاموس هاشيت.

3 – ينظر:
- Sur la métalepse narrative : Métalepses: Entorses au pacte de la représentation (Sous la direction de John Pier et Jean-Marie Schaeffer), Editions de L'Ecole des hautes études en sciences sociales,2005.

4 – تسعفنا التنمية المعجمية مرة أخرى في توضيح بعض المستغلقات؛ فمثلاً في اللغة الروسية، يطلق اسم «الغرائبي» على الخيال العلمي المجرد من أي أثر يدل على الغموض أو القلق الوجودي.

King Kong، تم تبني «الحكايات الأدبية»، أو كائن أو حادث خارق اجتاح العالم «الواقعي». لكن منذ سنة 1970، مع بليد رانر Blade Runner لريدلي سكوت، أصبحت الأفلام تنحو منحى «الخيال العلمي»؛ كأعمال أوندري تاركوفسكي (سوراليس Solaris، ستاكلر Stakler). لقد أضحت السينما الغرائبية تخترع عوالم موازية تخلق لدى المشاهد، إلى جانب الإعجاب والمفاجأة (كما هو الحال، مثلاً، مع السينما اللاطوباوية؛ كميتروبوليس Métropolis لفريتز لانغ)، افتتاناً أيضاً، وحيرة وجدانية تمثلهاغربة الحميمية؛ كما هي عند فرويد Unheimliche. إننا نعرف مدى تضخم هذا التوجه في العصر الراهن، والمتمثل في العطاء المجزل على الإنتاجات الهوليودية الضخمة؛ من مثل: حرب النجوم أو ماتريكس Matrix.

لهذه الأسباب مجتمعة سميت هذه السينما غرائبية؛ لأنها تحمل القلق الوجودي للحكايات الرومانسية، وإن كان بملامح غير واضحة: فهو منصهر في وجوه الوحوش، وممتد في العالم بأسره بفضل الشكل المتاهي الذي تنتهجه السينما الغرائبية. ويتميز الوحش؛ تلك التيمة المفضلة للسينما منذ بداياتها الأولى، بكونه، في العمق، مخاتلاً ومداهناً: أهو بهيمة؟ أهو آلة أم ربما كائن بشري؟ فعلى الشاشة، تفسح مخاتلة الخطاب الغرائبي المجال لمخاتلة الجسد الغرائبي. ولقد أصبحت السينما الآن تستثمر هذا التأثير بشكل نسقي منظم؛ وذلك بربطه بمخاتلة الفضاء الذي غالباً ما يكون متاهة (سراديب، أنقاض مدينة، إلخ). إنهما نموذجان تقليديان وعاديان – يكفي فقط أن نستحضر أسطورة الرجل الثور Minotaure في عمق متاهة جزيرة كريت – لكن، ولأسباب جمالية لا يمكن استعراضها الآن لضيق المقام[1]، أصبح فن السينما مجهزاً بما فيه الكفاية من أجل تمثيلهما بشكل يحفظ القلق الوجودي؛ كما هو في الغرائبي الأدبي، ويجعله ممتداً على رقعة الكون، إلا أنه لم يعد متموقعاً على المستوى التلفظي للخطاب السردي، بل أصبح يتمركز على مستوى المظاهر المرئية والتيمات «الواقعية» للفيلم. ونحن نمر من الأدب إلى السينما نلاحظ أن الغرائبي قد خضع لتحول جوهري: لقد أصبح تعريفه الشكلاني، المنبني على التصنيفات البنيوية المجردة، تعريفاً «ماديا» يتفاعل مع الصور المحسوسة التي يتلقاها المشاهد. ولم يعد مقروناً بسؤال «الكيف»، وإنما بسؤال الـ«ماذا؟»؛ فبعد أن كان سجلاً للكائنات والأحداث الميتافيزيقية الخارقة مع الرومانسية، وبعد أن اجتاز فترة التجريد السردي (حسب تعبير تودوروف)، أضحى الغرائبي ينحو نحو التماسك والارتباط بالموضوعات، ويؤسس عالماً جديداً، لا من خلال الملفوظات، وإنما من خلال المرجع الملتبس. لقد غيّر الغرائبي وسيطه الإدراكي؛ فتخلى عن الشفهي لصالح البصري – الشيء الذي يمكن اعتباره من أهم ملامح تطور الأنواع في العصر الحديث.

إن استحضار مثال واحد فقط ليس بالحجة القاطعة، ولعل تخصيص دراسة مطولة عن الأنواع الأخرى سيكون بمقدوره مقارعة هذا الطرح. وعلى كل حال، فإنني أرى أن هذا الطرح يعيد الاعتبار للطابع الدينامي والمتقطع لتطور الأنواع، الذي لا يتوانى عن اللعب بمواقع «الشكل» و«العمق»، و«المتخيل» و«الواقعي»، والمقروء والمرئي، والعلامة والمرجع. إن التاريخ، كما هو معلوم، يتقدم من خلال الانزلاقات والثورات، وهذا دأب تاريخ الأنواع أيضاً.

---

1 – لقد رصدت مقالاً كتبته باللغة الروسية لهذا الموضوع:

- Serge Zenkine, «L'effet de fantastique au cinéma», dans Fantastitcheskoe kino : episod 1, sous la direction de Natalia Samoutina, Moscou, Novoe literatournoe obozrenie, 2006, p 50-65.

سيرة وحوار

تنبيه:

«أثبتنا سهوا صورة في حوار العدد الثاني على أنها للأستاذ حسن طالب، وهي ليست له؛ وعليه وجب التنبيه والاعتذار للأستاذ حسن طالب وصاحب الصورة».

الأستاذ مولاي أحمد العلوي[1]
والدرس اللغوي / اللساني: مسار حقل ورجل

حاوره: محمد عدناني[2]
ومحمد الدرويش[3]

الأستاذ مولاي أحمد العلوي عَلَمٌ من أعلام اللغويين المغاربة والعرب. رجلُ مسارٍ حافل بالعطاء العلمي السخي داخل الجامعة وخارجها. أبدع في أربعة اتجاهات أو أكثر (للتمثيل لا الحصر). فأما أولها، فتقلده لمناصب علمية وإدارية رفيعة داخل الجامعة المغربية وغير العربية، مما إن تتبعناه جُمْلة ضاق بنا وبه المقام. وأما ثانيها، فتكوين جيل كبير من خيرة الأساتذة الذين اشتغلوا بالدرس اللغوي/ اللساني، وتحولوا بدورهم إلى مُكونين ومنتجين فَعَّالين في هذا الحقل. درَّسَهُم وأشرف على بحوثهم، وتابع مسارهم تقويما وإرشادا... ووجههم حيث تنبأ لهم بالنبوغ فنبغوا.... وثالثها، أنه مؤسس ورئيس نادٍ علمي عريق يتناغم وتخصصه، سعى ويسعى من خلاله إلى ترسيخ مبادئ البحث اللغوي/ اللساني في المغرب، وذلك خارج أسوار الجامعة، وإن كان ينتسب إليها بأكثر من سبب، إن على مستوى طبيعة الموضوع أو الرجال المنخرطين فيه. إنه اتحاد اللسانيين المغاربة، الذي يضم جملة من خيرة الباحثين المغاربة في حقل اللغويات بمختلف توجهاتها ومشاربها. ورابعها، أنه صاحب مشروع علمي خاص به، يتوج مساره وأنشطته داخل الجامعة وخارجها، تُؤثِّثه العديد من الكتابات التي اطلع عليها القارئ المغربي والعربي في شكل مقالات أو مداخلات أو لقاءات أو كتب ذاع صيتها حيثما وُجد اللغويون/ اللسانيون، وحيثما وُجد الراغبون في التَّشَبُّع بقيم البحث في اللغة، و اكْتِناه أسرارها العجيبةَ، وهم كُثُر بكثرة بلدان البحث شرقًا وغربا.

ويكفي أن نذكر من مؤلفات الرجل ما يلي:

- الطبيعة والتمثال: مسائل عن الإسلام والمعرفة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط 1988.
- التفسير القرآني والبرهان اللغوي (بالفرنسية). دار عكاظ. الرباط. سنوات الثمانين.
- ابستمولوجية اللغويات العربية (بالفرنسية). دار عكاظ. الرباط. سنوات الثمانين.
- الأمشاج النحوية. بحوث فى الإبستمولوجية اللغوية العربية. فى طريق الطبع بمؤسسة زاوية للنشر بالرباط بعد أن كانت نشرت من قبل فى مجلات ودوريات ابتداء من سنة 1970.

---

1 – رئيس اتحاد اللسانيين المغاربة. أستاذ باحث في اللغويات بجامعات فاس والرباط وبني ملال/ المغرب.

2 – أستاذ البلاغة والنقد الأدبي/ كلية الآداب/ جامعة محمد الخامس/ الرباط

3 – أستاذ اللسانيات/ كلية الآداب/ جامعة محمد الخامس/ الرباط.

- الأمشاج التأويلية. بحوث فى تأويل النص. فى طريق الطبع بمؤسسة زاوية للنشر بالرباط بعد أن كانت نشرت من قبل فى مجلات ودوريات.
- العقلانية اللغوية العربية، منشورات فكر، الرباط 2014.
- المهاجر، منشورات فكر، 2014.

يسعدنا إذن أن نقدم للقارئ الحوار الذي أجريناه مع هذا البَحَّاثة، ومن خلاله تَعْريجٌ على بعض الجوانب المهمة من مساره داخل الجامعة وخارجها، طالبا وأستاذا وعالما. كل ذلك للاقتراب من الدرس اللغوي وقضاياه.

وإذ نسعد بذلك، نعترف أن حوارا بهذه الصيغة، وفي هذا المقام، بقدر ما نعتز بأنه حاول النبش في مسار الرجل، بقدر ما نعترف بأنه يظل قاصرا عن الإحاطة بكل محطات هذا المسار، نظرا لغناها وتشعبها. والأمل، بل الرغبة ملحة في استكماله في أعداد أخرى بحول الله.

فالشكر، كل الشكر لأستاذنا الفاضل مولاي أحمد العلوي على تخصيص حيز ثمين من وقته ليفتح لنا كَنائِنَ المسار، ويتفضل -كعادته- على القراء والباحثين بهذا الحوار الممتع والمفيد.

■ **الأستاذ مولاي أحمد العلوي باحث لغوي/ لساني كبير، لكن هل لك أن توضح للقارئ كيف اشتغلت بحقل اللسانيات؟**

● الحقيقة أن اشتغالي باللسانيات كان من جملة اشتغالات أخرى. لم أشتغل بها على سبيل الاحتراف الأعمى. لا. كنت في أول أمري أشتغل باللغويات وبغيرها من فلسفة وأديان و تاريخ وفقه وأدب على تفاوت في ذلك وترجيح للفلسفة، بل إنني في أوقات كنت لا أشتغل إلا بها حتى إنني أظن أنها كانت موقع العبور إلى الشؤون اللغوية من بعد، كنت أنوي أن التحق بقسم الفلسفة سنة1974 ثم عدلت عن ذلك لظروف، ثم اشتغلت بالمسائل اللغوية كفارة عن ذلك العدول، ثم انستني الأيام الكفارة وسببها. وما زالت فيَّ نزعة شديدة إلى البحث التاريخي والفلسفي بمعناه العام الذي تدخل فيه اللغويات نفسها. اللغويات العربية واللغويات عموما كانت تُداخل تلك الاشتغالات لأنها مما لا يُسْتغنى عنه ثم تحولت إلى اشتغال أول، ولكنها مع ذلك ظلت في إحساسي متصلة بالبحث عن أصول المعرفة اللغوية قبل البحث في المعرفة نفسها. لذلك لم أكن طيلة عملي بالجامعة داعيةً إلى مذهب أو نزعة، لا، كنت أنظر في كل الطرق وأبحث عن أصولها ونسبيتها وانتهى بي النظر أو البحث إلى القول بالفصل بين لغة المفاهيم التي هي لغة اللغويات بفروعها وبين لغة المادة التي هي لغة اللغة نفسها، حينئذ انقلبت إلى ما يمكن أن يدعى ب «اللغويات التأويلية». وعدت إلى بداياتي الأولى المتصلة بالنصوص وتقويمها الدلالي والمنطقي، صرت في نهاية تعليمي بالجامعة أشد تواضعا من حالي في بداياتي، كنت في بداية أمري بالجامعة مقبلا على الدرس اللغوي الغربي والعربي، وكنت أعتقد أن الشروط القائمة في ذلك العهد والممتدة إلى عهدنا، أي شروط المعرفة بالمفاهيم كافية لسبر أغوار العبارة اللغوية[1] لاكتشاف المغارة اللغوية، وكنت في ذلك الوقت مِقداما في ذلك ومُبَشِّرا به، بل لقد كنت في وقت من الأوقات أدعو الطلاب إلى الالتفات إلى فلان أو فلان من اللغويين الغربيين، بل لربما كنت أول من نبه الطلاب سنة 1970 إلى فرديناند دوسوسور وهاريس

وبلومفيلد، ثم أعرضت عن ذلك، وكنت فيه متأثرا بالتقدم الغربي الذي شاهدته في فرنسا أيام طلبي بها، وفريسة لظني أن التقدم المعماري والاقتصادي والتقني يصاحبه بالضرورة تقدم في أبواب المسائل الغيبية كالتاريخ وأصله واللغة ونظامها، أَعْرَضْتُ عن ذلك حينما تبين لي أن التقدم في البحث اللغوي بين العهود العربية القديمة والعهود المعاصرة هو تقدم في الشكل والتنظيم لا في الجوهر والقعر، وحين تبين لي كما أسلفت أن التقدم في البحث اللغوي لا يسمى تقدما إلا حين يستطيع اللغوي التعبير عن القضايا اللغوية بألفاظ بيولوجية أو فيزيائية لامفاهمية،

كذلك كنت، لكن لم أدم على تلك الحال، فقد انتقلت إلى القول إن معرفة اللغة معرفة يقينية أمر فوق طاقة الفكر. إن الفكر لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا إن فارق نفسه واللغة فكر، ولئن فرضنا أن اللغة تستطيع أن تفارق نفسها لتعرف نفسها لوقعنا في القول بالثالث المرفوع، فإن المفارق معدوم والمعدوم لا يعرف، وإن نسبنا إلى اللغة المعرفة وهي مفارقة نسبنا المعرفة الى المعدوم، وإن نسبناها إليه جعلناه والكائن مترادفين وذلك قول بالثالث المرفوع وهو ممتنع لا يقول به عاقل، لذلك كتبت في ذلك العهد بعد سنة 1970 مقالات عن القول النظري والقول الطبيعي بسطت فيها حدود القول التصوري وصرحت فيها ببعض ما أشرت إليه هنا، بل أتذكر أني كتبت مقالا طويلا نشر في مجلة كلية الآداب بالرباط عن نقد المفاهيم كان يدخل في هذا السبيل، ولا أستطيع هنا أن أحصي تلك المقالات فلعلها تجاوزت الخمسة وقفيتها بكتاب الطبيعة والتمثال الذي نشر بصورة تداخلت فيها فصوله حتى صار بعيدا عن الوضوح. وكانت غايتي منه مقاومة الخطة النظرية التي كنت عليها قبل سنة ثمانين. وكان عليها غيري معي في الجامعة وفي ميدان الفكر عموما وظلوا عليها، والتنبيه إلى أن الخطاب العلمي لا بد من أن يكون خبريا لا تصوريا نظريا. وكنت أقول حينئذ بمادية اللغة وخبرية كل حديث علمي عن المادة، وأدعو الى التخفيف من غلواء بعض النظار في ذلك العهد الذين كانوا يرون في النظريات اللغوية خطوة عظيمة في اكتشاف عالم اللغة، كنت أريد بذلك أن أنبههم إلى أن الخطوة العظمى هي التي تخطى حين يستطيع اللغوي الحديث عن العبارة بألفاظ بيولوجية مادية أو فيزيائية كما قدمت من قبل أو إن شئت بواسطة لائحة العناصر الفيزيائية المائة أو التي تجاوز المائة المدعوة عند الفيزيائيين بـ «اللائحة الحقبية» Tableau periodique.

■ **هل للأستاذ العلوي أن يضع القارئ أمام مسار الدرس اللغوي/ اللساني في الجامعة، أيام كنت طالبا ومُدَرِّسا؟**

• كان تعليم اللغويات في سنوات الستين قويا في التعليم الثانوي الأصيل، غير واضح القوام في الجامعة، كان يتولاه في التعليم الأصيل بفاس أساتذة على دراية واسعة بالنحو العربي والأصول وجملة العلوم الشرعية واللغوية، كان الاستقلال قد حل رواقُه والمغرب مزدهر الأكناف بفرح غامر لا لون له إلا لون الأمل، وكانت الدراسة في ذلك العهد متعةَ ما بعدها متعة، والأزمات بأنواعها مؤجلة إلى زمن محجوب، لذلك لم يكن التلاميذ في التعليم الثانوي الأصيل يشكون من ثقل البرامج الدراسية، ولا من اتساع البضاعة اللغوية التي يتلقونها من أساتذتهم وإن كانت ثقيلة بالفعل. وكان بعض العلماء علماء العربية والشرع يخففونها علينا كحال الفقيه مزور، لا يمكن أن أنسى أستاذا مثل الفقيه الزرهوني من علماء القرويين الذي درست عليه «أوضح المسالك» وابن عقيل في ست سنوات، درسنا عليه ذلك بصورة

لم تتكرر مع أستاذ آخر بعده، كانت دروسه أخصب وأدق وأجل من كل ما رأيته في الجامعة من بعد ذلك في باب اللغة العربية ونحوها وبلاغتها وأصولها، آخرون لا يُنْسَوْن من ذلك العهد كالفقيه الشامي أستاذ الأصول، والفقيه الزيزي الذي كان مع غيره قائما على تعليم البلاغة في مرجع حديث جامع هو «علوم البلاغة» للمراغي. وأظنه هو الذي كان شيخا للأزهر يوم كان للأزهر شيوخ. ومنهم الفقيه عبد الله الداودي الذي استبدل البردة الأوربية بالجلابة سنة 1958، وكان من أهل الحداثة والذوق والمعرفة الواسعة بالفقه. كان ثانوي القرويين في ذلك العهد أعلى أستاذية من التعليم العالي بعده، فقد كان أساتذته أعلى من غيرهم وأرسخ قَدَما وأطول تجربة.

كان تعليم اللسانيات في الستينيات بالجامعة متقلصا إلى الحدود القصوى، في كل الأقسام. بل إنه كان في فرنسا نفسها مقتصرا على اللغويات التطورية في صورتها القديمة، كما كانت عند أنطوان مايي وأقرانه كان اسمها في ذلك الوقت: اللسنيات، مصطلح من ابتداع أحمد الأخضر الذي كان يخص به معنى الصوتيات بمعناها الوصفي كما بينت في الكتيب الصغير كوسيج (Que sais-je)، لذلك كان الطلاب يسخرون من هذا النشاط الفكري الذي كان منحصرا في ذلك الباب. وكانوا أيضا يتضايقون من «المغني» لابن هشام إلا الذين جاؤوا من التعليم الأصيل، فإنهم كانوا على سعة من أمرهم لأنهم كانوا قبل الجامعة على صلة بالكتب النحوية القديمة، ومن اللطيف أن أذكر أن أستاذ «المغني» في ذلك الوقت كان من علماء القرويين، ولكنه لم يكن له سابق تدريس في الجامعة القديمة، ولا اتصال بالأعمال النحوية القديمة، فلم يكن في الحقيقة من علماء القرويين إلا بالاسم.

إذن، كانت الدراسات اللغوية عموما والنحوية في الكلية واقعة في الحقيقة وراء ما درسناه على علماء القرويين قبل ذلك. وكانت تحت ما عرفته الكليات من تقدم في الدراسات اللغوية بإشراف جيلي والأجيال التي جاءت بعدنا. ولكن جيلي كان الجيل المؤسس، وكان بعض جيلنا قبل بعض زمنا وفعلا. كان في الكلية لذلك العهد أساتذة شبان غير مقصرين، وكانوا التحقوا بالكلية في سنة (1964) أو قبلها بسنة، ولكنهم كانوا جميعا يشتغلون بالأدب وتاريخه، ولم يكن منهم أحد مشتغل باللغويات، نعم كان من بين الأساتذة الموقرين في ذلك الوقت أستاذ له اطلاع على اللغويات المقارنة بحكم معرفته باللغات الشرقية، ولكنه لم يكلف بتدريس اللغويات بالرغم من ظن العارفين بأنه كان يجيد إنجاز الدرس اللغوي المقارن في الكلية لو كُلِّفَ به. ولكن اللغويات شيء أوسع من المقارنة، ذلك الأستاذ هو محمد بن تاويت التطواني، كان هذا الرجل شديدا على نفسه وعلى أقرانه، ومطلعا اطلاعا واسعا على ميدان تخصصه، وكان عارفا بلغات شرقية وغربية، وكان يدرس الأدب المغربي والأندلسي والفارسية، وكان الناس يعرفون قدره كما كان يعرف قدر نفسه. وكان مشاركا بمقالات وأبحاث في باب الأدب المغربي، أما عن قدر نفسه، فقد سألته بعد سنة سبعين عن سبب إحجامه عن إعداد رسالة الدكتوراه، فأجابني بأنه سجلها مع الأستاذ د. عبد الرحمن عزام في سنوات الأربعين عن المثنوي، وأنه ترك ذلك بعد وفاة المشرف، ولم يسجلها من بعد مع غيره، إذ لم يجد من يستحق أن يتبوأ موقع المشرف عليه، وأظنه كان صادقا،

وصلت إلى باريز سنة (1967) والمغرب يغلي بالأحداث والشرق يحترق بهزيمته، كانت باريز كحالها في أول القرن العشرين وقبله، لم يكن تغير منها شيء.

في هذه الظروف أقبلت على الجامعة الفرنسية وكنت قبل ذلك قد واظبت على دراسة الفرنسية وحدي بجنب ما كنا ندرسه منها في الكلية وقبل ذلك منذ سنة (1952).

المختصر أني بحثت عن الأوضاع الجامعية في ذلك الوقت، وكان قد انتقل معي للدراسة طلبة مغاربة آخرون من كلية الآداب وعددهم أربعة أو خمسة، كانت الدراسات العربية والإسلامية تحت إشراف المستشرقين القدماء كروجي أرنالديز وريجيس بلاشير وشارل بلا وكولان ولاووست وبيرك وكاردي وبرنشفيك وفاجدا، وكان معهم بعض الشبان كتروبو ولوكونط، ولم يكن في الساحة غير هؤلاء، وكان أطيبهم مع الطلاب مع اطلاعه الواسع: أرنالديز، وكان أشدهم عليهم ريجيس بلاشير، وكان أعلمهم بالعربية شارل بلا، وقادتني قدماي إليه، وكان له هو وبلاشير ذكر عظيم في الأوساط الجامعية العربية. وكان شارل بلا معروفا بكتاب جهزه لتعليم الفرنسية، وكان يلقي فصوله في إذاعة فرنسا وإن كان لم يَطِرْ ذكره بذلك، وإنما انتشر بكتاباته عن الجاحظ والمسعودي وإشرافه على موسوعة الإسلام ومقالاته فيها، بالنسبة لبلاشير كان السبب بينا، فقد كان كبير السن، شيخا هَرِما في أرذل العمر، وكان ضعيف البصر. ثم إن الأستاذ د. صالحا الأشتر الحلبي السوري، أستاذي في الإجازة، ثم صديقي بعد ذلك في الكلية بفاس لما تشرفت بمعاصرته فيها بصحبة الأساتذة الآخرين الشرقيين والمغاربة المؤسسين، بل المجددين لما اندثر أو كاد يندثر من العربية بالمغرب كالمصري الكبير أستاذي نجيب محمد البهبيتي، والطيب الذكر د. عز الدين اسماعيل والدكتور عبد الحميد يونس، وكأستاذي الدمشقي الدكتور أمجد الطرابلسي أستاذ جيل عظيم من المغاربة، وذي الأثر الكبير فيهم. وكآخرين غابت عني أسماؤهم، ومنهم المغاربة كأخي المرحوم جمال الدين العلوي والأستاذ إبراهيم السلمي ومحمد السرغيني وجعفر الكتاني وغيرهم ممن عاصرتهم في فاس. وكان فيهم شبان عُيِّنوا مساعدين بالكلية يوم دخلناها سنة (1974) فدرست على بعضهم.

الحاصل أني أتممت السنوات الثلاث بشرها وخيرها في باريز وانتهت بالمناقشة، كان معي في ذلك العهد بالقسم نفسه الأستاذ محمد السرغيني والأستاذ المنيعي والأستاذ جعفر الكتاني والأستاذ عبد الله الحجامي رحمه الله. وتم الأمر برفعي إلى دكتوراه السلك الثالث من النظام القديم، وهي النوع الثاني في الرتبة من أنواع الدكتوراه في النظام الفرنسي لذلك العهد، وكان النوع الأول والأعلى هو دكتوراه الدولة ذات الأطروحتين.

كان يوم مناقشة الدكتوراه يوما عصيبا، كان قد بلغني عن بعض رفقائي الذين ذكرت أسماء بعضهم أنه عُصِرَ عَصْرا. فلما حُدِّدَ لي ميقات المناقشة كنت متحيرا، ولم يكن يخطر ببالي أن يُعَيَّنَ في اللجنة الأستاذ أرنالدَيز لاشتغاله بالفلسفة، والأستاذ أركون المتفرنس الجزائري لبعده عن العربية ومعرفتي بمنزلته فيها، ولحداثته في الرتبة الأكاديمية. فقد كان مر أمام اللجنة للدكتوراه قبل ميقاتي بشهر أو نحو ذلك. لم أسترح أول الأمر لأركون لأني كنت أراه يدخل ويخرج على شارل بلا الذي كان يشرف على أطروحته لدكتوراه الدولة، ولم يكن شأنه أعلى منا إلا في السن. فقد كان يتعدانا عمرا بقليل، وكان شأننا في العربية يتعداه بكثير. فقد كان يحسن الفرنسية كأهلها ويحسن العربية كالأعاجم والعلوج.

إذن، فقد بقي في نفسي شيء من أركون بسبب ما كنت أعلم عنه من اشتغال متأخر بالعربية، وبسبب ما

شاع عنه وعن الحمزاوي من عجرفة، وبسبب ما كنت أتوقعه من كل حديث شرف في الجامعة، لقد كنت أنتظر أن يُعَيَّنَ الأستاذ رجلا مثل كولان الشيخ الهرم، أو مثل لاووست أو غيرهما من الفرنسيين الذين كانوا أرحم وأطيب وأعلم من بعض أهلنا، وكانوا أحق بالعذر إن لم يجيدوا العربية كإجادتهم الفرنسية في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، خفف من هذا الحرج أمور سآتي عليها وفي أولها عضوية الأستاذ روجي أرنالديز في اللجنة، وكان عضو اليمين.

قال أرنالديز خيرا واختصر لأنه رجل محترم عند نفسه وعند الناس، فلم يدخل في أمور لغوية وهو الفيلسوف المعني بالأفكار والقضايا العامة. ولما انتقل الحديث إلى عضو اليسار أركون دعته نفسه أن يدخل في شؤون لفظية لغوية لم يكن يحسنها فاسْتَطَبْتُ ذلك ووطنت نفسي على الإجابة الحارقة. ولم يكن ذلك محرما عند الفرنسيين المغرمين بحرية الكلمة. وانتبه الأستاذ شارل بلا إلى الأمر وخاف عاقبة الفضول، فقاطع أركون ومنعه من إتمام كلمته، ومنعني من الرد عليه وقال: سأدافع عن هذا الشاب؛ ورد على أركون بما أفحمه. وكان هو رئيسا للجلسة ومشرفا لأقدميته وسابقته، وقال كلاما طيبا عن عملي ودافع عني وأشار إلى أنه يعرفه ويعرف جهدي فيه... ورفع الجلسة. وكان لا يرد له كلام ولا يتعداه في المكانة للسن والسابقة إلا بلاشير، ولم يكن بينهما على الظاهر خيط ود متين.

لقد ظل كلام أركون متورطا في حلقومه وقام مع اللجنة مثقلا بما لم يقل، وانتهت المناقشة ولم تطل أكثر من بعض ساعة، وكانت أُعْجُوبةً في العصر ولا أدري سبب ذلك، فقد يكون الأمر تأديبا لأركون أو تعبا من المشرف أو استعدادا لمناقشة أو اجتماع مقبل، الحاصل أن الأمر مر على تلك الصورة. ونجوت برأس طمرة ولجام.

كان هذا كله في نهاية سنوات السبعين، والحق إني لا أدري بالضبط مصدر الغباوة التي أصابتني فحركتني إلى العمل مع أركون وترك العمل مع أستاذي وأستاذه شارل بلا. وقد تبين لي من بعد أنها غباوة، فقد طلبني أركون ورجاني أن أكتب له تقريرا زعم كاذبا أنه طُلِبَ منه في القسم، فكتبته ودخلت عليه في مكتب من مكاتب الكلية بسانسي التابعة للسوربون، ولما هممت بالخروج استبقاني وأقعدني وطفق يعاتبني على عبارات كتبتها بضمير المتكلم المفرد ورأى في ذلك استكبارا أسلوبيا. ولم أجبه وخرجت من الكلية إلى أقرب مقهى وكتبت إليه رسالة أعزله فيها من الإشراف وأُذَكِّرُهُ بأني ما عملت معه إلا برغبة منه إليَّ بفاس، وإنني كنت غنيا عنه بأساتذته وأساتذتي كشارل بلا وأرنالديز وغيرهما بفرنسا، وبأستاذين أو ثلاثة من المصريين والسوريين كانوا في المغرب وعلى رأسهم نجيب البهبيتي. وذكّرته فيها أني لا أقبل الشروط التي ابتكرها وأن شروطي هي أن يقف عند الإشراف الإداري. لقد كان ذلك مني شدة في العبارة، وأصل الرد العنيف هو إحساسي بأنه إنما أراد أن يرد إلي القدحة التي تلقاها بسببي من شارل بلا من قبل أثناء مناقشة دكتوراه الاختصاص، كما كانت تسمى في ذلك العهد.

تركته واشتغلت مع روجي دولادريير من جامعة ليون بإشارة من شارل بلا الذي زودني برسالة لطيفة، واختار لي ذلك المشرف اختيارا بعد أن علم رغبتي في العمل مع فرنسي من قريش فرنسا. وابتسم

حين سمع مني هذا، وكنت قبل ذلك قد زرت مدام سيرياك الكاتبة العامة المساعدة للسوربون فعسرت علي أول الأمر الانفكاك من أركون، ثم أنعمت بذلك حين علمت قصتي وعذري.

انعقدت لجنة المناقشة بعد خمسة عشرة سنة من مناقشة سنة سبعين، وكانت الأعراف في الجامعة الفرنسية تُوجِبُ ذلك الأمد في الدراسات الفلسفية والأدبية وكل دراسات كلية الآداب والعلوم الانسانية. كان لادريير رجلا نبيلا من جيل شارل بلا وكان مثله حريصا على الجودة واللطف في المشافهة والمكاتبة. وكانا كلاهما من الصنف النادر في المستشرقين.

كنت لا أحب أن أستمع إلى نقد أعلمه قبل نُطْق غيري به. لذلك عزمت على تقديم تقرير في مفتتح المناقشة أُبَيِّن فيه عيوب الأطروحة التي قدمتها بإشراف لادريير وما ينبغي أن تصير إليه لو قُدِّرَ لي أن أُعيد كتابتها. وفعلت ذلك أمام اندهاش أعضاء اللجنة. وكان فيها على مقعد رئاستها الأستاذ كودي رئيس جامعة ليون وشارل بلا عضو معهد فرنسا وجيرار تروبو المستشرق اللغوي المعروف والمشرف دولادريير واثنان آخران متخصصان في اللغويات الهندية والأوربية غاب عني الآن اسماهما. كانت اللجنة مؤلفة إذن من لغويين ومستشرقين. اندهشوا فاختصروا الجلسة وقضوا بأن المرشح ناب عنهم وأجاد في النيابة، ولم تَطُلِ الجلسة أكثر من ساعة، وانْفَضَّ الجمع. ونجوت برأس طمرة ولجام مرة أخرى ولم يُقَصِّر أعضاء اللجَنة في الثناء على كلمتي الانتقادية، وخرجت من عندهم وهم في قمة الرضى.أرحتهم وأرحت نفسي من نصف يوم من الحوار والردود و...و....و.... إلخ.

عدت إلى المغرب، وانطلقت في أول سنوات السبعين إلى البحث في الأصول المعرفية للنحو العربي من خلال الفصل بين المقول النحوي، أي ما يقوله النحوي، وبين المفعول النحوي. أي ما يفعله دون أن يكون شاعرا به. واستمر ذلك مدة. وبقيت آثار ذلك في الكتابين اللذين نشرتهما بالفرنسية بعد ذلك بدار عكاظ بالرباط سنة (1985). لم يكن النحوي ليعرف أنه يصنف الكائنات اللغوية المتصورة، ولم يكن عارفا بأنه يتصور حين يتحدث عن تلك الكائنات ولم يكن يعرف أنه يحذف الزمن والمكان والأشخاص والقصة من الجمل التي يدرسها.....إلخ. ذلك ما كنت أقصده بالمفعول النحوي le Le faire grammatical. وحدث أن تحول إلي درس اللسانيات الحديثة سنة (1971) أو قبلها. وكان المقرر لسانيات سوسور واللسانيات البنيوية على العموم، فاشتغل الأستاذ عبد الوهاب التازي بفقه اللغة وتابع ما كان يعمله من قبل من مباركيات نسبة إلى محمد المبارك وصبحيات نسبة إلى صبحي الصالح. والحق أني ما لقيت خلال عملي بالجامعة شخصا حصيفا في العمل الإداري ومرضيا فيه من كل الأطراف كعبد الوهاب التازي ومحمد الكنيدري رئيس جامعة مراكش ووزير التربية.

الحاصل أنني تقاسمت درس اللغويات مع عبد الوهاب التازي الذي تولى عمادة كلية الآداب بفاس من بعد ذلك، ثم تولى رئاسة جامعة القرويين، جامعة الفقهاء، قدرا مقدورا ككل شيء. تقاسمنا ذلك قبل انقضاء عهد اليابوري وعودة النيابة إليه وذلك منذ سنة (1970). هو يدرس فقه اللغة وتنازل لي عن الباقي، أي النحويات واللسانيات أو اللسنيات على سبيل المكارمة، سجية فيه وطبعا.

■ **هل الدرس اللغوي/ اللساني أصناف متصارعة لا جامع بينها، أم روافد تتفرع لتسير إلى مصب واحد في نهاية المطاف؟**

• لم يكن هناك صراع لغوي في النصف الأول من السبعينيات، فقد كانت اللغويات التراثية والبنيوية تتجاوران، ولم يكن للتوليدية ذكر حينئذ. وكانت أعمال تروبتسكوي وجماعة براغ وأعمال بعض الروس المترجمة وبعض أعمال هاريس هي كل ما كان يتداوله المشتغلون باللغويات الأوربية والأمريكية. إنما كان الصراع الكبير هو رغبة الأساتذة في العودة إلى الرباط موقع عملهم، إذ كان بعضهم من الرباطيين وهم على الخصوص عباس الجراري واثنان آخران متظلمين من الحالة. وكانوا على حق، فإن بعض ذوي الإِمرة في الرباط قضوا بتوطين جزء من كلية الآداب الرباطية بفاس، ولم يكن صدر قانون بذلك.

في الرباط وجدت الصراع متأورا محتدما بين أنصار الحديث والقديم، ولم أجد السلم الذي تركته في فاس. وما غادرت فاس إلا بعد أن تغيرت خريطتها الشخصية. فقد التحق بأستاذيتها خلال السنوات ما بين (1970) و(1972) بعض طلبتي القدماء كمبارك حنون وعبد العزيز حليلي وأنور المرتجي ومحمد الحناش ومحمد أوراغ وغيرهم ممن غاب عني اسمه. ونقلوا إلى الكلية شيئا من اللغويات البنيوية الفرنسية، ولكنهم كانوا جميعا يجتنبون المبارزة والمشيخة فيما أعلم. ولا أستثني منهم إلا محمدا الحناش الذي كنت أشبهه بالفاسي في اعتقاده بنزول شيطان اللغويات عليه. وكنت أسميه فاسي خميس الساحل، لأنها مسقط رأسه بقرب العرائش. وكانت قوته البدنية والإدراكية وذكاؤه الاجتماعي الفطري يعينونه في ذلك العهد على الاتصال والمواصلة والبحث. ولكنه مع ذلك لم يكن مخلصا لشيطانه في كل الأحوال، أو كان شيطانه أدنى حبا له من شيطان الفاسي لصاحبه. ذلك أنه اختار مذهبا في اللغويات كنت أستبعده وأَضيق به ذرعا ولا أستمتع به. اختار مذهب هاريس وتلميذه الفرنسي موريس كروس. ولم يقصر في الدعوة للمذهب بفاس حتى أزعج زملاءه الآخرين فاعْصَوْصبوا عليه. وكانوا بحكم ما تقدم لي عليهم من أستاذية يجتمعون إلي ويشتكون، وكانوا جميعا من أرقى ما أنجبت الجامعة المغربية في تخصصهم. وكانت تكون لهم الغلبة لاجتماع كلمتهم عليه ولحبه الانفراد وثقته في نفسه لولا أني كنت أدعوهم إلى الصبر وأدعوه إلى المسالمة. لم يكن مذهب كروس وهاريس جذابا، وكان قائما على مقدمات غير بدهية. وكنت قبل أن أعرف موريس كروس بفاس عند زيارته إياها بتدبير من الحناش قد قرأت بعض أعمال هاريس وخصوصا كتابه عن اللغويات الرياضية، فلم أجد في ما كتب شيئا يستحق الثناء. وغلب على ظني أنه مظرمط سَفسوط {على وزن فعلول من السفسطة). ولما علمت أن موريس كروس من أتباعه وقرأت له بعض كتبه وحضرت محاضراته ازددت تعجبا من اختيار الحناش لمذهبه وسألته عن ذلك بعد عشرين سنة أو أكثر فزعم لي أن مذهب كروس كان الأساس لأبحاث لغوية رياضية لها صلة بالحواسيب. والعلم لله.

■ **كيف كان الدرس اللغوي/ اللساني في الجامعة بالرباط؟**

• انتقلت إلى الرباط وزعامة اللغويات فيها لثلاثة هم المرحوم الأغر الكريم السجايا العظيم المزايا الأستاذ أحمد الإدريسي، نادرة الدهر وواسطة عقد السر والجهر. فلقد كان خليلا مقربا إلي بأَعِنَّةٍ من الوداد أكيدة، وبحبال من التحالف الطَّبْعي شديدة. ثم تأكدت بِتَواثُقِ عهود قديمة وجديدة وتواتر دلائل على

ذلك قريبة وبعيدة. والثاني هو أحمد المتوكل الذي لا يشق له غبار في علمه بالفرنسية، ولا يحتاج إلى شيء من أحد في العربية. وكان قَوَّاما على الدراسات اللغوية التداولية الحديثة، وغواصا يُحَوِّلُ الدُّر التليد إلى زمرد نضيد، واقفا على ذلك زمنه وجهده مع ظرف وحسن مقاربة وأدب جم. والثالث هو عبد القادر الفاسي الذي إن ضِقْتَ بشدة سجاياه، فلا بد من أن تذكر فضله في الدفاع عن العربية بمقالات أحسن فيها وأفحم. وكان خصما للنحو العربي القديم وُمْسَتْعديا بذلك أحمد الادريسي ومؤججا لحفيظته. وكان منذ أول أمره نحويا قواما على اللغويات الأمريكية حتى انقادت له رقاب الراغبين فيها الظانين أن تفوق الأمريكيين في القنابل والتوماهوك يوازيه تفوق في معرفة الحقائق اللغوية وكانوا ظالمين. فإن تلك الحقائق من علم النبوة لا من علم النُّظار والنظريات. وقد أشير إليها في آيات اختلاف الألسنة. وكان هؤلاء الثلاثة فرسان الحلبة اللغوية بالرباط. امتدت سنابك خيلهم إلى كل معترض، وردمت رماح ألسنتهم قِلاع كل منتفض. وكانوا بانزوائي في فاس وزهدي في القدوم عليهم بالرباط عالمين، ولكن لم يكونوا بوفودي عليهم في الرباط أشقياء. وكانت تبلغني عنهم دلائل المودة على رغم البعاد. ولم أكن أرجو أن أفارق فاس حتى ضاق الجو باشتداد أحدهم وغُلُوِّه على غيره، فعمل ما دعاني إلى القَدوم، وكان ذلك الغير شيخ العربية فيهم.

كان أحمد الإدريسي نور الله مثواه رجلا محيطا بالأقوال، عالما بالقديم مجيلا نظره في الحديث، ولكنه لم يعتد للطف فيه منازلة لا يرجى منها خير. وضاق به الأمر ولقيني بالرباط وزين لي أن أنتقل إلى الرباط وزرته في بيته باكدال. وكنت عالما بقدره، وكان محببا إلي بطبعه، وإن كان بيننا بعد مسافة في الدراسة الجامعية وفرق قريب في السن. ولما حللت بالرباط بتدبير منه وتزيين لم أستجب له رغبة في مكانة، فلم أكن أحتاج إلى شيء من ذلك. وإنما حثني على ذلك طول مكثي في فاس وجوها الحار وصقيعها المهلك. ووجدت اللغويين في الرباط على غير ما تركتهم في فاس. وجدت القوم قد خاضوا في لجة الصحافة اللغوية وصاروا ناطقين بلسان فلان أو فلان من الغربيين. وكنت قد تخلصت من الدهشة الباريسية التي أصابتني سنة (1967) وتذكرت نسبية الأقوال وقارنت ما لم أقارن من قبل فوجدت نفسي مرتميا بين رماح وسيوف. هذا يدعو: يا لثارات فلان. والآخر: يا لثارات علان. ودخل الطلاب في المعمعة.

كنت في ذلك الوقت أعلم أن الثقافة بأنواعها إنما هي ثمرة حوار مجتمعي بين الطوائف المعنية بالحوار. وكنت أعلم أن الحوار اللغوي العربي جمد قبلنا بقرون فكان الأولى الاشتغال بالبحث في أصوله وأسباب جموده. وكنت أعلم أن الأوصاف اللغوية مجرد مجاعل Axiomatiques، وأن لك أن تجعل فيها ما تشاء، وأن برهانها صادر عن ذاتها وليس أحدها بأصوب من غيره، وإنها كلها باطلة لأنها وصف لأمر مادي بلغة مفاهيمية وهما لا يجتمعان. وكنت أزعم أن القول العلمي هو القول الخبري لا التصوري المفاهيمي.

■ **هل كان لاختلاف توجهات أساتذة الدرس اللغوي/ اللساني امتداد خلف أسوار الجامعة؟ وأين يتحلى ذلك؟**

• استمر الخلاف بين الأساتذة الذين ذكرت أسماءهم، وكان لهم أتباع من كل جهة. وانتهى الأمر إلى تأسيس جمعيتين أو كنيستين لغويتين: إحداهما اتحاد اللسانيين المغاربة بإشارة مني ومن الأستاذ أحمد

الإدريسي رحمه الله، ودخل فيها الأغلبية من اللغويين في المغرب والرباط. وثانيتهما جمعية أخرى بإشارة من الفاسي وتبعه إليها تلاميذه.

كان ذلك سنة (1985) وكانتا أول جمعيتين وطنيتين للغويات في المغرب. وكتب لاتحاد اللسانيين الاستمرار وانعقد جمعه العام مرات في السنوات الماضية، ثم انعقد في هذه السنة (2015) وظهر اسمها في أنشطة مختلفة بالمغرب والدول العربية. ولا أدري مصير الجمعية الأخرى. ثم انطفأ الصراع بعد ذلك.

■ **هل للأستاذ أحمد العلوي أن يضعنا في صلب علاقة الدرس اللساني المعاصر بالدرس اللغوي العربي القديم؟ وما قصة نظراتك المتكررة في القرآن باعتباره مرجعا لغويا غنيا؟**

● لا بد من أن اعترف هنا بأمر: كنت قد ابتعدت عن قراءة القرآن الكريم قبل ذلك واشتغلت بالعلوم الإنسانية والفلسفة. وما ابتعدت إلا بعد أن كنت ظننت أن الفهم السلفي والتراثي مطابق للقرآن، وأن لا فهم سواه، ولم أكن مصيبا. ومر زمن طويل وحللت بالرباط ووجدت أمامي المعمعة اللغوية فلم أجد فيها امتدادا لحوار محلي ولا مشاهدة محايدة للمعمعة الأوربية الأمريكية اللغوية. وعدت إلى القرآن الكريم فقرأته ثم قرأته ثم قرأته فلم أجد فيه فلسفة ولا تصورا. ووجدت فيه أخبارا ثم تذكرت صغر الإنسان بالنسبة للعالم وصغر اللغة التصورية بالنسبة إلى اللغة الطبيعية الخبرية. والحاصل أن عودتي إلى قراءة القرآن في استقلال عن الاستعانة بالتراث وأقوال السلف هداني إلى رفض الأقوال التصورية، فألفت كتابا غامضا في ذلك هو «الطبيعة والتمثال» ونشرته، واختلط ترتيب فصوله فازداد غموضا. لكن المراد منه هو تأكيد القول بأن القرآن كتاب المعرفة لا كتاب السياسة، وأن القول العلمي هو الخبري، وأن القرآن يحدد مجال المعرفة التي لا تكون إلا خبرا عن مادة بألفاظ مادية لا مفاهيمية. ومع حلولي في الجماعة اللغوية الرباطية علمت سبب إلحاح ألاستاذ أحمد الإدريسي طيب الله مثواه علي في القدوم إلى الرباط، فقد رماني في معركة وجدت نفسي مضطرا إلى المنازلة فيها. والحق أني منذ سنة (1982) إلى سنة (1996) سنة مغادرتي كلية الرباط كنت لا أشتغل إلا بدحض أسس القول النظري التصوري وإثبات نسبيته والقول ببطلانه في غيره، أي اللغة والعالم وصحته في ذاته وتعادل أنماطه وصوره، وتتابع ذلك في الحقب التاريخية وتأييد القول بمعرفية القرآن وعلميته وخبريته ونسبية ما كتب عنه وفساد أغلبه ولاعلمية القول الفلسفي والنظري والتصوري المتعلق بالمادة اللغوية أو غير اللغوية. كان قولي حينئذ إن الإنسان مادة، وإن اللغة انعكاس مادي، وإن القول العلمي فيها هو الخبر لا التصور، وإن على الذي عرف خبرها أن يعرب عن ذلك بألفاظ هي ألفاظ المادة بحيث لا يكون بين القوانين اللغوية والقوانين الطبيعية من فيزيائية وكيميائية فرق. كان تدريسي بالرباط بسبب عودتي إلى قراءة القرآن الكريم بعد بعاد نقيضا لما كنت أدرسه وأنتصر له في فاس قبل ذلك. وكتبت في ذلك مقالات أوضح من كتاب «الطبيعة والتمثال». ولم أقصر مرة في الاقتراب من بعض المجايلين ممن كانوا سببا في ضيق الأستاذ الإدريسي بجو الرباط فكتبت مقالة طويلة باسم مستعار تخفيفا على المنتقد في إبطال اللغويات النظرية الحديثة. ولم أكن منتصرا للقديمة في ذلك. فقد كنت في ذلك الوقت رافضا للقول النظري والفلسفي كله. لكني مع ذلك كنت أرى أن البحث في الحوار اللغوي القديم وأسباب جموده وأصوله المعرفية النظرية التصورية ومقارنة ذلك بشبهه في اللغويات الحديثة دون تقيد بها أو دعوة إليها خير وأصوب من نقل حوار أجنبي إلى متحاورين أجانب عن الحوار. وما ظنك بقوم

يتحاورون في شأن تطور الحرب العالمية الثانية ساعتين من الزمن فيدخل في حوارهم قوم آخرون لا يعرفون ما حدث من اتفاق واختلاف في الساعتين الماضيتين وينقلون الحوار عن تلك الحرب بأشخاصها وأحداثها ويطبقونها على غزوة بدر؟

- **هل للأستاذ العلوي أن يرسم ملامح العلاقة بين الأدب بمختلف تجلياته (السيمياء،البلاغة، النقد...)، وما يحيط به (أصول الفقه، التفسير...) والدرس اللغوي اللساني؟ بصيغة أخرى هل استفاد الدرس الأدبي من البحث اللغوي؟ وما تجليات ذلك؟**

• هذا سؤال قديم جديد؟ لكن الجواب عنه يستلزم الحديث عما هي اللغويات وعما هو الأدب. لن نستطيع أن نتحدث عن اللغويات كلها في معرض المقارنة، ولكن يمكن وضع جانب منها في ذلك المعرض. وليكن هو التركيب أو النحو باللغة القديمة. ما النحو؟ هو البحث عن الانتظامات التي تجعل كيانا لفظيا يعين طائفة من المعاني المتوحدة. بلغة أخرى: النحو هو البحث في العلاقات بين اللفظ والمعنى. هذه العلاقة بين اللفظ المفرد والمعنى لا تحتاج إلى طول نظر. يشتغل بها المعجم الذي يقدمها في صورة جاهزة. أما ما فوق الكلمة المفردة فأمر يفتقر إلى تأمل طويل. وقد تأمل اللغويون منذ العهد القديم في ذلك فلم يبلغوا منه إلى ما فوق التقسيم الثلاثي الذي يتعرف أنواع الجمل الثلاثة المُعَلَّبُ بعضها في بعض. لا يعنينا الدخول في التفاصيل. مختصر القول إن العلاقات بين الجمل ومعانيها هي موضوع التركيب، ومختصره أيضا أن النحو أو التركيب بحث في كيفيات الدلالة، أي في كيفية دلالة المختلف المتعدد الجملي على المعنى. لكن المختصر التعريفي الأجود هنا هو أن النحو بحث في ما تكون به الجملة جملة لا أصواتا فارغة من المعنى. بلغة أخرى يكون النحو بحثا في الحدود بين المعنى واللامعنى. ما الأدب؟ الأدب مجال واسع فلنكتف هنا بالنظر في الأدب القصصي. إن نظرنا في أهداف النحاة وأردنا أن نجد لها مكانا في السؤال عن الأدب، كان الجواب هو أن نتساءل عن كيفيات اكتساب الأثر اللغوي صفةَ القصة، أي عن الحدود بين القصصي وغير القصصي. بعضهم ظن أن استلهام اللسانيات أو الممارسة اللسانية على الأدب هي استيراد الأحكام النحوية من مجالها التركيبي والبحث عنها في الأعمال الأدبية. هؤلاء تراهم يحصون عدد الجمل من النوع الفلاني وعدد التكملات الجملية، والجمل الاسمية والفعلية والفصل والوصل وتتابعُ صيغة الحال وتزاوجُها في العمل مع التمييز أو غير ذلك. هذا ليس ممارسة لسانية في الأدب. هذا يدعى دراسة للجمل في النص الأدبي. هناك فرق بين البحث في الجملة في الكلام العادي أو في القصة أو في الخطبة أو في الموعظة أو في القصيدة، وبين البحث عن الكيانات النوعية التي تجعل الأثر قصصيا أو شعريا أو غير ذلك من أنواع القول الأدبي. استيراد الوسائل اللسانية لا يعني تحويل الأثر الأدبي إلى موقع للتداريب اللغوية، أو إلى أمْثَلَة للتحققات الجملية. لا. إنه يعني استيراد الوسائل والأهداف كما هي محددة عند اللغويين، والبحث عن إمكان استعمالها لاستخراج كيانات وانتظامات تعرف بها أدبية الأدب وقصصية القصة وشعرية القصيدة.

أقول هذا لأني اطلعت من قبل على أعمال تدعي النقدية الأدبية وتدعي الانتماء اللساني، وفُهِمَتْ فيها العلاقات بين المجالين فهما منحرفا. هل يجب أن يبحث عالم الأدب المقتدي باللسانيات في جمل القصة أو جمل القصيدة؟ لو فعل لكان مجرد نحوي ضعيف لا يبحث في الانتظامات ويسقط في النزعة الإحصائية

التي لا تفيد علما إلا بذلك الأثر المدروس في ذاته دون غيره، والحال أن عالم الأدب لا ينبغي أن يكون هدفه النص الفلاني وحده، ولكن كل النصوص التي يجمعها اسم الأدب أو اسم القصة أو غير ذلك من الأسماء. باختصار : إن كان سؤال النحوي هو: ما الذي يجعل الجملة جملة؟ فإن سؤال عالم الأدب يكون هو: ما الذي يجعل القصة قصة؟ والقصيدة قصيدة؟ والحكاية حكاية؟

إذن، فالصلة بين الأدب واللسانيات تسجَّل في مستوى استيراد الأسئلة، لا في مستوى استيراد الأجوبة.

في زمننا أعمال تستجيب للغرض الذي أشرت اليه. منها أعمال بروب وأعمال بريمون وغيرهما. ذكرتهما دون غيرهما لأنهما أشد الأعمال وضوحا في موضوعنا. لماذا؟ لأن من يقرأهما لا يحس بأن كاتبيهما «نحويان» يعملان مِعْوَلَ السؤال النحوي في النص الحكائي. لا يحس بأنهما يبحثان في النحو. والحال أن كل شُغْلِهما نحو، ولكنه نحو الحكاية أو نحو الأدب، لا نحو الجملة.

هذه القضية تحتاج هنا إلى مزيد نظر. كيف؟ النحاة اللغويون يدرسون الجملة. وذلك معناه أنهم يدرسون أمرا متصورا هو المجمل والجملة، لا المتكلم الطبيعي. المجمل هو كيان مبني نظريا، أي تصوريا أو تخيليا، والجملة نتاجه وإنجازه. كيف؟ العالم ليس فيه مجملون لا شغل لهم إلا إنتاج الجمل اللغوية، وما فيه من إنتاج لغوي ليس جملا مفصولة عن الزمان والمكان والأشخاص والتاريخ. لكن النحاة يدرسون بالضبط تلك الجمل المفصولة ويدرسون بالتحديد ذلك المجمل. إنهم يفترضون أو يتصورون أو يتخيلون أن اللغة كيان قائم، وأن الإنتاجات اللغوية مستقلة عن المتكلمين الطبيعيين. وهم بذلك يتصورون جانبا يجعلونه موضوعا لعلمهم ويلغون الجوانب الأخرى. الجملة المفصولة التي يدرسها النحوي قد نجدها في نص أدبي لكاتب روائي. هي في ذلك النص كائن أدبي يؤلف جزءا منه، ولكنها عند النحوي مجرد جملة لا صلة لها بالرواية ولا بما يجعل الرواية رواية.

إذن الإنتاج اللغوي الواحد في الطبيعة، وبالطبيعة ينفجر في التصور، ويتشظى ليتحول إلى جملة ومجمل، وإلى قصيدة وشاعر، وإلى رواية وراوٍ.. إلخ. الراوي الذي لا شغل له إلا الرواية والشاعر الذي لا شغل له إلا الشعر هو كالمجمل الذي لا شغلً له إلا إنتاج الجمل. كل أولئك كائنات غير موجودة في الواقع، وإنما هي كيانات مبنية نظريا أو تصوريا أو تخيليا. ولعل الإشارة في القرآن الكريم إلى ذلك في رد الحق على الذين زعموا أن محمدا عليه السلام شاعر، وفي قوله: «والشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُم الغَاوُون». يتبعهم الغاوون لأن من لم ينتبه إلى أن موضوع المباحث النحوية والسيميائية موضوع مبني نظريا أو تصوريا غَوَى وضل.

هنا لا بد من أن نتساءل عن الصلة بين النظرية والشعر، وبين الأَبْنِيَة الشعرية والأبنية النظرية. إن النظرية خيال، وهذا يتبين مما قلناه من قبل. المجمل والجملة خيال نحوي يمكن النحوي من الشروع في بحثه، ولولا أنه يتخيل اقتطاع إقليم الجملة من الواقع اللغوي للمتكلمين، لما أمكنه الشروع في ذلك. الراوي والرواية والشاعر والقصيدة المنفصل عن تاريخ الإنسان وزمنه الشخصي وحوادثه السيرية خيال أيضا. الروايات التي كتبها دوستويفسكي مثلا هي من جهة نُشوئها حوادث من حياته، ولا يمكن معرفة حقيقتها إلا إن عرفنا حقيقة الكائن الإنساني المدعو دوستويفسكي. وذلك أمر متعذر ومتعسر. إن البحث

النظري لا يقوم إلا بعد إبعاد الفاعل الطبيعي. ثم إن البحث في الفاعل الطبيعي ممتنع لأن معرفة الإنسان الطبيعي في جملته ووحدته تتعذر عليه، لأنه لا يستطيع أن يكون موضوعا معرفيا لنفسه إلا بالتخيل وإقامة الأبنية النظرية.

إذا كانت الأبنية النظرية خيالا يضطر إلى إقامته كل باحث في الإنسان، وإذا كان الكلام الشعري خيالا، فما الصلة بين الخَيالَيْن؟

إن الناظر يتحدث عن كائنات موجودة في النظر لا في الواقع، والشاعر يرسم كائنات تشبه الواقع وليست به. الناظر لا يرسم الشخص. يلغيه لفائدة الكائنات التي يصنعها صنعا بنظره كالمجمل وغيره. أما الشاعر فلا يلغي الشخص، ولكنه يرسم بخياله شخصا آخر يدعي أنه الشخص الواقعي وليس به.

في النهاية، يكون الشخص هو الجامع بين الأدب واللسانيات. هو الجامع الذي تعالجه اللسانيات بطريقة يمكن نقلها إلى الأدب بنقل الأسئلة لا الأجوبة. ويكون الشخص أيضا هو الجامع بين النظرية العاملة في اللسانيات والأدب وبين الشعر.



قارئ وكتاب

«الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني العربي» للبشير التهالي

إضاءة منهجية

السعيد أهرو[1]

1 – الدعوى

منهج كتاب ما، على أظهر رسومه، هو: التخطيطُ لأصوله وفصوله ومباحثه؛ كمثل ما يخطِّط **المهندس** من الأوضاع لمعماره، وهو **الرَّوْزُ**[2] لأنسب الوسائل لمعالجة مواده؛ كمثل ما يروز البيطار من الأدوات لجراحته، وهو الحذق بأهدى سبله إلى مراده؛ كمثل ما يحذِق الدليل في المفازة من الدروب لمن طلب دلالتَه. المنهج ذلك كله بلا ريب: تخطيطُ هيئةٍ، ورَوْزُ وسيلةٍ، وحذْقُ طريقٍ؛ لكن هل يقوم بحقِّه مجرَّدُ هذا الوصف؟ أليس من الممكن أن يتلاطفَ المنهجُ على سرٍّ ما، على معنًى خاصٍ كهذا الذي يذكره المتنبي[3]:

وإنْ تغلِبُ الغَلْباءُ عنصرَها فإنَّ في الخمر معنى ليس في العِنَب

لا يلتفت ممارِس المنهج الذي يأخذه بيد السُّخرة إلى هذا المعنى الخاص؛ فالمنهج عنده **آلةٌ** حُصولية وضعية: جِهارية بلا سرٍّ، وظِهارية بلا غَيابة؛ أما المستشكِلُ له بالنظرة الرقيقة، فيجد فيه بعضَ آثار مستعملِه، ويرقُبه لا في أصوله وكلياته وأمهات عناصره فحسْب، بل في فرعياته وجزئياته وهوامشه؛ أي في كل محَلٍّ من المنهج غُمَّ على عين العادة، رغم ما قد يَقَرُّ فيه من نظام وما قد ينعقد عليه من قصد. وعلى هذا، فرسْمُنا الذي قدَّمْنا به لكلامنا لا يجد عند هذا المرقِّق مقنعا تاما، إذ المنهج في تقديره أكبر من الرسم، بل أكبر من الحد نفسه، ولربما كان في تحفظه هذا، مع وجود الفارق، كمثل المتحفظ على تعريف الماء بالرمز الكيميائي: اتحاد ذرة الهيدروجين وذرتي الأوكسجين؛ فالماء، على رأيه، أعجب كُنها، وأغرب مادة، وألطف صِبغة، من أن يُختزل في صيغة رمزية متعجرفة؛ ولئن قرَّ هذا الترميز على قُرة من التسليم، فليس له، يقول ذلك المتحفظ، أن تؤخذ مأخذ التفسير الأصيل للماء، فهو في نهاية التحليل: اصطلاح! ذكر أشياء من صفة الماء، وأعرض كَرها عن أشياء أخرى، هي من عيون تلك الصفة؛ وعليه فقد يكون لمفسِّر الماء بالماء، الذي

---

1 – أستاذ باحث بالكلية المتعددة التخصصات/ آسفي.

2 – التجريب والاختبار.

3 – الديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، ج 1/ ص 91.

ضُرب به مثَل قِلة الحيلة، استبصارٌ وفراسةٌ؛ فتحصُل له مع عجزه نخوةُ القادر، ومع نكوصه غُرَّةُ المقبل، مع براءة الذِّمة والتبريد على الكبد. والمنهج مثل الماء في هذا؛ فلو فُسِّر بنفسه، لكان للمفسِّر نوعُ معذرة!

إن من سرِّ المنهج؛ كما ذكرتُ، حملُه لأثر مستعمله؛ كما يحمل الثوب ريح لابسه، وكما تكون الدُّهْمة[1] في مقبض اليد من عصا الاعتماد؛ وربما خفي هذا الأثر لكنه لا يزول، وربما كان أثرا نبيلا لنبل المستعمل، وربما اتَّضع لاتِّضاعه. وإنَّ من سرِّ المنهج أيضا أنه علةٌ لكل حركة نظامية، بما فى ذلك الحركات الصغرى التى تكون أجزاء من حركات أكبر وأعم. والمسألة الآن هي: أمِنَ الممكن ضبط هذه الهوامل من المنهج كما تُضبط مُهمَّاته ومحكَماته؟ وهل تذِّل الهاملة المنهجية للعبارة فتستبين؟ لو أني أبديتُ اليأس من قدرتي على معالجة ذلك فيما يُستقبل من هذا البحث، لمسَّني من النكير مسٌّ كمسِّ السوط، ولقيل لي: ففيم إذاً هذه الجعجعة ؟! ولِمَ تثير قضيةً تعلم أنك لا تقضي فيها بشيء، كمثل أصحاب سهم قَبول الدِّية يرمونه نحو السماء، وهم يعلمَون أنه سيعود إليهم نقيا[2]، ففيمَ رميهم إياه ؟!

ولاتِّقاء هذا اللوم، والظهورِ بمظهر المسؤول الحَمُول، سألتزم بمحاولة تفقُّد المنهج من ناحيته الكثيفة ومن ناحيته اللطيفة، سواء بسواء، آخذا إياهما بيد الدمج والإدغام، من غير أن أسُلَّ أحدهما من الآخر؛ أي إنني سأعالج المادة المنهجية العتيدة، ثم أعالج ما تحتها من خفي المنهج، أو العكس، مع الاجتزاء في المعالجة والتصرف فيها بحسب الضرورة المقامية؛ هذه إذاً دعواي لإضاءة المنهج في كتاب الأستاذ الدكتور البشير التهالي: الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني العربي[3].

2 – منهج التبويب

قالت السيدة لوفييت؛ زوج الحلاق سويني تود الذي كان من ديدنه أن يوَسِّد زبونه للحلق والتطرية حتى إذا تساكن لنعومة الموسى حزَّ بها أوداجه بلا رحمة: «وضع الخطة نصف اللذة»[4]؛ وهذه الكلمة العميقة وإن عبرَّت عن لذة الاستدراج للقتل، إلا أنها قمينة بحال من يضع خطة كتابه؛ إنه في لذة (أو ألم) قضى منها نصفها؛ وقد يقول مرقِّق النظرة إلى المنهج إن الكاتب في ذلك الموضع يقضي لذتَه كلها!

مَن أنْعَمَ المشاهدة في المنهج العام لكتاب: الخطاب الاشتباهي، سيجد أن لذة قد قُضيت في بُكوره

---

1 – درجة حادة من اللون تجعل له مسحة من السواد؛ كدهمة الحمرة ودهمة الخضرة، وغير ذلك.

2 – ويسمى أيضا سهم الاعتذار، يقذف به أهل الثأر إلى السماء فإن رجع نقيا، قالوا: إن الله نهانا عن الثأر، وإن رجع مضرجا بالدم، قالوا إنه سبحانه أمرنا به. وهذا السهم لا يرجع إلا نقيا! (محاضرات اليوسي، لأبي علي اليوسي، تحقيق محمد حجي (و) أحمد الشرقاوي إقبال، ص 555).

ويمكن اتخاذ هذه النادرة عبارةً أصيلةً لإفادة معنى: تحصيل الحاصل؛ ففي ذلك، مع وُفور البلاغة وحصول الأصالة، حياةٌ للتراث، الذي كاد أن يُهجر في الأبحاث العلمية العربية المعاصرة بدعوى موضوعية التحرير، هذا مع أن أرباب الموضوعية من الغربيين كديريدا وهيدجر وإيكو، وغيرهم، لا يقلعون عن تراثهم اليوناني واللاتيني في ممارسة أبحاثهم، عند تشقيق أفكارهم، وبناء مفاهيمهم، واقتراح شواهدهم. ينظر كتاب: الأيديولوجيا العربية المعاصرة لعبد الله العروي، ص11.

3 – نشر: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013.

4 – المسرحية الغنائية: سويني تود/ الحلاق الشيطاني لشارع فليت.

الأول: وقتِ تخطيطه وهو لا يزال مشروعا؛ فهذا الشطر من المنهج، الذي هو هيكل الكتاب وعمود صورته، برنامج مُسْتَتِب يستولي على مواد الأطروحة، وأحسب أنه لم يستول عليها بالعسف والشطط، بل تطامَن لها، وسامها ما في طبيعتها، حتى بدت تلك المواد كأنها نصبت بأيديها ووفق مرادها هيكلَها؛ فقد تفرقت على ثلاثة أبواب كبرى: باب علم المنطق، وباب علم الأصول، وباب علمي اللغة والبلاغة؛ ومواد الاشتباه لا تجد وراء هذه الأبواب سبيلا، ولا في قوس الإمكان بعدَها منزعا، كما أنها تُغبَن في موضوعها إن تنكَّبتْ واحدا منها.

وقد يُرى في الالتزام المنهجي بمجال الأطروحة الضروري تهمُّمٌ من الباحث وعزيمة؛ لأن نظرَه في هذه الأبواب المحكمة إرتاجا، والصعبة ارتقاء، والمختلفة فيما بينها دلالة واستدلالا، مهدَّدٌ بأن ينقلب إليه كالاًّ حسيرا، إن لم تكن النهضة إليها صادقة، ويد الأخذ لها قوية. ولعلك تلمس شيئا من ذلك عند مطالعة الفصول والمباحث التى تداعت تحت تلك الأصول؛ إذ تلقى باحثا مشمِّرا عن ساعده يورد مسألة الاشتباه (لا كتوريد سعد[1]) على موردها الأصلي في كل حال، فالعناوين الفرعية في التخطيط تدل على عَزْوِهِ المسألةَ إلى حاقِّ ما ترجع إليه؛ فإن كانت منطقية، تولى آراء أئمة المنطقيين المسلمين في أصح كتبهم، ورتَب عليها أحكامها، وإذا كانت أصولية، صنع فيها مثل ذلك، ولا يزال هذا شأنه في جميع مباحثه، بحسب ما تدعيه العناوينُ المنوطةُ بأطراف هيكل الكتاب المعلِّمةُ عليها؛ كالقلائد على الشجرة ذات الأنواط !

لا يقنَع المنهج العام من الكتاب، متى كان أصيلا، بالمعاني الذي يبثها من خلال عناوين الأبواب والفصول والمباحث، وكأن به أنفةً من أن يُرَدَّ إليها وحدها؛ إذ يقع له أن يتخذ بثّاً آخر من الدلالة، يدسُّه دون البث الأول، دسّاً هو كالتنصيص عند من لا تُعجزه قرائن التأويل، الذي يتسمَّع بحسن الاستنباط لها النطقَ في موضع الصمت، ويتظنَّن بالظنون فتأتي بسبيل الحقائق، فإن لم تكن إياها، كانت منها بمكان[2]! وتكاد تنخلع صفة هذا المؤول على عبد الله العروي في تفطُّنِه لعمود صورة مقدمة ابن خلدون[3]؛ فقد جاس بالتأويل خلال أبواب هذا الكتاب، واستخرج بمعونتها معاني في مبحث العقل، لم يُؤْثرها عن ابن خلدون أحدٌ من الباحثين العرب المعاصرين الذين درسوا فكرَه قبلَه، وذلك لأنهم لم يتأوَّلوا تبويب المقدمة الذي تأوَّله هو؛ إذ غلب عليهم توهُّمُه نفْلا على موادها، وكان من أثر ذلك فيهم أن عجلوا إلى الحكم بتناقض ابن خلدون في بعض مسائله، وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنهم عارُها[4] كما يقال، فقد قرَّنَ هذا العلاَّمةُ قرائنَ في تخطيط عمود صورة كتابه، لا يصير مدركُها إلى الحكم عليه بالتناقض، بل يصير إلى تأويل كالذي صار إليه صاحب مفهوم العقل[5].

---

1 – من البيت الشعري السائر الذي يُضرب لإتيان الأمور على غير حاقِّ ما تأتي به: أوردها سعد وسعد مشتملْ I ما هكذا تورد يا سعد الإبلْ

2 – يقال: ظنُّ الحكيم كِهانة.

3 – مفهوم العقل، ص 173 فما بعدها.

4 – تقال لمن قدَح في أحَد بصفة هي مَظِنّة المدح؛ وقد قالها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما للحجّاج بن يوسف لما عيَّره بأمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قائلا: يا ابن ذات النطاقين!

5 – مفهوم العقل.

وممن عُرفت عنه هذه الإقامة للمنهج العام على البثِّ المعنوي الثاني المُومَإ إليه: البخاريُّ في الصحيح؛ حيث قيل إن من علوم هذا السِّفر الكريم علما منطويا في تبويبه، وذلك أن البخاري إن كان روى في بطن هذا الكتاب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم روايتَه العصماء، فقد أودع وديعة من عيون الفقه في ترتيب أبوابه، حتى نصَّ بعض أذكياء الفقهاء على أن تلقي الصحيح بمعزل عن التنبُّه إلى مراد البخاري من ترتيبات عمود صورته ازورارٌ عن شطر من العلم أصيلٍ لا يثقفه إلا من تلطَّف له.

وربما ذكرتُ شاهدا آخر من شواهد هذا التأويل، لكن بي عجلةٌ إلى تأمُّل تخطيط عمود صورة كتاب الخطاب الاشتباهي، لأنظر هل به من بثٍّ خفي لمقصود لا تقوم به إلا دلالة التأويل؟ فَلأُولِجِ الكَفَّ إذاً لأعلَمَ البثَّ[1]!

رتَّب البشير التهالي أبوابَ كتابه ترتيبَها الضروري، كما يكون عند باحث في علم الأدب مضطلع بالدراسة الرصينة لقضية الاشتباه؛ فقد صدّر بباب المنطق، وثنّى بباب الأصول، وعقّب بباب اللغة والبلاغة. ولو كان باحثا منطقيا، لأخّر المنطق بين يدي البابين الآخرين، ولو كان أصوليا، لأخّر الأصول بين يدي البابين الآخرين؛ فإنما يؤخَر البابُ موضعُ الاختصاص، ليُفضى إليه بذخيرة مما أنتجته المباحث التي تقدَّمتُه؛ فهو في الحقيقة باب الكتاب، وما سواه تطريق إليه.

إن باب كتاب الخطاب الاشتباهي، على الأصالة، هو باب اللغة والبلاغة؛ ولذلك فهو يحوز من مساحته مثل حظ البابين السابقين عليه، بنحو ثمانين ومائة صفحة، بينما عِدَّةُ باب المنطق ثمانون صفحة ونيِّف، ويزيد عليها باب الأصول بعشرين صفحة؛ ويبدو لي أن هذا التعداد هو بثُّ التبويب الذي يحرِّك إليه من نفسه داعيةَ التأويل: ثمانون ومائةٌ حسابُ بابَي المعونة: المنطق والأصول، وثمانون ومائة حسابُ باب العناية: اللغة والبلاغة! ألا تدل هذه القسمة على قَصد ما؟

أرى، رأيَ التأويل، أن تخطيط هيكل الكتاب هو في نفس الوقت تخطيط لموقف من علم الأدب يقدِّم جوابا عن سؤال هويتِه، مؤداه أن هذا العلم لم يُؤهَّل بالمنهج المأصول، ولا بالأولى بالمنهج المنقول عن علوم الأغيار؛ ولكنه، بحسب تأويل الحساب، غُذِّي بالأوليات (الفقهية والكلامية) بعد أن نشأ نشأة فطرية، ثم غَشيه ما غشيه من منطقيات يونانية جرى تقريبها التداولي[2] على يد الفلاسفة وعلى يد الأصوليين أنفسِهم. ويفيد هذا التأويل أيضا بميل الموقف المذكور إلى القول برسوخ المأصولية في علم الأدب قياسا إلى المنقولية، التي كان لها فيه وُجودٌ بلا جُودٍ، أو إن شئتَ قلتَ: لم يكن لها جودٌ كجودِ غريمتها!

هذا ما وسعني من تأويل بثِّ تبويب الكتاب، وربما رأى غيري فيه غير ما رأيتُ، وربما جاء بأقوم مما جئتُ به، فلا مشاحَّةَ! إنما المشاحةُ على من يدفع التأويل عن هذا المحل بالكلية؛ كأنه لا يعلم أن ما من شيء إلا أظهرَ من معناه وكتم، تفطَّنَ له من تفطَّن، وسها عنه من سها. قال اليوسي: «ومن رزقه الله فهما

1 – معناها: التحسس للشيء لمعرفة خبيئته، وهي مقبوسة من حديث أم زرع. انظر: بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد للقاضي عياض، ص 8.

2 – من أمهات مفاهيم طه عبد الرحمان في كتابه: تجديد المنهج في تقويم التراث.

من لدنه ونورا، كان أقوى وأكثر، حتى لا يكاد يطير طائر إلا استفاد من طيرانه، ولا يَصِّر باب إلا استفاد من صريره»[1].

وخلاصة القول إن لكتاب الخطاب الاشتباهي تبويبا منفرجا؛ يستوعب الأطروحة في مطالبها الأساسية، ويدحو[2] لها في مجالها الضروري، ليفتحَ أفقها البلاغي على الآفاق اللغوية والأصولية والمنطقية؛ وقد عقد لذلك، بعقْد العزم والأريحية، ثمانية فصول وواحدا وعشرين مبحثا. ولئن كان لهذا الشطر من المنهج بثٌّ دلالي مبذول نصَّ به على مواد الكتاب، فإن له بثّاً آخر أُنُفاً، إلا على متوسِّم متلطِّف، تلمّحَ منه تأويلُ تعداد صفحات الأبواب موقفا من قضية التأهيل المنهجي لعلم الأدب، مؤداه أنه تأهيلٌ تولاه الأصوليون والمناطقة معا، لكن لا عن يد واحدة؛ إذ يد الأصوليين في ذلك أندى.

2 – منهج الرأي

الرأي قطعة اقتُطعت من العقل، بما في ذلك الرأي الذي يتخذه الفاضل من غير أصالة له فيه، وقد تابع عليه غيرَه في ضوء اجتهاده؛ فاختيارُه الرأي على هذه الصفة كإتيانه به، من حيث كان «اختيارُ الرجل وافدَ عقله»[3]. ولئن كان الرأي أصلا في نطق الخطاب، فإنه آكدُ في الأصلية في نطق الكتاب، المقتضي وضوحَ المنهج فيه، وهذا لا يعني أن منهج المشافِه في رأيه لا يحظى بالوضوح، بل لا يحظى دائما باطرّاد الوضوح؛ لعدم استقرار المنهج عنده على كل حال، بالنظر إلى أن من أحوال المشافه في مقامه: حال التشغيب عليه من غيره، وحال الفترة التي تأتيه من نفسه لعدم وجود الفسحة، وغير ذلك مما يقطع المنهج عن طلْق حركته. ولهذا ربما التُمس العذر لرأي الارتجال، ولكن لا يُلتمس منه قَدْرُ نقيرٍ للرأي المستودَع في بطن الكتاب.

لقد قضى الخطاب الاشتباهي من الرأي ما يقضيه الكتاب الذي لا يريد أن يمر عن جُنُب المسائل يرجمها من ورائها بالظنون، ولهذا جاء بآراء منوطة بمباحثها، لا ترتفع عن حقلها من القضية إلا بالقدر الذي يلقي إليها بأبعاد الصورة، في مزايلة يراد منها مطابقةُ الحكم على المحكوم. وليس في مبدإ هذه الورقات التذكير بمضامين آراء الكتاب، ولكن محاولةُ الإبانة عن منهجه فيها.

إن الآراء المودعة في كتاب الخطاب الاشتباهي كثيرة جدا، لو أحصاها العادُّ لنشَر معظم مادته، وترتدُّ هذه الآراء إلى ثلاثة أصناف: الصنف من الرأي ذو الأصالة الذي يأتيه الكاتب على علم من عنده، والصنف الذي يتابع فيه غيره من أهل الرأي، مُنْضَّما إليه في صف الموافقة، والصنف الذي يخالِف فيه. وعلى هذين الصنفين: موافِقُ الرأي ومخالِفُه، بسطنا يد الفحص عن منهج الرأي؛ أما الصنف الأول، فإن خصائصه المنهجية هي، عموما، خصائص الدلالة التي نترقَّب دراستها بعد الفراغ من هذا المبحث؛ لذلك آثرنا بتنكُّبه ها هنا اتِّقاء ارتكابَ إعادةٍ باردة.

---

1 – محاضرات اليوسي، ص 415.

2 – يدحو بمعنى: يمدُّ الشيءَ مداً كدحو عجينة الرغيف.

3 – العقد الفريد لابن عبد ربه، ج 1/ ص 4.

- منهج المخالفة في الرأي :

لم ينهج الخطاب الاشتباهي منهج الاعتراض[1] في بحث مسائله؛ لأنه لما يكن كتاب خلاف ينجدل إثباته بما ينفيه خصمه، وما ينفيه هو بما يثبته هذا الخصم، بل نهج منهج العرض[2] الذي يحبس الهمة على دراسة المسألة في نفسها؛ فإذا اقتُضي رأي الموافق أو المخالف، وما أكثر ما يُقتضى، دخل تحت قياد ذلك المنهج، وجرى على مراده في الدراسة.

لا تكاد تبلغ الآراء التي يخالف فيها البشيرُ التهالي غيرَه العشرةَ آراء؛ حيث خالف في مسائل معينة بعض الأئمة كالشاطبي[3]، والتفتازاني[4]، ودرستويه[5]، وآخرين منهم لم يعيِّنهم، وخالف من المُحْدَثين: محمد العمري[6]، وألفت الروبي[7]؛ ولا أظن أن له مَنْشَطا في مخالفتهم كما يكون منشط الرجُل في موضع شغفه، وإلا لاتَّسَعَ هذا الباب جدا؛ إذ الاشتباه قضية تَلْقَحُ للخلاف! بل الظن فيه أنه أطاع داعي المخالفة حيث قدَّر أنها تَجِبُ، وعصاه فيما دون ذلك، لا لأنه يجري في تيار منهج العرض، بل لزُهْد نفسي في مناجزة أهل العلم[8]؛ ولَعل هذ الانقباض النبيل هو الذي ابتعثه أصلا على اختيار ذلك المنهج؛ وهاً هنا محل من الدلالة المصدِّقة لما ادعيناه من حظ النفس من المنهج، عندما قلنا إنه لا بد من أن يحمل أثرا من مستعمله، جَلَّ أو قَلَّ.

ويظهر انقباض هذا الباحث في عبارته، التي تلَّطف بها لأداء رأي المخالفة؛ حيث أعرب عنه مستدلا عليه مع الترفُّق والدماثة، ودونما تحكُّم في إثباته وتعصُّب فيه ينبو بالألفاظ؛ فيقول مثلا في إفادة رأي يخالف فيه الإمام الشاطبي: «وعلى ذلك يتضح أن الشاطبي لا يعترف بالبنيات الاشتباهية باعتبارها بنيات مستقلة لها دلالتها وبعدها البلاغي (...). ومذهبه هذا مخالف لما جرينا عليه من الفصل بين الخطابين؛ فقد جعلنا للبنيات الاشتباهية حقيقتها المستقلة، وللخطاب غير الاشتباهي، سواء كان متعلقا بغيره قصد بيانه، أو كان قائما بذاته، حقيقته ودلالته اللتين لم نسلم بكونهما ثابتتين بالنظر إلى ارتباطهما بمقام التداول وطبيعة المتلقي للخطاب، وظروف تشكيله للمعنى، وهذا هو مسوّغ حديثنا في بعض المباحث عن الاشتباه في النص مما ذهب إليه كثير من الأصوليين. غير أن الشاطبي، على خلافهم، لم يجوِّزه في غير النص، ناهيك عن النص»[9]. ويقول مخالفا ألفت الروبي: «وقد وقفت ألفت الروبي على نظير هذا الاستنتاج في دراستها للتغيير التشبيهي والاستعاري، معتبرة أن التغيير من وسائل التخييل مع الوزن والموسيقى، وهو رأي لا ننازع في صحته، لكننا نأخذ عليها اقتصارها في مفهوم التغيير على عنصرين محدودين، رغم أنه يتسع للوزن

1 - من مراتب الحوارية عند طه عبد الرحمان في كتابه: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام.

2 - نفسه.

3 - الخطاب الاشتباهي، ص 266.

4 - نفسه، ص 239.

5 - نفسه، ص 357.

6 - نفسه، ص 80- 460.

7 - نفسه، ص 83.

8 - عرفتُ الكاتب معظِّما لأهل العلم، حافظا لأقدارهم.

9 - الخطاب الاشتباهي، ص 262.

أيضا، فلا وجه للاحتراز منه على نحو ما صنعت الباحثة بإفراده وسيلة تخييلية موازنة للتشبيه والاستعارة، غير داخلة في مفهوم التغيير، وقد رأينا أن المفهوم قد بلغ من الشمول مع ابن رشد ما جعله محيطا بجميع الخصائص النوعية والكمية المائزة للشعر»[1].

فهذان مثالان على عبارة أدّت معنى المخالفة، ولم يرجع على لفظها شيء من عسْف ذلك المعنى، وقد كان في جبِلَّة طبعها أن تشِفَّ عنه كمثل شفوف الزجاج، لولا أن المتكلم خفَض جناحَها للرِّفق؛ بفضل فهمه الأَخلاقي للخلاف. والذي يظهر لي الآن، طلبا للاختصار والاقتصاد، هو البناء على هذين المثالين نفسيهما لفحص شطر من منهج المخالفة في الرأي؛ فأقول إنّ من منهج التهالي في المخالفة، فضلا عن أدبِه فيها، إرْجاءَها وعدم العجلة إليها؛ فهو لا يخالف الرأي في المسألة إلا بعد أن يفرغ من بحثها، وذلك واضح في قوله: «ومذهبه مخالف لما جرينا عليه من الفصل بين الخطابين»، وفي قوله: «وقد رأينا أن المفهوم بلغ من الشمول مع ابن رشد ما جعله محيطا بجميع الخصائص النوعية والكمية المائزة للشعر». وإرجاءُ الخلاف إلى الشوط الأخير دالٌّ على عدم أصليته في منهج العرض، ودال أيضا على احترام رأي المخالف، من حيث إنه لا يُفْضى إليه بالاقتحام عليه، كالاقتحام على من لا حرمة له، بل يُصار إليه بعد استيفاء المبحث، وحصول نوعِ يقينٍ في صواب المخالفة.

ومن منهج المخالفة بالرأي أيضا: عقد الدليل؛ والمخالفُ عندما يعقِد دليلَه الصحيح فإنه يعقد عُروة في حبل العقلاء، الذي ليس من دونه إلا حِبالة المغالطين والمشاغبين. وقد عقد التهالي الأدلة على آرائه، وهي تخاصم آراء مخالفيه في محلاتها الضيِّقة والمؤخَرة (من بعد استيفاء بحث مسائل الخلاف)، فلا جرَم أن جاءت هذه الأدلة مقتضبةً وواثقةً؛ فأما اقتضابها، فلضِيق محلها، وأما ثقتها، فمردُّها إلى كونها استدلالا ظاهرا من فوق استدلال ضمني موسَّع، ونعني به: البحث المنجز في المسألة الاشتباهية، الذي يُفتح في خواتيمه على الخلاف عندما يُستحضر الرأي الآخر في تلك المسألة، وعندئذ تنعقد الأدلة الصريحة؛ فهذه الأدلة، التي هي كقمَّة جبل الجليد، تمتلئ بالثقة من حيث إنها تقف على ذخيرة من النتائج الموضوعية.

إنّ أدلة التهالي في المثالين المقترحين توقِف المخالف على انحراف مسلكه في المسألة من خلال إشهاده رأيَ غيره، من أمثاله ممن كثُر عددهم، الذي يخالف ما عند ذلك المخالف؛ كدليل رد رأي الشاطبي: «وهذا هو مسوغ حديثنا في بعض المباحث عن الاشتباه في النص مما ذهب إليه كثير من الأصوليين. غير أن الشاطبي، على خلافهم، لم يجوِّزه في غير النص، ناهيك عن النص»؛ أو يوقِفُه على ذلك الانحراف من خلال إشهاده رأيَ غيره، ممن هو حجةٌ في المسألة مناط الخلاف، الذي يخالف ما عنده؛ كدليل رد رأي ألفت الروبي: «فلا وجه للاحتراز منه على نحو ما صنعت الباحثة بإفراده وسيلة تخييلية موازنة للتشبيه والاستعارة، غير داخلة في مفهوم التغيير، وقد رأينا أن المفهوم قد بلغ من الشمول مع ابن رشد ما جعله محيطا بجميع الخصائص النوعية والكمية المائزة للشعر». والتهالي إذ يُثبت بهذا المنهج الاستدلالي آراءه، يُرضي نزعته النفسية إلى

1 – نفسه، ص 82.

الانقباض عن المخالفة، فهو إن خاصم عن بعض آرائه، لم يخاصم بأدلة يعقدها من نفسه يرهَن بها ذمته، فيُدلِج في المخالفة، بل خاصم؛ كما تقرر في المثالين، بمذاهب الرجال، خصومة بلا شوكة.

- منهج الموافقة في الرأي :

لئن تنكَّب كتاب الخطاب الاشتباهي آراءَ المخالفة ذراعا واحدا، فقد تنكب آراء الموافقة ذراعين اثنين؛ إذ قلَّتْ عن نظيرتها الأخرى، التي بلغتْ، وما كادت، العشرةَ آراء. وإذا كنا قد تأوَّلنا انقباض هذا الكتاب عن مخالفة أهل العلم، على المعنى الأخلاقي، فعلى أي معنى ينبغي أن نؤول انقباضه عن موافقتهم، وقد كان الظن فيه أنه لما تجافى عن المخالفة لوازع التفضل منه سيأوي إلى الموافقة للوازع عينه، فإذا هما (المخالفة والموافقة) غير منجدلين عنده بجدَل النفي والإثبات؟!

وإذا صح استعمال باب التفضل والتذمم[1] في تأويل سلوك الانحياش عن مخالفة العلماء، فإن تأويل سلوك الانحياش عن موافقتهم يدفع إلى استعمال باب آخر، وهو باب التحفظ والاحتياط؛ حيث نقدِّر أن التهالي عندما جعل رأيَ الموافقة أقلَّ رأيه عددا، إنما كان يتحامى المصانعة والمداراة في الآراء، وكأن التهمة بهما معلَّقة من فوقه برِجْل طائر[2]، حتى إذَا أسرف في الموافقة وقعت عليه! ونقدِّر أيضا أن به أنفةً تحجزه عن فرْط المتابعة على آراءَ الآخرين، من حيث كان ذلك يضيم المجتهدَ الذي يتلبَّس به. إنه، بعبارة واحدة تجمع تأويلي البابين، يتذمم للعلماء بعدم المبالغة في المخالفة، ولنفسه بعدم المبالغة في الموافقة.

ومن أمثلة رأي الموافقة، الذي نجتزئ به عن النزر اليسير من آرائها، قول التهالي على اختيار من اختيارات الشاطبي في قضية الاشتباه: «ولعل مذهبه هذا موافق لبعض ما نميل إليه من كون دلالة الكلام أو الخطاب بصفة عامة مرتبطة بسياق التداول»[3]، وقوله أيضا: «ولعل مذهب الكوفيين في هذا الباب مطبِّق للكفاية التفسيرية المومأ إليها؛ لأنه يتضمن التسليم بالدلالة الوضعية في محيطها الاستعمالي»[4]. ونلحظ في هذين المثالين أن باب التحفظ قد أقيم فيهما على نحو كيفيٍّ بعد أن أقيم على النحو الكميِّ المعروف (تقليل آراء الموافقة إلى العدد الذي تسدُّ فيه اليد الواحدة)؛ فقد جاء التهالي ثمة بعبارة وقورٍ مقتصدة، ملقاة على التوقع (لعل)، وعلى التبعيض والتقليل.

وإذا كانت آراء الوفاق قصيرةَ الباع جدا في كتاب الخطاب الاشتباهي، فإنها ربما استأنفتْ حركتَها، وإن بصورة رمزية، في نوع آخر من الآراءَ المشاكلة لها، وهي: آراء التوفيق، التي يُدلى بها في القضية الخلافية من أجل التقريب فيها بين الآراء المختلفة، متى كان ذلك مقدورا ومثمرا؛ لأن الغايةَ التي يجري إليها حاقُّ التوفيق إنما هي الإبانةُ عن الصواب الممكن في المسائل، لا ترضيةُ الفرقاء. وقد جرى التهالي إلى تلك الغاية كلما سنَح له سانح من التقريب بين مذاهب متباينة في بعض المقتضيات الاشتباهية؛ حيث وفَّق بين بعض

1 - من معاني التذمم: رعاية الحقوق.

2 - كناية عن شدة تداعي الشيء للسقوط.

3 - المصدر الخطاب الاشتباهي، ص 265.

4 - نفسه، ص 383.

الأقوال في مسألة اللفظ بين الذهن والخارج، وذلك عندما قال: «ولعله من الممكن الجمع بين [المذهب] الأول والثالث للخروج بأصح الآراء في هذا الباب، وأقواها حجة (...) القول إن وظيفة اللفظ في هذه الحالة هي نقل المعنى من صورته الذهنية إلى صورته الواقعية، أو نقله من صورته الواقعية إلى صورته الذهنية»[1]. ويقول أيضا موفقا بين رأيين في مسألة التركيب بين الوضع والاختيار: «فالوضع في التركيب قانوني يصطبغ بالضرورة، ويقابله استعمال المتكلم لهذه التراكيب بقوانينها العامة، ومن سماته الاختيار والاحتمال والإمكان»[2].

لقد تولَّى الكتابُ أعمالَ الموافقة في الرأي والتوفيق فيه بمنهج واحد تقريبا، ومن أوصاف هذا المنهج أنه يختطُّ مادة محدودة جدا، دون أن يتقّالَ أفرادَها المعدودين (بأيسر العدد)؛ وذلك لأنه لا يرتهن بكمية المادة، بل بإرادة صاحبها فيها؛ فحيثما وجدها فثمة مدرجه، ولو وجدها في مثل مِفْحَص قَطَاة[3]! ومادة الرأي هذه، الموافقية والتوفيقة، قد عقد عليها التهالي إرادةً واعية، وهي إرادة: التذمم للذات.

ومن أوصاف هذا المنهج أيضا أنه يدور بالرأي في دائرة الاستدلال، التي هي مضمار الآراء على الحقيقة، وخارجَها بجري الرأي وحده، وكل مُجْرٍ في الخلاء يُسَرُّ كما يقال[4]! ولهذه الدائرة من الاستدلال مَدَّان: مد مستفيض، وموضعه مبحثُ المسألة مناطَ الموافقة أو التوفيق؛ حيث تُحرَّر تحريرا علميا تحقيقيا، مكتسبةً وجاهةً استدلاليةً، لا تكتسبها المسألة التي وردت على غير ذلك المورد؛ وفي كتاب الخطاب الاستدلالي لا نْثَقَفُ آراء الموافقة والتوفيق إلا في محك من البحث الجاد والمتنبِّه. وأما مدُّ الدائرة الاستدلالية الآخر، فهو مدُّها المقتضب الصريح، الذي يُذكر، غالبا، عقيب الإدلاء بالرأي، في صورة تعليل؛ كما في المثال التالي: «ولعل مذهب الكوفيين في هذا الباب مطبِّق للكفاية التفسيرية المومأ إليها؛ لأنه يتضمن التسليم بالدلالة الوضعية في محيطها الاستعمالي». أو في صورة دليل منقول؛ كما في المثال التالي: «ومن القواعد المقررة لدى الأصوليين في هذا الشأن قول أبي الوليد الباجي: «العلم بفائدة الكلام يجب أن يكون بعد العلم بمعنى الخطاب في مواضعة اللغة»»[5]. أو في صورة دلالة اعتبارية ضرورية؛ كما في المثال التالي: «ولذلك يكون الفهم تاما باقتضاء التطابق بين إرادة المتكلم ومحصول السامع من الكلام بإحالاته الذهنية والوجودية، ويكون غير تام بالنظر إلى مخالفة المراد لمحصول السامع من الكلام المستعمل»[6].

وخلاصة القول في هذا المبحث إنَّ كتاب الخطاب الاشتباهي يسوق آراء الوفاق والخلاف بمقادة منهجية واحدة، رغم فَرْقٍ ما بين النمطين. ومن أوصاف هذا القياد المنهجي أنه يضطلع بمتْن من الرأي الوفاقي والخلافي غير مسهب، تحقيقا لإرادة ذاتية تنقبض عن المخالفة والموافقة إلا حيث يكون اتخاذ

1 – نفسه، ص 150–151.

2 – نفسه، ص 155.

3 – كناية عن الصغر.

4 – من أمثال العرب، ومن معانيه أن قيمة الشيء بمحكِّه وممتحَنه.

5 – الخطاب الاشتباهي، ص 156.

6 – نفسه، ص 156.

الرأي بالتزام أحدِهما مما لا بدّ منه، وعلةُ هذا الانقباض اتِّقاءُ المغبَّة الوجدانية التي تقع جراء المبالغة في مخالفَة العلماءَ، وكثرة موافقتهم على حد سواء؛ حيث إن مغبة الأولى: بَطْرُ حق الغير، ومغبة الثانية: هضْم حق النفس.

ومن الأوصاف المنهجية الأخرى :

- الدلالة على الرأيين بعبارة تحتاط لهما؛ فأما حيطتها لرأي المخالفة، فبالتلطُّف له اعتزالا لما يُحتمل فيه من الجور، وأما حيطتها لرأي الموافقة، فبالتوقُّر فيه اعتزالا لما يُحتمل فيه من المصانعة.
- الاستدلال على الرأيين بنمطين من الدليل لا يغني أحدهما عن الآخر؛ فأما الأول، وهو مجازٌ من الدليل، فنعني به: دراسة المسألة الاشتباهية التي تكون عادةً زادا وعتادا للرأي المعبَّر عنه، وهي لذلك تَبْصِرَةٌ له وأيُّ تبصرة! فغالبا ما تصيب الآراء التي من هذا القبيل مفْصل الحق. وأما الثاني، وهو الدلَيل على الحقيقة، فيقوم بأحد هذين العاملين التاليين أو بهما معا: تعليل الاختيار تعليلا موضوعيا، والإشهاد له بما ينصره من أقوال العلماء.

4 - منهج الدلالة

لا عمل للمنهج في الدلالة، وإنما له فيها أثرٌ ما من عملٍ ما يعمله في الدليل المنتِج لها، وهذا العمل مرتهن بذلك الأثر؛ فالدلالة هي مرمى المنهج، الذي لا يُرمىً إليه إلا عن قوس الدليل الإنتاجي. وإذا رجعنا إلى كتاب الخطاب الاشتباهي وجدنا فيه أصنافا من الدلالة من تحتها أصناف من الأدلة. وليس في وسعنا، وقد بلغنا إلى صدر حَصِر من هذه الورقات يضيق عن إطالة النفَس، أن نفحص عن المنهج في جميع تلك الأصناف، فلربماً وجَبَتّ لنا المعذرة للفحص عن بعضها، ونخص الأدلة الإنتاجية[1] التالية: الاصطلاح الأفصح بوصفه دليلا إنتاجيا إفراديا، بناء الدلالة على مقتضيات التعريفات، بوصفه دليلا إنتاجيا تركيبيا، والخطاطة بوصفها دليلا إنتاجيا شبه رمزي.

- منهج الدلالة الاصطلاحية :

الاصطلاح لفظ مفرد خصوصيُّ الدلالة، ولئن كانت هذه الخصوصية هي صفة إعراب ذلك اللفظ عن معان أحدثها النظر العلمي، أو أعيان أوجدها السعي الصناعي، فإنها إذ تنقله إلى مجال جديد تعليه إلى منهج جديد، وأول المنهج في الاصطلاح هو العلة الاصطلاحية نفسها؛ أي إرادة اختيار لفظ ما (بالمجاز أو بالاشتقاق أو بالنقل) ليدل على معنى محدث ما، ومن المنهج فيه أيضا إقامته في حيزه من الخطاب، وإرساله في نسق العلاقات المْمكنة له.

مصطلحات كتاب «الخطاب الاشتباهي» كثيرة جدا، حتى العادُّ إذا أراد المُحْصي إحصاءَها، لم يحصها إلا برشْح الجبين. وأقلُّ هذه المصطلحات هو ما استحدثه التهالي واستطرفه منها، وأغلبها هو المتاح المشترك في حقل مسألة الاشتباه (وهو حقلُ حرثِ العلوم الأربعة: الأصول، المنطق، النحو، البلاغة والنقد)؛ ومن

---

1 - من مفاهيم طه عبد الرحمان في كتابه: تجديد المنهج في تقويم التراث.

أراد أن يتعرَّف منهج هذا الكاتب في الاصطلاح، لم يجد في تلك الجمهرة من المصطلحات إلا بعضا منه، حتى إذا تولى الفئة القليلة الأولى وجد ذلك المنهج كله.

وأقربُ ما يجب أن ننظر فيه من ذلك هو منهجُ إمام بابِ مصطلحات الكتاب، وهو: مصطلح الاشتباه، الذي رجَح في ذلك الكتاب لفظُه على لفظٍ آخر مضَارعٍ له في دلالته الاصطلاحية، وهو: الإشكال/ المشكل؛ والذي يظهر أن رجحانه عليه يرجع إلى تأثُّله من معنيي: الشَّبَهُ والشُّبْهة، وهما معا مما يقع في حاقِّ تلك الدلالة، فضلا عن أن لفظ الاشتباه يمت بصلة اشتقاقية إلى مصطلحين وجيهين في مجاليهما: مصطلح التشبيه في مجال الدراسة البلاغية، ومصطلح المَتشابه في مجال الدراسة القرآنية، وهما بمكان مما يدل عليه لفظ مصطلح «اشتباه». ومن منهج التهالي في الترجيح بين لفظي: الاشتباه والإشكال، أن هذا اللفظ الثاني، وإن لم يَغمّ على المتقدمين، فإنه يغم على المتأخرين (المعاصرين)، من جهة التباسه عليهم بمفهوم الإشكال الفلسفي أو ما هو منه بسبيل، ولاسيما عند اقترانه بالخطاب، وهو اقترانٌ شعاريٌّ في الكتاب؛ حيث كان شعار «الخطاب الاشتباهي» أبعد عن اللبس من شعار «الخطاب الإشكالي».

تبلغ المصطلحات التي استطرفها التهالي نحو سبعة عشر مصطلحا، نذكر من بينها:

الدلالة الأوضاعية، المعنى المستدعي، اللبس الإضافي، القطاع الفردي، القصد التفصيلي، الإحكام الإثباتي، وغير ذلك من المصطلحات؛ ومن علامات المنهج فيها ما يلي:

- أن التهالي يعلن عن نسبتها إليه بأمثال هذه العبارات: «نصطلح عليها»، «اصطلحنا عليه»، «أن نسمي»، «على تسمية». وربما زاد على العبارة عن أصالة مصطلحاته قرائنَ لفظيةً تدل على عزيمته في ذلك؛ كقوله: «فحق لنا أن نسمي هذا النوع»[1]، أو كقوله: «يجدر الاصطلاح عليه»[2]، أو تدل على تعففه؛ كما في قوله: «فإننا نجرؤ على تسمية»[3]، أو كقوله: «وقد يصح أن نسمي هذ النوع»[4].
- أنه لا يأنف أن يذكر الجهة المُلهِمة له في اصطلاحه؛ على نحو ما فعل في مصطلحي: المعنى المستدعِي والمعنى المستدعَى؛ حيث أفصَح عمّن ألهمه إياهما عندما قال: «وقد وظف السبكي مصطلحا غاية في الأهمية للتعبير عن لزوم المعنى في هذا المثال وهو الاستدعاء، على نحو ما يسمح لنا بالحديث في أمثال هذه البنيات اللغوية عن المعنى المستدعي والمعنى المستدعى»[5]، وكذلك فعل في مصطلحين آخرين، وهما: دلالة الأصل ودلالة معقول الأصل؛ حيث قال: «وقد استفدنا المصطلحين معا من كتاب: المعونة في الجدل لأبي إسحاق الشيرازي» [6].
- أنه يُحدِث من الاصطلاح بحسب ما يَحدُث له من المعنى، وقد حدث له منه قَدْرٌ معقول، لتَوَلِّيه

1 – الخطاب الاشتباهي، ص 143.

2 – نفسه، ص 322.

3 – نفسه، ص 196.

4 – نفسه، ص 177.

5 – نفسه، ص 186.

6 – نفسه، ص 173.

مسألة الاشتباه في التراث بفهم ذي طبقتين: طبقة الدراية عن القدماء في تلك المسألة، وطبقة الدراية عن المتأخرين فيها؛ فلا جرَم، مع جودة هذا الفهم، أن يَعنَّ له المعنى الذي لم يُعرف، وعندئذ لا بد من توسيده للفظ؛ وبذلك يُستطرف الاصطلاح، لا بالهوى والشغف، ولكن بقوة الحاجة.

- أنه يبنى جميع المصطلحات التي انفرد بها على التثنية، وأكثر هذا البناء قائم على تثنية الوصف؛ كمصطلح: القطاع الجماعي مثلا، وأقلُّه قائم على تثنية الإضافة؛ كمصطلح: دلالة الأصل مثلا. ويدل هذا الاتفاق المعْجب على أن مصطلحات التهالي تعبِّر عن معان متفرعة عن أصولها من غير أن تنفصل عنها؛ بحيث تُذكر هي وإياها، وكأنها عالةٌ عليها، حتى لو ذُكرت وحدَها لم تُفِد؛ كمثل قولك: البنائية، وأنت تقصد: الصورة البنائية[1]، أو قولك: الوضعية، وأنت تقصد: الدلالة الوضعية[2].

- **منهج استثمار الدلالة التعريفية :**

التعريف عمل منهجي، وأظهر المناهج فيه هو ما تواضع عليه المناطقة التقليديون، مما هو عندهم من أصول صناعتهم؛ حيث تذهب تلك المواضعة المنهجية في التعريف (التصور) بنصف هذه الصناعة، بينما يذهب الاستدلال (التصديق) بنصفها الآخر. ومن منهج التعريف على ما قرروه وجوبُه في العلم، وتقدُّمه في خطابه، وتصويرُه لماهيات مطلوباته. ولم تكن هذه المكانة المنهجية للتعريف لتعزُب عن بال التهالي، ولا نقول تصداقا لذلك: إن مراعاته لمكانة التعريف حاصلة من خلال عقده إياه في كتابه! فإنه عقدُ ضرورة لا امتياز فيه (إلا أن يُبرمَه عن يد منطقية، محتذيا المنهج المذكور حذو النعل بالنعل، لا يغادر منه موطئا)، بل نقول إن تصداق عنايته بالتعريفات هو بناؤه عليها، واستثماره دلالتها؛ أليس، إذ يفعل، يقرُّها على منهجها المنطقي، من حيث إن البناءَ على التعريفات لازمٌ عن تقديمها، ومن حيث إن استثمارَها لازمٌ عن الثقة بها (باعتبارها من واجبات العلم، ومن أدلته الإنتاجية الفعالة) !

إن تحرير المسألة، جزءا أو كلا، بين يدي تعريفِ موضوعِها هو من أهم مسالك التحرير العام في كتاب الخطاب الاشتباهي؛ فقد اطَّرد في هذا الكتاب الرجوع إلى تعريفات النظّار في المسائل الاشتباهية، حتى صارت تلك التعريفات قواعد يُنطلق منها للدفع بأزمَّة الدلالة الشبيهة بكرة الثلج، من حيث كانت تصدر عن التعريف وهي في ازدياد من المعنى العلمي حالًا بعد حال، أو قل إذا أردتَ أن تستعير كلمة بليغة وردت في هذا الكتاب (في سياق آخر): إنَّ تلك الدلالة تنشَط بعد التعريف وبأثر منه في حركة تضافرية[3] من المعنى المذكور؛ وإلى هذا رمى التهالي عندما قال متحدِّثا عن تعريفٍ لأبي البقاء الكفوي: «يقودنا هذا التعريف إلى أفق أرحب»[4].

ومن شواهد استثمار الدلالة التعريفية في كتاب «الخطاب الاشتباهي» قول التهالي معقِّبا على تعريفين؛

---

1 - نفسه، ص 129.

2 - نفسه، ص 143.

3 - نفسه، ص 273.

4 - نفسه، ص 30.

أحدهما لابن منظور، والآخر للفيمومي: «يفيد التعريفان ارتجاع التصور إلى الذهن بما هو قوة النفس المهيأة المستعدة لاكتساب الآراء. والآراء هاهنا مرادفة للأفكار؛ فالتصور إنما يتحصل من الأنساق المعنوية التي جعلت الألفاظ عليها دليلا. وقد عبر «اللسان» عن ذلك بالتوهم، و«المصباح» بالتمثيل...»[1]؛ ويقول أيضا بعد إيراد تعريفات لالساوي وابن سينا والقزويني: «ومن خلال تأمل هذه التعريفات يتبيَّن أن الدلالات الثلاث مرتبة ترتيبا تتقدم فيه الدلالة المقيدة والمحصورة على المطلقة المنفتحة...»[2]؛ ويقول بعد تعريف لأبي علي القالي: «وفائدة هذا التعريف أن شذوذ اللغة لا ينافي الفصاحة كما في كلام السيوطي وابن رشيق...»[3]؛ ولا يزال هذا ديدن الكاتب بين يدي معظم تعريفات أرباب الرأي في مسألة الاشتباه، لا ينفتل عنها حتى يحظى منها بطائل من الفائدة؛ ولذلك تراه يُكثر من قوله عقيب كل تعريف توسَّده لاستثمار الدلالة: «وفائدة هذا التعريف»[4]، أو قوله: «ومنه يستفاد»[5]، أو قوله: «ويُتبيَّن من»[6]؛ وتدل هذه القرائن على منهج في ذلك الاستثمار، وهو أنَّ إرادة استعمال الدلالة التعريفية لا تعتني بجملة هذه الدلالة، وإنما عنايتها بمَا يهمُّها منها، مما ينسجم مع خط الأطروحة، ويجري في تياره، ولو أنها مضت تطلب غَلَّة المجموع الدلالي التعريفي، لطال بها المُكث بالمحل، مع التفاوت والتشعُّث؛ وهذه الإرادة عامة في الكتاب، تتعدى استثمارَ هذا النمط من الدلالة إلى أنماط أخرى، ويدل عليها التهالي أحيانا بقوله: «والذي يهمنا»؛ وذلك في مواضع كثيرة 188/ 196/ 198/ 232/ 244[7].

– منهج تخطيط الدلالة :

تُوسَّد الخطاطة في مجال الدراسة الأدبية لأداء المعنى في بعض المواضع؛ فإذا أفْضت إليه وأفضى إليها، ساوَرَ كلٌّ واحد منهما الآخرَ على نفسه؛ فتذهب الخطاطة ببعض عبارية المعنى، ويذهب المعنى ببعض إشارية (رمزية) الخطاطة؛ فيستويان بعد هذه المناجزة: شكلا من الدلالة شبه إشاري، أو إنْ شئتَ قلتَ: شبه عباري؛ حيث تجدُ الخطاطةَ في هذا المجال الأدبي (وفي مجال العلوم الإنسانية بصفة عامة) دالةً بمعمار رمزي سدَّت خُلَّته ألفاظُ المعنى الجامع.

والخطاطة من الدلائل الإنتاجية التي اختص بها التحرير العلمي المعاصر، حتى قلَّ أن تجد كتابا علميا لا يأخذ بصنف من أصنافها: جدولا أو سلَّما أو مبيانا أو مربعا سيميائيا أو غير ذلك من الأصناف؛ وربما أخذها البعض مأخذ الاستئناس، وربما وظَّفها البعض للرياء، تشوُّفا بها إلى عرَض أدنى من المعاصرة! والواجب فيها، من حيث كانت وسيلةً منتجةً للدلالة، أن يُعتمد عليها للإفادة بها جنبا إلى جنب مع سائر الأدلة الإنتاجية، لا تُضام في مصاحبتها إياها، لاسيما وأنها تسدُّ في التحرير سدودا لا يسدها غيرُها، أوَ

1 – نفسه، ص 37–38.

2 – نفسه، ص 46.

3 – نفسه، ص 337.

4 – نفسه، ص 240.

5 – نفسه، ص 243.

6 – نفسه، ص 358.

7 – نفسه، الصفحات: 188–196–198–232–244.

قُلْ: لا يسدُّها بمثْل حذقِها غيرُها؛ فهي تُنصَب من أجل تركيز المقتضيات الدراسية الهامة، لكنها مع قوة الطبع في ذلك؛ أي في إدراج أقلِّ لفظِ مقتضىً ما وأدلِّه في مدرج الشكل الرمزي الملائم، ربما أوجدت فهما لم يكن، أو جدَّدته، أو فتحت له أفقا، مما قد تقصُر غايةُ نسق التحرير أن تبلغه لدى بعض المتلقين لطول السُّلَّم عليهم، وتشعب الطرق بهم.

ومن عزائم التهالي في كتابه أنه أوْسع للخطاطة فيه على نحو ما يوسِع منها اللسانيُّ أو المنطقيُّ في مصنَّفه المستدِّق؛ حيث اطَّردت عنده بمعدل مرتفع، تقديره: خطاطةٌ في كل ثلاث صفحات أو فُوَيْقَ الثلاث صفحات! وليست هذه النزعة إلا بعضا من عزيمته في تخطيط الدلالة، أما بعضها الآخر فهو بلاغتُه في ذلك التخطيط؛ إذ برَع غير ما مرة في صبِّ خلاصة المعنى المقرر في قالبها من الخطاطة. وأجدُني مضطرا، بعد الإلماع إلى مواضع هذه الخطاطات البليغة من الكتاب[1]، إلى الاقتصار على وصف خطاطة واحدة؛ وذلك لبلوغ البحث في محلِّه هذا نزعَه الأخير.

إنّ كل خطاطة من هذه الطائفة البليغة من الخطاطات جديرة بأن تُختار لتمثيل أخواتها؛ لذلك اتّقيتُ من الحيرة فيها باختيار أولاها ورودا في الكتاب[2]، وهي الخطاطة التي تؤدي الدلالة التالية: تواطؤ المتكلم والمتلقي معا في سياق الاستعمال البياني على المراد نفسه، وتفاوتهما في السياق الاشتباهي؛ حيث يرمي المتكلم إلى القصد، ويقع المتلقي على المعنى الذي دونه.

لقد رسَم التهالي لأداء هذا المعنى دائرتين، يحجِز بينهما خطٌّ عمودي دال على تقابلهما؛ فوسَم الدائرة الأولى بعنوان: الاستعمال البياني، ووسم الدائرة الثانية بعنوان: الاستعمال الاشتباهي، ثم جعل في كل دائرة ثلاث طبقات:

طبقة مركزية جعلها حيزا لالمراد، ومن فوقها طبقة عازلة، ومن فوقها طبقة خارجية وطّنها لالمعنى، وأقام اللفظَ خارج كل دائرة على حدة، في هيئةٍ كهيئة القمر من كرة الأرض، ثم جعل المتكلمَ والمتلقيَ يكتنفان الدائرتينّ؛ حيث وقع المتكلم عن يمين كل دائرة، ووقع المتلقي عن اليسار؛ فإذا جئنا إلى دائرة البيان وجدنا للمتكلم والمتلقي سهمين قد نفذا معا إلى قلب الطبقة التي حيزت للمراد، وإذا جئنا إلى دائرة الاشتباه وجدنا للمتكلم والمتلقي رميتين بالسهم مختلفتين؛ فبينما نفذ المتكلم بالسهم، على ديْدنه، إلى حيز المراد، حسِر سهم المتلقي عن ذلك؛ فلزم الطبقة التي حيزت للمعنى.

فهذا نمط من تخطيط الدلالة لا يستطاع بمجرَّد منهج تلخيص المادة وتجريدها تجريدا جزئيا، وإنما يستطاع، بالزيادة على ذلك، بما يتداعى إلى هذا المنهج من إَحساس مستعملِه وأرْيحيته؛ فلعلك وقفتَ من خلال الخطاطة الموصوفة على اجتهاد هندسي انضبط للضرورة الشكلية، وتحرر منها في الوقت نفسه، عندما نزع إلى تجريب وضع تخطيطي أسلوبي؛ أي الوضع الذي يعكس أسلوبَ المخطِّط بما هو صبغةٌ من

1 - نفسه، الصفحات 156-212-337-344-419-440-463.

2 - نفسه، ص 156.

ذاته الذكية والمتخيِّلة، أو قل بعبارة حديثة مشهورة: الأسلوب الذي هو الرجُل! وعلى هذه الأسلوبية درجت سائر الخطاطات الأخرى التي رفعناها إلى رتبة البلاغة.

خلاصة القول في هذا المبحث إن لكتاب الخطاب الاشتباهي منهجا عاملا في الدلالة من خلال عمله في الدلائل المنتجة لها؛ كالاصطلاح، والتعريف (من جهة كونه منطلقا للاستثمار الدلالي)، والخطاطة؛ فأما عمله في الاصطلاح، ولاسيما الاصطلاح الذي اختَّص به الكاتب ولم يشارك فيه غيرَه، فيظهر في اقترانه بقرينة تنبِّه على كونه مبتكرا مستطرفا؛ فإذا احتُمل وجودُ ملهم لهذا الكاتب فيه، كان من عمل المنهج إفشاءُ اسمه. كما أنَّ من عمله في هذه المصطلحات عدم التعدِّي بها على حد الحاجة، والإتيان بها مثَّناة غير منفردة لعلَّة دلالتها على مفاهيم متفرعة عن أصولها. وأما منهج استثمار الدلالة التعريفية، فيقوم على الاجتزاء منها بالضروري الذي هو محلُّ العناية، وعلى سوْق هذا القَدْر الضروري مساقا تحريريا ازديادیا وتراكميا. وأما عمل منهج الخطاطة، فيتمثل في إقرارها على قرار الوجوب، وفي المكاثرة بها؛ فضلا عن أخْذ بعض أفرادها مأخذا بارعا ينضبط للضرورة الشكلية، ويعْلَق من أسلوب صاحب التخطيط.

وفي الختام، فقد نجَز القَبَسُ المستطاع من الإضاءة لبعض الجوانب المنهجية من كتاب البشير التهالي: الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني العربي، وأول أعمال هذه الإضاءة عقدُ دعوى خاصة في المنهج تقضي بالزيادة على المعلوم بالضرورة منه، بنظرة تتفطَّن إلى بعض خفِيِّ فعله وانفعاله؛ فعله في جوانب من الموضوع تستخِفُّ بها حركة الوعي المنهجي الملجمَة بلجام العادة، وانفعاله بالإرادة التي تستعمله، التي لا بد من أن يكون لها فيه أثر ما. وسيخرج البحث عقب هذه الحيثية إلى طلْق سعيه، وذلك بالفحص عن عمل المنهج في ثلاثة معمولات: التبويب، والرأي، والدلالة.

فأما التبويب، فقد استوعب عناصر الأطروحة، حتى انفرج لها جميعا، وقد سَلَكَهُ المنهج في ترتيب دال جرى تأويلُه في ضوء إحصاء فصول الأبواب ومباحثها؛ فألمع إلى موقف للكاتب من قضية التداخل التداولي بين علوم المجال الأدبي. وأما **الرأي**، فقد اجتزأتْ منه هذه الإضاءة بآراء المخالفة والموافقة لضرورة مشروحة في موضعها، وفَتَرَ المنهج في هذه الآراء عن إرادة مقلّة في إتيانها، انقباضا عن مخالفة بَطِرَة أو موافقة مَلِقَة؛ فكانت لا تتعاطى منها إلا حيث لا مندوحةَ لها عنها. ومن عمل المنهج في هذه الآراء التحوُّط بالعبارة فيها، وإقامة الأدلة لها على دعامتين: دعامة نتائج بحْثِ المسألةِ موضوع الرأي الخلافي أو الوفاقي، ودعامة الأدلة العقلية والنقلية. وأما **الدلالة**، فاعتمالُها المنهجي هو اعتمالُ الدلائل المنتجة لها؛ كالاصطلاح، ومحصول التعريف، من حيث كان زادا دلاليا استثماريا، والخطاطة؛ فالأول، الذي اعتُني فيه بالمصطلح المبتكر غير المسبوق، قد قضى المنهج فيه بعدم ستْر خبَره، وبتثنيته، وبالالتزام به مُلتزَم الضرورة. وقضى المنهج في الثاني باختيار مهماته المعتبرات، وبحدْرها في نسق بناء الدلالة حدْرا توليديا تضافريا. وأما القضاء المنهجي في الثالثة، فيتمثّل في إيجابها، والتوْسِعة لها في أكناف التحرير، وإنشاء بعضها مما ارتفعت بلاغتُه بيد الضبط الشكلي، وباليد الباصمة بالبصمة الشخصية.

المصادر والمراجع

- ابن عبد ربه، أحمد، العقد الفريد ، الجزء الأول، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1987.
- التهالي، البشير. الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني العربي. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2013.
- العروي، عبد الله، الأيديولوجيا العربية المعاصرة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت.
- عبد الرحمان، طه:
  - مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 1996
  - تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
  - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقاقي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 2000.
- المتنبي، أحمدُ بن الحسين أبو الطيب، الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، الجزء الأول، ضبط مصطفى السقا (و) آخرين، دار الفكر، بيروت، 2010.
- اليوسي، أبو علي، تحقيق: محمد حجي (و) أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.



قضايا نقدية وبلاغية

النفي الضمني (المستلزم)
والقوة الإنجازية في اللغة العربية:
مقاربة لسانية وظيفية

محمد مرزوق[1]

مقدمة

نروم محاولة طرح الإشكال الذي يعرفه موضوع النفي والقوة الإنجازية، أي هل النفي قوة إنجازية مثل باقي بعض الأساليب كالإخبار والاستفهام، أم هو مجرد وسيلة للتعبير عن قوة إنجازية؟ وفي الوقت نفسه نسعى للوصول إلى تأييد أو دحض ما ذهب إليه بعض اللغويين أمثال كيفون (1975)، بحيث أقر بأن النفي قوة إنجازية (أو فعل لغوي) كباقي الأفعال اللغوية الأخرى. والواقع التجريبي، أن النفي، بخلاف القوى الإنجازية المعروفة، يمكن أن يوارد قوى إنجازية في نفس الجملة. وبهذا المنظور، يمكن أن يكون وسيلة صرفية تركيبية تستخدمها اللغات الطبيعية للدلالة على قسط من فعل لغوي يمكن الاصطلاح على تسميته بفعل «الاعتراض»، الذي يفرع إلى فعل «الجحد» وفعل «التعويض».

وفي إطار حصر الخصائص التداولية المتعلقة ببعض التراكيب المبأرة، يتضح أنها مثل التراكيب القصرية والتراكيب المصدرة والتراكيب المفصولة وغيرها، تستعمل في حالات يكون فيها ما يعتقده المخاطب مخالفا لما يعتقده المتكلم. وهذا الاختلاف في الخصائص التركيبية والتداولية يجعل هذه التراكيب المبأرة مُستعمل في طبقات مقامية مختلفة، مما يجعلها لا تحقق الغرض التخاطبي نفسه. وقد يلجأ إلى تراكيب ترد فيها أنماط مختلفة من البؤر لتحقيق بعض الأغراض الأساسية التي يسعى المتكلم بواسطتها إلى دحض ما يعتقده المخاطب في مقام تخاطبي معين. وهذه التراكيب تواكب المحتوى القضوى فتكون فيها قوتان إنجازيتان: قوة إنجازية حرفية وقوة إنجازية مستلزمة حواريا يقتضيها مقام التخاطب، وهي «الجحد» المعبر عن الدحض الذي يسعى إليه المتكلم في كل واحدة من هاته البنى المبأرة.

وهذا الافتراض يذهب بنا إلى أن تحليل البنيات المنفية عن طريق الاستلزام يتم بواسطة الوظيفية التداولية البؤرة، خصوصا البؤر الأربعة المنبثقة عن بؤرة المقابلة. ولتحقيق هاته الغاية، سنتناول بالدرس الخصائص البنيوية والخصائص التداولية للبنيات المنفية استلزاميا، وسنسعى إلى إبراز العلاقة بين الوظيفة التداولية البؤرة والنفي المستلزم.

---

1 – أستاذ اللسانيات/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة محمد الخامس/ الرباط.

1 - النفي والقوة الإنجازية

1.1 - نفي القوة الإنجازية

من بين الإشكالات التي يعرفها موضوع النفي في اللغات الطبيعية إشكال النفي والقوة الإنجازية، أي هل النفي قوة إنجازية كبعض الأساليب كالإخبار والاستفهام... إلخ، أم هو مجرد وسيلة للتعبير عن قوة إنجازية؟ وينتج عن هذا الإشكال إشكال آخر، هو ورود بعض التراكيب دالة على النفي دون تضمنها لأداة من أدوات النفي المعروفة.

يذهب كيفون إلى أن النفي قوة إنجازية (أو فعل لغوي) كباقي الأفعال اللغوية المعروفة في النحو الوظيفي مثل الإخبار والوعد والإنذار والوعيد والاستفهام... إلخ[1]. ويظهر، من خلال ما قدمه الباحث أحمد المتوكل بصدد هذا الموضوع[2]، أن هذا الافتراض يبتعد عن الصحة ويفسر دفاعه عنه بأن النفي، بخلاف القوى الإنجازية المعروفة، يمكن أن يوارد قوى إنجازية في الجملة نفسها.

معنى هذا أن النفي يمكن أن يواكب السؤال والإخبار والأمر والوعد. والجمع بين قوتين إنجازيتين حرفيتين اثنين غير جائز، فلا يجوز أن تواكب الجملة نفسها قوتان إنجازيتان حرفيتان الواحدة منفية والأخرى استفهامية أو أمرية أو إخبارية.. إلخ، في حين يجوز أن تواكب المحتوى القضوي نفسه قوتان إنجازيتان اثنتان تكون إحداهما قوة إنجازية مستلزمة حواريا[3].

للتمثيل للدلالة الإنجازية في النحو، قدمت عدة اقتراحات في أطر نظرية مختلفة تتفاوت من حيث كفايتها التجريبية وكفايتها النظرية. وقد اقترح أحمد المتوكل أن يمثل في النحو الوظيفي للقوة الإنجازية على الشكل التالي:

يرمز، بصفة عامة، إلى القوة الإنجازية بمخصص الحمل الذي يأخذ شكل أحد المؤشرات: «خب»، إخبار»، «سه»: «سؤال»، «مر»: «أمر» كما في التمثيل (2) للجملة(1):

(1) هل عاد خالد إلى الرباط؟

(2) [سه [تا [مض عاد ف (ع س1: خالد (س1) منف فا مح
(ع س 2: رباط (س2) نك]] بؤجد]

---

1 - كيفون 1975.

2 - المتوكل.1993

3 - للجمل الاستفهامية، مثلا، دلالتان إنجازيتان أو قوتان إنجازيتان ، دلالة إنجازية حرفية، هي «السؤال». ودلالة إنجازية مستلزمة، هي «الالتماس» و«الإثبات» و«الإنكار». ونمثل لذلك على النحو التالي:
أ- هل تساعدني في الخروج من هذه الورطة؟
ب- ألم أهبك كل ما أملك؟
ج- أولطم خالد هندا؟

في الجملة (1) لا يواكب المحتوى القضوي للجملة إلا قوة إنجازية حرفية واحدة يرمز لها بمخصص حمل بسيط (مخصص واحد) كما في البنية (2). ويرمز بمخصص حمل مركب (أي بمخصصين) حين يواكب المحتوى القضوي للجملة قوة إنجازية حرفية وقوة إنجازية مستلزمة مقاميا، وذلك مثل البنية (4) الممثلة للجملة (3) التالية:

(3) أولطم زيد هندا؟

(4) [سه [نك [تا [مض لطم ف (ع س1: زيد (س1)) منف فا مح
(ع س2 : هند (س 2)) متق مف]] بؤمق]]

حيث «سه» و«نك» يرمزان إلى القوة الإنجازية «السؤال» والقوة الإنجازية المستلزمة مقاميا «الإنكار».

ومادام النفي يواكب قويتين إنجازيتين حرفيتين في الجملة نفسها مثل (5 أ- د)، فلا يمكن أن يكون قوة إنجازية، وبالتالي ليس فعلا لغويا.

(5) أ- ألم أقدم لك الطعام؟
ب- ما خرج الأستاذ بعد
ج- لا تخن أصدقاءك
د- لا أعدك بأنني سأزورك

والافتراض الذي يمكن اتباعه هو اعتبار النفي وسيلة صرفية تركيبية تستخدمها اللغات الطبيعية للدلالة على قسط من فعل لغوي عام يمكن الاصطلاح على تسميته بفعل «الاعتراض». ويتضمن هذا الفعل فعلين فرعيين اثنين: فعل «الجحد» وفعل «التعويض»[1].

لنتأمل الزوج الجملي (6 أ) و (6 ب) :

(6) أ- لقد تزوج خالد هندا
ب- ما هندا تزوج خالد بل زينب

نفهم من البنية (6 ب) أن المتكلم ينجز فعلين لغويين اثنين : فعل «الجحد» المتجلي في إنكاره لورود المعلومة الدال عليها المكون «هندا»، وفعل «التعويض» المتمثل في تصحيحه لهذه المعلومة وإمداده بالمعلومة التي يعتقد أنها المعلومة الواردة، وهي «زينب».

ويمكن أن يتضمن «الاعتراض» (فعل) «الجحد» فقط مثل (7):

(7) ما هنداً تزوج خالد

1 - المتوكل 1993.

تشير بعض المؤلفات المهتمة بالنحو الوظيفي[1] إلى أن الجمع بين قوتين إنجازيتين حرفيتين في المحتوى القضوي نفسه ممتنع. في حين، يمكن أن تواكب الجملة قوتان إنجازيتان اثنتان، واحدة قوة إنجازية حرفية مدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها، وأخرى قوة إنجازية مستلزمة حواريا يقتضيها مقام التخاطب[2].

يعني هذا الكلام أن هناك حالات يحصل فيها، بإنجاز جملة ما، فعلان لغويان اثنان: فعل لغوي «مباشر» وهو الفعل اللغوي المطابق لصيغة الجملة، وفعل لغوي «غير مباشر» وهو الفعل اللغوي المستخلص من مجموع الكلام وهو ما ننعته بمقام التخاطب.

من بين الأمثلة التي يمكن تقديمها حول مواكبة قوتين إنجازيتين في الجملة ما يلي:

(8) هل تستطيع أن تقدم لي خدمة؟

في هذه الجملة، تواكب المحتوى القضوي قوتان إنجازيتان اثنتان:
- قوة إنجازية حرفية تدل عليها صيغة الجملة ذاتها بأداة الاستفهام «هل» وهي «السؤال»؛
- وقوة إنجازية مستلزمة حواريا أو غير مباشرة مقتضاة من طرف مقام التخاطب وهي «الالتماس».

ونقدم فيما يلي مثالا عن التراكيب التي تستعمل في طبقات مقامية معينة فتواكب المحتوى القضوي قوة إنجازية مستلزمة بالإضافة إلى قوة إنجازية حرفية.

(9) هل تستوي الحسنة والسيئة؟

تتوارد في هذه الجملة القوة الإنجازية «السؤال»، ويدل عليه الحرف «هل» والقوة الإنجازية المستلزمة حواريا «الجحد».

وعلى هذا الأساس، تكون الجملة (9) مرادفة للجملة المنفية بالأداة «لا» (10) التالية:

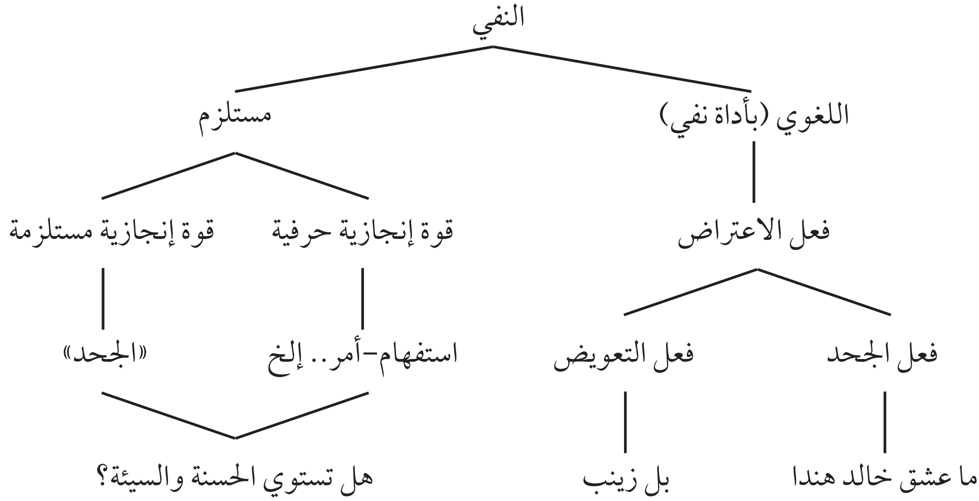
(10) لا تستوي الحسنة والسيئة

واضح، مما سبق، أن النفي يتحقق في بعض المقامات السياقية بدون أداة نفي. وإمكان ورود النفي بوسائل متعددة يدل على أنه ليس فعلا لغويا، وإنما هو مجرد وسيلة من الوسائل التي تستعمل في اللغة للتعبير عن فعل لغوي. وخلاصة القول إن النفي ليس فعلا لغويا كما يتبادر إلى الذهن، وإنما هو وسيلة تركيبية صرفية (حين ظهور أداة من أدوات النفي) أو عن طريق الاستلزام الحواري للتعبير عن فعل لغوي وهو فعل «الجحد». ويمكن توضيح ذلك فيما يلي:

---

1 - نفسه.

2 - حمولة الجمل الدلالية، في اللغات الطبيعية، دلالتان: الأولى: «قضوية «والثانية «إنجازية». القضوية هي المحتوى القضوي الذي يشكل مجموع دلالات مكونات الجملة مضمومة حسب العلائق السلمية القائمة بين هذه المكونات، أما الدلالة الإنجازية فهي «الفعل اللغوي» المواكب لإنجاز الجملة، وتكون إما «إخبارا» أو «سؤالا» أو «وعدا» أو «نهيا»... إلخ.



2.1 – البؤرة ودلالاتها على النفي المستلزم

من خلال فحص بعض الأدبيات المهتمة بالدراسات اللسانية، يلاحظ أن البؤرة كانت محط اهتمام العديد من الباحثين اللسانيين. ويبدو أن البنيات المبأرة في اللغات الطبيعية درست في إطار نماذج نظرية لغوية مختلفة قديمة ومعاصرة على السواء.

إن التحليلات المقترحة لدراسة البنيات المبأرة تختلف من مدرسة إلى أخرى ومن نموذج إلى آخر. فالأنحاء الغربية التقليدية، على سبيل المثال، تنظر إلى هذه الأضرب من البنيات على أنها مترادفة كلها. فهي تتناول ما يقابل في اللغة العربية التراكيب «المصدرة» والتراكيب «المفصولة» بمثابة إواليات تستخدمها اللغة لإبراز مكون من مكونات الجملة وإعطائه أهمية تحظى بها باقي المكونات[1].

ومن الأنحاء كذلك، التي تنظر إلى هذه الأنواع من التراكيب على أنها تراكيب مترادفة النحو التوليدي الذي يقدم في اقتراحاته أن التراكيب «المصدَّرة» والتراكيب المفصولة» تنتج عن تطبيق قاعد الموضعة Topicalisation.

وفيما يتعلق بالنماذج اللغوية المعاصرة المؤسسة تداوليا، اقترح سيمون ديك، في تحليل قدمه عن البنيات «المفصولة» والبنيات «شبه المفصولة» في اللغة الإنجليزية، أن ينتمي التركيب المفصول وشبه المفصول إلى النمط نفسه من التراكيب. وهذه التراكيب هي التراكيب البؤرية (Focus constructions) [2].

ولقد اقترح ديك (ديك وآخرون 1981) أن نميز بين ستة أنواع من البؤرة،هي (أ) بؤرة التتميم و(ب) بؤرة الانتقاء و(ج) بؤرة الإضافة و(د) بؤرة الحصر و(ه) بؤرة التعويض و(و) بؤرة الموازاة.

1 – المتوكل 1993.

2 – ديك 1993.

(أ) تسند بؤرة التتميم Completive focus إلى المكون الحامل للمعلومة التي تملأ ثغرة في الرصيد الإخباري للمخاطب.

أوضح الحالات في هذا الصدد الأجوبة عن الجملة الاستفهامية المتضمنة لاسم استفهام، ومثال ذلك:

(11) أ- ماذا لبس زيد؟
ب- لبس زيد جُبةً (بنبر جبة)
ج- جبة (بنبر جُبةً)

(ب) وتسند بؤرة الانتقاء selecting focus إلى المكون الحامل للمعلومة المنتقاة من بين مجموعة من المعلومات الممكنة.

مثال ذلك، المكون «جبة» في الجملة (12 ب) باعتبارها جوابا للجملة (12 أ).

(12) أ- أبدلةً لبس زيد أم جبةً؟
ب- جبةً لبس زيد (بنبر جبة)

(ج) وتستند بؤرة الإضافة expanding focus إلى المكون الدال على المعلومة المضافة إلى الرصيد الإخباري السابق للمخاطب.

يرد هذا الضرب من البؤرة عامة في التراكيب من نوع (13 ب):

(13) أ- لبس زيدٌ بدلةً وجبةً
ب- لم يلبس زيد بدلة فحسب بل لبس كذلك جبة (بنبر جبة).

(د) وتسند بؤرة الحصر restricting focus إلى المكون الحامل للمعلومة التي تحصر مجموعة من القيم في قيمة (أو أكثر من قيمة واحدة) تعد القيمة الواردة.

وترد بؤرة الحصر في التراكيب من نوع (14 أ) و (14ب):

(14) أ- لم يلبس زيد إلا جبةً (بنبر جبة)
ب- إنما لبس زيد جبة (بنبر جبة).

(هـ)- وتسند بؤرة التعويض Replacing focus إلى المكون الدال على المعلومة التي تعوض إحدى المعلومات المتوافرة لدى المخاطب، والتي يعدها المتكلم غير واردة. مثال ذلك، المعلومة الدال عليها المكون الوارد قبل «لا «والمكون الوارد بعد «بل» في الجملتين (15 أ) و (15 ب) على التوالي:

(15) أ- ما بدلةً لبس زيدٌ بل جبةً (بنبر جبة)
ب- لبس زيد جبةً لا بدلةً (بنبر جبة)

(و) وتسند بؤرة الموازاة parallel focus إلى المكون الحامل لمعلومة تقابل المعلومة الدال عليها مكون آخر في نفس الجملة.

وترد بؤرة الموازة في التراكيب الاستدراكية مثل:

(16) أ- لبس محمد بدلة لكن زيدا لبس جبةً (بنبر جبة)
ب- لبس محمد بدلةً في حين أن زيداً لبس جبةً (بنبر جبة).

وفي إطار النحو الوظيفي، اقترح أحمد المتوكل، في مواقف متعددة،[1] أن تدرس عمليات التصدير والفصل والحصر في اللغة العربية انطلاقا من التمييز بين أنواع الوظيفة التداولية البؤرة»، واقترح أن يميز بين نوعين من البؤرة «بؤرة جديد» و«بؤرة مقابلة» وهما كالتالي:

(أ) بؤرة الجديد، هي الوظيفة التداولية التي تسند إلى المكون (حمل أو عنصر حمل) الحامل للمعلومة التي يجهلها أحد المتخاطبين (المتكلم في حالة الاستخبار أو المخاطب في حالة الإخبار). ومثال ذلك الجملتان (17 أو ب) :

(17) أ- من قابل خالد؟
ب- قابل خالد هندا (بنبر هندا)

(ب) بؤرة المقابلة، وهي الوظيفة التداولية التي تسند إلى المكون (حمل أو عنصر حمل) الحامل للمعلومة المتجادل في ورودها (المعلومة غير المتفق على ورودها) وذلك مثل الجمل (18 ب -ه) باعتبارها ردودا تصحيحية للجمل (18 أ).

(18) أ- لقد قابلِ كُثَير عزةَ
ب- عزَة قابل كُثير
ج- التي قابلها كُثير عزةَ
د- ما قابل كُثير إلا عزةَ
هـ- ما قابل كُثير ليلى بل عزةَ

لا يمكن إغفال الجوانب المهمة في الدراسات العربية القديمة التي اهتمت بدراسة البنيات المبأرة. ولابد أن نرجع، بالأساس، إلى كتب البلاغيين العرب، التي خصص فيها أصحابها أقساطا مهمة لهذا النوع من البنيات.

لقد اهتم البلاغيون العرب القدامى بإبراز خصائص التراكيب الحصرية والتراكيب المفصولة وغيرها واهتموا كذلك برصد المقامات التي تلائم استعمالات كل نوع منها، والأغراض التي تستخدم لتحقيقها، والأهداف التي ترجو بلوغها. وما يلفت النظر حين الاضطلاع على هذه الدراسات هو تناول البلاغيين لهذه

1 – أنظر أعمال المتوكل،خصوصا مؤلفه : «الوظائف التداولية في اللغة العربية».

الأنواع من التراكيب باعتبارها تراكيب متباينة، أو بالأحرى أن المقامات التي تتحقق فيها تتباين من نوع لآخر. فتقديم المفعول على الفعل يتم حين يكون قصد المتكلم تخصيص ما يحيل عليه المفعول بالحكم الدالة عليه الجملة. ويتم استعمال بعض التراكيب الاستثنائية في مقامات معينة على أنها للقصر مثل: «ما... إلا».

وذلك انطلاقا من اعتبار الأداة «إلا» تفيد القصر في الكلام غير التام... وجودها في الكلام غير التام ليس عبثا، وإنما لأنها تكون للأمر ينكره المخاطب ويشكك فيه فتؤكده في نفسه لما فيها من معنى القصر[1].

ومادامت «إلا» تفيد القصر، فإنها تغني عن التزيد توهما لتخصيص معنى ما بعدها. وعلى هذا الأساس، لا يمكن قبول جملة مثل (19).

(19) ما زيد إلا قائم لا قاعد

وسبب ذلك راجع إلى أن النفي بالأداة العاطفة «لا» في «لا قاعد» يكون لشيء قد نُفِيَ منذ البداية و«لا» موضوعة لأن يُنفى بها ما ابتُدِئَ به فأُوجب، وبذلك لا يجوز قول:

(20) Iما جاءني أحد لا زيد[2].

وتستعمل في بعض تراكيب «الإضراب» الأداة المتقطعة «ما... بل» حين يكون المقام مقام قصر كذلك شأنها في ذلك شأن الأدوات «ما... إلا «وإنما». وهذا الاشتراك في إفادة القصر لا يعني أن هذه الأدوات مترادفة تمام الترادف بل توجد بينها فروق تميز الواحدة منها عن الأخرى[3].

في إطار حصر الخصائص التداولية المتعلقة ببعض التراكيب المبأرة وانطلاقا من الملاحظات المستخلصة من المعالجة البلاغية العربية القديمة لبنيات كالتقديم والحصر والعطف ب «لا» والإضراب بـ«ما... بل..» إلخ) تبين أن التراكيب المبأرة، التراكيب المصدرة والتراكيب القصرية والتراكيب المفصولة... إلخ، تراكيب متباينة بالرغم من وجود ما يوحي بأنها تراكيب مترادفة وبالرغم من كونها تستعمل في حالات يكون فيها ما يعتقده المخاطب مخالفا لما يعتقده المتكلم.

إن هذا الاختلاف في الخصائص التركيبية والخصائص التداولية لكل من هذه التراكيب المبأرة يجعلها تستعمل في طبقات مقامية مختلفة، ومن ثم فهي لا تحقق الغرض التخاطبي نفسه، وإنما يستعمل كل نوع فيها للقيام بغرض معين.

ولقد اتضح، من هذا التباين في الطبقات المقامية والأغراض المؤداة لهذه التراكيب، أن التحليل الذي اقترح بخصوص البؤرة أصبح تحليلا متجاوزا وغير ملائم لرصد خصائص البنيات المبأرة، وبالتالي فإن افتراض الترادف التداولي لهذه البنيات أصبح يتطلب إعادة نظر جديدة تنسجم مع افتراض تباين تداولي لكل التراكيب المبأرة.

---

1 - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 256.

2 - نفسه

3 - لمعرفة هذه الفروق بتدقيق راجع المتوكل 1993، ص 144.

وانطلاقا من هذه الاستنتاجات، وبصفة عامة، «لا يجوز لنحو يسعى لإحراز الكفاية التداولية، نحو يعتمد مبدأ ترابط بين اللسان ووظيفته التواصلية، أن يصف عبارات متباينة على أساس أنها مترادفة، إذ أن من مسلمات الأنحاء المعتمدة لهذا المبدإ أن تباين التراكيب يعكس تباين الأغراض التخاطبية[1].

ولتحقيق هذه الغاية اعتبر المتوكل أن التمييز بين بؤرتين اثنتين فقط غير كاف لوصف ظاهرة التبئير في اللغة وأن التحليل الملائم للتراكيب المبأرة يتحتم فيه توافر شروط أساسية وهي:

(أ) قدرته على رصد الخصائص البنيوية لهذه التراكيب
(ب) إفراده لمستوى من المستويات للتمثيل للخصائص التداولية
(ج) قدرته على صد الفروق التداولية التي تباين بين كل ضرب من هذه التراكيب المبأرة.

وهكذا، اقتُرح، في إطار النحو الوظيفي، تحليل من شأنه الاستجابة لهذه المقتضيات. وهذا التحليل يبنى على التمييز بين أنماط متعددة من البؤر ويسند لكل نوع من أنواع التراكيب المبأرة النمط البؤري الذي يلائمه[2].

وبناء عليه، فإن ما ورد في هذا الاقتراح هو التمييز بين نمطين أساسيين من البؤر، كما كان معمولا به من قبل، وهما (أ) بؤرة الجديد و(ب) بؤرة المقابلة، ومثلنا لهاتين الوظيفتين التداوليتين بالتراكيب (17– أ–ب) و (18 أ– هـ).

وبما أن هذا التقسيم غير كاف لرصد خصائص البنيات المبأرة، وذلك لوجود تباين بين التراكيب التي تهمنا في هذا البحث، بات ضروريا تفريع بؤرة المقابلة إلى أربع بؤر: بؤرة الانتقاء، وبؤرة الحصر، وبؤرة التثبيت وبؤرة القلب.

1) تسند بؤرة الانتقاء إلى المكون الحامل للمعلومة المنتقاة من بين مجموعة من المعلومات على اعتبار أنها المعلومة الواردة.

ويأخذ هذا النوع من البؤر المكون المتصدر في الجمل التي من قبيل:

(21) هندا قابل زيد (بنبر هندا)

2) وتسند بؤرة الحصر إلى المكون الحامل للمعلومة التي تحصر مجموعة من القيم في قمة (أو أكثر من قيمة) تعد القيمة الواردة. وترد هذه البؤرة في التراكيب المتضمنة لأداة حصر مثل:

(22) أ– ما يقابل زيد إلا هندا (بنبر هندا)
ب– إنما يقابل زيد هندا (بنبر هندا)

---

1 – المتوكل 1993.

2 – نفسه، ص 147.

3) وتسند بؤرة التثبيت إلى المكون الحامل للمعلومة التي يصادق المتكلم على ورودها. وتظهر هذه البؤرة في التراكيب شبه المفصولة مثل:

(23) التي يعشقها خالد هندٌ (بنبر هند)

4) وتسند بؤرة القلب إلى المكون الحامل للمعلومة التي يعوض بها المتكلم معلومة يعدها غير واردة.

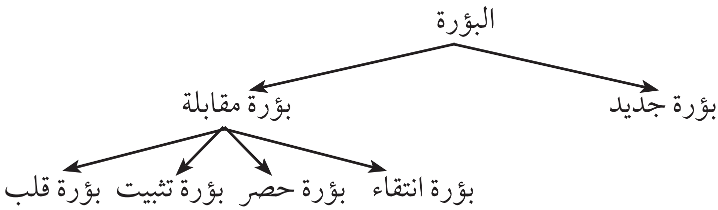
وترد هذه البؤرة في التراكيب مثل:

(24) يقابل خالد هندا لا عزة.

(25) ما عزة يقابل خالد بل هندا

ويمكن توضيح هذا التنميط المقترح لأنواع البؤر بما يلي:

(26)



إن هذه الأنماط الأربعة من البؤر ترد في تراكيب يلجأ إليها لتحقيق بعض الأغراض الأساسية التي يسعى المتكلم بواسطتها إلى دحض ما يعتقده المخاطب في مقام مخاطبي معين. وهذه التراكيب، بطبيعة الحال، تواكب المحتوى القضوي فيها قوتان إنجازيتان واحدة منهما مستلزمة حواريا يقتضيها مقام التخاطب، وهي «الجحد» الذي ينسجم مع الدحض الذي يسعى إليه المتكلم في كل واحدة من هذه البنيات.

انطلاقا من هذا الافتراض، نعتقد أن تحليل هذه البنيات المنفية استلزاميا يتم بواسطة الوظيفة التداولية «البؤرة» ولاسيما منها الأنواع الأربعة المنبثقة عن بؤرة المقابلة.

ولبلوغ هذا الهدف، نقوم برصد الخصائص البنيوية والخصائص التداولية لهذه البنيات، ثم نسعى إلى إبراز العلاقة بين الوظيفة التداولية البؤرة والنفي المستلزم انطلاقا من تحليل وظيفي للتراكيب التي تهم هذا الموضوع.

2 - بنيات منفية نفيا مستلزما: البنيات التصديرية نموذجا

نقدم فيما يلي بعض التراكيب المنفية بدون أداة نفي والتي يكون فيها النفي مستلزما حواريا يقتضيه مقام التخاطب.

ولا بد أن نشير إلى أن اللغة العربية تتضمن ظواهر لغوية تواكب الجملة الواحدة فيها قوتان إنجازيتان، تأتي القوة الأولى حرفية أو غير حرفية وتأتي القوة الثانية، وهي «الجحد» مستلزمة حواريا ناتجة عن ظروف

التخاطب، وهذه الظواهر اللغوية الموجودة في اللغة العربية هي: التصدير، والقصر، والفصل، والإضراب، والاستثناء، والاستفهام، والاستدراك، والزجر.

وتُستعمل هذه الظواهر لتحقيق بعض الأغراض الأساسية التي يسعى المتكلم بواسطتها إلى دحض ما يعتقده المخاطب في مقام تخاطبي معين.

سنتناول بالدرس الخصائص المميزة لظاهرة التصدير نموذجا. ففي مرحلة أولى، نقوم بوصف الخصائص البنيوية والخصائص التداولية، ثم، في مرحلة ثانية، نقدم تحليلا وظيفيا لهذه البنيات المبأرة المنفية استلزاميا.

1.2 – خصائص التصدير البنيوية

يشمل التصدير التراكيب ذات المحمول الفعلي مثل البنية (27) والتراكيب ذات المحمول غير الفعلي مثل البنية (28):

(27) هندا يقابل خالدٌ

(28) عمراً زيدٌ ضاربٌ غداً

وبخصوص المثال الأول، حين يتصدر أحد المكونات الموقع السابق لموقع الفعل، تكون البنية تصديرية. والأمر نفسه بالنسبة للمثال الثاني، حيث يتصدر المكون «عمرا» التركيب ذا المحمول غير الفعلي، والتصدير، كما هو معلوم، في النوعين من التراكيب عملية واحدة. لذا، سنقتصر في هذا العرض على الضرب الأول من التراكيب التصديرية.[1]

يشترط في المكون المتصدر أن:

1) يكون مكونا داخليا يشكل عنصرا من عناصر الحمل،
2) يكون محتلا لموقع داخلي، أي لموقع من المواقع المنتمية لهذا الحمل.

وعلى هذا الأساس، يختلف المكون الوارد في الجملة من قبيل 27 عن المكون المتصدر للجمل التي من قبيل 29 بالرغم من تصدر المكونين معا الجملتين.

(29) هند، يقابلها خالد

لا ينتمي المكون «هند» المتصدر في هذه الجملة إلى الحمل نفسها ، لأنه يحتل موقعا خارجيا، ولأنه ليس موضوعا من موضوعات المحمول ولا لاحقا من لواحقه.

1 – الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 250 وما بعدها.

والدليل على أن المكون «هندا» في (27) المتصدر للحمل مكون داخلي منتمي للحمل نفسه هو امتناع وروده متقدما على أداة من الأدوات التي تتصدر الجملة مثل: (30 أ- ج).

(30) أ- هندا أيقابل خالد؟
ب- هندا هل يقابل خالد؟
ج- هندا ما يقابل خالد

إذا كان هذا يمتنع في الجمل من قبيل (27)، فإنه معمول به في الجمل من قبيل (29). وهذا ما يتبين من (31 أ- ج).

(31) أ- هند، أيقابلها خالد؟
ب- هند، هل يقابلها خالد؟
ج- هند ما يقابلها خالد.

ويختلف المكون المتصدر للجملة في «التصدير» عن المكون المتصدر للجملة في تراكيب أخرى مثل تراكيب «الاشتغال». والاختلاف يُستخلص من أن المكون المتصدر في الجمل الاشتغالية يربط ضميرا داخل الحمل، في حين لا يمكن أن يتم ذلك الربط في الجمل التصديرية. نمثل للتراكيب الاشتغالية بالجملة التالية:

(32) زيدا يضربه خالد

ومن الخصائص البنيوية الأخرى التي يمتاز بها التصدير هي أن المكون المصدر يمكن أن يكون موضوعا من موضوعات الحمل كأن يكون «مستقبلا» مثل (33 أ) أو «متقبلا» مثل (33 ب)، أو أن يكون لاحقا من لواحق الموضوع كأن يكون «أداة» مثل (33 ج) أو «زمانا» مثل (33د) أو مكانا» مثل (33هـ) أو «حالا» مثل (33و).

(33) أ- هنداً أعطى خالد مقالا (بنبر هندا)
ب- مقالا أعطى خالد هندا (بنبر مقالا)
ج- بالعصا ضرب اللاعب الكرة (بنبر بالعصا)
د- مساءً اليوم يسافر سعيد إلى مكناس (بنبر مساء)
هـ- في الحديقة دخن الرجل غليونه (بنبر في الحديقة)
و- مبتسما قابل خالد عليا (بنبر مبتسما)

ويستثنى من الموضوعات الموضوع الفاعل مثل (34 أ) أو اللاحق الحامل للوظيفة الدلالية «المصاحب» أو (المفعول معه) مثل (34 ب).

(34) أ- خالد ضرب زيدا
ب- والشاطئ ركض الرياضي

وفي حالة تصدر المكون الفاعل الجملة، فإن البنية لا تكون تصديرية وإنما تكون بنية مبتدئية يتصدرها مكون خارجي «المبتدأ» [1].

ويضاف إلى هذه الخصائص البنيوية المميزة للتصدير خاصية أخرى وهي إمكان تصدير مكون واحد وامتناع تصدير أكثر من مكون واحد. وللتمثيل لهذا الشرط، نقدم الجمل التالية:

(35) أ- غدا هندا يتزوج خالد (بنبر المكونين غدا وهندا)
ب-هندا غدا يتزوج خالد (بنبر المكونين هندا وغدا)
ج- هندا غاضبا قابل خالد (بنبر هندا وغاضبا)
د- غاضبا هندا قابل خالد (بنبر غاضبا وهندا).

2.2 - خصائص التصدير التداولية

بالإضافة إلى الخصائص البنيوية المتعلقة بالبنية التصديرية، هناك مجموعة من الخصائص التداولية المميزة لهذه البنية عن غيرها من البنى المبأرة. إن الجملة التصديرية ترد في مقام تخاطبي معين يستفاد منه أن المخاطب يكون مترددا بين معلومات متعددة، فيطلب من المتكلم أن يعين له المعلومة الصحيحة. ويقابل هذا التردد عند المخاطب امتلاك المتكلم للمعلومة التي يعتقد في إمكانية ورودها، وطبيعة الحال، يمد المتكلم المخاطب بالمعلومة المطلوب تعيينها، فتصبح مثلا الجملة (36) هي الجملة (37):

(36) أزيداً يضرب خالد أم عمراً؟

(37) زيداً يضرب خالد

من المثال (36) يمكن استنتاج ما يلي:

- المخاطب متردد بين أن يكون المكون «خالد» ضاربا للمكون «زيد» أو يكون ضاربا لمكون آخر «عمرو» أو «أحمد» أو غيرهما.
- يطلب المخاطب من المتكلم أن يعين له أي الأشخاص مضروب من طرف خالد بواسطة الجملة (36)،
- يكون المتكلم في هذا المقام التخاطبي، على علم بأن المضروب هو «زيد» وليس غيره،
- يجيب المتكلم المخاطب ويمده بالمعلومة الصحيحة، وهي تتحقق في شكل الجملة (37).

والملاحظ من خلال هذه الجملة (37) أن تحقيقها يعني، بالإضافة إلى الاستنتاجات أعلاه، أن المتكلم الذي يمتلك المعلومة الواردة يمد المخاطب بهذه المعلومة ويدحض أو ينفي المعلومة الأخرى أو المعلومات الأخرى التي يتردد المخاطب في ورودها.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن البنية التصديرية تتضمن قوتين إنجازيتين، القوة الإنجازية الأولى «الإخبار» والقوة الإنجازية الثانية مستلزمة وهي «الجحد».

1 - للمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع، على الخصوص، إلى الجرجاني، دلائل الإعجاز.

ويمكن التمثيل لهذا الاقتراح بالجمل (38 أ- و) التي تعد أجوبة انتقائية للجمل (33 أ- و).

(38) أ- أهنداً أعطى خالد مقالا أم زينب؟
ب- أمقالا أعطى خالد هندا أم قلما؟
ج- أبالعصا ضرب اللاعب الكرة أم بالمضرب؟
د- أمساءَ اليوم يسافر خالد إلى مكناس أم غدا؟
هـ- أفي الحديقة دخن الرجل غليونه أم في الغرفة؟
و- أمبتسما قابل خالد عليا أم حزينا؟

وانطلاقا من إمكان تضمن البنية التصديرية لقويتن إنجازتين تكون الأولى، على العموم «إخبارا»؛ وتكون الثانية قوة إنجازية مستلزمة حواريا يقتضيها مقام التخاطب جحدا»، يمكن القول إن الجمل في (33 أ- و) هي نفسها الجمل في (39 أ- و):

(39) أ- هندا أعطى خالد المقال (وليس زينب)
ب- مقالا أعطى خالد هندا (وليس قلما)
ج- بالعصا ضرب اللاعب الكرة (وليس بالمضرب)
د- مساءً اليوم يسافر خالد إلى مكناس (وليس غدا)
ع- في الحديقة دخن الرجل غليونه (وليس في الغرفة)
و- مبتسما قابل خالد عليا (وليس حزينا)

وفي إطار الاختلاف بين البنيات «التصديرية «والبنيات «الاشتغالية»، يمكن القول إن المكون المتصدر في التراكيب الأولى مختلف عن المكون المتصدر في التراكيب الثانية (الاشتغالية) وهذا الاختلاف يكمن فيما يلي:

المكون المتصدر في التراكيب الاشتغالية يحمل معلومة يتقاسم معرفتها المتكلم والمخاطب معا، وما يشكل مجال التخاطب بينهما هو معلومة متعلقة بمكون واحد فقط وهو على سبيل المثال المكون «زيد» في البنية (32) السالفة الذكر.[1]

- مادام المخاطب يتقاسم مع المتكلم معرفة المعلومات الواردة فإنه في هذه الحالة يطلب من المتكلم أن يمده بمعلومات أخرى حول المكون «زيدا». في (32) مثلا كأن يتساءل عن علاقة «خالد» بـ«زيد» أو الشخص الذي يضربـ«زيدا».

يزود المتكلم المخاطب بالمعلومات المتساءل عنها بالنسبة للجملة (32)،يمكن أن يتساءل المخاطب بواسطة الجملتين التاليتين:

1 - المتوكل 1993، ص 120 وما يليها.

(40) أ- ماذا يربط زيداً بخالد؟
ب- من يضرب زيدا؟

في هذا العنصر من التراكيب لا يمكن أن تحمل الجملة (32) قوة إنجازية مستلزمة حواريا تدل على «الجحد» سبب ذلك أنه لا يمكن دحض معلومة يشك في صحتها المخاطب، وإنما كما سبقت الإشارة إلى ذلك يكون المخاطب والمتكلم متقاسمين معرفة المعلومة الواردة. وعلى هذا الأساس، لا يمكن أن تكون الجملة (32) هي (41) كما هو الشأن في (33 أ) و (39 أ):

(41) l زيدا يضربه خالد (وليس عمرا)

وهذا ما يفسر كذلك لحن الجملة الاستفهامية التالية:

(42) أزيداً يضربه خالد (أم عمرا)؟

نستنتج من هذا التحليل أن البنيات «التصديرية» تتضمن قوة إنجازية مستلزمة حواريا «الجحد» والبنيات الاشتغالية ليست كذلك.

3.2 – مقاربة وظيفية للبنيات التصديرية

يمكن أن نتتبع المسطرة المعتمدة في إطار النحور الوظيفي لإبراز المكون المبأر في الجملة التصديرية، وبالتالي نوضح كيف تتضمن البنية التصديرية المتضمنة لبؤرة «انتقاء» نفيا مستلزما.

لتوضيح ذلك، نمثل لتطبيق مسطرة تكوين الجمل المتضمنة لبؤرة انتقاء في النحو الوظيفي بالجملة (34 ب) التي تعتبر جوابا للجملة (43 أ):

(43) أ- أزيدا ضرب سعيد أم عمرا؟
ب- عمرا ضرب سعيد.

البنية مصدر اشتقاق الجملة (43 ب) هي البنية الحملية (44) التالية:

(44) [تد [تا [مض ضرب ف (ع1 ذ س1: سعيد (س 1)) منف

ع1 ذ س2: سعيد (س 2) متق]]]

ويتم إدماج القواعد المسؤولة عن بناء البنية الوظيفية على الشكل التالي:

القوة الإنجازية المواكبة للجملة (43 ب) هي القوة الإنجازية «الإخبار» ولذلك يتم التأشير لمخصص الحمل بالمؤشر «خب».

– تسند إلى الحد (س1) الوظيفة التركيبية الفاعل «فا» وتسند إلى الحد(س2) الوظيفة التركيبية المفعول «مف»

- وتسند إلى الحد الأول الوظيفة التداولية المحور «مح» باعتباره حاملا للمعلومة محط الحديث في الجملة.

- وتسند إلى الحد الثاني الوظيفة التداولية «بؤرة الانتقاء» لكونه حاملا للمعلومة الواردة والمقصود انتقاؤها من بين معلومتين اثنتين.

نحصل بعد إجراء هذه القواعد، على البنية الوظيفية التامة التحديد التالية:

(45) [خب [تد [تا [مض ضرب ف (ع 1 ذ س1: سعيد (س1) منف فا مح
ع 1 ذ س2: عمر (س2) متق مف بؤنق]]]

حيث: بؤنق = بؤرة انتقاء.

وتنقل البنية (45) إلى البنية (46) عن طريق إجراء قواعد صياغة المركب فنحصل على ما يلي:

(46) [خب [تد [تا [مض ضرب ف سعيد منف فا مح
رفع
عمر متق مف بؤنق]]]]
نصب

ونحصل، بعد إجراء قواعد صياغية المحمول على البنية (47)

(47) [خب [ضرب ف سعيد منف فا مح - عمر متق مف بؤنق]]
رفع نصب

ويدمج، بعد ذلك، مؤشر القوة الإنجازية فيكون ناتج ذلك البنية المكونية غير المرتبة (48).

(48) (ضرب ف (سعيد) منف فا مح (عمر) متق مف بؤنق

وتجرى على هذه البنية قاعدة الموقعة التي تتم على إثرها نقل البنية (48) إلى بنية مكونية مرتبة على النحو التالي:

- يحتل الفعل «ضرب» الموقع «ف» طبقا للقاعدة (49)؛
- ويحتل المركب الفاعل الموقع «فا» بناء على القاعدة (50) ووفقا لوظيفته التركيبية.

(49) فعل ف ←

(50) فاعل فا ←

ويحتل المركب المفعول المسندة إليه الوظيفة التداولية بؤرة الانتقاء الموقع الصدر مφ وفقا لوظيفته التداولية وتطبيقا للقاعدة (51) التالية:

(51)

[اسم؟
مح φ
بؤنق] ←

إذا طبقنا قواعد التعبير حصلنا على البنية المكونية المرتبة (52) التي تتحقق في شكل الجملة (43 ب):

(52) [عمراً ضرب سعيد]

ملحوظة

سبقت الإشارة إلى أن بؤرة المقابلة تفرع عنها أربعة أنواع من البؤر. ويظهر، من خلال المقارنة بين القاعدة الموقعية (51) والقاعدة (53)، أن المكون المبأر الذي يحتل الموقع مφ ليس هو المكون الحامل للوظيفة التداولية بؤرة المقابلة. وهذا يدل على أن الافتراض السابق الذي ينص على وجود نوعين من البؤر، بؤرة جديد وبؤرة مقابلة، افتراض لا ينسجم مع المكونات المبأرة الموجودة. وفي مقابل ذلك، يكون اللجوء إلى بؤرة الانتقاء الوسيلة المناسبة لرصد مواقع المكون المبأر رصدا ملائما في البنيات التصديرية. وناتج هذه الملحوظة تغيير القاعدة (53) بالقاعدة (51).

(53)

[اسم ؟
بؤمقا φ
مح] ←

خاتمة

انطلقنا في دراستنا للنفي والقوة الإنجازية، من القسط الوافر الذي قدمه الدرس اللغوي العربي القديم. هذا الدرس الذي ينتقده بعض المهتمين باللسانيات الحديثة، يعد استمراريا وغير منقطع، لأن النحوي العربي القديم لم يتصور تاريخ المادة التي درسها على أنه بمثابة مسار منقطع ومتناه. إن هذا النحوي لم يكن يهمه سوى التقعيد للغة وإيجاد حلول لبعض المشاكل التي تعترض طريقه كاللحن مثلا. وقد نجد في هذا الدرس، بالرغم من محدودية بعض جوانبه، انشغال اللغويين العرب، بالأساس، للوصول إلى الدرجة المثلى من الكفاية في الوصف والتقعيد، وذلك حسب الإمكانات المتوافرة لديهم آنذاك.

انطلاقا من هذه الدراسات والأبحاث، وإيمانا منا بضرورة النهل من مناهل الأسلاف من جهة، والانفتاح على النماذج اللسانية الجديدة من جهة أخرى، ولأسباب منهجية ونظرية، ارتأينا أهمية تخصيص زاوية لموضوع النفي الضمني، أو المستلزم، وعلاقته بالقوة الإنجازية في نظرية النحو الوظيفي. وهذه الزاوية تكون بمثابة حلقة تنضاف إلى مسلسل نسجه النحاة بمختلف مشاربهم وأزمنتهم وأجناسهم. وقد تمحورت هذه الدراسة حول مجموعة من النقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:

إن مقاربة ظاهرة النفي في اللغة العربية جعلتنا نميز بين النفي بأداة والنفي بدون أداة. فالنوع الأول، أي النفي بأداء تكون فيه الجملة منفية بأداة من أدوات النفي المتعددة في العربية وهي «لم» و«لما» و«لن» و«ليس» و«لا» و«ما» (ويضاف إليها أدوات قليلة الاستعمال «لات»، «إنْ»). ويقابل هذه الأدوات النافية «البسيطة» أدوات نافية «مركبة» وهي التي يكون العنصر الثاني، الملحق بَإحدى الأدوات البسيطة، عنصرا مقيدا أو تصحيحا مثل «إلا» و«بل».

والنوع الثاني: أي النفي بدون أداة، أو النفي الضمني كما يسميه جمهور النحاة، أو النفي المستلزم كما نطلق عليه في إطار النحو الوظيفي، تكون فيه الجملة منفية بالرغم من عدم وجود أداة من أدوات النفي فيها. وقد ركزنا على النفي وعلاقته بالقوة الإنجازية، والبؤرة ودلالاتها على النفي المستلزم. في هذا الإطار، حاولنا مقاربة بعض البنيات المبأرة التي لاحظنا أن النفي يكون فيها مستلزما حواريا يقتضيه مقام التخاطب، واعتمدنا ظاهرة التصدير أو البنيات التصديرية نموذجا في هذه الدراسة. وفي هذا الإطار كذلك، لاحظنا أن اللغة العربية تتضمن ظواهر لغوية تواكب الجملة الواحدة فيها قوتان إنجازيتان: تأتي القوة الأولى حرفية وتأتي القوة الثانية مستلزمة حواريا ناتجة عن ظروف التخاطب، والقوة الثانية المستلزمة في هذه البنيات المبأرة هي «الجحد». هذا الأخير يعد فعلا فرعيا لفعل الاعتراض.

ويرُوزُ هذا الافتراض الذي يصف النفي كوسيلة صرفية تركيبية تستخدمها اللغات الطبيعية للدلالة على قسط من فعل لغوي عام يمكن الاصطلاح على تسميته بفعل الاعتراض ويتضمن هذا الفعل فعلين فرعيين اثنين: فعل «الجحد» وفعل «التعويض».

قائمة الرموز المستعملة

- **المقولات**

ف = فعل **تد** = تدليل **تذ** = تذييب **مض** = مضي **حض** = حاضر **تا** = تام
غ تا = غير **تام سه** = استفهام ع = معرفة **ن** = نكرة **ذ** = مذكر **ث** = مؤنث
نف = نفي **خب** = خبر **ثب** = إثبات **زم** = زمان **مك** = مكان
متض = متموضع **حا** = حائل **سر** = مسترسل **شع** = مشروع فيه **سمر** = مستمر **قع** = منقطع

- **الوظائف التداولية**

مح = محور **بؤجد** = بؤرة جديد **بؤمق** = بؤرة مقابلة **بؤنق** = بؤرة انتقاء
بؤحص = بؤرة حصر **بؤتث** = بؤرة تثبيت **بؤقب** = بؤرة قلب

- **الوظائف الدلالية**

منف = منفذ متق = متقبل **مستق** = مستقبل **متض** = متموضع

- **الوظائف التركيبية**

فا = فاعل **مف** = مفعول

- **المواقع**

م4 = موقع المنادى **م3** = موقع الذيل **م2** = موقع المبتدأ م آ = موقع المحور
م1 = موقع الأدوات الصدور (أو المصدري) **مφ** = موقع المحور أو اسم الاستفهام أو بؤرة الانتقاء

المراجع والمصادر

أ- العربية

- ابن هشام، جمال الدين عبد الله. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. بيروت، دار الفكر، ط 6/ 1985.
- الجرجاني، عبد القاهر. مغني اللبيب دلائل الإعجاز في علم المعاني. بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1/ 1988.
- الزجاجي، أبو القاسم. حروف المعاني، تحقيق علي توفيق الحمد. بيروت، مؤسسة الرسالة/ 1986.
- العزاوي، أبو بكر. اللغة والحجاج. الدار البيضاء، الأحمدية للنشر/ 2006.
- العزاوي، أبو بكر. الخطاب والحجاج. الدار البيضاء، الأحمدية للنشر/ 2007.
- المالقي، أحمد عبد النور. رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الحراق. دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية.
- المتوكل، أحمد. الوظيفة والبنية، مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية. الرباط، منشورات عكاظ/ 1993.
- المتوكل، أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي. الرباط، دار الأمان/ 1995.
- مرزوق، محمد. التواصل الإداري، النظريات والأسس والمبادئ والتطبيقات. الرباط، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع/ 2011.

ب- الأجنبية

- Austin, J.L . 1970. Quand dire c'est faire, Paris : le Seuil.
- Azzaoui, B. 2013. Argumentation et Enonciation. Rabat: Top presse.
- Dik, S.C. 1989. The Theory of Functional Grammar, Part 1. Dordrecht: Foris
  1997. The Theory of Functional Grammar, Part 2. Berlin: Mouton de Gryuer.
- Ducrot, O. 1972. Dire et ne pas dire. Paris: Hermann.
  1973. La Preuve et le dire. Paris: Hermann.
  1980. Les Echelles Argumentatives. Paris: Minuit.
  1984. Le Dire et le dit. Paris: Minuit.
- Givon, T., 1975. Negation in Language: Pragmatics, Functions, Ontology. Stanfond working papers on Language Universals.
  1982. Tense, Aspect, Modality: The creole prototype and beyond, in Hopper ed.
- Grice, H. P. 1975. Logique et Conversation. In Communication, n° 30. Paris.
  1991. Studies in the ways of words. First Harvard University, Press paperback edition.
- Grize, J. B. 1982. De la Logique à l'Argumentation. Genève-Paris: Droz.
- Harris, Z. 1971. Structures Mathématiques du Langage. Paris: Dumond.
- Iuop, G. 1975. Some Universals for Quantifier Scope. In Kimbal.
- Lakoff, G. 1972. Linguistique et Logique Naturelle. Paris: Klinsieck.
- Searle, J.R. 1972. Les Actes du Langage, Essai de Philosophie de Langage. Paris: Hermann.

الاشتراك في ثلاثة أعداد

■ **داخل المغرب**

- اشتراك الطلبة: 130 درهما
- اشتراك الأفراد: 200 درهما
- اشتراك المؤسسات: 380 درهما

■ **خارج المغرب**

● **نُسَخ بالبريد الإلكتروني**

- للأفراد : 20 دولارا
- للمؤسسات: 30 دولارا

● **نُسخ ورقية**

- للأفراد: 40 دولارا
- للمؤسسات: 70 دولارا

الاشتراك التشجيعي: غير محدد

تؤدى مختلف الاشتراكات بواسطة:

- حوالة بريدية باسم مدير المجلة؛
- شيك، أو تحويل إلى الحساب البنكي الآتي: 2111190983380008 – البنك الشعبي، وكالة أولاد اوجيه، القنيطرة – المغرب.

المساهمون في العدد :

- حسن المودن
- سعيد جبار
- سعاد اليوسفي
- السعيد أهرو
- صبيحة جمعة
- عبد الرحمان التمارة
- عبد العالي العامري
- عابد لزرق
- مبارك حنون
- محمد بلبول
- محمد غاليم
- محمد الدرويش
- محمد عدناني
- محمد الباح
- محمد مرزوق
- امحمد الملاخ
- منذر عياشي
- مولاي أحمد العلوي
- مولاي حفيظ العلوي
- وئام المددي

البلاغة والنقد الأدبي

مجلة فصلية علمية مُحكّمة

الثمن : 38 درهما